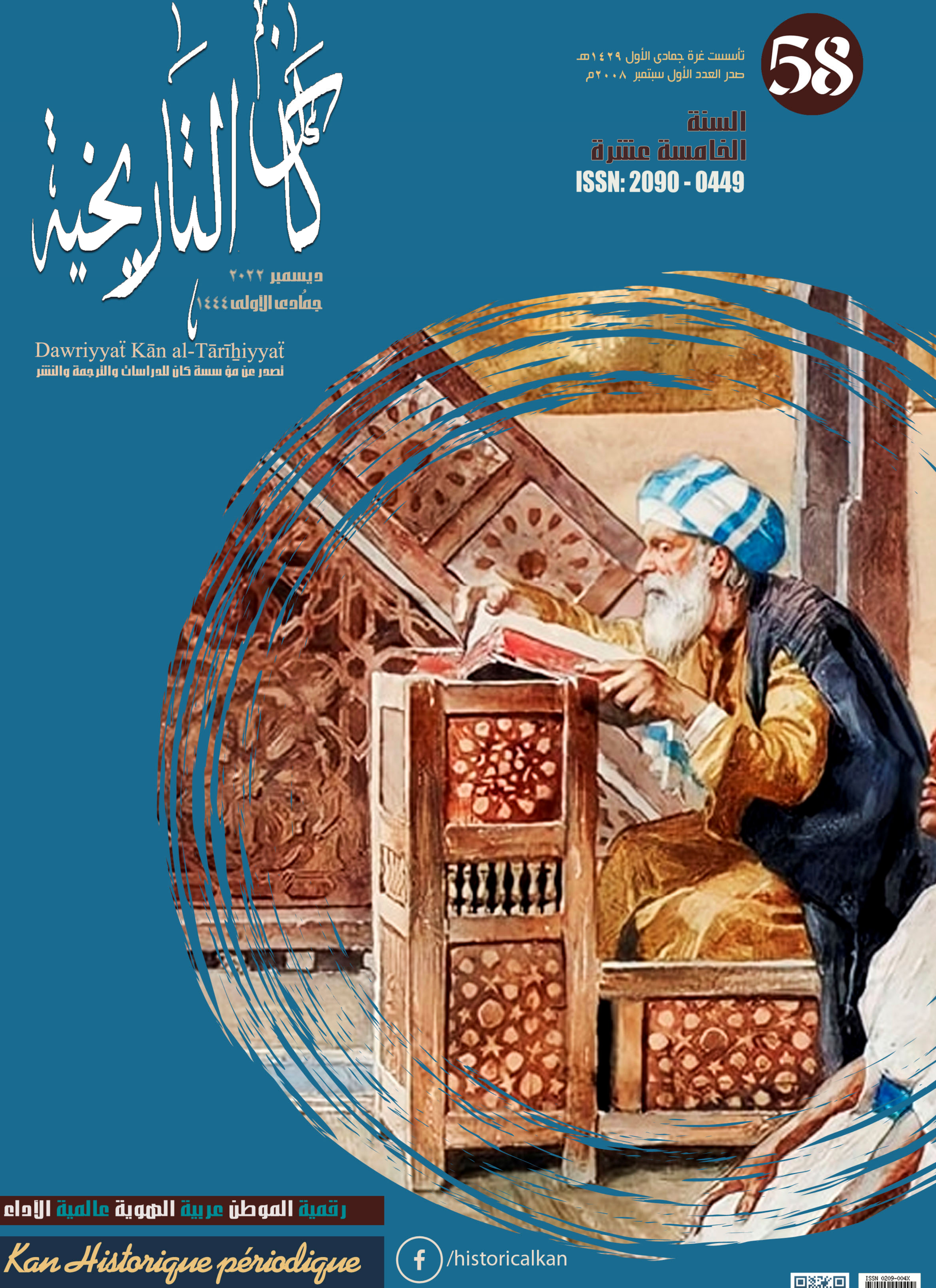


كان التاريخية

58

تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

السنة
الخامسة عشرة
ISSN: 2090 - 0449

ديسمبر ٢٠٢٢
جمادى الأولى ١٤٤٤

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

Kan Historique périodique

HTTPS://KAN.JOURNALS.EKB.EG

/historicalkan

@kanhistorique

ISSN 0209-004X
9 770209 004499



دورية كان التاريخية.- س١٥، ع٥٨ (ديسمبر ٢٠٢٢/ جمادى الأولى ١٤٤٤)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 15, no. 58 [Dec. 2022]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٢ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2022.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٢ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2022 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

- النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسئولية.
- ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعًا للحدود الدولية.
- الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذ الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسئولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.
- لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.



أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م

ISSN: 2090 – 0449 Online



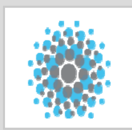
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

أ.د.	خالد بلعربي	جامعة الجيلالي اليابس	الجزائر
أ.د.	خليف مصطفى غرايبة	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د.	الطاهر جبلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إب	اليمن
أ.د.	عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د.	عبد الناصر محمد حسن يس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د.	علي حسين الشطشاط	جامعة بنغازي	ليبيا
أ.د.	محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د.	محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د.	محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د.	ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د.	نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

الهيئة العلمية

د.	أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
د.	عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
د.	غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
د.	ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د.	إبراهيم برمة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د.	زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د.	عُلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د.	فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د.	مَامُودُو كَانْ	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د.	محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

"حسب الترتيب الأبجدي

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

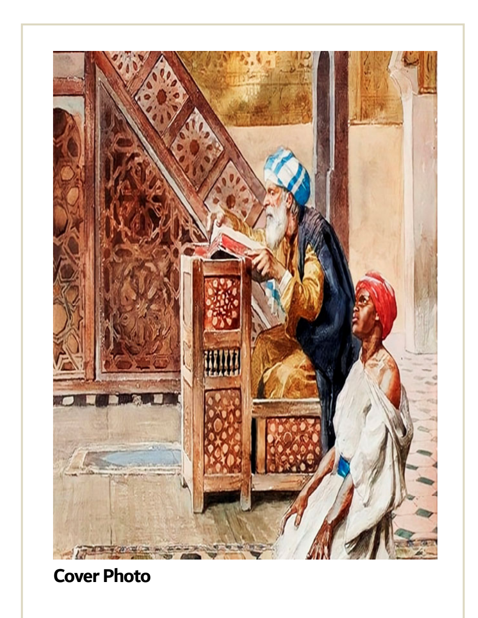
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



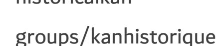
Cover Photo

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com













الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

GO GREEN – GO PAPERLESS

الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التَّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التَّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.

يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

COPE

دَّورية كان التّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكّمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التّاريْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

	الاسم	الجهة	الدولة
أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَّسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْر

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية.... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان اَلتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس- يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية **https://www.facebook.com/historicalkan**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّابُ الْعَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المظاهر البنيوية لمواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة/ الإيبي باليوليتية في جنوب غرب ليبيا خلال الهولوسين المبكر



أحمد سالم الضبع
أستاذ مساعد – قسم الآثار
كلية الآداب – جامعة بني وليد
دولة ليبيا

مُلَخّص

يستخدم مصطلح الأكاكوس المبكرة/ الإيبي باليوليتي في هذا العمل في إشارة إلى طور ثقافي يحمل في جرابه: مضمون اقتصادي، وتواتر تطوري، وعناصر كرنولوجية، ويُعَدّ بمثابة استمرارية ثقافية جلبت معها العديد من السمات على المحتوى الاستراتيجرافي، والتيبولوجي، والموروفولوجي. في هذا الفضاء الجيوثقافي عاش الصيادون-الجامعون وصائدي الأسماء الهولوسيين المبكرين في كهوف وان أفودا ووان تابو وتين طرة، ومساك ستافت، ووادي تنزوفت، وعرق وان كاسا، وأدهان مرزق... وغيرها من المواقع في السلاسل الجبلية داخل الصحراء الوسطى. متبعين تنظيم مكاني مع حركية لوجستية عالية (جبلية وفي أحواض البحيرات)، واقتصاد استحوانذي متخصص على مدى ضيق من الموارد النباتية مع التشديد على قنص الخراف البربرية من نوع أموتراجوس ليرفيا. على كل، كانت المظاهر البنيوية تتكون من هياكل حجرية، ومواقد، وصناعة رقائق على حجر رملي، مع استخدام أطقم أدوات ميكروليتية من الكوارتز والكوارتزيت، في حين كان الفخار نادرًا للغاية. وقد أتضح لنا من خلال هذه الدراسة إن طور الأكاكوس المبكر للطور تميز باقتصاد اصطفائي، وحركية عالية داخل السلسلة الجبلية وفي خارجها، ومجاميع تقنية محددة، وحدود زمنية بين ١٠,٠٠٠ و٨,٨٠٠ سنة مضت. وتعرفنا كذلك على وجود نقاط تشابه إقليمية بين مواقع وان أفودا، وتين طرة، وأنظمة الإعاشة المتصلة بها، وتواتراتها التطورية والتقنية مع المواقع المسجلة في الاير-تنتيري النيجر، درجة التشابه هذه، تسمح لنا بوضعها في جراب ثقافي واحد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ أكتوبر ٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر: ١١ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الأكاكوسية المبكرة؛ الإيبي باليوليتية؛ المورفولوجيا؛ الهولوسين المبكر؛ استراتيجرافية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.309214 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد سالم الضبع. "المظاهر البنيوية لمواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة/ الإيبي باليوليتية في جنوب غرب ليبيا خلال الهولوسين المبكر".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٤ – ٣١.

Corresponding author: aadaba77@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

يرتبط استخدم مصطلح الاكاكوس المبكر/الإيبي باليوليتي في الدراسات المتصلة بمرحلة ما قبل تاريخ الصحراء الوسطي بما في ذلك سلسلة جبال تادرارت أكاكوس بالأساس بالتعريف بالصيادين-الجامعين، وصائدي الأسماك الذين استقروا في تادرارت أكاكوس والمنطقة المحيطة في البليستوسين المتأخر والهولوسين المبكر، واستغلوا طيف ضيق من الموارد النباتية، مع التركيز على الموارد الحيوانية. وفوق هذا، وظف هذا المصطلح -مثله مثل مصطلح الثقافات الحجرية المائية- كأدوات فنية ومصطلحية للتعبير عن التواتر الثقافي لعلم أثار ما قبل الرعاوة، وهو الفرع المعرفي الذي أستخدم لتصنيف وتفسير بينات الهولوسين المبكر، واقتصادياتها الاستحواذية السابقة لطور الاقتصاد الرعوي، وهي بينات ثقافية ذات مضمون اقتصادي-اجتماعي، ومؤشرات استراتيجرافية، وتواتر تطوري، ومواد صنعية، ورسوم صخرية، وعناصر كرونولوجية/زمنية مختلفة.

بداية نقول، إن استخدام تسمية ما قبل الرعاوة، كمصطلح فني معترف به، له أطاره التقني، ووظيفته المعلوماتية، جاء بعد معركة قادها المتخصصون في الدراسات الإفريقية ضد أستخدام المصطلحات الآثرية المشتقة من السجلات الأوروبية والشرق أوسطية مثل: الباليوليتي، والميزوليتي، والنيوليتي، وهي مصطلحات شاع استخدامها في تفسير الآفاق الثقافية للهولوسين في شمال أفريقيا، والتغيرات التي طرأت عليها.[١] فعلى سبيل المثال... يستخدم كل من الفخار و/أو حجارة الطحن كدليل متحجر على الاقتصاد النيوليتي المعتمد على إنتاج الطعام، على كل، وجود الفخار في المواقع ما قبل الرعاوية في الأكاكوس يعطي صورة معكوسة للرؤية النمطية السائدة والتي تقول بأن كل موقع يحتوي على الفخار هو موقع نيوليتي، حقيقة، نحن هنا، في صدد دراسة جوانب حياة مجتمعات لا تزال تعيش في الأزمنة الباليوليتية. فوق ذلك، وجود الفخار لا يعني بأي شكل من الأشكال، حدوث تغييرات عميقة في البنية الأثارية، وفي محتوياتها كالتي شهدتها الجماعات النيوليتية ذات التعقد الثقافي المنتجة للطعام.

في واقع الأمر، ومن ناحية منهجية لم يفضِ استخدام تلكم المصطلحات إلى تقديم نماذج تفسيرية نموذجية شمولية للثقافات الصحراوية في الهولوسين، وبالتالي، لا يمكن تفسير المحتوى الثقافي لشمال أفريقيا من واقع تلك المعطيات المتوفرة في السجل التاريخي-الأثاري الأوروبي والشرق أوسطي. لذلك، وللتأكيد على استقلالية المسارات الثقافية التي تميز ما قبل تاريخ أفريقيا بصورة عامة، ومنطقة دراستنا بصفة خاصة، تم التعرف في أفق ما قبل الرعاوة على ثقافتين مختلفتين من حيث المحتوي البيئي، والتواتر الاسترتيجرافي، والاستراتيجية الاقتصادية، سميتا "ايبي باليوليتية"، "وميزوليتية"، تم جرت إعادة تسميتهما لاحقًا بالأكاكوس المبكر، والأكاكوس المتأخر وذلك لغرض الابتعاد، وتفادي الارتباطات مع المصطلحات البحر أبيضية المتوسطية.

المجال المكاني للورقة هو سلسلة تادرارت أكاكوس في الصحراء الوسطى، التي تقع في اقليم فزان في جنوب غرب ليبيا، في حدود الإحداثيات ٢٤° ٠َ شمال - ١٠° ٢٠ شرق - ٢٦° ٠َ شمال - ١١° ٢٠ شرق. وتتكون من سلسلة جبلية من الحجر الرملي، تخترقها العديد من الوديان التي تجري من الغرب إلى الشرق، ويحدها منحدر حاد من الغرب، وتوجد بها العديد من الكهوف والسقائف الصخرية، والتي شكلت في مجملها مستويات إقامة نموذجية بالنسبة للإنسان من بداية البليستوسين المتأخر، وهي تحتوي على تراكمات كثيفة من الترسبات العضوية النباتية والحيوانية والأدوات الصنعية. أما المجال الكرونولوجي فيشمل طور الأكاكوس المبكر، الذي يمتد بين ١٠,٠٠٠ و٨,٨٠٠ سنة مضت.

ضمن هذا الإطار، تهدف هذه الورقة إلى عرض، وتحليل، وتفسير المظاهر البنيوية لمواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة والتي شغلها الصيادون-الجامعون ذوي التقاليد الايبي باليوليتية المستخدمين للفخار في كهوف وان أفودا، ووان تابو، وتين طرة... وغيرها من المواقع في ذات السلسلة، أو من سلاسل الصحراء الأخرى المجاورة. معتمدين على مقاربة/ منهجية تتكامل فيها العلوم الطبيعية المختلفة، حيث يتم توظيف المعلومات/ المعطيات التي توفرها علوم التاريخ، والأثار، الإيكولوجيا القديمة-والجيومورفوالوجيا، والأركوزولوجيا، والبيدولوجيا... وغيرها. الأسئلة الرئيسة حول الكيفية التي تمكنت بها جماعات الصيادين-الجامعين من الإقامة مجددًا في المنطقة بعد الفجوة الزمنية التي سببها المناخ الجاف التي ميز البليستوسين المتأخر تم وضع إجابات لها من خلال تتبع التغير في الإطار الكرونولوجي، والمحتوى الاستراتيجرافي. تقدم هذه الورقة أيضًا عرضًا للموضوعات ذات الصلة بالعلاقة بين الخصائص الجيومورفولوجية، والتنظيم المكاني ونمط الحركة المرتبط به داخل المنطقة أو خارجها، كما تناقش أيضًا مظاهر

السلوك التكيفي والاستراتيجيات الاقتصادية المتصلة به، وكذلك التنوع في المواد الصنعية المختلفة.

وفقًا لذلك، قسمت هذه الورقة إلى ثلاث محاور: في المحور الأول نقدم عرضًا للتواتر الكرونولوجي للمواقع السكنية داخل السلسلة الجبلية وخارجها، وفي المحور الثاني نناقش المواضيع المتصلة بمفهوم التنظيم المكاني ونمط الإقامة المرتبط به، والتقنيات المستخدمة. بينما نسلط في المحور الثالث الضوء على الاستراتيجية الاقتصادية التي اتبعها الصيادون-الجامعون والتي اعتمدت على اقتصاد استحواذي متخصص على مدى ضيق من الموارد النباتية، مع التشديد على صيد الخراف البربرية من نوع أموتراجوس ليرفيا.

أولاً: التواتر الكرونولوجي

بدأت الدراسات الميدانية، وأعمال الاستكشاف الأثري لمواقع ما قبل التاريخ في الصحراء الليبية في حقبة الخمسينيات من القرن المنصرم، حيث جاء التوثيق الآثاري الأول للثقافات ما قبل الرعوية في الأكاكوس من أعمال التنقيب التي نفذها باسا في موقع فوزيجارن، حيث تمكن من رصد تاريخان راديوكاربونيان الأول مؤرخ في 100±8100 من تاريخ اليوم، والثاني في حوالي ٧٩٠٠ سنة مضت. تزامن ذلك، مع قيام موري، وبعثته في سلسلة الأكاكوس، وتحديدًا في وادي تشوينت بعملية توثيق، وتصنيف مركب الفن الصخري، وتفسير محتوياته. موري بقدر ما كان بارعا في تفسير المحتوى الثقافي للفن الصخري، والرؤية الكسمولوجية والأفكار القابعة في داخله [٢]، كان بارعا أيضا في وضع مخطط تفصيلي ضم خمسة أطوار للفن الصخري، وذلك انطلاقًا من تتبع الاختلافات في الأسلوب، وفي التقنيات المستخدمة، وفي الموضوع المعبر عنه، وكذا في ارتباطه بالبيئة والبينة الأثارية والتاريخية، والذي أصبح فيما بعد، أساسًا لمراحل وتواترات كرونولوجية مختلفة [٣].

صحيح أن موري قد أسهم في توسيع معرفتنا بمواضيع الفن الصخري، وعناصره ومفاهيمه المختلفة، ولكن، ولسوء الحظ، ظلت هناك فجوة معرفية بين فهم الاقامة البشرية وتواترتها، وعلاقتها بالفن الصخري. لهذا، ومع بداية السبعينيات من القرن الماضي طور معهد الباليوأثنولوجيا في جامعة روما مشروعا بحثيًا -ذو نزعة أنثربولوجية قوية-، هدف إلى معالجة تلك المسألة، وإعادة تركيب المحتويات الإستراتيجرافية للهولوسين في سلسلة الأكاكوس، والمنطقة المحيطة، واقتصادياتها المختلفة الأستحواذية منها والانتاجية، والتقنيات المستخدمة. هذه المنهجية تجلت في حقبة الثمانيات، حيث بدأ البحث في سلسة الأكاكوس والمناطق المحيطة يأخد منحى أخر، وأصبحت نماذج البحث تُبنى على تناول مغاير يشتمل على استقصاءات تعتمد على تكامل العلوم الطبيعية المختلفة، تم إعادة النظر في الدينامية الثقافية والسلوكيات الإنسانية من حيث ارتباطها بالظروف المناخية والبيئية، وبالمنظر الطبيعي الحيواني والنباتي، وبأحداث الترسيب وما بعد الترسيب، ومن تم، العمل على إعادة بناء وتركيب الاستراتيجيات الاعاشية، وتحليلها من ثم وفق مصطلحات النماذج الاثنوأنثروبولوجية.

وقدم الباحثون في هذا المجال معلومات رائعة على شكل وصف تفصيلي للطبقات الأثرية، وأثمرت جهودهم كذلك، على ربط التواترات في البينة الأثارية، والتاريخية مع المعطيات التيبولوجية، والإستراتيجرافية بكرونولوجيا مطلقة، (وبكل تأكيد فإن التواريخ المطلقة المعطاة معمليًا تمثل أبعاد إحصائية، بحيث أنها تمثل تأريخ خام يعطى بعد كرونولوجي يعبر عنه في أشارة ± من السنوات). وللوصول إلى ذلك استخدموا طرق/تقنيات مختلفة مثل: تقنية الكاربون ١٤ (C^{14})، وتقنية الوميض الحراري (TL)، وتقنية التألق المُحَفْز بصريا ويعرف كذلك بالتألق المستحث ضوئيًا (OSL) [٤]، بالتالي، تم تقسيم الأفق الثقافي في سلسلة الأكاكوس إلى ثلاث كتل ثقافية متمايزة، وهي، الإقامة البليسوسينية المتأخرة بتقنياتها العاترية، وأفق ما قبل الرعاوة الذي أفرز وحدتين مختلفتين هما الأكاكوس المبكر، والأكاكوس المتأخر، أما في داخل إطار الأفق الرعوي يمكن تحديد ثلاثة أطوار، مبكر، ووسيط، ومتأخر.

عليه، وبناءً على النتائج التي تم اقتناؤها من هذه التقنيات، تم تحديد المدى الكرونولوجي للمواقع الأكاكوسية المبكرة/الايي باليوليتية في الأكاكوس ما بين ١٠٠٠٠ حتى ٨٨٠٠ سنة مضت. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان السجل الأثاري في سلسلة الأكاكوس في المرحلة السابقة للطور الرعوي (أي في البليستوسين المتأخر/ الهولوسين المبكر) موجود في سياق كرنولوجي- تطوري متصل مُثْبَت، أم أنه كان يعاني من فجوات زمنية بين مراحله المختلفة؟ حقيقية، يؤكد بعض الباحثين وجود فجوة طويلة عمقها حوالي متر من الرمال الأيولية المعقمة، وجدت بين الإقامة البليستوسينية المتأخرة التي شغلتها جماعات الصيادين–الجامعين، وصيادي الأسماك المسلحين بتقنيات عاترية، وبين الإقامة الهولوسينية المبكرة/الايي باليوليتية [٥]. لسوء الحظ لايزل أمر عدم الاستمرارية هذه محل جدل، وهذا لايمنع بأن بعض من

العلماء قد ربطوا سبب هذه الفجوة بالجفاف الذي ضرب المنطقة في البليستوسين المتأخر [٦].

على كل، فتواريخ الإقامة العاترية في سلسلة الأكاكوس تمتد في وان أفودا، ووان تابو من ٩٠,٠٠٠ حتى ٦٩,٠٠٠ سنة مضت [٧]، كما كشف في عرق وان كاسا، وادهان مرزق، ومساك تسافت على تقنيات أشولية، وليفالوزية موستيرية، وعاترية [٨]. وكلها تحتل المدى الكرنولوجي الممتد من الباليوليتي الأوسط، حتى الباليوليتي الأعلى. مواد صنعية مشابهة في مورفولوجيتها كشف عنها في منطقة ما قبل الصحراء التريبوليتانية حيث كشفت التحريات عن وجود تواتر للمواد العاترية التي تنتمي للعصر الجليدي المتأخر [٩]. في حين إن المادة المسجلة في كهف هوى أفطيح فتبدوا أكثر تمايزا، فقد شكلت ستراتيجرافية هوا أفطيح حالة فريدة من نوعها، إذا تمكن ماك بيرني بفضل المجسات العميقة من التعرف على تواتر تفصيلي للبينات الممتدة من فترة البالوليثي الأوسط حتى فترة النيوليثي، وفوق ذلك، كشف في هوا أفطيح عن أكثر تعاقب مكتمل لصناعات البليستوسين الأعلى معروف في أي جزء من شمال أفريقيا [١٠]. إلى الشرق من ذلك، في وادي النيل والصحراء الشرقية في بئر طرفاوي، وبئر صحراء فتمتد كرنولوجية المواد العاترية إلى الوراء من ذلك إلى نحو ١٦٠,٠٠٠ سنة مضت، وفي ادرار بوس في النيجر إلى ما وراء نحو ١٠٠,٠٠٠ سنة مضت [١١].

في الواقع، عادة ما يتم ربط تفسير المحتوى الثقافي للصناعات العاترية في شمال أفريقيا بعنصرين رئيسين، ظلا مترابطين ومتلازمين في كل زمان ومكان، أولهما هو التغيرات المناخية [١٢]، وفق قاعدة إن كل فترة رطبة/ممطرة = استقرار بشري، وهذه الفرضية ليست سليمة على الدوام، فالدراسات تؤكد أن سلاسل جبال الصحراء الوسطى كانت مناطق جاذبة للاستقرار البشري حتى في الأطوار الأكثر جفافا، وثانيهما يتعلق بموضوع انتشار الإنسان العاقل، والسلوك الحديث المرتبط به في المنطقة [13]. في هذه الحالة، دعونا نتذكر، بأنه وعلى الرغم من وجود فجوات/ثغرات في السجل الأثري، إلا أننا لا يمكن أن ننظر إليه على اعتباره مثل الواقع الافتراضي المليء بالاحتمالات، والذي كثيرا ما يقودنا إلى نهايات مسدودة، بل هو عبارة عن خيط/حبل رفيع ممتد، يقود -لا محالة- إلى مراحل ثقافية/تطورية لاحقة، تكون مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض. على سبيل المثال... وبعد تحسن الظروف المناخية في الهولوسين المبكر، عاد الصيادون الجامعون للاستقرار في السلسلة والمنطقة المحيطة. حيث تم تنقيح تواتر كرنولوجي مطلق للأكاكوس المبكر في وان أفودا من 9800±260 حتى 8900±260 سنة مضت [١٤]، وللأكاكوس المتأخر من 100± 8765 حتى ٨٠٠٠ سنة مضت [١٥].

أما بالنسبة لوان تابو فقد تم توثيق تاريخ راديوكاربوني ١٤ بداية من 9810±75 سنة مضت حتى 8880±100 سنة مضت [١٦]، حيث تم التعرف على نمط اعاشة اقتصادية، ومود صنعية، وتواتر تطوري، يختلف على ذلك الذي تم تسجيله في ترسيب الإقامة في الأكاكوس المتأخر، والذي يبدوا وأنه يعاني من تأكل جزئي في بعض من محتوياته، ويمتد هذا الأفق (أي الأكاكوس المتأخر) من8870±100 إلى 8580±80 سنة مضت [١٧].

كما قادت أعمال التنقيب التي أجرتها باريش وفريقها في الأكاكوس الشمالي في عام ١٩٧٨ م إلى سبر المزيد من أغوار الإقامات الأكاكوسية المبكرة/الايبي باليوليتية مع تجارب أولى لإستخدام الفخار، في وادي عويس بخاصة في موقع تين طرة [18]، موفرة بالتالي تواريخ راديوكاربونية متميزة لموقع تين طرة، ففي تين طرة/الكهفان تم تثبيت كرنولوجية في المستوى (R-1402) 9630±110 سنة مضت [19]، وكرنولوجية أخرى في المستوى (R-1405) 9110±60 سنة مضت [20]، أما في تين طره شرق فتم تبني كرونولوجية مطلقة في حدود 9080±70 سنة مضت [21].

ومن باب المقارنة تبدوا تواريخ الأقامة الايبي باليوليتية في الإير-تنيري النيجر متقاربة للغاية مع وان أفودا، وتين طرة، حيث تم تسجيل تواريخ مطلقة لتيمت 9550±100 سنة مضت [22]، وتامايا ملت 9350±170 سنة مضت، وتاجلاجل 9370±130 سنة مضت، وأدرار بوس 9130±65 [23]. أما في موقع رافين دي لاموش في وادي أونجوجو في مالي فتمتلك المدى الأقدم من التواريخ، هناك عدة تواريخ أحدها مستحت ضوئيا ما بين 9800±1000، وتاريخان كاربونيان ١٤ 9785±97 وآخر في حدود 9550±100 [24]. وفي بئر كسيبا في مصر فالتواريخ تبدوا متطابقة مع تلك التي سجلت في موقع رافين دي لاموش، ثمة تأريخ كاربوني ١٤ في حدود 9820±380، لكن مع تركيز على 9440±230 إلى 8920±130 [25].

إذن، ومن خلال ما تم عرضه من معلومات، تبدو التواريخ المطلقة من ناحية المبدأ كافية، لتمكيننا من إعطاء تحديد دقيق عما إذا كانت تترجم تراكم التغيرات الإرتقائية المتواصلة في محتويات الأكاكوس المبكر واقتصادياته الاستحواذية المعتمدة على الجمع والالتقاط. أو أنها، من جانب آخر، تترجم (لحد ما) تواتر تطوري قاد إلى ظهور الإقامة الأكاكوسية

المتأخرة المتميزة بتقنياتها الميزوليتية. هذا، وضمن تأويلات عديدة، فإن الفكرة العامة حول التطور (أيًا كان شكله)، وأبعاده/مراحله، وأهدافه، يجعله مصطلحًا مطاطًا/مرنًا، بحيث يمكن أن يصير، بشكل ما، عنصر من عملية حتمية ممتدة، ومتدرجة من التقدم والتحسين على المستوى السلوكي، والثقافي. مع ذلك، وضمن حالات أخرى، يمكنه أن يصبح جزء من عملية بيولوجية/جينية، تعمل على تعزيز أو حذف التغيرات و/أو الإمكانيات عندما تظهر، وقد تكون هذه الإمكانيات مواتية أو غير مواتية. فوق ذلك، نحن تعرفنا أيضًا، أنه ليس هناك ثمة شيء موجه بشكل حتمي ولا فطري في عملية التطور، والتي يمكنها أن تعكس نفسها بكل خفة، وسرعة في أي وقت تتغير فيه البيئة بطبيعتها المتقلبة.

ومن دون أدنى شك، يمكن التأكيد على أن التواتر الكرونولوجي يختزل المكان–الزمان، والطاقة، والكتلة الحيوية، فالمواقع السكنية التي تم الكشف عنها تقع في بيئات ذات خصائص فيزيائية ملائمة، وهي مجموعات الجبل، ومجموعات السهل والعروق، تمت الإقامة فيها -بصفة دورية على الأقل وربما بصفة مستمرة- على مدى فترة زمنية طويلة. المواد الصنعية المكتشفة، والهياكل الحجرية تبدو وكأنها تقدم رؤية مكملة للتواتر الكرنولوجي، على سبيل المثال، مكنت عمليات المسح الجيومورفولوجي، مع التحليل البنيوي للتواتر الاستراتيجرافي، والتيبولوجي من التعرف على تنظيمات مكانية، مع نمط إقامة متميز في البيئات المختلفة.

ثانيًا: التنظيم المكاني ونمط الإقامة المصاحب له

من ناحية بنيوية، عادة ما يعبر التنظيم المكاني لمجموعات الصيادين–الجامعين في سلسلة الأكاكوس، والمنطقة المحيطة في الهولوسين المبكر عن نفسه بمجموعة من البينات: مناطق المعيشة، وهياكل حجرية، ورسوم صخرية، ومواد صنعية... وما إلى ذلك. وهي كلها تقدم مفاتيح لفهم الثقافة البشرية، وتوفر سجلاً مدهشًا يشير إلى الكثير من التنوعات، والتشابهات، والاختلافات بين الثقافات الصحراوية ما قبل التاريخية المختلفة من ناحية الكم والكيف، ومن ناحية الاستراتيجية الاقتصادية، هناك على كلٍ، تنوع يشير إلى أنماط متشابهة للتطور، أو تكيفات إقليمية متشابهة.

ومن وجهة نظر جيومورفولوجية، كانت مواقع الإقامة في الأكاكوس المبكرة موزعة على بيئات مختلفة، في الجبل، أي في السقائف الصخرية، وكذا في المناطق المحيطة بها في العروق، والبحيرات والمناطق الكثبانية، مثل عرق وان كاسا، وأدهان مرزق، وهضبة مساك ستافيت [26]. يمكن ملاحظة أن المواقع الموجودة في الجبل كانت هي الأكبر حجمًا، والأكثر سمكًا في محتوياتها الترسبية، والعضوية، مقارنة بمواقع العروق، والبحيرات، والكثبان والتي تميزت بكونها صغيرة الحجم، وأحادية النشاط؛ والأقل سمكًا، تتكون من تجمعات على شاكلة معسكرات/مخيمات، مع وظائف متخصصة [٢٧].

وبشكل عام، فالبينات الدالة على التنظيم المكاني في الأكاكوس المبكر تبدو محدودة للغاية، وصغيرة جدًا، وأقل تعقيدًا في شكلها، ومحتوياتها الطباقية، مقارنة مع تلك التي ظهرت في الأكاكوس المتأخر (الشكل:١). حيث اشتملت على القليل من المواقد الحجرية غير المشكلة، وصفوف حجرية متصلة أستخدمت احتمالاً كمصدات للرياح، ومواد صنعية ضمت أدوات حجرية مثل المدببات، والشفرات، وأدوات هلالية الشكل، ومثاقب مع القليل من المقاشط، صنعت كلها من مواد خام محلية مع التركيز على حجر الكوارتز، والكوراتيزيت [٢٨]، اللذين تم جلبهما مع الخشب المتحجر، والجبس من عرق وان كاسا، ومساك تسافت [٢٩]، كانت حجارة الكوارتز، والحجر الرملي هي الأكثر استخدامًا في صناعة الأدوات في وان أفودا في طور الأكاكوس المبكر [٣٠]، بينما كانت الأدوات المصنوعة من الحجر الرملي تشكل ما نسبته حوالي ٧٣% في تواتر وان تابو التقني [٣١]. قائمة المواد الصنعية اشتملت أيضا على مجموعات قليلة من الأدوات الخشبية، والعظمية [٣٢].

وفي السياق ذاته، تم التعرف على مصدات رياح مؤرخة في حوالي 105±9765 سنة مضت في موقع وان أفودا [٣٣] (الشكل:2)، وهي في شكلها العام عبارة عن هياكل حجرية بارزة، يعتقد بأن الصيادون الجامعون قد استخدموها لفترات قصيرة، أو قصيرة جدًا، ربما لأيام أو أسابيع قبل أن يكف العمل بها [٣٤]. إلى جانب ذلك، كشفت التحريات على وجود موقد على شكل نصف كروي بعرض حوالي ٢٥ سم مؤرخ في حوالي 290±9260 سنة مضت [٣٥] (الشكل:3). اللافت للانتباه هو وجود مواقد أخري مشابهة في شكلها، وفي حجمها ضمن المحتويات الترسبية في وان تابو، حيث كشف عن موقدين في ترسبات الوحدة الثالثة كانا مؤلفين من عدد من الحجارة الكبيرة والمتباعدة، أشارت التحليلات المخبرية إلى وجود كميات كثيفة من الفحم ضمن قاعدة الترسيب الخاصة بتلك المواقد، والتي ضمت الفحم، وعظام الحيوانات، وأدوات الحجرية [٣٦].

الأفق الثقافي (ما قبل الرعاوة في الأكاكوس)		
	الأكاكوس المبكر/الايي باليوليتي	الأكاكوس المتأخر/الميزوليتي
التواريخ الراديوكاربونية المشعة [١٤]	حوالي ٩٧٦٠-٨٨٠٠ سنة مضت	حوالي ٨٨٠٠-٧٤٠٠ سنة مضت
الاقتصاد	اقتصاد استحواذي متخصص (مدى ضيق)	اقتصاد استحواذي متنوع (مدى متسع)
نمط الإقامة	تنظيم لوجستي (جبلية وفي أحواض البحيرات)	تنظيم مكاني شبه مستقر (بيئة جبلية)
الحركية	حركية لوجستية	حركية مع شبه استقرار
المواد الصنعية والصناعات الحجرية	صناعة رقائق على حجر رملي: أطقم أدوات ميكروليتية من (الكوارتز والكوارتزيت).	سلال وحجارة طحن، مع أدوات حجرية منسلة من الرقائق الكبيرة من الحجر الجيري.
الفخار	نادر للغاية	فخار مزخرف بالضغط بالمهزة
المناخ	من الرطوبة إلى ظروف أشد جفافًا	جفاف متزايد

(الشكل:١)
السمات الأساسية للمجموعتين
ما قبل الرعويتين في سلسلة جبال الأكاكوس.

(الشكل:2) هيكل حجري يبلغ ارتفاعه ٥ أمتار ينتمي إلى مرحلة الإقامة الآكاكوسية المبكرة/الايي باليوليتية مؤرخ في 9765±105 سنة مضت، تم تفسيره وظيفيًا على أنه مصدات للرياح، أو حافة جانبية لكوخ. عن: Lernia, Savino di (1999b). Op. Cit. p.64 .



(الشكل:3) الموقد النموذجي لمرحلة الإقامة الآكاكوسية المبكرة/الايي باليوليتية، يتكون من قعر ضحل محفور مباشرة في الرمال، وشظايا فحم سنتيمترية ذات صبغة ضعيفة. عن: Lernia, Savino (1999b). Op. Cit. p.65 .

وجود الفحم وبقايا حيوانية، يشيران بدون شك إلى أن المواقد قد استخدمت أساسًا لأجل معالجة المواد النباتية والحيوانية، لغرض زيادة إنتاجيتها وقابلية هضمها، وبالتالي الاستفادة من كامل محتواها الغذائي. ولكن وجود الأدوات الحجرية، يدفعني إلى تبني منطقًا وتفسير وظيفي آخر للمواقد، وهو أنها قد أستخدمت في صناعة الأدوات الحجرية، فمن المعروف تأريخيًا، إن استخدام طريقة تقنية الضرب بالضغط [٣٧]، تزامن مع استخدام تقنية المعالجة الحرارية للحجارة، فالمعالجة الحرارية أدت إلى تحسين تكنيك الصناعة حيث أتاحت للإنسان الوصول إلى درجة تحكم عالية في الشكل النهائي للأداة، خاصة أدوات الصيد [٣٨].

أما في موقع تين طرة/الكهفان، تماما مثلما هو الحال بالنسبة لتين طرة شرق خاصة في المستوى (R-1036)، فقد قدمت سماكة الترسيب، وديناميات ما بعد الترسيب، والهياكل الحجرية، معلومات حول التنظيم المكاني، وبشكل أكبر على وجود استمرارية في الإقامة داخل السقيفتين الحجريتين[٣٩]. تم التعرف على أكواخ في الفضاء السكني في تين طرة شرق، وجدت كلها في أسفل الوادي، تزامن انتشارها مع ارتفاع في معدلات الرطوبة في الهولوسين المبكر، والتي مكنت الناس من استغلال مصادر المياه المتوفرة [٤٠]. وفي الوقت الذي يشير فيه تراكم المواد الخام والتقنيات، وترسيب مواد عضوية حيوانية، وأطياف اللقحات إلى وجود نزعة نحو الاستمرارية، والاستقرار داخل الأفق الثقافي تين طرة بسقائفه الثلاثة. كانت الهياكل الحجرية، وكما يدل حجمها، قد استخدمت لأغراض مختلفة، كوسيلة للدفاع، وكمصدات للرياح وكذلك للحماية من الأمطار، وكذا لتقسيم الفضاء/المساحة بين سكان الكهف، ومن المفترض أن السكان قد تناوبوا على استخدام السقيفتين خلال المواسم المختلفة[٤١]. هنا، أعتقد بأن باربارا باريش كانت محقة عندما وصفت موقع تين طرة بالقرية الصغيرة، وذلك لاحتوائها على بيوت أولية صنعت من الكتل الحجرية المحلية [٤٢].

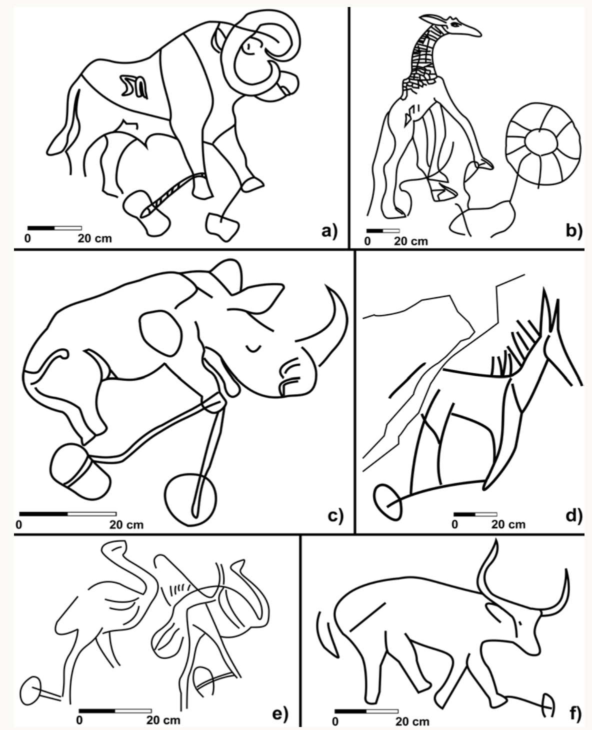
إلى جانب ذلك فقد وفر موقع تين طرة على المنحدر الشرقي للأكاكوس، مميزات خاصة حفزت وشجعت على الإقامة البشرية: نمط تصريف أفضل، ومياه جوفية غير عميقة، ومعابر إلى المنحدر الغربي. وفي هذا السياق يحاجج ماركولونجو بأن تلك الحزم من المياه الجوفية كانت قد تراكمت خلال الأطوار الرطبة الغنية، وتم تخزينها على مدى مراحل زمنية طويلة، وجرى استهلاكها ببطء، لصالح العالمين النباتي والحيواني [43]. هذا النتيجة تؤكدها أيضًا دراسة حديثة لماك دونالد ورفاقه، حيث أشاروا إلى وجود حزم هائلة من المياه الجوفية في منطقة الصحراء الوسطي، وفي عموم القارة الإفريقية [44]. هنا استقر الصيادون-الجامعون وصائدي الأسماك، الذين أظهروا مقدرة عالية على التكيف، والانتظام والانتشار في الوسط الطبيعي، مع الاحتفاظ بنمط إقامة ثابت وناجح، انتظم وتطور في نسق مستمر وتصاعدي إلى أن وصل إلى نمط الاقتصاد الإنتاجي والذي تمثل في الشكل الرعوي [45].

في الواقع نحن ندين لبابرا باريش في كونها قد اقتربت بشدة من البحث في المنطقة وفق أحدث منظور منهجي في ذلك الوقت، موفرة قاعدة تحليلية لنموذج تفسيري للدينامية الثقافية، والأشكال التطورية للاستراتيجيات التكيفية للمجموعات الإنسانية في الأكاكوس. باريش تتكئ في تفسير بياناتها انطلاقا من وجهة نظر علم البيئة القديمة، خاصة تلك الحزم البيانية المتعلقة ببعض من تواترات المناخ القديم، مثل نظام تشاد–تيبيستي، فمن المعروف جيولوجيا إنه وخلال العصر الجليدي الأخير، كانت بحيرة تشاد قد امتدت أصبح حجمها وكأنها بحر داخلي مثل بحر قزوين[46]، يروي منطقة واسعة من مرتفعات الصحراء الوسطى إلى جانب أجزاء معتبرة من السهل المجاور، والسلاسل الجبلية، والسافانا، والغابات الاستوائية. وبالتالي.. أسهمت تواتراته المناخية المختلفة ما بين فترة امتداد وانكماش في التكوين الباليومورفولوجي في سلاسل الصحراء الوسطى، تيبيستي، والآجار والأكاكوس. وبشكل أكثر تحديدًا، تحاجج بريش بأن هناك ثمة علاقة بين التغير المناخي في تيبيستي، بأحداث تين طرة المناخية، والثقافية، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال المعطيات والمعلومات التي تقدمها المعطيات الباليومورفولوجية مثل البقايا الحيوانية، والترسبات النباتية [47].

بشكل عام، لقد صار المناخ يمثل عنصرًا رئيسًا في البحث في علم الآثار، وما قبل التاريخ، وكان لابد من الالتفات إليه انطلاقًا من حقيقة أنه مارس تأثيرًا كبيرًا في حياة الإنسان، وفي إدراكاته المعرفية، ليس فقط جوانب الثقافة المادية وحسب، بل أيضا الخيارات الاقتصادية كذلك. المناخ طبقا لهذه القاعدة، كان (ولا يزال كذلك) هو المشتبه به الرئيس في كل عملية تحول ثقافي تشهدها الجماعات البشرية. طبقا لأدلوف كوبر فقد عُد الجفاف الذي ضرب الصحراء والميكانيزمات الإيكولوجية التي نجمت عنه، بالتالي، قوة دافعة في تاريخ أفريقيا، لقد حفز الجفاف نمو المدنيات على طول المجاري النهرية في أفريقيا [48].

مواقع الإقامة الايبي باليوليتية في جنوب غرب فزان امتدت لتشمل المناطق المحيطة بسلسلة تادرارت أكاكوس، البينات القادمة من عرق وان كاسا، وأدهان مرزق، وأدهان أوباري، ومساك تساتف، ووادي تنزفت تشير إلى المواقع السكنية كانت منتشرة على أحواض البحيرات والبرك [49]. في تجمع على شاكلة معسكرات مؤقتة ومتنقلة، ذات تخصص إنتقائي، مع أستخدام تقنيات ميكروليثية مختلفة ضمت شفرات، وأنصال حادة... وغيرها [50]. ولعل من بين الشواهد الأثرية الأكثر إثارة للدهشة كان قد كشف عنها في مساك تسافت، حيث عثر الباحثون على حوالي (٨٣٧) قطعة من الحجر الرملي، مختلفة في أحجامها، وفي أوزانها كذلك [51]، وعلى الرغم من الجدل القائم حول الوظيفة التي وجدت من أجلها، والتي ربما استخدمت لغرض الصيد، أو كحظائر للاحتفاظ بالحيوانات، ولكن، هناك بينة قادمة من الفن الصخري تعطي دليل قاطع وحاسم على أن هذه الكتل الحجرية قد استخدمت في الأساس لربط وترويض الحيوانات البرية الكبيرة، وتقييد حركتها مثل الزراف، والثيران البرية، ووحيد القرن، والنعام (الشكل: 4) [52].

عمليًا، يبدو أن المواد الصنعية وتيبولوجاياتها المختلفة تقدم هي الأخرى لمحة على التنظيم المكاني، لقد كان الفخار نادرا للغاية في طور الأكاكوس المبكر، ولكنه صار شائعا في طور الأكاكوس المتأخر. تم الكشف في ترسيب سقيفة وان تابو على خمسة شقوق في كل من الوحدتين الأولى والثانية، كان بعضها مزخرف بالخط المحزز المنقط المتموج، والبعض الأخر تزين بخطوط متموجة صافية على الحافة [53].



(الشكل:4): مشاهد مختلفة من الفن الصخري حيث تظهر مجموعة من الحيوانات والطيور مثل الزراف، ووحيد القرن، والخيول، والنعام، والجواميس والأبقار، وهي مربوطة على قطعة من الحجر الرملي. عن:

Gallinaro, Marina and Savino di Lernia (2018). " Trapping or tethering stones (TS): A multifunctional device in the Pastoral Neolithic of the Sahara". In POLS one, no, 13. P. 7.

على كل حال، تحتوي قصة اختراع الفخار واستخدامه في إفريقيا على عدد من الإشكاليات التي تتأرجح ما بين احتياجات التخزين، واستعمالات تتعلق بنواحي طقوسية أو رمزية. والكثير من الفرضيات، التي تقول أشهرها بأن اختراع الفخار قد تم أولاً في وادي النيل السوداني، تم انتشر في باقي المناطق، بما في ذلك الكتل الجبلية في الصحراء الوسطى، هذا الفخار كان يحتوي على زخارف على شاكلة خطوط متعددة، تختزل معلومات بكتوجرافية، وتشير بلا ريب إلى نقاط تشابه أو اختلاف إقليمية [54]. في المقابل، ظهرت نظرية أخرى تقول بأن الفخار في الكتل الجبلية في الصحراء الوسطى قد تم في نفس الفترة مع وادي النيل السوداني أي قبل نحو ٩٤٠٠ سنة مضت، وتتجه النتائج التي تم التوصل إليها من تحليل الشقوق الفخارية القادمة من موقع رافين دي لاموش في أونجوجو في مالي –إلى حد ما- نحو دعم هذه الفرضية [55].

لهذا يمكن تفسير ندرة الفخار في طور الأكاكوس المبكر بأنه لم يكن منتجًا عاديًا لقضاء بعض الحاجيات المرتبطة بالحياة اليومية للصيادين-الجامعين مثل الطبخ وتخزين الطعام، وهو بالتالي لا يشكل منتجا ذا أهمية قصوى في المتاع الايبي باليوليتي. وفي حالات أخرى تم ربط ندرة الفخار الأقدم بمفاهيم الهيبة، وامتلاك الأشياء القابلة للتخزين، والتعاملات الاجتماعية [56]. في حين يفسر انتشاره، وتكثيفه في الأكاكوس المتأخر في كونه قد أصبح شائعًا، واستخدم في وظائف متصلة بالحياة اليومية مثل تجهيز الطعام، وحفظه [57].

هذا، وتشير مقارنات تيبولوجية بين أطقم الأدوات من المواقع الجبلية، ومواقع البحيرات إلى وجود هُويَّة ثقافية متشابهة، ويرى بعض الباحثين بأن نمط إقامة الجماعات الأكاكوسية المبكرة كان يتميز بهراركية واضحة، مع القليل من المعسكرات الأساسية الواقعة في غالبيتها في السلسلة الجبلية [58].

وإضافة إلى ذلك كله.. تعطي الأدوات الحجرية بمورفولجياتها، وتصنيفها التيبولوجي المتنوع معلومات ومؤشرات دالة على المظاهر البنيوية مثل: التنظيم المكاني، ونمط الإقامة، وعلى التنوع الوظيفي كذلك. فعلي سبيل المثال، كان التغير في المناخ ما بين رطب/وجاف قد أثر ديناميكيا في الاستراتيجية الاقتصادية ودفع إلى تأسيس تقينات صيد جديدة. ومن وجهة نظر علم الطاقة، فان بقاء الإنسان واستمراره كان يرتبط بتطوّر انتقائه الطبيعي لتحسين الجودة الغذائية، والبحث عن المصادر المُناسبة للطعام. ومع ذلك، فقد كان التأثير الذي مارسته البيئة الطبيعية حاسمًا، بحيث فرضت على الإنسان/المراقب أن يغير سلوكه باستمرار نحو مستويات أعلى، وذلك بإحاطة نفسه بهالة من الأشياء تكون بمثابة حقل طاقوى، وهذه الهالة يمكن تتبعها وقياسها من خلال المواد الصنعية، ومن خلال الفن الصخري في الأكاكوس عبر أدواره وتواتراته الكرنولوجية، وموضوعاته المختلفة.

وبما أن مواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة كانت موزعة على بيئات ذات خصائص فيزيائية مختلفة، وتتبع نمط إقامة مختلف، فإنه في هذه الحالة، يبرز التساؤل حول الكيفية التي اتبعتها مجموعات الصيادين – الجامعين في تنقلها/ ترحالها اليومي أو الموسمي/الفصلي في داخل سلسلة الأكاكوس والمنطقة المحيطة بها. يبدو إن مفتاح الإجابة على هذا السؤال تقدمه المعطيات والبيانات التي تم جمعها بفضل علوم الجيوأركيولوجيا، والمورفولوجيا، والجيولوجيا، وهي كلها تشير إلى أن البعض من الصيادين وصيادي الأسماك الأكاكوسيين المبكرين كانوا قد تنقلوا بشكل مكثف في الأماكن المرتفعة من السلسلة الجبلية (والتي ربما قد توفرت فيها الشروط الأفضل للإقامة)، في حين فضل البعض الأخر التنقل في السهول والعروق، والوديان. وضمن هذا الإطار، تقدم إلينا جارسيا تفسيرًا يقوم على قاعدة إيكولوجية النزعة، حيث ترى بأن المواقع الجبلية –في كثير من الأحيان- كانت أكثر قابلية للحياة من مواقع العرق في الفصول، أو الفترات الجافة، في حين أن مواقع العرق كانت مأهولة بصورة أفضل في الظروف الرطبة [59].

علاوة على ذلك، تزوِّدنا النتائج التي توصلت إليها دراسة ماركولونجو الجيولوجية، والمورفولوجية لسلسة الأكاكوس بمعلومات حول تلك المسألة، فقد كان الجزء الأوسط للأكاكوس جد مختلف في خصائصه المورفولوجية عن المنطقة الشمالية الشرقية، حيث الارتفاع كان عال نسبيًا (حوالي ٩٠٠ متر فوق سطح البحر)، ونظام الوادي يتميز بكونه أكثر تطورا، ويلتقي ضمن أنظمة أصبحت فيما بعد طرق اتصال رئيسة للمجموعات البشرية [60]. كما يلاحظ ماركولونجو أيضًا أن انتشارًا متسعًا لنظام الوادي مقارنة بالمنطقة الشمالية، مع انعدام ممرات عبر مستجمع الأمطار، وبالتالي، لا وجود لاتصالات مع المنحدر الغربي، في حين أن مثل تلك الممرات متطورة إلى حد ما في المنطقة الشمالية [61]. إلى جانب ذلك، لا يمكن للمرء استبعاد فرضية أن الاحتفاظ بموارد المياه الجوفية في الحزامات الأخرى -إلى الشرق وإلى الغرب من السلسلة- قد يكون شجع على تبني استراتيجية معينة من التحرك داخل السلسة وخارجها. فالتحركات البشرية داخل إقليم بعينه، تسمح بتطوّر أساليب الإعاشة؛ إذ تتعرف الجماعات على طبيعة الإقليم من حيث خصائصه الجيولوجية، وموارده الطبيعية (الماء، والحيوانات، والنباتات، والمواد الخام).

كما تشير الرسوم الصخرية التي تعود إلى طور الحيوانات الكبيرة المتوحشة إلى وجود علاقة مع الإقامة الأكاكوسية المبكرة، ويحتمل أنها تنتمي كذلك للإقامة البليستوسينية المتأخرة، في حين ينتمي طور الرؤوس المستديرة احتمالاً إلى الإقامة الأكاكوسية المتأخرة، مع افتراض إنه ينتمي أيضًا إلى الإقامة الرعوية المبكرة. توحي هذه الرسومات الصخرية بموضوعاتها المختلفة بأن لها وظيفة رمزية، وأهمية فائقة بالنسبة للصيادين الجامعين، وفي هذا الصدد يقول جراهام باركر

بأن جلاميد الصخر المغطاة بالنقوش، شكلت في الغالب، علامات حدودية بالنسبة لمجموعات معينة من الصيادين/الجامعين والبدو. فهؤلاء يُظهرون ميلاً لتحديد مناطقهم الموسمية بصورة واضحة، مع الحق في استخدام بعض الموارد المشتركة المحكمة بشدة بالنسبة لآخرين[62].

وفي سياق متصل توثق لنا نتائج البحث القائم على مبدأ تداخل وتكامل العلوم طيفًا واسعًا من المعلومات، والبيانات حول تنظيمات مكانية مشابه أو مختلفة في محتوياتها مع تلك التي قامت في الأكاكوس المبكر. البينة القادمة من منطقة ما قبل الصحراء التريبوليتانية تسمح بإعادة تركيب الصورة التي كانت عليها حياة الصيادين-الجامعين في الهولوسين المبكر. لقد عاد الصيادون الجامعون المسلحين بتقنيات ايبي باليوليتية [٦٣]، لاستغلال السهل المرتفع، مستغلين التحسن المناخي في الهولوسين المبكر والذي جلب معه طاقة حاملة جديدة، يمكن ربط تزايد معدلات سقوط الأمطار في هذه الفترة بالتحول الذي أصاب دورة المونسون باتجاه الشمال [64]، وهو أمر أكدته دراسة ويكينز للتحولات في المناخ والنبات في السودان منذ ٢٠,٠٠٠ سنة مضت [65]. تتألف البينة الدالة على التنظيم المكاني والاستقرار البشري في المنطقة خلال تلك الفترة من سلسلة مواقع تحتوي على رسوم صخرية، على سبيل المثال.. أشكال الأبقار في موقع مايا ديب، وبقرة وغزال وزرافة وأشكال آدمية في موقع الطُبقة. هذا، ويشير الدمج بين رسم الأبقار، وحيوانات القنص في تلك المواقع إلى حقيقة أن ما قبل الصحراء كانت منطقة مأهولة بسكان مزجوا النمط الحياتي البدوي بنشاط الصيد [66].

الصورة تبدوا متطابقة في الآير–تنيري بالنيجر حيث تم تحديد جماعات تنتمي لإقامات هولوسينية مبكرة في كل من غربون، تاجلاجل، وتيمت، تامايا ملت وادرار بوس [67]، تميزت أطقم الأدوات المشتركة بالنصال، والمنقاش، والرؤوس الحادة، كما تم التعرف استراتيجيات اقتصادية وتنظيم مكاني مشابه مع تلك التي في وان أفودا. وفوق ذلك، تم توثيق تشابه يكاد يكون متطابقا بين التيبولوجيات الحجرية، والأنشطة الاقتصادية بين تين طرة ومواقع الإقامة الهولوسينية المبكرة في النيجر [68]. عليه، يمكن النظر إلى الكتلتين الثقافيتين الأكاكوس المبكر، والآير–تنيري في النيجر باعتبارهما متكافئات بيئة تعيش في نفس السياق أو الفضاء الإيكولوجي/الثقافي.

كما تحاكي البينات القادمة من وادي النيل السوداني مثلما هو الحال أبو أبودربين، وبوتانا[69]، ومن صحراء مصر الغربية في منخفض الفيوم، وبئر كسيبا، ونبتا بلايا تنوعًا وتعقيدًا في مظاهرها البنيوية، ومادتها الأثرية بصورة أكثر من تلك التي في الأكاكوس. في وادي النيل السوداني أستقر الصيادون في البيئات النهرية، ومارسوا أنشطة صيد الأسماك بواسطة الأطواف الخشبية [70]. أما في صحراء مصر الغربية فقد تم تسجيل عدد من المعسكرات الأساسية للصيد، وجمع النباتات، التنظيم المكاني يحتوي على مجمعات كبيرة من حجارة الطحن[71]. وعلى الرغم إن التقنيات الحجرية من نوع الادام والمؤرخة في حوالي ٩,٥٠٠–٩,٠٠٠ سنة مضت، تبدو معاصرة جزئيًا لطور الأكاكوس المبكر في وان أفودا، إلا أنه ليس ثمة وجود لإرتباط أو تشابه بينهما [72]. نوع أخر من التقنيات يدعى الغراب كشف عنه في بئر كسيبا ونبتا بلايا، والذي يبدو بأنه كان معاصرا لطور الأكاكوس المتأخر، الأطقم والأدوات الحجرية الإيبي باليوليتية مثل الشفرات والرقائق الحادة التي تم الكشف عنها في موقع (Dora ٤٢/٨) في جبل الهروج الواقعة في وسط ليبيا تشير إلى وجود تشابه كبير مع الصناعات الحجرية من نوع الغراب القادمة من الصحراء الشرقية [73].

من خلال ما سبق ذكره، يمكن التأكيد على أن الخصائص المورفولوجية التي تمتعت بها سلسلة الأكاكوس، والمنطقة المحيطة بها قد جعلت منها في أزمان ما قبل التاريخ فضاء طبيعي تتواتر عليه مرة بعد الأخرى مجموعات من الصيادين–الجامعين وصائدي الأسماك، الذين أتبعوا نمط إقامة قصير، أو طويل المدى، وتركوا أثار دالة على نشاط بشري متعدد الاختصاصات: تنظيم مكاني وحركية لوجستية ما بين الجبل والوديان، وتقنيات حجرية متطورة، واستراتيجية اقتصادية قائمة على تخصص انتقائي للحيوانات والنباتات.

ثالثًا: الاستراتيجيات الاقتصادية

قبل ٦٥ سنة تقريبًا؛ ومع بداية الدراسات الحقلية في المنطقة كان هناك وجهة نظر تقول بأن مواقع الإقامة البشرية في الأكاكوس المبكر كانت ترتبط –جزئيًا أو كليًا- بثلاثة عناصر متزامنة، ومتداخلة مع بعضها البعض، وهي: الماء ووفرة الحبوب البرية، والطرائد من الحيوانات الثديية والطيور. وبما أن المعطيات الترسبية، والميكرومورفولوجية، والبالينولوجية، والبيدلوجية، والجيوأركيولوجية، والأركوزولوجية [74]، كلها تؤكد على وجود فترة رطبة في الهولوسين المبكر، أسهمت في تكوين بيئات محلية مفتوحة، مع رطوبة عالية

وإمدادات مائية ملائمة، أدت إلى تمركز مواد نباتية، وحيوانية في العديد من المواقع التي شكلت مواقع جاذبة، ومناسبة للإقامة البشرية. بالتالي، أصبحت الصورة التي تتبادر إلى ذهن المرء لما يمكن -أو ينبغي– أن تكون عليه الاستراتيجية الاقتصادية لجماعات الصيادين – الجامعين تنطوي على لعبة أرقام، الكم مقابل الكيف، فكلما زاد عدد الأنواع التي يتضمنها النظام البيئي الذي يشغله الإنسان، كلما زاد الاعتقاد بأن قاعدة الإعاشة تضم أنواع عديدة من النباتات والحيوانات.

ولكن، كل ذلك تغير مع تقدم عمليات البحث الميداني، والتي استطاعت سبر المزيد من أغوار مواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة، والكشف عن الكثير من التفاصيل المتعلقة بنمط حياة الصيادين–الجامعين. حيث تم الاعتراف بوجود تمايز/تنوع واضح في التواتر الاستريتيجرافي، والترسيبي، والمواد الصنعية، وبدرجة أكبر في الاستراتيجية الاقتصادية. هذا التمايز في نمط الإقامة يبدو واضحًا وجليًا للعيان في كهف وان أفودا والذي يضيف بينة مهمة لمعرفتنا بصيادي البليستوسين المتأخر من ذوي التقاليد العاترية، بل وأكثر عن الصيادين-الجامعين في الهولوسين المبكر. كما قدمت مسارته التطوّرية المنحية، والمتعاقبة نموذجا مثاليًا بالنسبة لتنامي ظاهرة التعقد الثقافي عند جماعات الأكاكوس في الصحراء الليبية [75].

١/٣-استغلال الحيوان

بالنسبة لاستغلال الحيوانات، يشير التحليل الأركوزيولوجي للبقايا الحيوانية على وجود اصطياد أصطفائي للخراف البربرية خاصة أموتراجوس ليرفيا الذي مثل ٨٠% من نسبة الطيف الحيواني المستغل في وان أفودا، والذي شمل أيضا الخراف البربرية من نوع كانيس اوريوس[76]. كما أعتمد الصيادون-الجامعون كذلك على صيد الأسماك، والتي اعتبرت مصدرًا رئيسا للبروتين في ذلك الوقت. من وجهة نظر بنيوية، فالتخصص في صيد الخراف البربرية ربما يعكس خيارًا ثقافيًا لأولئك الصيادين-الجامعين في فترة الأكاكوس المبكر.

والشيء اللافت للانتباه إن التنظيم نفسه كان سائدًا في وان تابو [77]، وتين طره/الكهفان [78]، حيث بلغ استغلال الأغنام البربرية ما نسبته ٧٤ % من مجمل الطيف الحيواني، الذي شمل أيضا قنص ضيق النطاق للحيوانات الثديية الصغيرة، والطيور، والغزلان، والأسماك [79]. هذا التخصص في الصيد كان مشهودًا كذلك في كهف هو أفطيح الواقع في شرق ليبيا، حيث تشير البقايا الحيوانية إلى أن الصيادين -الجامعين كانوا قد اصطادوا الخراف البربرية، والغزلان، والحمار الوحشي، كما تم دمج الرخويات البحرية ضمن النظام الغذائي لسكان الكهف في تلك الفترة [80].

هذا، تمت ملاحظة أن معدل قنص الخراف البربرية قد أنخفض في طور الأكاكوس المتأخر إلى حوالي ٤٠ %، وأدمج مع أنواع أخرى، تم اصطياد الثدييات الصغيرة والكبيرة، والأسماك والطيور، تم التعرف على حوالي ٥٠ عينة تعود لحيوانات مختلفة في وان أفودا [81]. تم تفسير هذا الاختلاف وفق رؤى مختلفة، من بينها: هو النزوع نحو الاستقرار المتزايد، مع تنظيم حراك مختلف، واستراتيجيات صيد تتواءم مع التغيرات في البيئة الطبيعية، وبما أن الصيادون–الجامعون لم تعد عندهم القدرة على محاكاة نظام غذائي يعتمد على أنواع محددة من الحيوانات والنباتات، وصارت القدرة على التكيف تستوجب تبني سلوك جديد، وتكنيك جديد. لذا.. تطلبت الاستراتيجية الجديدة تخطيط مختلف لصيد الخراف البربرية. وربما تزامن تدني نسبة قنص الخراف بانخفاض عددها في المنطقة نتيجة للجفاف، حيث أحدث تجمعات المياه السطحية تنخفض/تتقلص بشدة. كما أنه يمكن تبني فكرة تتعلق بإيكولوجيا الصفات الوظيفية للحيوانات البرية، طبقا لهذا.. يمكن الاعتقاد بأن الخراف البربرية قد غيرت من مناطق رعيها وانتقلت لمناطق أبعد، أو أكثر ارتفاعًا. لهذا صارت عملية صيدها أمرا في غاية من الصعوبة، وعملاً مستهلكًا للوقت كذلك.

الأهمية الفائقة لحيوانات الصيد في الأزمنة الباليوليتية، والحيوانات المستأنسة في الأزمنة النيوليتية على حد سواء، وبعيدًا على الجدل الصاخب المتعلق بأصولها والمرتبط بدراسة الكروموسوم، والدنا الميتوكنوندري، تعكس التفاعل بين الإنسان والحيوان، وبينهما وبين البيئة التي يعيشان فيها. هذه النقاط أصبحت تشكل جزءًا مهمًا في علم الآثار الإفريقي بصورة عامة، وعلم أثار ما قبل الرعاوة بصفة خاصة [82].

في اعتقادي إن الناس قد قاموا بعملية تحكم ثقافي هدفها الوصول لتنمية أكثر استدامة، وبإعادة تدوير الموارد، بحيث تكون متوفرة في الأوقات الحرجة، حين يقل تركيزها. الكميات الكبيرة من الروث والأعلاف التي وجدت في الفضاءات الداخلية من المواقع السكنية والتي تمركزت على شكل حظائر، تعطي مؤشرات على بداية تأنيس هذه الحيوانات والإبقاء عليها داخل حظائر، تشير بابرا باريش إلى أن حوالي ٩٢،٤ % من العظام التي تم الكشف عنها في طور الأكاكوس المتأخر، هي عظام لحيوانات مدجنة، في حين كانت نسبة ٤،٢ % هي لحيوانات برية [83].

تقود نظرة عامة على المواقع الإيبي باليوليتية الإقليمية المجاورة لسلسة الأكاكوس إلى تبني بعض الاستنتاجات لعل أهمها، وجود نقاط تشابه في الاستراتيجيات الاقتصادية والتقنيات المستخدمة، بل الأمر يتعدى ذلك، ليشمل الاعتقاد بوجود علاقة قرابة قوية بين موقعي تيمت وأمكيني في سلسة الهوجار، وميلت تاجالات في سلسة الإي-تنتيري النيجر، مع نظرائهم في تين طرة، ووان فودا، وووان تابو في الأكاكوس [84].

الأمر يبدو معكوسًا، ومختلفًا بالنسبة لمنطقة وادي النيل السوداني، فثمة نقاط تشابه قليلة، واختلافات إقليمية خاصة فيما يتعلق بنمط الإقامة، وصيد الحيوانات. ففي موقعي أبو دربين، وعطبرة تركزت اقتصاديات الإعاشة لسكان تلك المواقع (بل شددت) على الموارد المائية المتاحة محليًا، صيد الأسماك شكل المورد الرئيس، تم أستغلال قرابة الثلاثين نوعا منها [85]، فضلا على السمك الحلزوني، والرخويات والمحار النهري، تم اصطيادهم كلهم بواسطة الشباك، والحربونات، ورماح من العظم [86]. تم دمج طيف واسع من الحيوانات ضمن قاعدة الإعاشة، فتم قنص الفيلة، والزرافات، والثيران البرية الأفريقية، والغزلان الصغيرة [87]. تمت ممارسة الصيد احتمالاً على مدار السنة بكاملها، في حين كانت النشاطات الأخرى فصلية في الأساس. لهذا.. يمكن القول بأن ثقافات وادي النيل السوداني الهولوسينية المبكرة، تبدو أكثر تشابهًا، وترابطًا، وتناسقًا مع الثقافات الحجرية المائية في وسط أفريقيا، وليس مع الثقافات الإيبي باليوليتية الأكاكوسية المبكرة [88].

على كل، ومهما كانت درجة الاختلاف، والتشابه بين تلكم الثقافات، وأنظمتها الاقتصادية، إلا أن الأمر المتفق عليه يكمن في أنه عادة ليس من الضروري، في نظام أيكولوجي يتسم بتنوع بيئي مفتوح، أن تقوم التركيبة الغذائية للإنسان على كل الأنواع الصالحة للأكل الموجودة فيه، بل الأمر يتعلق باستراتيجية انتقائية-تكيفية عالية، فالصيادون الجامعون اختاروا الاستجابة إلى احتياجاتهم المحددة من الموارد، والتي تتماشى مع نمط الإقامة المتبع في تلك الفترة، والتي تكمن في الحركية اللوجستية العالية داخل السلسلة وخارجها، بالتالي ظهور نوع نمط إقامة محدد. كل ذلك أجبر الجماعات على تبني اقتصاد استحواذي انتقائي يقوم على حمية غذائية متخصصة في صيد الخراف البربرية، واستغلال محدود جدًا للنباتات.

٢/٣-إستغلال النباتات

سعت الدراسات الأركو-نباتية، والترسبية، والبيدولوجية إلى محاولة إقتفاء أثر البصمات الكيميائية التي خَلَّفتها النباتات القديمة في مواقع الإقامة البشرية في سلسلة الأكاكوس، عبر تحليل المعطيات العضوية النباتية التي ترسبت في المواقع السكنية المنتمية للطور ما قبل الرعوي. طبقا لتلكم الدراسات، كان المنظر الطبيعي في الأكاكوس المبكر يتكون من بيئة نباتية مختلطة، ومتنوعة، تشمل نباتات من العالم الأبيض المتوسطي والصحراوي، والصحراوي الساحلي، مع خليط من السفانا والأعشاب الشجرية [89]. مع سيادة نوع نباتي منفتح: الصمغ العربي– الحشائش (Acacia-(Panicum، أو الطرفاء-السويقة (Tamarix-Stipagrostis) [90]. كانت الأعشاب هي السائدة في طيف اللقاحات، وتم حصدها أساسًا للطعام [91].

في هذا الإطار، يدلل كاستيلي وزملاؤه على عدم وجود خشب متفحم في ترسبات الأكاكوس المبكر في وان افودا ضمن إطار الوحدة العضوية (organic unit) [92]، بيد أن التحليلات المخبرية أكدت على وجود الفحم، وبقايا كربونية لنباتات ولقاحات في بعض العينات المكتشفة. ويبدو أن هذه النباتات قد جمعت باليد من مكان تواجدها الأصلي، وتعرضت كذلك لعمليات ما بعد الترسيب في المواقع السكنية [93].

كما وثقت دراسة فاسيليكوفا للعينات النباتية في تين طرة/الكهفان معلومات على وجود خليط من الثمار والبذور، والنباتات العشبية، والأوراق والأغصان، والخشب والفحم [94]. العينات الأقدم وجدت في المستوى (R-1402) والمؤرخ في حوالي 110±9350 سنة مضت، وهي تحتوي على ترسبات قليلة من الفحم، والتيفا والأكاسيا، والجراميناي [95].

كذلك أضاءت دراسة آنا موركوري للترسبات النباتية، وأطياف اللقحات، والميكروفوسيل النباتي في وان أفودا مساحات مظلمة من فهمنا، وإدراكنا لموضوع استغلال النباتات البرية والأعشاب. فقد تمكنت من تحديد نحو (٨٥٧٢) حبة لقاح تنتمي لعدد (١٦٠) صنف تندرج تحت (٦٠) عائلة نباتية في كامل التراصف الاستراتيجرافي للموقع [96]. كان تركيز حبوب اللقاح، والترسبات النباتية بشكل عام منخفضًا جدًا في طور الأكاكوس المبكر، كانت نسبة لقاحات الاعشاب هي الطاغية وبلغت نحو ٩١ % من إجمالي الطيف، وبما أنه لا يتسع المقام هنا لذكر كل العينات النباتية التي تم جمعها من خلال عمليات التنقيب [97]، لهذ سوف يختصر كلامنا على ذكر أكثر نوعين

شيوعًا في طور الأكاكوس المبكر، وهما نبات (Compositae) بنسبة ٤٨,١ %، ونبات (Gramineae) بنسبة ٣١,١ %، والتي أستخدمت عمومًا للطعام، وللوقود، ولأغراض طبية، وعلاجية أيضا [98].

وقد لاحظ كاستيلي وموركوري بأن الموارد النباتية كانت فيما يبدو مستغلة بدرجة أقل في وان أفودا في طور الأكاكوس المبكر ضمن إطار الوحدة الكلوفيالية (colluvial unit)، وتمثل من حيث التناسب الميكرومورفولوجي أقل من ٥% من مجمل حجم الترسيب المختلفة، والتي يغلب عليها النباتات الأستوائية [99]. هذه النسبة المنخفضة في استغلال النباتات في طور الأكاكوس المبكر تقابله البيانات الكاسحة والنسب الكثيفة للترسبات في طور الأكاكوس المتأخر، والتي تضم كميات كبيرة من البذور، والنباتات، والفواكه، والتبن، والأعلاف، فضلاً على حجارة الطحن [100].

هذا، وتؤكد دراسة فاسيليكوفا الأخيرة على صحة النتائج التي تم اقتناؤها من تحليل اللقاحات، والبذور، والفواكه في تين طرة الكهفان، وتوفر بالتالي قاعدة بيانات إضافية مفصلة حول استغلال النباتات تين طره شرق، وتين طره شمال، ووان موهجاج. تشير هذه الدراسة إلى وجود ثراء وتنوع في المادة النباتية في مستويات الإقامة المختلفة، وهو ما يشكل نتاجًا -على الأقل جزئيًا- لاستخدام الإنسان المتعمد لمثل تلك الموارد، والتي ظلت على حالها وغير متبدلة على امتداد السلسلة الإستراتيجرافية للمواقع الثلاثة [101]. ثمة اختلاف وحيد في توزيع النباتات، بحيث كان أكثر انفتاحًا في الجزء الشمالي الشرقي، وانخفاض ملحوظ في مجموعة الجراميناي المتحركة من طيف طره شرق (المستوى Rinf-RSup) إلى طره شمال (المستوى I) [102]. من جانب ثان، تشير فاسيليكوفا إلى الأهمية الفائقة التي كانت تمثلها شجرة (Balanites aegyptiaca) في النظام الغذائي للصيادين-الجامعين في الهولوسين المبكر، وهي عبارة عن شجرة صغيرة تنمو ضمن مجموعات الأكاسيا–بانيكوم على طول الوديان الصحراوية، ثمارها الناضجة يمكن أكلها نيئة، ويستخرج من بذورها الزيت، وفي لب فاكهتها ثمة خصائص طبية وعلاجية [103].

إلى جانب ذلك، تؤكد فاسيليكوفا أيضًا على صحة الفرضية التي طالما تأججت في ذهنية باربرا باريش، والتي تتحدى الفكرة التقليدية ` التي يميل مناصروها إلى رؤية (النقلة النيوليتية) في الأكاكوس التي وصفها موري من منظور ما حصل في جنوب غرب آسيا. ولكن من الواضح بشكل متزايد إن الكثير من الاكتشافات في الأكاكوس والمنطقة المحيطة لاتتلاءم مع تلك السرد التقليدي لتلك الفكرة. هنا، تقول باريش – وبكل حماسة وثقة- بإن عمليات التحول إلى انتاج الطعام أي تدجين الحيوانات هي ذات أصل محلي وليس نتاج عملية هجرة أو معلومة وافدة من منطقة الشرق القديم، فالصيادين-الجامعين وصائدي الأسماك، الذين فضلوا الإقامة في المنحدر الشرقي لتادرارت أكاكوس، قد يكونوا قاموا بدور في عملية ما قبل اصطفاء الأنواع المرشحة للتدجين [104].

عادت موركوري في دراسات أخرى لطرح نموذج تفسيري حول الكيفية التي تحصلت بها المجتمعات البشرية في العصور القديمة على الغذاء من خلال المواد المحلية، خاصة النباتات، ونجحت في تتبع تلك التفاعلات المعقدة التي حصلت بين الإنسان والنباتات في منطقة وادي تشوينت، عن طريق تحليل العينات التي تم جمعها من (١٣) موقعا داخل الوادي بما فيها وان فودا ووان تابو. نموذج موركوري يعتمد على المفاهيم، والتقنيات/الأدوات التي يوفرها علم النبات العرقي (Ethnobotany) (والذي يستند إلى أساليب مشتقة بشكل رئيس من علم النبات، وعلم الأنثربولوجيا) [105]، والتي تستخدم أطياف حبوب اللقاح (بشكل خاص) كعلامات/مؤشرات يستدل من خلالها على السلوك البشري، وعلى النشاط القائم على جمع النباتات البرية والحبوب، وتخزينها، أو لاستخدامها كعلف لإطعام الحيوانات. أظهرت تلك الدراسات إن النباتات قد أدت دورا رئيسا في عملية التطور الثقافي، وأشارت إلى أن معظم حبوب اللقاح تراكمت في المواقع عبر مراحل كرنولوجية مختلفة، واختلفت نسب استغلالها وفقا للتغير في المناخ، والتبدل في الاستراتيجيات الاقتصادية [106].

النتائج التي توصلت إليها موركوري أشارت أيضا إلى وجود ظاهرة اصطفاء بشري نحو بعض المواد النباتية المنتقاة بعناية، فعلي سبيل المثال... تشير العينات المختبرة القادمة من وان أفودا في المستوى (UAF-PS6)، ووان تابو في المستويين (UTB-PS1) و (UTB-PS 11) والتي بلغ عددها حوالي (٧٤٨)، من حبوب اللقاح الكبيرة بحجم ٤٠ مم، والكبيرة جدا أكبر من ٧٠ مم، إلى قيام الإنسان بقطفها بعناية كبيرة، قبل أن يتم نقلها إلى المواقع السكنية، وتعرضها لعمليات ما بعد الترسيب [107]. كثيرة هي النباتات التي شكلت محور اهتمام الصيادين–الجامعين في الهولوسين المبكر، أتذكر هنا نبات البانيكور ذات الحبوب الصالحة للأكل في موقع مالي [١٠٦]، ونباتات البحر الأبيض المتوسط مثل السرو العطري، والبطم بالنسبة للصيادين-

الجامعين في تين حنكاتن الواقعة في سلسلة جبال تاسيلي -ن– أجار بالجزائر [108].

يبدو لي، أنه من خلال تحليل المؤشرات الحيوية، يمكن الاستنتاج بأن الصيادين الجامعين كانوا قادرون على التمييز بين النباتات البرية من المائية، والنباتات الخشبية من تلك العشبية... وغيرها. إن المعرفة المحلية القوية الخاصة بهذه النباتات تمثل المخزون المعرفي لجماعة ما؛ حيث يساعد أفرادها على مواجهة فترات الجفاف، وشح المواد الغذائية الأساسية، وبالتالي إيجاد حلول ثقافية لمسألة عدم موثوقية الموارد. تمنحنا المادة الأثرية القادمة من موقع تخرخوري في الأكاكوس مؤشرات قوية على صحة هذه الاستنتاج، لقد تمكن الصيادون-الجامعون من ابتكار استراتيجية دينامية تكيفية، أفرزها استغلال اصطفائي مارسه الإنسان، نتيجة خبراته المتراكمة، من خلال تفاعله مع البيئة المحيطة به [109].

وفي السياق ذاته، تقدم دراسة مورفومترية حديثة لمئات من السبيكليت المسترجعة من الرواسب الأثرية لموقع تخرخوري في الأكاكوس، معلومات قيمة حول تباين حجم النباتات البرية التي جمعها الصيادون الجامعون في الصحراء الوسطى خلال الهولوسين المبكر، تم فحص حوالي ١٨ عينة من البذور، والفواكه، واتضح أن أغلب العينات كانت تتمتع بحجم مماثل تقريبًا، ومرحلة نضج مماثلة، وهي تدل على العناية الفائقة، والملاحظة الشديدة التي كان يوليها الصيادون أثناء جمعهم لها [110].

خلال السنوت القليلة الماضية، حصلت ثورة معلوماتية خاصة فيما يتعلق بعلم النباتات الأثرية (Archeobotany)، إذا مكنت التقنيات الحديثة، والمتطوّرة التي تم إدخالها من توسيع معارفنا حول الكيفية التي أستغل بها الصيادون-الجامعون في الماضي للنباتات البرية، بجلبها إلى دائرة الضوء معلومات جديدة، مكنتنا من إعادة تقييم النماذج، وملء الفجوات المعرفية بمزيد من البينات. لقد أستخدمت اللويحات السنيّة أو الحصيات النباتية [111]، وكذلك الجزيئات الحيوية القديمة خاصة الدنا القديم، والنيوكليوتيدات، والأحماض الأمينية، والبروتينات، والدهون، كل ذلك تزامن مع تطوير تقنية غبار الطلع [112]. فعلى سبيل المثال استخدمت فكوك الصيادين-الجامعين التي تعود للهولوسين المبكر في المغرب والتي أصيبت بالتسوس، والنخر كمؤشرات، ودلائل على الاستهلاك المتكرر للنباتات الغنية بالكربوهيدرات القابلة للتخمر، مثل نبات الصنوبر البحري، والبقوليات البرية... وغيرها. إضافة إلى ذلك، مكن تحليل اللويحات السنية من دعم الفرضية التي تشير إلى أن سكان شمال أفريقيا قد دجنوا محاصيل الحبوب قبل ٥٠٠ علم على الأقل مما كان يُظن من قبل.

خاتمِةٌ

أتضح لنا من خلال هذه الدراسة إن طور الأكاكوس المبكر للطور تميز باقتصاد اصطفائي، وحركية عالية داخل السلسلة الجبلية وفي خارجها، ومجاميع تقنية محددة، وحدود زمنية بين ١٠,٠٠٠ و٨,٨٠٠ سنة مضت. وتعرفنا كذلك على وجود نقاط تشابه إقليمية بين مواقع وان أفودا، وتين طرة، وأنظمة الإعاشة المتصلة بها، وتواتراتها التطورية والتقنية مع المواقع المسجلة في الاير-تنيري النيجر، درجة التشابه هذه، تسمح لنا بوضعها في جراب ثقافي واحد.

المظاهر البنيوية لمواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة تكونت من مواقد حجرية كالتي وجوت في موقعي وان أفودا، ووان تابو. ومصدات رياح، ومجاميع حجرية ومواد صنعية قائمة على صناعة رقائق على حجر رملي، وأطقم أدوات ميكروليتية من الكوارتز، والكوراتيزيت، في حين كان الفخار نادرا للغاية. فوق ذلك، كانت مواقع الإقامة الأكاكوسية المبكرة محدودة للغاية، وصغيرة الحجم، وأقل تعقيدًا في شكلها، ومحتوياتها الطباقية، مقارنة مع تلك التي تميزت بها مواقع الإقامة الأكاكوسية المتأخرة.

مواقع الإقامة المنتمية للأكاكوس المبكر كانت منتشرة في بيئات فيزيائية مختلفة في النواح الجيومورفولوجية، في الجبل أي في السقائف الصخرية، وكذا في المناطق المحيطة بها في العروق، والبحيرات والمناطق الكثبانية. يمكن ملاحظة أن المواقع الموجودة في الجبل كانت هي الأكبر حجمًا، والأكثر سمكًا في محتوياتها الترسبية، والعضوية، مقارنة بمواقع العروق، والبحيرات، والكثبان والتي تميزت بكونها صغيرة الحجم، وأحادية النشاط؛ والأقل سمكًا، تتكون من تجمعات على شاكلة معسكرات/مخيمات، مع وظائف متخصصة. فعلى سبيل المثال... تم التعرف على أكواخ سكنية داخل موقع تين طرة شرق، وجدت كلها في أسفل الوادي، تزامن ظهورها مع الارتفاع في معدلات الرطوبة التي ميزت الهولوسين المبكر.

لسوء الحظ، وعلى الرغم من ثراء المادة الأثارية والتي أعطت مفاتيح لتفسير المحتوى التقني، والبيئي، والاقتصادي لمجموعات الصيادين-الجامعين في الأكاكوس المبكر، إلا أن الجوانب المتعلقة بالمحتوى الاجتماعي مثل الديمغرافيا،

وتقسيم العمل، والأنشطة والعلاقات الاجتماعية تظل عصية على الفهم. حقيقة، يصعب فهم المحتوى الاجتماعي من خلال البقايا المادية فقط، بل إن ذلك يرتبط بالعاملين الديمغرافي، والبيئي، وكذلك بالبيئة الميتافيزيقية.. وغيرها. حتى الأدوات الصنعية، وتنوعاتها لا يمكن فهمها بصورة أفضل إلا إذا تم ربطها بمحتواها الاجتماعي والثقافي، وفي مثل هذه الحالة سيكون من الممكن ترجمة الأدوات الصنعية إلى ثقافات، ومنحها مسميات مختلفة: مثل الايبي باليوليتية، والميزوليتية... وغيرها.

في الختام، نعود مجددًا، ونذكر بأن سجل الحفريات يتميز بكونه مثيرًا للجدل إلى حد كبير، وفي نفس الوقت، هو عادة ما يكون مفاجئًا وقابل للاكتشاف من جديدة، فمع الاستمرار في البحث طبقة تلو طبقة، فالتعريفات الصارمة، التي كان يظن بأنها قد صارت من المسلمات، وبالتالي.. فهي غير قابلة للجدال، نجدها تتساقط وتتهاوى بالتدريج كلما تحققت اكتشافات علمية جديدة؛ حينها تزداد معرفتنا اتساعا، وتتعرض أساليب الباحثين إلى تعديلات. إن ما ذكرته بابرا باريش عن تأصل إنتاج الطعام في الأكاكوس بصورة مستقلة عن المناطق الأخرى، والذي كان مجرد فرضية تخضع للاختبار حينها، أصبح الآن من المسلمات في علم الآثار الإفريقي.

الاحالات المرجعية:

(1) Di Lernia, Savino and Garcea, Elena (1997)."Some remarks on Saharan terminology. Pre-pastoral archaeology from the Libyan Sahara and the Middle Nile Valley". In Libya Antiqua, no. 3. Pp.; Garcea, Elena (2004). “An Alternative Way Towards Food Production: The Perspective from the Libyan Sahara ”. In Journal of World Prehistory, vol. 18, Issue 2. p. 108 – 109.

(2) Mori, Fabrizio (1998), The Great Civilisations of the Ancient Sahara, L'ERMA di Bretschneider, Roma. Pp. 31-38.

(3) Ibid. pp. 43-51.

(4) Martini, M et al (1999). " TL and OSL dating of fossil dune sand in the Uan Afuda and Uan Tabu rockshelters, Tadrart Acacus (Libyan Sahara)". In Wadi Teshuinat – Palaeoenvironment and Prehistory in south-western Fezzan (Libyan Sahara), Edizioni All’Insegna del Giglio, Firenze. PP. 67 – 72.

(5) di Lernia, Savino (1999c). "Assembling the evidence: cultural trajectories at Uan Afuda Cave". In In The Uan Afuda cave: hunter-gatherer Societies Central Sahara. Edizioni All’Insegna del Giglio, Firenze,. Pp. 223 - 224.

(6) di Lernia, Savino (1999a). “Why Uan Afuda? The “pre-pastoral” archaeology of the Acacus and surroundings ”. In The Uan Afuda cave: hunter-gatherer Societies Central Sahara. Edizioni All’Insegna del Giglio, Firenze. Pp. 7 – 8.

(7) Cremaschi, Mauro et al (2000). "First chronological indications on the Aterian in the Libyan Sahara". In Recent Research into the Stone Age of Northeastem Affica, Poznan. Pp. 233 – 235.

(8) Ibid. pp. p. 229; Foley, Robert and Marta Mirazón Lahr (2015). "Lithic Landscapes: Early Human Impact from Stone Tool Production on the Central Saharan Environment". In POLS one, vol. 10, no. 3. Pp. 4.

(9) Barker, Graeme (1993). "The UNESCO Libyan Valleys Survey: environmental change and human settlement in Tripolitania". In Environmental change and human culture in the Nile Basin and Northern Africa until the second millennium B.C. Poznan. Pp. 17 – 18.

(10) McBurney, C.B (1967). The Haua Fteah (Cyrenaica) and the Stone Age of the South East Mediterranean. Cambridge, The University of Cambridge. Pp. 16 – 45.

(11) Desmond, Clark (1993). "The Aterian of the Central Sahara". In Environmental change and human culture in the Nile Basin and Northern Africa until the second millennium B.C. Poznan. Pp. 49 – 67; Wendorf , F and Romuald Schild (1980). Prehistory of the Eastern Sahara , Academic Press , New York. p. 18.

(12) Garcea ,Elena (2010). "The Spread of Aterian Peoples in North Africa". In An offprint from South-Eastern Mediterranean Peoples Between 130,000 and 10,000 Years Ago, Oxbow Books, Oxford. Pp. 73 – 40.

(13) van de Loosdrecht, Marieke et al (2018). "Pleistocene North African genomes link Near Eastern and sub-Saharan African human populations". In Science, no. 360. pp. 548–552 ; Scerri, Eleanor (2017). "The North African Middle Stone Age and its place in recent human evolution". In Evolutionary Anthropology. Vo. 26, Issue. 3. Pp. 99 – 137.

(14) di Lernia, Savino (1999b). " The Cultural sequence". In The Uan Afuda cave: hunter-gatherer Societies Central Sahara. Edizioni All'Insegna del Giglio, Firenze. P. 63.

(15) Ibid. p. 82.

(16) Garcea, Elena (2001a). "Cultural adaptations at Uan Tabu from the Upper Pleistocene to the Late Holocene". In Uan Tabu: In the settlement history of the Libyan Sahara, Edizioni All'Insegna del Giglio, Firenze. P. 225.

(17) Ibid. p. 229 – 230.

(18) Barich, Barbara (1984a), "The Epipalaeolithic-ceramic groups of Libyan Sahara: notes for an economic model of the cultural development in the west-central Sahara", In Origins and Early Development of Food-Producing Cultures in North Eastern Africa. Poznan.pp. 399-400.

(19) Barich, Barbara et al (1984b). " Ecological and cultural relevance of the recent new radiocarbon dates from Libyan Sahara". In Origins and Early Development of Food-Producing Cultures in North Eastern Africa. Poznan.p. 412 .

(20) Ibid.

(21) Ibid. P. 413.

(22) Smith, Andrew (1993). "Terminal Palaeolithic industries of Sahara: a discussion of new data". In Environmental change and human culture in the Nile Basin and Northern Africa until the second millennium B.C. Poznan,. p. 70.

(23) Jesse, Friederike (2003). " Early ceramics in the Sahara and the Nile Valley ". In Cultural Markers in the Later Prehistory of Northeastern Africa and Recent Research, Poznań. P. 40.

(24) Huysecom, Eric et al (2009). " The emergence of pottery in Africa during the tenth millennium cal BC: new evidence from Ounjougou (Mali)". In Antiquity, vol. 83. Issue 322. p. 908.

(25) Jesse, Friederike (2003). Ibid. P. 4.

(26) Garcea, Elena (2001a). Op. Cit, p. 224.

(27) di Lernia, Savino (1999b). Op. Cit. p. 67 – 68.

(28) di Lernia, Savino and Mauro Cremaschi (1995)." Processing Quartzite in Sahara: a case study from in Habeter IIIA- wadi Mathendusc (Messak Settafet, Libya)". In Man and flint: Proceedings of the VIIth International Flint Symposium", Warszawa--Ostrowiec Świętokrzyski, September, pp. 225-232.

(29) Garcea, Elena (2001b). "The Early and the Late Acacus material cultures after the 1960-63 and the1990-93 excavations". In Uan Tabu: In the settlement history of the Libyan Sahara, Edizioni All'Insegna del Giglio, Firenze, . p. 97 ; Foley, Robert and Marta Mirazón Lahr (2015). Op. Cit. p. 10.

(30) Garcea, Elena (2001b). Op. Cit. p. 98.

(31) di Lernia, Savino (1999b). Op. Cit. P. 65.

(32) ibid. p. 63.

(33) Ibid. p. 46.

(34) Ibid. p. 65.

(35) Garcea, Elena (2001a). Op. Cit, p. 225.

(36) Barich, Barbara(1984a). Op. Cit. 402.

(37) Webb, John and Marian Domanski (2009). " Fire and Stone ". In Science, vol. 325. pp. 820 – 821 ; Mourre, Vincent et al (2010), " Early Use of Pressure Flaking on Lithic Artifacts at Blombos Cave, South Africa ". In science, Vol. 330. Pp. 659 – 660.

(38) Barich, Barbara et al (1984b). Op. Cit. p. 414.

(39) Barich, Barbara(1984a). Op. Cit. 400.

(40) Ibid. p. 401.

(41) Barich, Barbara et al (1984b). Op. Cit. p. 41٥.

(42) Marcolongo, B (1987)." Natural Resources and Palaeoenvironment in the Tadrart Acacus : the non-climatic factors determining human occupation", In Archaeology and Environment in the Libyan Sahara. The Excavations in Tadrart Acacus 1978-1983. Oxford, British Archaeological Reports, International Series. ٢٧٠.

(43) MacDonald, A M et al (2012). "Quantitatve maps of groundwater resources in Africa". In Environmental research letters, no. 7. Pp. 1 – 7.

(44) Barich, Barbara et al (1984b). Op. Cit. p. 41٦.

(45) Quade, J. et al (2018)."Megalakes in the Sahara? A Review". In Quaternary Research. Vol. 89. Issue. 2. Pp. 2 – 3.

(46) Barich, Barbara et al (1984b). Op. Cit. pp. 415-416.

(47) Kuper, Rudolph and Stefan Kropelin (2006). "Climate-Controlled Holocene Occupation in the Sahara: Motor of Africa's Evolution ". In Science, vol. 313. P. 803 – 807.

(48) Cremaschi, Mauro and Savino Di Lernia (1999). "The geoarchaeological survey in central Tadrart Acacus and surroundings (Libyan Sahara). Environment and cultures". In Wadi Teshuinat Palaeoenvironment and Prehistory in south-western Fezzan (Libyan Sahara). All'Insegna del Giglio, Firenze. P. 253.

(49) Ibid. pp. 281 – 282.

(50) Gallinaro, Marina and Savino di Lernia (2018). " Trapping or tethering stones (TS): A multifunctional device in the Pastoral Neolithic of the Sahara". In POLS one, no, 13. pp. 4 - 6.

(51) Ibid. p. 17 -18.

(52) Di Lernia, Savino and Garcea, Elena (1997). Op. Cit. p. 17.

(53) Abbas, Mohammed and Abdel-Rahim Khabir (2003). " The Wavy Line and the Dotted Wavy Line Pottery in the Prehistory of the Central Nile and the Sahara-Sahel Belt". In African Archaeological Review, Vol. 20, Issue. 1. pp 25–58.

(54) Huysecom, Eric et al (2009). Op. Cit. pp. 912-917 .

(55) Garcea, Elena (2004). Op. Cit. 131 – 132.

(56) Ibid.

(57) di Lernia, Savino (1999c). Op. Cit. P. 226.

(58) Garcea, Elena (2004). Op. Cit. 129.

(59) Marcolongo. B (1987). Pp. 75- 76.

(60) Ibid. P. 78.

(61) Barker, Graeme (1993). Op. Cit. p. 18.

(62) Ibid.

(63) Wickens G. E (1982)."Paleobtanical speculations and Quaternary environments in the Sudan". In A land between two Niles: Quaternary geology and biology of the Central Sudan. Rotterdam, Balkema. PP. 23-51.

(64) Dallmeyer, Anne et al (2020). " The end of the African humid period as seen by a transient comprehensive Earth system model simulation of the last 8000 years". In Climate of the Past, vol. 16. No. 1. Pp. 117-140 ; Sha, Lijuan et al (2019). " How Far North Did the African Monsoon Fringe Expand During the African Humid Period? Insights from Southwest Moroccan Speleothems". In Geophysical Research Letters, Vol. 46, Issue 23 , 16 December. Pp. 14093-14102.

(65) Barker, Graeme (1993). Op. Cit. p. 18.

(66) Jesse, Friederike (2003). Op. Cit. pp. 36 - 38 ; Smith, Andrew (1993). Op. Cit. p. 73.

(67) Barich, Barbara(1984a). Op.Cit. pp. 405 – 408

(68) Abbas, S et al (1989)."The early ceramics of the Eastern Butana (Sudan)". In Late prehistory of the Nile Basin and the Sahara, Poznan. P. 474 – 478.

(69) Ibid. p.480.

(70) Wenke, Robert and Maria Casini (1989)." The Epipaleolithic-Neolithic transition in Egypt's Fayum Depression". In Late prehistory of the Nile Basin and the Sahara, Poznan. PP. 150-151.

(71) di Lernia, Savino (1999c). Op. Cit. P. 226.

(72) Kuper, Jan (2015). "Filling a Gap: Early Holocene Evidence from Central Libya". In Hunter-Gatherers and Early Food Producing Societies in Northeastern Africa, Poznań. Pp. 344-345.

(73) Cremaschi M., and di Lernia, Savino (1999),"The 1993 and 1994 excavations. Geomorphology, stratigraphic context and dates'. In The Uan Afuda Cave: Hunter-Gatherer Societies of Central Sahara, Firenze. pp. 9-26; Cremaschi, M. and Trombino, L (1999). "A micromorphological approach to the site formation processes'. In The Uan Afouda Cave: Hunter-Gatherer Societies of Central Sahara, Firenze. Pp. 27-38; Mercuri A.M. (1999)." Palynological analysis of the Early Holocene " In The Uan Afuda Cave: Hunter-Gatherer Societies of Central Sahara, Firenze. Pp. 149-182.

(74) di Lernia, Savino (1999a). pp. 7-8.

(75) Biagetti, Stefano and Savino di Lernia (2013). "Holocene Deposits of Saharan Rock Shelters: The Case of Takarkori and Other Sites from the Tadrart Acacus Mountains (Southwest Libya)" . In African Archaeological Review, no. 30. Pp. 310 – 311 ; di Lernia, Savino (1998)." Cultural control over wild animals during the early Holocene: the case of Barbary sheep in central Sahara". In Before Food Production in North Africa, Abaco Edizioni, Forli. Pp. 122-123.

(76) Garcea, Elena (2001). Op. Cit. p. 226.

(77) Barich, Barbara (1992). " The Botanical Collections from Ti-n-Torha/Two Caves and Uan Muhuggiag (Tadrart Acacus, Libya) – An Archaeological Commentary". In Origini XVI. Pp. 114.

(78) Ibid. pp. 115 – 116.

(79) Douka, Katerina et al (2014)." The chronostratigraphy of the Haua Fteah cave (Cyrenaica, northeast Libya)". In Journal of Human Evolution, vol. 66. P. 60.

(80) di Lernia, Savino (1999c). Op. Cit. p. 225.

(81) Barich, Barbara (1992). Op. Cit. P. 11٦.

خذ على سبيل المثال.. طرح بعض من الباحثين فرضية تقول بأن الأبقار الأفريقية كانت قد استؤنست أصلاً في منطقة الهلال الخصيب منذ آلاف السنين، قبل أن تهاجر جنوبًا، وتتزاوج مع الأنواع المحلية. معتمدين في ذلك على البيانات الجينومية التي تم جمعها من (١٣٤) سلالة من الأبقار، لقد اكتشف الباحثون أن جينومات المواشي الأفريقية كانت مشابهة جدًّا لتلك الخاصة بالمواشي التي استؤنست أولاً في منطقة الشرق الأوسط منذ نحو ...١٠٬٠٠٠ سنة مضت، وخلصوا إلى أن تلك الماشية إما أن تكون قد استُقدمت إلى أفريقيا عندما هاجر المزارعون إلى الجنوب، أو جرت المتاجرة بها، قبل أن تتزاوج مع الأبقار البرية الأفريقية، المعروفة باسم (أوروخس).. ومع هذا، يظل هذا الموضوع مثيرا للجدل، ولا يزال يحتاج إلى الكثير من الأدلّة، ومعالجة البيانات.

(82) Editorial (2018). "African Archaeozoology Today: Multi-Analytical Approaches to Human-Animal Interactions in the African Past. Quaternary International Special Volume in African Archaeozoology ". In Quaternary International , vol. 471. Pp. 1–5.

(83) Barich, Barbara (1984a). Op. Cit. pp. 405-406 ; di Lernia, Savino (1999a). Op. Cit. p.

(84) van Neer, Willem (1989). "Fishing along the prehistoric Nile". In Late prehistory of the Nile Basin and the Sahara, Poznan. Pp. 50-52.

(85) Ibid. 54-55.

(86) Jesse, Friederike (2000)."Early Khartoum ceramics in the Wadi Howar (Northwest Sudan)". In Recent Research Into the Stone Age of Northeastem Africa, Poznan. P. 78.

(87) Sutton, J (1977). "The African aqualithic". In Antiquity, vol. 51, Issue. 201. pp. 25-34

(88) Gallinaro, Marina (2018). Pp. 2 – 3.

(89) Mercuria, Anna Maria (1999). "Palynological analysis of the Early Holocene sequence". In The Uan Afouda Cave:

Hunter-Gatherer Societies of Central Sahara, Edizioni All'Insegna del Giglio, Firenze. Pp. 150-151 ; Wasylikowa, Krystyna (1992). "Holocene flora of the Tadrart Acacus area, SW Libya, based on plants macrofos-sils from Uan Muhuggiag and Ti-n Torha Two Caves archaeological sites". In Origini XVI. Pp. 126-127.

(90) Garcea, Elena (2001). Op. Cit. P. 227.

(91) Castelletti, L et al (1999), "Archaeological analysis of charcoal, wood and seeds". In The Uan Afouda Cave: Hunter-Gatherer Societies of Central Sahara, Firenze: 133- 134.

(92) Ibid. 136.

(93) Wasylikowa, Krystyna (1992). Op. Cit. P.

(94) Ibid. 127.

(95) Mercuria, Anna Maria (1999). Op. cit. 155- 156.

(96) Ibid. p. 157.

(97) bid. P. 158 – 159 ; 161

(98) Castelletti, L et al (1999). Op. Cit. p. 138; Mercuria, Anna Maria (1999). Op. cit. 163.

(99) Wasylikowa, Krystyna (1993). "Plant macrofossils from the archaeological sites of Uan Muhuggiag and Ti-n-Torha, Southwestern Libya". In Environmental change and human culture in the Nile basin and Northern Africa until the 2nd millennium B.C. Poznan. Pp. 28 – 30.

(100) Ibid. 31 – 35.

(101) Ibid. 37.

** شاعت التلميحات في الكثير من الأدبيات التاريخية والأثارية بأن الشكل الأول للزراعة، وتدجين الحيوان قد بدأ أولاً في الشرق الأدنى في حدود ١٢,... سنة مضت، ثم امتد نتيجة لانتقال معلومة أو تحرك سكاني غرباً عبر حوض البحر الأبيض المتوسط، أو ربما عبر شمال سيناء ودلتا النيل، وعلى ذلك جرت المحاججة بين الباحثين بأن منتجي الطعام من الشرق الأدنى حملوا معهم حيواناتهم المدجنة وفخارياتهم، وأدواتهم النيوليثية، واستقروا في شمال إفريقيا، بما في ذلك منطقة الأكاكوس. قد تبدو هذه الحجة منطقية، ولكن ثمة معطيات تشير إلى أن جماعات الصيادين الجامعين في الأكاكوس قد تعاملوا مع الخراف البربرية (والتي هي النوع الماعزي البري الوحيد في المنطقة)، ونجحوا في ترويضها وتدجينها، وبالتالي، يبدو أن هذه الحجة تحتاج إلى المزيد من المراجعة والتقييم، خاصة في ظل البيانات التي تم اكتشافها مؤخرا.. للمزيد من المعلومات يمكن مراجعة: Garcea, Elena (2004). Op. Cit. pp. 110-121.

(102) Mercuri, Anna Maria (2008a). "Plant exploitation and ethnopalynological evidence from the Wadi Teshuinat area (Tadrart Acacus, Libyan Sahara)". In Journal of Archaeological Science,Vol. 35, Issue. 6. pp. 1620- 1621.

(103) Mercuri, Anna Maria (2008b). "Human influence, plant landscape evolution and climate inferences from the archaeobotanical records of the Wadi Teshuinat area (Libyan Sahara)". In Journal of Arid Environments, Vol. 72, Issue 10.pp. 1950-1967.

(104) Mercuri, Anna Maria (2008a). pp. 1637- 1638.

(105) Huysecom, Eric et al (2009). Op. Cit. p. 915.

(106) Amrani, Samira (2018). "The Holocene Flora and Vegetation of Ti-n Hanakaten (Tassili n'Ajjer, Algerian Sahara) ". in Plants and People in the African Past: Progress in African Archaeobotany, Springer Nature, Switzerland. pp. 123-145.

(107) Mercuri, Anna Maria et al (2018)." Plant behaviour from human imprints and the cultivation of wild cereals in Holocene Sahara ". In Nature Plants, vol. 4. Issue. 2. Pp. 71 – 81.

(108) Fornaciari, Rita et al (2018). "The Role of Morphometry to Delineate Changes in the Spikelet Shape of Wild Cereals: The Case Study of Takarkori (Holocene, Central Sahara, SW Libya): Progress in African Archaeobotany". In In Plants and People in the African Past: Progress in African Archaeobotany, Springer Nature, Switzerland. pp. 100-122.

(109) Madella, Marco et al (2014). "Microbotanical Evidence of Domestic Cereals in Africa 7000 Years Ago". In Pols one, vol, 9, Issue, 10. Pp. 1 – 2 .

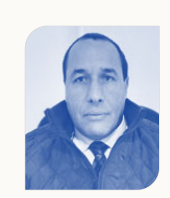
(110) Miras, Yannick et al (2018). "Advancing the Analysis of Past Human/Plant Relationships: Methodological Improvements of Artefact Pollen Washes: Methodological improvements of artefact pollen washe". In Archaeometry, vol. 60. Issue.5. pp. 1106-1121.

(111) Cappellini, Enrico et al (2018). " Ancient Biomolecules and Evolutionary Inference". Article in Annual Review of Biochemistry, vol. 87, no, 1 .pp. 1029-1060 .

(112) Humphrey, Louise et al (2014). "Earliest evidence for caries and exploitation of starchy plant foods in Pleistocene hunter-gatherers from Morocco". In PNAS, vol. 111, no. 3. Pp. 954-959.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المعبودات الوثنية في إفريقيا الرومانية
الكريريس في قرطاجة نموذجًا



عبد السلام بحاج
باحث في تاريخ الأديان
باحث في سلك الدكتوراه – جامعة ابن طفيل
زمور – المملكة المغربية

مُلَخّص

يروم هذا المقال التعريف بعبادة الكريريس في بلاد شمال إفريقيا القديم. من حيث نشأتها واستقدامها من صيقلية للتكفير عن ذنب القائد القرطاجي حملكون. الذي قام بهدم الكريريس بسراكوزا. وأيضًا المماثلات التي عرفتها مع معبودات محلية وأجنبية داخل الزون القرطاجي. حيث يتم التمييز بين الكريريس البونية والكريريس الإغريقية، كما سيتناول الوظائف التي تولتها هذه المعبودات المزدوجة في المجال الإفريقي حصوصا الوظيفة الزراعية. وأيضًا الكهنة الذين قاموا بوظائف الخدمة والتسيير الديني لهذه العبادة. وأغلبهم من أصل إغريقي. وقد تمكننا من التوصل إلى مجموعة من الخلاصات تجملها فيما يلي: إن استقدام الكريريس إلى قرطاجة تحكمه دوافع سياسية، تتجلى استمالة صقلية والجزر المجاورة وبلاد الإغريق لضمها لصف قرطاجة، وأيضًا دوافع اقتصادية؛ كون الكريريس معبودات زراعية، يرجى من استقدامها الزيادة في إنتاج القمح بالسهول الإفريقية. تميزت شمال ‘فريقيا القديمة، بالتعايش الديني والتسامح الحضاري. وهذا ما نلمسه، من خلال وجود الكريريس الإغريقية والكريريس البونية. هذه الأخيرة التي تمثل معبودات محلية، تغير اسمها بفعل التوفيقية؛ فتم مطابقتها بنظيراتها الإغريقية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٧	سبتمبر	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٩	أكتوبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

تاريخ الأديان؛ قرطاجة؛ القمح؛ الحقبة الرومانية؛ الإغريق

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.309249 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام بحاج، "المعبودات الوثنية في إفريقيا الرومانية: الكريريس في قرطاجة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٣٢ – ٣٩.

Corresponding author: assoubahaj2012gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

يدخل هذا الموضوع ضمن ما يعرف بتاريخ الأديان، وبالذات تاريخ المعبودات الوثنية في إفريقيا الرومانية. حيث عرفت هذه المنطقة تعايشًا بين المعبودات المحلية؛ ونظيراتها الوافدة من الشرق والغرب. لتقوم بإغناء البانثيون الإفريقي، والمساهمة في تبادل الخصائص بين هذه المعبودات، في إطار ما يعرف بظاهرة التوفيقية. يتعلق الأمر عند الحديث عن الكريريس بالمعبودتين الإغريقيتين ديمتر(Déméter)، التي تحولت إلى كريس (Cérès) في روما، وهي "أم" أو بالأحرى "أرض أم". تظهر غالبا بلون أبيض، وليس بلون القمح. تحمل تاجًا مرصعًا بحبات القمح تحمل القمح في يدها. وابنتها المعبودة كوري (Coré)، أو برسفون (Perséphone)،[١] وهما معا معبودتان أرضيتان جهنميتان للخصوبة الزراعية أساسًا. كما يظهر ذلك من حبات القمح التي ترافقهما على الأيقونات المكرسة لهما. ويرى المؤرخ كزيل Gsell أن الكريريس، تجمع ربة الظلام كوري وأمها ديمتر، التي تمت مطابقتها بالربة تلوس (Tellus)،[٢] فكيف وصلت هذه العبادة إلى قرطاجة؟

أولاً: نبش في أصول هذه العبادة في إفريقيا

اختلف المؤرخون حول سنة دخول هذه العبادة إلى قرطاجة، نهاية القرن الرابع ق.م. ما بين سنة ٣٩٦ ق.م وسنة ٣٩٤ ق.م. فحسب الباحث كامبس، كان استقدامها يهدف إلى رد الاعتبار لها[٣]. بعد أن قام حملكون القائد العسكري القرطاجي بنهب معبد لها، في مدينة سيراكوزا[٤] بصقلية. فقرر مجلس الشيوخ القرطاجي، إدخال هذه العبادة حوالي سنة ٣٩٦ ق.م. تكفيرًا عن ذنب حملكون الذي انتحر نتيجة لأزمة أخلاقية ونفسية[٥].

كانت تقدم لها الأضاحي والقرابين حسب الطقوس الإغريقية، كما كانت تؤمن لها الخدمة الدينية في البداية بواسطة نخبة من الإغريقيين، مما يدل على أن الأشكال الهلينية لهذه العبادة تمت المحافظة عليها[٦]. ذلك أن معبد قرطاجة كان مشتركًا، بين سيدة وحامية هذه المدينة الربة تانيت وقرينها بعل آمون من جهة، مع الثالوث السيراكوزي الكريريس والرب بلوتون من جهة أخرى[٧]. ولكن مع هذا كله يعتقد بعض الباحثين أن الكريريس القرطاجية، تم استقدامها من مدينة سلولونت (Sélinonte) التي حطمها القرطاجيون سنة ٤٠٩ ق.م[٨].

يذهب الباحث كادوت (Cadotte) إلى أن هذه العبادة قديمة جدا بإفريقيا. ويدل على ذلك العثور على نقيشة بونية في مكان مجهول، مقدمة للربتين ديمتر (Déméter) وكوري (Coré). وهي عبارة عن إهداء للسيدة الأم ولسيدة الظلام[٩] Maîtresse de Enfers، كما ظهرت هاتان المعبودتان على نقود قرطاجة البونية. وتم تأسيس معابد قروية، لهما خلال هذه الحقبة في كل من سليمان Soliman،[١٠] وكوربا Corba بالرأس الصالح le cap Bon. تضم تماثيل لديمتر وكوري[١١]. فبعد هدم قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م. استمرت عبادة الكريريس وفقا للطقوس الإغريقية، في معبد مشيد على ربوة البرج الجديد. وفي هذه الفترة أخذت هذه العبادة تتبونق، لتعطينا ما يسمى بالكريريس البونية.[١٢] واستمرت عبادة الكريريس في الوجود خلال الحقبة الرومانية، كما تدل على ذلك الوثائق؛ خصوصًا الإبيغرافية منها[١٣].

وإجمالاً غطت عبادة الكريريس، أو حلت محل عبادة ديمتر Déméter وكوري بهذه التسمية المزوجة. التي لا توجد إلا في إفريقيا[١٤]. وهكذا تطورت وعرفت رواجًا بمساندة رسمية لحكام قرطاجة كمعبودات فدرالية، أي بمثابة الاسمنت اللاحم. الذي يوحد مختلف المقاطعات البونية[١٥]. كما كانت لهذه المعبودات وظائف زراعية، وتماثلت أيضًا مع مجموعة من الآلهة.

ثانيًا: مطابقة الكريريس مع معبودات أخرى

يرى المؤرخ الفرنسي كامبس، أن هذه العبادة تحولت إلى مسمى الكريريس في العهد الروماني. حيث تمت مطابقة كريس بكوري، ومماثلة ديمتر بالربة تلوس، ربة الحصاد القديمة عند الإيطاليين[١٦]. ويجمع نصب في موقع تبسة Theveste الكريريس مع الربة يونو. وينعتها بالآلهة الجهنمية déesses chtonienes، حيث تظهر على النصب حقول القمح وسلال الفواكه والورود. ويدل هذا على طلب الناس. الذين أقاموا النصب، لطلب خصوبة الحقول والبساتين. وأيضًا للخلود بعد الموت كما ترمز إلى ذلك الورود[١٧]. ويتم تجسيد كاهنات هذه العبادة، مثل الربات التي تحيط بها المشاعل وسلال من قصب.

يذهب كزيل إلى أنه خلال الحقبة الرومانية، ظهرت الربة تانيت Tanit تحت مسمى الكريريس. وفي الحقيقة؛ تبدو المطابقة ممكنة، بين الكريريس والربة تانيت من جهة وبين الكريريس وعشتارت من جهة أخرى[١٨]. وذلك من خلال البحث عم مطابقات للرأس المتوج بالتاج المرصع بحبات القمح. ويركز الباحثان شارل بيكار ومحمد فنطار على الصفات الإثنية

المعطاة للمعبودتين، اللتين تدعيان مرة بالكريريس الإغريقية (Cereres Grecae)[19]، وتارة أخرى بالكريريس الإفريقية Cereres africae. حيث يصعب القول بأنهما معبودتين مختلفتين؛ أو بأن الكريريس الإفريقية، هي المعبودات الصقلية. التي أدخلت إلى قرطاجة مع نهاية القرن الرابع ق. م. وتم غرسها بالأرض الإفريقية[٢٠]. ويجب أخذ الحيطة والحذر أثناء إطلاق هذه التسميات، التي تظهر على النقائش اللاتينية. هل يتعلق الأمر بمعبودات إغريقي وصيقيلية، أم بمعبودات إفريقية محلية؟

ويشك الباحث مارسيل لوكلاي في عملية التوفيقية، بين الربتين ديمتر وكوري. اللتان ظهرتا تحت التسمية المزدوجة " الكريريس" الخاصة بإفريقيا، والمعبودات المحلية من جهة أخرى، لأنه لا توجد معبودات تشبهها في الزون الإفريقي[٢١]. واعتبر الباحث توتان Toutain، أن المعبودات التي كشفت عنها نقيشة بفسيفساء إحدى القاعات بمدينة بوبوت pupput. والتي أطلق عليها اسم "السيدات" Dominae هن ربات للخصوبة الزراعية مثل الكريريس الإفريقية[٢٢].

ثالثًا: وظائف الكريريس

حافظت ديمتر وكوري على وظائف الإنبات وحفظ المحصول والحصاد، خلال القرون التي تلت دخولهما إلى الأرض الإفريقية، وازداد بريق عبادتهما في مجال القرطاجيين والنوميديين الزراعي[٢٣] بامتياز. فهذه القوى التي تخصب الأرض وتستجيب إلى حاجيات القوة الإنتاجية، تم استقدام عبادتها إلى قرطاجة، بغرض المساهمة في التطور الداخلي الاقتصادي والاجتماعي، عن طريق تطوير أشكال العمل الإغريقية؛ خصوصا فيما يتعلق بالحرف والصناعات اليدوية[٢٤]. وأيضًا لتطوير العمل العسكري، الذي يستهدف صيقيلية والجزر الإيطالية[٢٥]. ويرى كاركبينو أن النقائش التي تهم هذه العبادة تصل إلى غرب المملكة النوميدية بالخندق الملكي Fossa Regia وسط المملكة النوميدية[٢٦].

ترجح الباحثة "نصيرة بن الصديق" أن عبادة ديمتر وكوري، انتقلت إلى مجال النوميديين انطلاقًا من التراب القرطاجي، قبل فترة حكم ماسينيسا، وترى أيضًا أن العبادة قريبة من الانشغالات السحرية والدينية للمزارعين البربر[٢٧].

عرفت هذه العبادة التي ترتكز على أساس التواصل مع القوى المخصبة للطبيعة، حضورًا متميزا في بلاد القرطاجيين، حيث اعتبرت الباحثة زينب بنعبدالله هذه العبادة في قرطاج عبادة رسمية للخصوبة الزراعية [٢٨]، كما عرفت ازدهارًا في بلاد الماسيسوليين خصوصًا في طاغست وتبازا مادور،[٢٩] الغنية بزراعة الحبوب، وما حرق بواكير الإنتاج في الاحتفالات التي تقدم على شرف الكريريس خلال شهر أبريل، إلا دليل واضح على الوظيفة الزراعية لهذه المعبودات[٣٠]. كما يدل تمثال عثر علية في تبسة، على الوظيفة المزدوجة الجهنمية والإخصاب الزراعي للكريريس[٣١]. كما تظهر كريس (ديمتر) في المعبد الذي خصص لها في لبدة الكبرى، وهي تحمل السنبلة وتضع فوق رأسها التاج المدور، كربة حامية للمدينة[٣٢]. مما يدل على وظيفتها الإخصابية.

رابعًا: انتشار عبادة الكريريس في المجال الإفريقي

يرى الباحث بيكار أن الليبيين ليسوا في حاجة إلى انتظار مجيء الربتين الإغريقيتين ديمتر وكوري ليتوسلوا إليهما من أجل حماية زراعتهم. وطلب ازدياد الخصب والوفرة عندهم، وليسوا أيضًا مضطرين للبحث عن معبودات مخصبة أجنبية تجلب لهم الرخاء والسعة (frugifères)[٣٣]. وبناءً على هذا نطرح السؤال التالي ما هي الأسباب التي أدت إلى حصول الكريريس على شعبية كبيرة في المجال الإفريقي القديم؟ للإجابة على هذا السؤال لابد من الإشارة إلى أن عبادة الكريريس تنتشر في مجموع التراب القرطاجي، خصوصًا في السهول الكبرى شمال تونس الحالية حيث تسود زراعة الحبوب[٣٤]، حيث أقام كاهن لهذه العبادة معبدًا لبلوتون قرين الكريريس بقرطاج[٣٥]، وتتوزع هذه العبادة على المواقع التالية: قرطاج و الرأس الصالح (le cap Bon) ومنطقة تبوربو مايوس Thuburbo Maius وفحص بوعراضة (Apisa Maius) الغنية بزراعة الحبوب خصوصًا القمح[٣٦] ومنطقة تبسة ومنطقة توكا (Thugga) وباجة (Vaga) وفي منطقة كيرتا.[٣٧]

يرجع جيروم كاركوبينو انتشار هذه العبادة في المجال الترابي للماسيسوليين إلى عهد الملك النوميدي ماسينيسا (Massinissa) الذي سعى جاهدًا لإدخال هذه العبادة لرعاياه وذلك حتى يستأنسوا بالحضارة الإغريقية من جهة، وطمعًا للحصول في نهاية كل موسم فلاحي على غلال وفيرة خصوصا في ما يخص الحبوب وأيضًا تشجيعا للنوميديين على الاستقرار وخدمة الأرض بحيث يرى المؤرخ الروماني سالوست أن الليبيين والجيتوليين، السكان الأصليين للمنطقة كانوا متوحشين ولا يعرفون الاستقرار.[٣٨]

بينما يعتقد كامبس (Camps) أن هذه العبادة التي لم تعرف تراجعًا خلال الحقبة الرومانية، حافظت على طابعها الشعبي والشرف الكبير الذي كانت تحظى به[٣٩]. فلا يوجد أي مبرر يدفع للاعتقاد بأن هذه العبادة أدخلها ماسينيسا إلى التراب الماسيسولي، بل إنها انتقلت من جماعة إلى جماعة حتى وصلت إلى بلاد النوميديين[٤٠]. فهي ليست مجرد تعبير عن فعل "إرادة سياسية" كما يعتقد كاركوبينو الذي يرى أيضًا أن شعبية هذه العبادة عند النوميديين تعود إلى إرث طبيعاني Naturalisé مستوحى من الحضارة المتوسطية القديمة التي تغرس فيها هذه العبادة جذورا عميقة وتتضح بتقاليد بونية عريقة[٤١]، ونفس الرأي تبناه توتان الذي يرى أن شعبية هذه العبادة تستند إلى إرث بوني.[٤٢]

يضيف كامبس camps أن هذه العبادة التي كانت مزدهرة في تراب النوميديين في عهد يوغرطا (توفي ١٠٥ ق.م) وفي العهد الروماني دليل كاف على تجدر هذه العبادة قبل فترة حكم ماسينيسا، فإذا كانت هذه العبادة مجهولة في حقول القمح النوميدية قبل عام ١٥٢ ق.م ، فيصعب التسليم أن هذا الملك استطاع في أربع سنوات إدخال ونشر هذه العبادة في مجال السهول الكبرى Campi Magni وفي كل مجال الماسيسوليين عامة.[٤٣]

كما عرفت عبادة الكريريس ازدهارا كبيرا في الحقبة الرومانية حيث نجح أوكتافيوس في دعم ديمتر وابنتها كوري لعلاقتهما الوطيدة بالخصوبة الزراعية [٤٤]، فتم إعادة بناء مدخل معبد الكريريس بأكبيا Agbia الذي أقامه كينكيوس وكتور Cincius Victor من أجل سلامة الإمبراطور أنطونيوس التقي وأبنائه.[٤٥]

تجسد عبادة الكريريس عدة رموز للرخاء والخصب خصوصًا على نقوش قرطاج، أو على نقوش معبد الحفرة البوني بكرطا ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد، وهي عبارة عن سلة فواكه وقرن الرخاء أو الخصب[٤٦].

خامسًا: القيمون على تنظيم عبادة الكريريس

حظيت عبادة الكريريس بشعبية كبيرة خلال الحقبة الرومانية بإفريقيا البروقنصلية والمجال النوميدي، فكان لها أتباع كثيرون انتظموا في إطار جمعيات دينية، حيث عُثر بالمجال القرطاجي على ستة عشر نقيشة تشير إلى أسماء الكهنة Sacerdotes المكلفين بالسهر على تنظيم هذه العبادة، منذ تأسيس المستوطنة اليوليانية بقرطاجة[٤٧] Colonia Julia Kartago. يحملون الألقاب تصفهم بكهنة الكريريس؛ من قبيل: كاهن الكريريس sacerdos Cererurn وكاهن الكريريس القرطاجيةsacerdos Cererum Karthagini وأيضًا كاهن كريريس المستوطنة اليوليانية القرطاجية sacerdos Cererum coloniae Juliae Karthaginis.[48]

ويلبس هؤلاء الكهنة زيًا خاصًا يدل على الورع والتقوى. وليكونوا في نفس الوقت أتباعا وضحايا مقدمة لهذه العبادة. وقد بحث الأب دولاتر Delattre، على معبد للكريريس في قرطاجة. حيث عثر على نقيشة بونية، تشير إلى تكريس معبدين لعشتارت ولتانيت. ويدل رأس للربة ديمتر، وتمثال للربة وبقايا ثعابين، يعتقد أنها من توابع الكريريس. ويحتمل أن يكون هذا المعبد للكريريس. حيث يطابق دولاتر معبدي تانيت عشتارت مع معبد الكريريس.

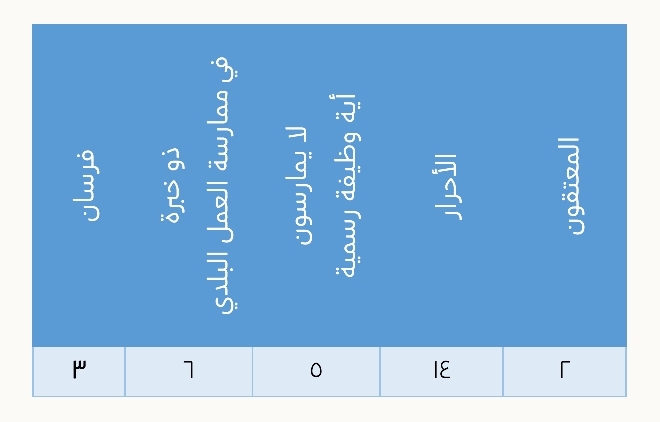
احتل المعتقون مكانة مهمة في الحياة الاقتصادية والبلدية والدينية في إفريقيا البروقنصلية. خصوصًا في عهد القيصر وابنه بالتبني أغسطس، سواء في المدن الساحلية أو داخل البلاد الإفريقية، كما كان حضورهم ونشاطهم في تسيير الضيعات الفلاحية حضورا وازنا مما أمن لهم مكانة اجتماعية مهمة، في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد والربع الأول من القرن الأول الميلادي، مستفيدين من انفتاح سياسة الإمبراطورية على المعتقين خلال هذه المرحلة. وأقدم إشارة تدل على حضور المعتقين في كهنوتية عبادة الكريريس، نقيشة مؤرخة بسنتي ٢٨ و٢٩ للميلاد، تشير إلى وجود كاهنين معتقين للكريريس[٤٩]. وتجدر الإشارة إلى أنه ابتداءً من سنة ١٣٠م صار كل كهنة هذه العبادة بإفريقيا يختارون من المواطنين الرومانيين. كما لعب المعتقون أيضًا دورًا سياسيًا هامًا في إفريقيا الرومانية.

تم تحديد أسماء هؤلاء القيمين السبعة عشر الساهرين على تنظيم هذه العبادة وكذلك وضعيتهم الاجتماعية، حيث تتمركز النقائش التي كشفت عنهم شمال شرق البروقنصلية موزعة على الشكل التالي:

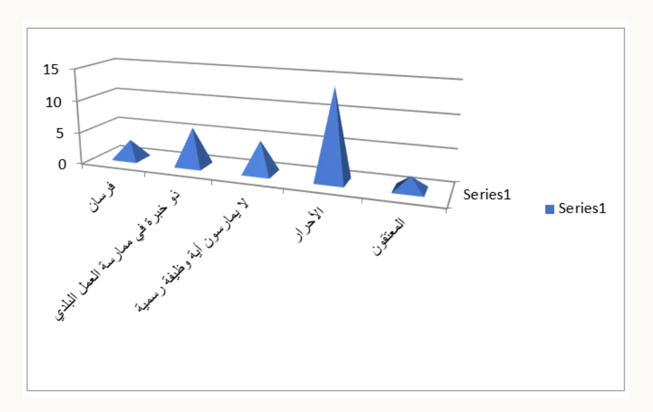
قرطاج	توكا Thugga	Pagus Suttuensis	أوكي مايوس Vchi Maius	المدن غير التابعة لقرطاجة
٤	٣	١	٢	٧

أربعة في قرطاج، ثلاثة في توكا (Thugga)، واحدة في (Pagus Suttuensis)، واثنتان في أوكي مايوس (Vchi Maius)، وسبعة نقائش في المدن غير التابعة لقرطاجة، منها نقيبشتين بتربو مايوس (Thuburbo Maius)، وواحدة في (Auitta Bibba) وواحدة بصارادي (Saradi)، واثنتان بفرموس مايوس (Furmus Maius)، وواحدة بزيكا (Bisica Lucana).

أما الأصل الإثني لهؤلاء الكهنة فكلهم قرطاجيون، ينتمي ثمانية منهم إلى قبيلة أرننسيس Arnensis في قرطاجة، وتتوزع وضعيتهم الاجتماعية على الشكل التالي:



المعتقون	الأحرار	لا يمارسون أية وظيفة رسمية	ذو خبرة في ممارسة العمل البلدي	فرسان
٢	١٤	٥	٦	٣



يمكن القول إنه ما بين سنتي ٦١م و٦٧ م. كانت ممارسة هذه المهمة مفتوحة في وجه المعتقين وبعد ذلك لا نجد أيا منهم يمارس هذه الوظيفة، ومع ذلك فلا يمثل المعتقون حسب الجدول السابق سوى ١٢,٥ بالمئة من مجموع كهنة الكريريس.

كما يجب على من يريد ممارسة هذه المهمة التدرج في ممارسة مهام بالمجلس البلدي أو الاتصاف بالغنى والشرف[٥٠]، بل إن الأغنياء صاروا مجبرين على تقلد منصب داخل النظام الكهنوتي للكريريس في قرطاج لمدة سنة على الأقل ربما لقطع الطريق على المعتقين وغيرهم، كما أن هذه المسؤولية الكهنوتية تتجدد كل سنة ويمارسها غالبًا أشخاص طاعنون في السن[٥١].

دخلت الكريريس البونية إلى قرطاج عبر صقلية سنة ٣٩٦ ق.م. ثم تبونقت وتمت ربما مطابقتها بمعبودات محلية تحمل نفس وظائفها، بينما الكريريس الإغريقية هي معبودات الإلوزيس التي جاءت إلى إفريقيا عن طريق الإسكندرية[٥٢].

خاتِمَةٌ

قبل ختم هذا الفصل لا بد من طرح السؤال التالي: لماذا تم إعطاء أهمية كبرى لعبادة الكريريس منذ إدخالها إلى قرطاج عن طريق صقلية في نهاية القرن الرابع ق.م؟ فهل تفسر أهمية هذه العبادة من خلال الاهتمام الذي حظيت به من قبل الممالك البربرية ما بين ١٤٦ ق.م، و٣٩ ق.م (كاركوبينو) وعلى ضوء هذا يتساءل كامبس، كيف لملك مغمور وضعيف مثل مكبسا أن يقوم بنشر هذه العبادة في صفوف الفلاحين النوميديين؟[53]

أم أن هذا راجع للطابع الزراعي للمنطقة حيث تسود السهول الكبرى وزراعة القمح على الأقل منذ الحقبة البونية، فتكون الكريريس التي تم إدخالها قد تطابقت مع معبودات زراعية محلية، فاستمرت في لعب دورها القديم خلال المرحلة الرومانية بسبب سياسة الانفتاح التي تنهجها روما تجاه الآلهة المحلية من جهة، وأيضًا لحاجة روما إلى القمح الإفريقي[54] من جهة أخرى. وهذا الطرح يرتكز أساسًا على خريطة توزيع النقائش والإهداءات الخاصة بهذه العبادة في بداية القرن الميلادي الأول وخلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين.

ألم تعان عبادة الكريريس التي لعبت دورًا كمعبود فدرالي[55] يوحد الصفوف داخل قرطاج من منافسة معبود آخر ذو حجم كبير كالربتين تانيت وكايلستس؟ وهنا يرجح كامبس أن هذه العبادة المستوردة اتخذت بسرعة فائقة طابعًا شعبيًا في قرطاج وفي مجالها الترابي[٥٦]، قد تكون استفادت من الطابع التعددي الذي يتيحه مناخ الديانات الوثنية من جهة، والطابع الرسمي الذي حظيت به الكريريس في قرطاج من جهة أخرى. وإجمالاً فإن هذه العبادة بإيحاءاتها الجنسية، وقواها المخصبة للأرض شغلت بامتياز بال الفلاح الإفريقي.

الملاحق



صورة رقم (١)

الربة ديمتر

PREVOST Jacques Henri, Petit manuel d'humanité, les antiques religions à mystres, cahier 35, p.2.



خريطة رقم (١)

التوزيع الجغرافي للنقائش الخاصة بعبادة الكريريس

الاحالات المرجعية:

(1) Foucher Louis, Le paganisme en Afrique proconsulaire sous l'Empire Romaine, bilan d'un demi siècle de recherche, www.tabbourt.com/(bibliographie Maghreb antique et médiéval, p.10.

(2) Cadotte Alain,La Romanisation des dieux, l' interprétatio romana en Afrique du Nord sous le Haut Empire, Brill,leiden Boston, 2007,p.343;Gsell,Autel romain de Zana (Algérie),In comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles lettres,75° année,n°3,1931,p.266.

(3) Camps Gabriel, Cereres, in Encyclopédie berbère,12 [capsa-cheval, [en ligne], p.1841; Carcopino (j), Salluste, Le culte des Cereres et les Numidies, Revue historique, 158,1928,p.2.

(4) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, XIV, 77,5, 5 ,traduit par Hoefer(F),Paris,1912.

(5) Danilo Andrade Tabone, Commentaires sur quelques évidences du culte à Déméter et Coré dans la Carthage Punique, In R. Museu Arq. Etn., 31: 110-130, 2018., p. 114.

(6) Diodore de Sicile, Bibliothèque historique, XIV, 77,5 ;Cadotte, La Romanisation des dieux ...op cit, p 343.

(7) Picard Gilbert Charles, Le tophet de Carthage dans Silius Italicus, in Mélanges de philosophie, de littérature et d'histoire ancienne offerts à Pierre Boyancé, Publications de l'Ecole française de Rome, 1974, p.576.

(8) Pena, M.J. 1996. El culto a Deméter y Core en Cartago: aspectos iconográficos. Faventia 18(1), p. 43.

(9) Cadotte, La Romanisation des dieux …op cit,p. 346.

(10) Danilo Andrade Tabone, Commentaires sur quelques évidences du culte à Déméter et Coré…op.cit, p. 117.

(11) Ibid, p . 346.

(12) Picard Gilbert Charles, Le tophet de Carthage …op .cit,p.576.

(13) Danilo Andrade Tabone, Commentaires sur quelques évidences …op.cit., p. 113.

(14) Cadotte, La Romanisation des dieux…op.cit, p . 353 .

(15) Le Glay Marcel,Le paganisme en Numidie et dans les Maurétanies…op.cit,p .65.

(16) Camps G ,Cereres, E.B…op.cit,p.1841.

(17) Le Glay, Le paganisme en Numidie et dans les Mauritanies …op.cit, p.65.

(18) BONNET Corinne, Identité et altérité religieuses .À propos de l'hellénisation de Carthage, PALLAS, 70, 2006, p. 374.

(19) Carcopino (J), Aspects mystiques de la Rome Païenne, Paris, 1941, p.16 ; Fantar Mhamed, A propos de la présence des Grecs à Carthage, Antiquités Africaines, Volume 34, numéro 1, 1989, p.14 ; Cadotte, Catalogue, n° 479 .

(20) Camps G, Cereres, in Encyclopédie berbère…op.cit, p1841.

(21) Le Glay, Les Syncrétismes dans l'Afrique ancienne,in Les Synccrétismes dans les Religions de l'Antiquité, colloque de Besançon (22-23 Octobre 1973), coordonné par, Françoise Dunant et Pierre Lévêque,Leiden E.J.Bril,1975,p.126.

(22) Toutain Jules, Les cultes païens dans l'Empire romain,première partie, les provinces latines, tome I, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1907,p.346.

(23) Camps G, Cereres …op.cit .p.1842 ; CIL, VIII, 14394 .

(24) BONNET Corinne, Identité et altérité religieuses .À propos de l'hellénisation de Carthage…op.cit, p. 369.

(25) Ibid, p. 373.

(26) Bayet Jean, Histoire politique et psychologique de la religion romaine, Payot, Paris, 1957, p .205 ; Charlier René,La Numidie vue par Salluste : Constantine ou Le Kef ? in Antiquité classique, tome 19, fasc .2, 1950,p.293.

(27) Bensedik Nacéra, A la recherche de Thagaste, patrie de Saint Augustin, in Saint Augustin : Africanité et Universalité Actes de colloque innternational, Alger –Annaba, 1-7 Avril,textes réunis par : Pierre Yves Fux,Jean- Michel Rosesseli, Otto Wermelinger, éditions Universitaires Fribourg .2003, p.428.

(28) Benzina Benabdellah Zineb, Catalogue des Inscriptions latines paiens du musée du Bardo,Ecole française deRome,Rome,1986,p.259.

(29) Camps, Cereres …op.cit, p.1844.

(30) Picard Gilbert, Nouveaux documents sur le culte des Cereres en Afrique proconsulaire, Actes du 79, 1954, p.٢٥ ٣; Foucher, Le paganisme….op.cit, p.11.

(31) Camps G,Cereres…op.cit,p.1844 ; CIL, VIII,16693 ; AE,1953, 55 .

(32) LAfr,238.

(33) Ferchiou Naidé, Recherches sur l'iconographie religieuse dans l'ancien territoire de la Carthage antique, in fronton de chapelle de la région de Bou Arada, In Antiquités Africaines,34,1998, p.61.

(34) Cadotte, La Romanisation des dieux….op.cit,p . 353.

يرجح الباحث شارليي أن مدينة كرتا هي مدينة الكاف التونسية الحالية، ينظر

Charlier René, La Numidie vue par Salluste …op.cit,p . 297.

(35) Camps.G, Cereres …op.cit, p.1844; Salluste, Guerre de Jugartha, XVIII.

(36) Gsell, H.A.A.N, Tome IV,p . 261.

(37) Camps G, Les Berbères, Mémoire et identité, Babel, Paris, p.206 ; Smadja Elisabeth,interpréter pour assimiler ? Alain Cadotte, la Romanisation des dieux, l'interpretatio

romana en Afrique du Nord sous le Haut Empire,in Dialogues d'histoire ancienne, volume 37,n°1,2011,p.203.

(38) Camps G, Cereres ...op.cit.,1844; AE, 1951, 55 .

(39) Toutain, Les Cultes paiens,I…op.cit,pp.450-455.

(40) Février Paul Albert, Religion et domination dans l'Afrique Romaine, in Dialogues d'Histoire ancienne,volume 2,1979,p .309 ; Salluste, Guerre de Jugurtha,VIII.

(41) Ibid,p. 312 ;CIL, VIII,12300.

(42) Lipinski Edward, Dieux et Déesses de l'univers phénicien et punique, uitbeverij peeters and Département oosterse Studies Leuven, 1995,p.378 .

(43) Gascou Jacques,Les Sacerdotes Cererum de Carthage, in Antiquités africaines,23,1987,p.97.

(44) Le Glay, La place des affranchis dans la vie municipale et dans la vie religieuse, in Mélanges de l'Ecole française de Rome, Antiquité, tome 102, n°2, 1990, p.628.

(45) Février Paul-Albert. Le culte des Cereres en Afrique. In: Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France, 1975,1977;, p. 40.

(46) Danilo Andrade Tabone, Commentaires sur quelques évidences …op.cit., p. 116.

(47) CIL, VIII, 26519 (Sacerdotos cer (erum) anni …= 68 = 28/29ap. J.C).

(48) Le Glay, La place des affranchis…op.cit, p.632.

(49) Gascou, Les Sacerdotes Cererum de Carthage…op.cit, p.116.

(50) Gascou, Sacerdoces Cererum …op.cit, p.117; Picard G,Les Religions de l'Afrique antique,Paris,195,p.150.

(51) Toutain, Les Cultes paiens,I...op.cit,p.346 ; Picard,Les Religions…op.cit,p.185.

(52) Picard Gilbert, Nouveaux documents sur le culte des Cereres…op.cit, p.254 .

(53) Camps G, Cereres...op.cit,p.1844.

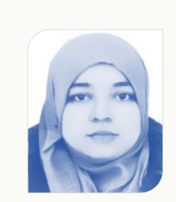
(54) Février P.A, Religion et domination …op.cit,p.309.

(55) Ibid, p.309.

(56) Camps G, Cereres …op.cit, p.1844.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

حصيلة الأبحاث التاريخية والأثرية حول مدينة ليكسوس الأثرية
دراسة بيبليوغرافية



حنان ابراهيمي
طالبة باحثة في سلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – القنيطرة
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر مدينة ليكسوس الأثرية، إحدى أقدم وأعرق وأهم المدن التاريخية في الساحل الأطلسي، التي حظيت باهتمام كثير من الباحثين. لذا نروم من خلال هذا المقال، الانفتاح على الدراسات التي تناولت هذه المدينة الأثرية، وساهمت في التعريف بها، وذلك من خلال جرد كل ما كتبه المؤرخون المغاربة والأجانب على حد سواء، وتقديم قراءة حولها، للوقوف على الجوانب التي تمت دراستها، والتي لم يتم التطرق إليها بعد. وقد توصلت الباحثة إلى أن الأبحاث التاريخية والأثرية التي شملت موقع ليكسوس، قد أحرزت تقدمًا ملحوظًا في الآونة الأخيرة. وذلك بفضل اعتماد الباحثين على مصادر متنوعة، كما تبين لنا من حصيلة الدراسة البيبليوغرافية التي قمنا بإنجازها. وكذلك توظيفهم لمجموعة من العلوم الحديثة التي مكنتهم من التدقيق في المعطيات الكلاسيكية، ورصد بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمنطقة، وكذا تكوين صورة عن نوعية العلاقات التي جمعتها بالشعوب المتوسطية الأخرى.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٢	أكتوبر	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:
موقع ليكسوس الأثري؛ العصر القديم؛ جرد الدراسات المغربية والأجنبية؛ تقديم حصيلة حول الأبحاث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.309265 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
حنان ابراهيمي. "حصيلة الأبحاث التاريخية والأثرية حول مدينة ليكسوس الأثرية: دراسة بيبليوغرافية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٤٠ – ٥٧.

Corresponding author: hanan.ibrahimi@uit.ac.ma
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَورية كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

يرى البعض أن ممارسة البحث في تاريخ المغرب القديم هو مغامرة كبيرة، نظرًا لشح المعلومات الواردة عنها في المصادر الإغريقية واللاتينية، وتميز معظم هذه المصادر ببعد المسافة الزمنية بين وقوع الأخبار وتدوينها. وأحيانًا ببعد المجال الجغرافي بين مواقع الأخبار ومواطن المؤرخين، مما جعل الاعتماد على الأبحاث التاريخية والأثرية أمرًا لا مفر منه.

لا يختلف الأمر كثيرًا عند الحديث عن تاريخ المعلمة الأثرية ليكسوس، الواقعة على بعد ٤ كلم من مدينة العرائش المغربية، بالضفة اليمنى من واد اللوكوس. فبفضل الدراسات المتوفرة حاليًا حولها، أصبح بالإمكان القيام بقراءات جديدة لتلك النصوص، لإزالة الستار عن ماضيها العريق وإحيائها، وجعلها ماثلة في الفكر والوجدان. خاصةً وأن حملات التنقيب بها، أصبحت تتم بعد سنة ١٩٨٩م في إطار بعثات مشتركة، بين باحثين مغاربة وآخرين أوروبيين. ما يعني مزيدًا من تبادل الخبرات، والمعارف فيما بينهم، وهو ما ساهم بشكل كبير في الكشف عن العديد من المعطيات حولها. لذلك جاء هذا المقال لتقديم نظرة شاملة حول إسهامات الباحثين في هذا الموضوع، وإننا نُعد هذا العمل نواة لبيبليوغرافيا يمكن تطويرها مستقبلاً، بتضافر جهود باحثين آخرين.

أولاً: حصيلة الدراسة البيبليوغرافية

لعل أول ما يصطدم به المؤرخ في دراسة موقع ليكسوس الأثري، هو ندرة الخبر وتكرار القليل المتوفر، وامتزاجه بالأسطورة في المصادر الكلاسيكية، الأمر الذي يجعلها لا تخدم الحقائق التاريخية مباشرة. لذا كان لا بد من الانفتاح على الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، والتي مكنت من تقديم قراءات جديدة لتلك النصوص، سواء من الناحية التاريخية أو الأثرية. تجدر الإشارة إلى أننا تمكنا من الوصول إلى أكثر من (٢٠٠) عنوان، وهي تضم الدراسات التي زودنا بها محافظ موقع ليكسوس الأثري الأستاذ هشام حسني. وكذلك الدراسات التي قدمها لنا أستاذ التاريخ القديم بجامعة ابن طفيل سعيد البوزيدي، والتي جاءت ضمن أطروحة **"المغرب القديم في الاسطغرافيا الحديثة والمعاصرة"** لحميد عرايشي، هذا طبعًا إلى جانب ما استطعنا العثور عليه بمجهودنا الشخصي.

الباحثون في موضوع موقع ليكسوس الأثري: بلغ عدد الباحثين الأوروبيين الذين درسوا هذا الموضوع (١٦١) باحثا، في حين بلغ عدد المغاربة (٥٢) باحثًا، أما العرب فلم يتجاوزوا اثنين، إلى حدود ما توصلنا إليه من معلومات. انظر شكل رقم (١).

نوع العمل: فيما يخص نوع العمل المرتبط بالموضوع السالف الذكر، فنلاحظ أن العمل الفردي كان مهيمنا بنسبة كبيرة بالمقارنة مع العمل الجماعي. بحيث بلغ العمل الفردي (١٥٦) عملا أي بنسبة (٧٥%)، أما العمل المشترك ف (٤٤) عملاً أي بنسبة (٢٢%)، والذي توزع بين (٢٤) عملاً أوروبيا أي بنسبة (١٢%)، و(١٦) عملاً مغربي أوروبي أي بنسبة (٨%). ثم (٤) أعمال مغربية أي بنسبة (٢%)، في حين لم نتمكن من العثور على أي عمل مغربي مغاربي. انظر شكل رقم (٢).

طبيعة العمل: استأثرت المقالات بشكل كبير في هذه الدراسة، بحيث وصل عددها إلى (١١٠) مقالاً أي بنسبة (٥٥%). بالمقارنة مع الكتب وأعمال الندوات اللتان بلغتا (٤١) عملاً أي بنسبة (٢١%)، في حين لم يتجاوز عدد التقارير وأعمال التكريم (٤) أعمال أي بنسبة (٢%). انظر شكل رقم (٣).

لغة البحث: فيما يتعلق باللغة المستعملة في هذه الدراسات، فتوزعت بين العربية التي وصل عددها إلى (٣١) عملا، والفرنسية التي بلغت (١١٧) عملاً. أما الإسبانية ف (٥٠) عملاً، في حين لم نجد سوى عمل باللغة الألمانية والإنجليزية. انظر شكل رقم (٤).

تاريخ الإصدار: إن أول ما يثير الانتباه بهذا الخصوص هو قلة الدراسات خلال الفترة ما بين سنتي ١٨٠٠م و١٩١٢م، التي لم تتجاوز (٦) دراسات، في حين نلاحظ تصاعدًا في عدد إصداراتها في فترة الحماية لتبلغ (٣٩) دراسة. وقد استمر هذا التصاعد خلال فترة الاستقلال إلى حدود سنة ١٩٨٠م، بحيث وصلت إلى (٤٩) دراسة، ثم عرفت بعد ذلك تراجعا طفيفا ما بين سنتي ١٩٨١م و٢٠٠٠م إلى (٤٣) دراسة. وانطلاقًا من سنة ٢٠٠١م إلى سنة ٢٠١٨م سنشهد مرة أخرى ارتفاعا في عددها، لتصل إلى (٦٣) دراسة. انظر شكل رقم (٥).

المصادر المعتمدة: يقدر عدد المصادر التي وظفت من قبل الباحثين لدراسة موقع ليكسوس الأثري، بـ (١٠) مصادر، وقد تنوعت بين مصادر أدبية اعتمدتها (١٣٢) دراسة أي بنسبة (٤٣%)، ومصادر أثرية بلغ عدد الدراسات التي تناولتها (١٨٤) دراسة أي بنسبة (٥٩%). بالنسبة للأولى فتوزعت بين (٢٧) دراسة اعتمدت على نصوص لاتينية أي بنسبة (٩%)، و(٨٤) دراسة وظفت نصوصا أجنبية أي بنسبة (٢٧%)، و(٢١) دراسة اعتمدت على نصوص عربية أي بنسبة (٧%). أما فيما يخص الثانية، فنجد أن هناك أبحاثًا عن النقائش وعددها (٢٢) دراسة

أي بنسبة (٧%)، بالإضافة إلى أبحاث تناولت موضوع النقود وصلت إلى (١٢) دراسة أي بنسبة (٤%)، وهناك أبحاث همت الخزف بلغت (٤٢) دراسة أي بنسبة (١٣%)، إلى جانب دراسات حول الأمفورات والتي تقدر بـ(١٥) دراسة أي بنسبة (٥%)، وأيضا الفسيفساء التي لم تتجاوز (٨) دراسات أي بنسبة (٣%)، وكذلك البرونزيات التي بلغت (١٠) دراسات أي بنسبة (٣%). هذا دون أن ننسى دراسات اعتمدت أبحاثًا أثرية أخرى، وعددها (٧٥) دراسة أي بنسبة (٢٤%). انظر شكل رقم (٦).

التطور الكرونولوجي للمدينة: اتجهت العديد من الأبحاث لدراسة الفترة المورية التي بلغ عددها (١٤٦) دراسة، بحيث نسجل حضورا لأبحاث تتحدث عن الوجود الفينيقي القرطاجي بليكسوس، التي وصلت إلى (٨٥) دراسة، وكذلك الأبحاث المرتبطة بحضور المملكة المورية بهذا الموقع، والتي بلغت (٦٦) دراسة، ثم الفترة الرومانية التي سجلت (٦٢) دراسة. في المقابل لا نجد دراسات كثيرة تهم كل من فترة ما قبل التاريخ التي لم تتجاوز (١٢) دراسة، والفترة المتأخرة التي بلغ عددها (٢٢) دراسة. انظر شكل رقم (٧).

المباني الأثرية لموقع ليكسوس: تعد ليكسوس أحد أهم المواقع الرئيسية في العصور القديمة بالمغرب وعالم البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما يفسر الاهتمام الذي حظيت به من قبل الباحثين. الذين اهتموا بدراسة كل ما يمكن أن يوصلهم إلى معرفة ماضي هذه المدينة، وبطبيعة الحال كانت مبانيها الأثرية جزء لا يتجزأ من هذه الدراسة، مع أنها كانت الأقل حظًا في هذا الجانب. فبالنسبة للسور الهلنستي لم يتجاوز (٣) دراسات أي بنسبة (١٣%)، أما قصر ليكسوس والحي الإداري فهناك (٥) دراسات أي بنسبة (٢١%)، في حين بلغ عدد الدراسات التي تناولت الحي الصناعي (٧) دراسات أي بنسبة (٢٩%)، وفيما يخص كل الحي السكني والمقابر، فلم نتمكن من العثور سوى على دراستين أي بنسبة (٨%). انظر شكل رقم (٨).

إن تتبع حصيلة الأبحاث التاريخية والأثرية المتعلقة بموقع ليكسوس الأثري، يكشف عن التقدم الملحوظ الذي عرفته منذ القرن (١٩م) وحتى العقود الأخيرة من القرن (٢١م). بحيث نلاحظ أن هناك قدرا من الحيوية التي بدأت تطفو على السطح، بفعل تضافر جهود الباحثين المغاربة والأجانب على حد سواء من أجل إغنائه. والتي نلمسها من خلال تزايد عدد الإصدارات المرتبطة بالموضوع، التي وصلت سنة ٢٠١٨م إلى ٦٦ دراسة، بعد أن كانت لا تتجاوز ٦ دراسات خلال فترة ما قبل الحماية. وقد تميزت باعتمادها على مصادر أدبية وأثرية متنوعة، وتوظيف بعضها لمجموعة من العلوم الحديثة، كعلم الأركيولوجيا الحيوانية وعلم الأسماك وعلم الرخويات...، حيث مكنت من التدقيق في المعطيات الكلاسيكية، ورصد بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمنطقة، وكذا تكوين صورة عن نوعية العلاقات التي جمعتها بالشعوب المتوسطية الأخرى. ما جعل منها مادة علمية غنية، تحتوي على كم هائل من المعلومات والحقائق التاريخية، التي من شأنها أن تسهم بشكل كبير في استكمال بعض الحلقات المفقودة من تاريخ هذه المعلمة، على عكس الإسهامات السابقة التي ظلت على شكل حصيلة لدراسات أخرى، أو قراءات جديدة لمعطيات معروفة من قبل.[1]

لكن وعلى الرغم من هذا الاهتمام المتزايد الذي حظي به هذا موضوع، والتنوع الذي عرفته هذه الأبحاث سواء من حيث الكم، أو طبيعة العمل، أو نوع العمل، أو المصادر المعتمدة، الذي جعل منها مادة علمية خصبة، تسمح بخلق فرص للباحثين من أجل الخوض في موضوعات جديدة. تستوقفنا مجموعة من الأشياء، منها من تثير علامات الاستفهام، وأخرى يمكن أن تتسبب في الحد من تطورها: ككثرة الدراسات التي قام بها الأوروبيون على سبيل المثال بالمقارنة مع التي قام بها المغاربة أنفسهم، فليكسوس وكما هو معلوم هي جزء لا يتجزأ من حضارتهم، فهل يتعلق الأمر بأسباب مرتبطة بالفضول العلمي، أم أن هناك غايات أخرى؟ وأيضا هناك قلة عدد الأبحاث التي تطرقت لدراسة المباني الأثرية، وكل من فترة ما قبل التاريخ والفترة المتأخرة للموقع، على عكس الفترتين المورية والرومانية، وهو ما يتطلب بذل كثير من الجهود في هذا الجانب، للكشف عن تطوره التاريخي، وفي نفس الوقت يجعلنا نتساءل عن سبب إحجام الدارسين عنها.

إضافة إلى ما ذكرناه سابقًا، فإن أغلب الأعمال التي تناولت تاريخ هذه المدينة هي أعمال فردية، وهو ما يعكس ضعف الاهتمام بالعمل البحثي الجماعي والمشترك، وإن كانت هناك بعض المحاولات فهي قليلة. وبالتالي هذا لا يساعد على إخراج البحث في أحسن صورة، لأن العمل الجماعي يتيح المجال لتبادل الخبرات والأفكار وكذلك المهارات، التي يتميز بها كل فرد داخل المجموعة.

من جانب آخر يظهر بشكل جلي تصدر اللغات الأجنبية لها، وبالخصوص اللغتين الفرنسية والإسبانية مقارنة مع اللغة العربية، حتى إننا نجد أن الكثير من الباحثين المغاربة لهم أعمال

باللغة الفرنسية والإسبانية. وهو ما يشكل عائقا أمام الطلبة الذين لا يتقنون تلك اللغات، ويعتمدون فقط على المؤلفات العربية، ومن ثم تبقى معرفتهم سطحية بهذا الموضوع، بسبب عدم تمكنهم من الوصول إلى معلومات جديدة حوله. فهل يمكن أن تفسر هذه الظاهرة عدم إقبال البعض منهم، على هذا النوع من الدراسات، التي تسلط الضوء على التاريخ المنسي لهذه المعلمة الفريدة؟ وبالتالي من هي الفئة المستهدفة بها؟ وإلى أي حد استفاد المؤرخ المغربي منها، وبالتحديد من تلك التي خلفها الاستعمار؟ خاصة إذا علمنا أن هناك انعدام الثقة بمعطياتها، التي ساهمت فيها الانشغالات الإيديولوجية للحركة الاستعمارية في البداية، والمتمثلة في البحث عن الإرث الروماني القديم، لإضفاء المشروعية على مشروعهم الاستعماري. بحيث تمخض عنها ظهور أطروحات متناقضة، ظلت تتناقلها الأقلام خلال القرن التاسع عشر الميلادي وطيلة النصف الأول من القرن ٢٠م،[٣] بمعنى آخر، هل استطاع الباحث المغربي في ظل هذه التطورات تقديم صورة موضوعية عن تاريخ هذا الموقع الأثري، من تلك التي ما يزال يقدمها عنا غيرنا؟

ثانيًا: بيبليوغرافيا باللغة العربية

- أعشي (مصطفى)، "حدود موريطانيا الطنجية في عهد الاحتلال الروماني"، **مجلة تاريخ المغرب**، ع.٣، ١٩٨٣م، الرباط، ص: ٦٩- ٨٠.
- أعشي (مصطفى)، "من ميناء ليكسوس النهري إلى ميناء تينكا (طنجة) البحري"، ضمن **المدن المراسي في تاريخ المغرب**، تنسيق ناصري (عبد المالك)، (أشغال الأيام الوطنية الثامن عشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، الدار البيضاء في: ٢٧-٢٩ أكتوبر ٢٠١٠م)، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط1.، الرباط، ٢٠١٣م، ص: ٨٥- ١٠٦.
- أفا (عمر)، أكراز (عمر)، بلكامل (البضاوية)، وآخرون، **تاريخ المغرب تركيب وتحيين**، تحت إشراف القبلي (محمد)، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، ط.١، الرباط،٢٠١١م.
- أكرير (عبد العزيز)، "العلاقات المغربية- المشرقية من خلال استقراء بعض جوانب الإسطوريوغرافيا القديمة"، ضمن **أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم وحضارته**، تنسيق غازي- بن ميس (حليمة)، بلكامل (البيضاوية)، أعمال مهداة للأستاذ المصطفى مولاي رشيد، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط.١، الرباط، ٢٠٠٧م، ص: ٣٣٣- ٣٤٨.
- أمريغ (عبد المجيد)، "المجال الصحراوي المغربي من خلال النصوص الأدبية القديمة"، ضمن **أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم وحضارته**، تنسيق غازي- بن ميس (حليمة)، بلكامل (البيضاوية)، أعمال مهداة للأستاذ المصطفى مولاي رشيد، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط.١، الرباط، ٢٠٠٧م، ص: ٢٠٥-٢٢٣.
- برادة (ثريا)، مجدوب (محمد)، "الكاروم"، ضمن **معلمة المغرب**، تحت إشراف حجي (محمد)، مطابع سلا، ج.٢٠، سلا، ٢٠٠٤م، ص: ٦٧٢٠- ٦٧٢٢.
- بلكامل (البضاوية)، "الواقعية من خلال فسيفساء الشمال الإفريقي"، ضمن **أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم وحضارته**، تنسيق غازي- بن ميس (حليمة)، بلكامل (البيضاوية)، أعمال مهداة للأستاذ المصطفى مولاي رشيد، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط.١، الرباط، ٢٠٠٧م، ص: ٧٥، ٩١.
- بلكامل (البيضاوية)، "أصناف الموانئ وأدوارها بالمغرب القديم من خلال المصادر الأدبية والأثرية"، ضمن **المدن المراسي في تاريخ المغرب**، تنسيق ناصري (عبد المالك)، (أشغال الأيام الوطنية الثامن عشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي الدار البيضاء في: ٢٧-٢٩ أكتوبر ٢٠١٠م)، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط1.، الرباط، ٢٠١٣م، ص: 47- 83.
- بوطالب (إبراهيم)، روزنبيرجي (بيرنار)، أمين (عبد العزيز)، وآخرون، **تاريخ المغرب**، ترجمة الغرايب (محمد)، بل الفايدة (عبد العزيز)، العرجون (محمد)، مكتبة التاريخ، ط.١، الرباط، ٢٠١٨م.
- جلاب (حسن)، الفلاح (بوشتى)، سلوي (عبد المالك)، المغراوي (محمد)، "العرائش"، ضمن **معلمة المغرب**، تحت إشراف حجي (محمد)، مطابع سلا، ج.١٨، سلا، ٢٠٠٣م. ص: ٦٠١٥- ٦٠١٦.
- حرث (محمد عبد الهادي)، **التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٢م.
- الخطيب (عبد اللطيف)، "ليكسوس"، **مجلة تطوان**، ترجمة المكناسي (أحمد)، طاراديل (ميكيل)، ع.٦، ١٩٦١م، تطوان، ص: ١٩٥-٢٠٥.

- الخطيب بوجيبار (نعيمة)، "مدينة ليكسوس القديمة"، ضمن **مذكرات من التراث المغربي**، تحت إشراف الصقلي (العربي)، مركز ميلاد حضاري، مج. ا، مدريد، ١٩٨٥م، ص: ١٨٣، ١٨٩.
- ركلمة (رتيبة)، "مواد وتقنيات البناء بين المحلي والمستورد بموريطانيا الطنجية"، ضمن **التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم**، (المؤتمر الأول حول التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم، فاس، ٢٩- ٣١ مارس ٢٠١٣م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، ع.٣٣، سايس- فاس، ٢٠١٤م، ص: ٩٢ -١١٠.
- سنيوبوس (شارل)، **تاريخ حضارات العالم**، ترجمة كرد (علي محمد)، الدار العالمية للكتب والنشر، ط.ا، الجيزة، ٢٠١٢م.
- شداد (المحسن)، "قراءة واستنتاجات في مفهوم دائرة مضيق جبل طارق"، ضمن **التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم**، (المؤتمر الأول حول التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم، فاس، ٢٩- ٣١ مارس ٢٠١٣م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، ع.٣٣، سايس- فاس، ٢٠١٤م، ص: ١٦٧ - ١٨٠.
- الصغير (محمد غانم)، **التوسع الفينيقي في غرب البحر الأبيض المتوسط**، المؤسسة الجامعية الجزائر للدراسات والنشر والتوزيع، ط.ا، بيروت، ١٩٧٨م.
- طاراديل (ميكيل)، "تماثيل برونزيان من ليكسوس"، **مجلة تطوان**، ترجمة المكناسي (أحمد)، ١٩٥٦، تطوان، ص: ٨٩، ١٠٧.
- طاراديل (ميكيل)، "عصر الفينيقيين الأول بالمغرب"، **مجلة تطوان**، ترجمة المكناسي (أحمد)، ع. ٣-٤، ١٩٥٨- ١٩٥٩، تطوان، ص: ١٧٧، ١٩٢.
- العزيفي (محمد رضوان)، "الدور الاقتصادي لمؤسسة المعبد في عملية التوسع الفينيقي"، ضمن **أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم وحضارته**، تنسيق غازي- بن ميس (حليمة)، بلكامل (البيضاوية)، أعمال مهداة للأستاذ المصطفى مولاي رشيد، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط.ا، الرباط، ٢٠٠٧م، ص: ٣٢٤- ٣٦٦.
- العزيفي (محمد رضوان)،" **ليكسوس، مستوطنة فينيقية بالساحل الأطلنطي للمغرب**"، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سلسة الرسائل والأطروحات الجامعية، مطبعة الأفق، فاس، ٢٠١٤م.
- عمروني (التوفيق)، "النظام النقدي للملك يوبا الثاني آخر مرحلة في رومنة الأنظمة النقدية الإفريقية (المملكة الموريطانية) من خلال المكتشفات الأثرية"، ضمن **التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم**، (المؤتمر الأول حول التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم، فاس، ٢٩- ٣١ مارس ٢٠١٣م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، ع.٣٣، سايس- فاس، ٢٠١٤م، ص: ١٤٤- ١٦٦.
- العيوض (سيدي محمد)، **مدن ومراكز المغرب القديم**، منشورات أمل، الرباط، ٢٠١٥م.
- غازي(حليمة)، **نقائش لاتينية لموريتانيا التنكية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة دراسات وأبحاث رقم: ٢٤، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١١م.
- مجدوب (محمد)، "البحر في المغرب القديم"، **البحر في تاريخ المغرب**، تنسيق بلمقدم (رقية)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، المجلس البلدي لمدينة المحمدية، د.ت، ص: ١٤٧-١٦٤.
- مجدوب (محمد)، "لكسوس"، ضمن **معلمة المغرب**، تحت إشراف حجي (محمد)، مطابع سلا، ج.٢٠، سلا، ٢٠٠٤م، ص: ٦٧٩٠- ٦٧٩٣.
- المكناسي (أحمد)، المشرفي (محمد)، **خريطة المغرب الأركيولوجية**، دار كريماديس للطباعة، تطوان،١٩٦٢م.
- المكناسي (أحمد)، **مدينة ليكسوس الأثرية**، دار كريماديس للطباعة، تطوان،١٩٦١م.
- مولاي رشيد (المصطفى)، "حانون والمغرب"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، ع.١٠، ١٩٨٤م، الرباط، ص: ٩- ٢٣.
- مولاي رشيد (المصطفى)، **المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين: القرن ٦ ق.م، والقرن ٧ ب.م**، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط.ا، الدار البيضاء، ١٩٩٣م.
- واحدي (علي)، "ليكسوس: ميناء لتصنيع الأسماك وتصديرها"، **البحر في تاريخ المغرب**، تنسيق بلمقدم (رقية)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، المجلس البلدي لمدينة المحمدية، د.ت، ص: ٢٠١- ٢٠٨.

ثالثًا: بيبليوغرافيا باللغات الأجنبية

- AKERRAZ (Aomar), « Lixus, du bas-empire à l'Islam », **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p : 379-385.
- ALEXANDROPOULOS (Jacques), «Le monnayage de Lixus: un état de la question», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 249-254.
- ALMERO GRAU (Elena), «Estudio antracológico», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 219- 220.
- ALVAREZ (Nuria), BELLARD (Carlos Gómez), DE MADARIA (José Luis), «La ocupatión fenicia», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico-mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 187
- ALVAREZ (Nuria), et autre, «La ocupación fenicia», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico-mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 73 - 82.
- ARANEGUI (Carmen), et autre, «La recherche archéologique espagnole à Lixus: Bilan et perspectives», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p : 7-15.
- ARANEGUI GASCO (Carmen), «Las campañas de excavación de 1995 y 1999», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 37 - 43.
- ARANEGUI GASCO (Carmen), «Excavaciones Marroquíes y Españolas en Lixus, 1995», **Archéologie Préislamique**, (Actes des 1éres Journées Nationales d'Archéologie et du Patrimoine Rabat, 1-4 juillet 1998), S.M.A.P, vol. II, Rabat, ٢٠٠١, p : 169- 186.
- ARNEGUI GASCO (Carmen), «La campaña de excavaciones de 1999», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 109- 112.
- ARANEGUI GASCO (Carmen), «Las campañas de excavaciones», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 13- 35.
- ARANEGUI GASCO (Carmen), Enguita Huguet (ESPERANÇA), ORTEGA (Iván Fumado), «Juba II y Lixus», **Lixus-3 Área suroeste del sector monumental, (Cámaras Montalbán) 2005- 2009**, Sagvntvm, Extra -8, Valencia, 2010, p: 187- 200.
- ARANEGUI GASCO (Carmen), MAR (Ricardo), «De vuelta al barrio de los templos, Los orígenes fenicios de un gran santuario mauritano», **Lixus- 3 Área suroeste del sector monumental, (Cámaras Montalbán) 2005- 2009**, Sagvntvm, Extra -8, Valencia, ٢٠10, p: 225- 252.
- ARANEGUI GASCO (Carmen), TARRADELL-FONT (Nuria), «Lixus colonia fenicia y ciudad

púnico-mauritana. Apuntes para una historia de la investigación arqueológica», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠١٠, p: 15 - 34.

- BARTH (Heinrich), **Wanderungen durch die Küstenländer des Mittelmeeres, ausgeführt in den Jahren 1845, 1846 und 1847**, I, Band: Das Nordafrikanische Gestadeland, Berlin, 1849.
- BEHEL (M'hammed), «Fortifications pré-romaines au Maroc: Lixus et Volubilis, essai de comparaison», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 239-247.
- BEKKARI (M'hamed), « L'archéologie marocaine en 1966/ 1967», **B.A.M**, VII, 1967, Rabat, p : 651-662.
- BELEN (M), «Materiales de época fenicia de las excavaciones de Tarradell conservados en el museo de Tetuan», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠١٠, p: 83- 108.
- BELLARD (Gómez Francisco), «Un estudio antropológico», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco-Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 269- 273.
- BERGER (Philippe), «Sur une inscription punique trouvée à Lixus et sur une inscription juive ancienne de Volubilis découverte par M. De La Martinière», **B.C.T.H.S**, Paris, 1892, p : 62-66.
- BOKBOT (Youssef), ONRUBIA-PINTADO (Jorge), «La basse vallée de l'Oued Loukkos à la fin des temps préhistoriques», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p : 17-26.
- BONNET (Corinne), «Les divinités de Lixus», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p : 123-129.
- BOUBE (Jean), **La terra sigillata hispanique en Maurétanie Tingitane : les marques de potiers**, Marocaines et Internationales, Tanger, 1965.
- BOUBE-PICCOT (Christiane), «Les lits de bronze de Maurétanie Tingitane», **B.A.M**, IV, 1960, Rabat, p : 189-286.
- BOUBE-PICCOT (Christiane), «Un puisoir chypriote d'époque archaïque à Lixus (Maroc)», **R.A**, 1994, Paris, p: 3-18.
- CAGNAT (René), «Recherches et découvertes archéologiques dans l'Afrique du Nord en 1890-1891», **B.C.T.H.S**, Paris, 1891, p: 541-587.
- CALLEGRIN (L), RIPOLLES (P.P), «Las monedas de Lixus», **Lixus-3 Área suroeste del sector monumental, (Cámaras Montalbán) 2005-2009**, Sagvntvm, Extra -8, Valencia, 2010, p: 151-186.
- CARCOPINO (Jérôme), «Etude critique du Périple d'Hannon», **Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles- Lettres**, Paris, 1943, p: 137-139.

- CARCOPINO (Jérôme), **Le Maroc antique**, Gallimard, Paris, 1943.
- CARMONA GONZALEZ (Pilar), «El estuario del oued Loukkos y la evolución reciente del litoral de Lixus (Marruecos)», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- Mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 9 -14.
- CARMONA GONZALEZ (Pilar), «Cambios geomorfológicos y paleogeografía del litoral de Lixus (Larache, Marruecos)», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 5- 12.
- CARRASCO PORRAS (María Sagrario), «Estudio malacológico», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 253- 262.
- CARUANA (Isabel), VIVES FERRANDIZ (Jaime), HASSINI (Hicham), «Estudio de los materiales cerámicos de la fase púnico-mauritana III», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 169 -186.
- CARUANA CLEMENTE (Isabel), IZQUIERDO PERAILE (Isabel), «Varia. Objetos diversos hallados en las excavaciones recientes», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 231- 246.
- CHATELAIN (Louis), « Ce que nous savons des Antiquités romaines au Maroc », **B.I.H.E.M**, I, 1920, Rabat, p: 153- 163.
- CHATELAIN (Louis), « Les centres romains du Maroc », **P.S.A.M**, III, 1937, Rabat; Paris, p: 23-39.
- CHATELAIN (Louis), **Inscriptions latines du Maroc**, Paul Geuthner, Paris, 1942.
- CHATELAIN (Louis), «Le Maroc avant l'Islam», **Blanchang et Cie**, Paris, 1942, p: 77-88.
- CHATELAIN (Louis), **Le Maroc des Romains: étude sur les centres antiques de la Maurétanie occidentale**, De Boccard, Paris, 1944.
- CINTAS (Pierre), «Céramique rouge brillante de l'ouest méditerranéen et de l'Atlantique», **Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles- Lettres**, Paris, 1953, p: 72-77.
- CINTAS (Pierre), **Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc**, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1954.
- COLL CONESA (Jaume), «La época medieval. Cerámica del sector monumental», **Lixus-3 Área suroeste del sector Monumental, (Cámaras Montalbán) 2005- 2009**, Sagvntvm, Extra -8, Valencia,٢٠ 10, p: 201- 224.
- COLL CONESA (Jaume), MARTINEZ ENAMORADO (Virgilio), «La ocupación medieval», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 37- 70.
- COURTOIS (Christian), **Les Vandales et l'Afrique**, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1955.

Corpus des monnaies de Lixus », **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n°166, Palais Farnèse, 1992, p: 267-269.

- ERES IBORRA (Pilar), «El material faunístico», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campanas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 229- 240.
- ERES IBORRA (Pilar), et autre, «Gestión de recursos y economía», **Lixus : Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 191- 230.
- EUZENNAT (Maurice), «L'archéologie marocaine de 1955 à 1957», **B.A.M**, II, 1957, Rabat, p: 199-229.
- EUZENNAT (Maurice), «L'archéologie marocaine de 1958 à 1960», **B.A.M**, IV, 1960, Rabat, p: 523-564.
- EUZENNAT (Maurice), «Héritage punique et influences gréco-romaines au Maroc à la veille de la conquête romaine», **Le rayonnement des civilisations grecques et romaines sur les cultures périphériques**, Huitième congrès International d'Archéologie classique, Paris, 1963, p: 261-278.
- EUZENNAT (Maurice), «Compte rendu des travaux entrepris par le Service des Antiquités du Maroc en 1961 et 1962», **B.C.T.H.S**, Paris, 1966, p: 117-124.
- EUZENNAT (Maurice), «Une mosaïque de Lixus (Maroc)», **Mélanges d'Archéologie et d'Histoire offerts à André Piganiol**, I, 1966, S.E.V.P.E.N, Paris, p: 473-480.
- De LA MARTINIERE (Henri), «Recherches sur l'emplacement de la ville de Lixus», **B.C.T.H.S**, Paris, 1890, p: 134-148.
- De LA MARTINIERE (Henri), **Les ruines de Lixus**, B.C.T.H.S, Paris, 1918.
- De VILLEFOSSE (Héron), «Résultats de la dernière campagne de M. La Martinière au Maroc», **Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres**, XIX, 1892, Paris, p: 16-17, p : 273-274.
- DEMERLIAC (J.-G.), MEIRAT (J.), **Hannon et l'Empire punique**, Les Belles Lettres, Paris, 1983.
- DESANGES (Jehan), «Lixus dans les sources littéraires grecques et latines», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 1-6.
- DRIDI (H), «Le trône de Lixus», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campanas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 201- 210.
- EL KHATIB-BOUJIBAR (Naïma), «L'archéologie marocaine en 1964-1965», **B.A.M**, VI, 1966, Rabat, p: 539-550.
- EL KHATIB-BOUJIBAR (Naïma), «Le problème de l'alimentation en eau à Lixus», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 305-323.
- EL-HARRIF (Fatima Zohra), GIARD (Jean-Baptiste), «Préliminaires à l'établissement d'un

● GERMAIN (Gabriel), «Qu'est-ce que le Périple d'Hannon? Document, amplification littéraire ou faux intégral?», **Hespéris**, XLIV, 1957, Rabat, Paris, p: 205-248.

● GRAS (Michel), «La mémoire de Lixus : de la fondation de Lixus aux premiers rapports entre Grecs et Phéniciens en Afrique du Nord», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 27-44.

● GSELL (Stéphane), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord I, Les conditions de développement historique, Les temps primitifs, La colonisation phénicienne et l'empire de Carthage**, Hachette, Paris, 1913.

● GSELL (Stéphane), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord II, l'Etat carthaginois,** Hachette, Paris, 1918.

● GSELL (Stéphane), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord III, Histoire militaire de Carthage,** Hachette, Paris, 1918.

● GSELL (Stéphane), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord IV, La civilisation carthaginoise,** Hachette, Paris, 1920.

● GSELL (Stéphane), «Connaissances géographiques des Grecs sur les côtes africaines de l'Océan», **Mémorial Henri Basset**, I, 1928, Paul Geuthner, Paris, p: 295- 296.

● GSELL (Stéphane), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord VIII, Jules César et l'Afrique, Fin des royaumes indigènes**, Hachette, Paris, 1928.

● GSELL (Stéphane), **Histoire de l'Afrique du Nord V, Les royaumes indigènes.**

● EUZENNAT (Maurice), «Pour une lecture marocaine du périple d'Hannon», **B.C.T.H.S**, XII-XIV, 1976-1978, Paris, p: 243-246.

● EUZENNAT (Maurice), MARION (Jean), GASCOU (Jacques), **Inscriptions antiques du Maroc, 2, Inscriptions latines**, C.N.R.S, Paris, 1982.

● EUZENNAT (Maurice), «Remarques sur la description de la Maurétanie Tingitane dans Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, V, 2-18», **Antiquités Africaines**, XXV, 1989, Paris, p: 95-109.

● FANTAR (Mhamed), «La religion phénicienne et punique de Lixus : témoignages de l'Archéologie et de l'épigraphie», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 115-121.

● FERRER ERES (Miguel Ángel), «El trabajo del metal», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campanas 2000- 2003,** Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 263- 268.

● FERRON (J), «Borne indicatrice à Lixus», **Latomus**, XXVI, 1967, Bruxelles, p: 945-955.

● GALAND (Lionel), FEVRIER (James), VAJDA (Georges), **Inscriptions Antiques du Maroc (1)**, C.N.R.S, Paris., 1966.

● GASCOU (Jacques), «La politique municipale de Rome en Afrique du Nord: I. De la mort d'Auguste au début du III(e) Siècle», **A.N.R.W**, sous la direction de Temporini (H), De Gruyter, II, 10, 2, Berlin-New-York, 1982, p: 136- 229.

● GATTEFOSSE (Jean), **L'Atlantide et le Tritonis occidental**, Société de Préhistoire, Casablanca, 1932.

Organisation sociale, politique et économique, Hachette, Paris, 1928.

- HABIBI (Mohammed), «La céramique à engobe rouge phénicien de Lixus», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 145-153.
- HABIBI (Mohamed), «A propos du temple H et du temple de Melkart-Héraclès à Lixus», **L'Africa Romana**, (Atti del X convegno di studio (su l'Africa romana), Oristano, 11- 13 décembre 1992), Editrice Archivoi Fotografio Sardo, Sassai, 1994, p: 231-241.
- HABIBI (Mohammed), COLL CONESA (Jaume), CARRERA (Juan Carlos), «La ocupación medieval, Las cerámicas», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 113- 134.
- HABIBI (Mohammed), et autre, «La ocupación fenicia», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 155- 18٢.
- HAMDOUNE (Christine), «Note sur le statut colonial de Lixus et de Tanger», **Antiquités Africaines**, XXX, 1994, Paris, p: 81-87.
- HASSINI (Hicham), et autre, «El sector so de la plataforma monumental», **Lixus-3 Área suroeste del sector monumental, (Cámaras Montalbán) 2005- 2009**, Sagvntvm, Extra-8, Valencia,٢٠ 10, p: 13- 52.
- HASSINI (Hicham), et autre, «La época púnica», **Lixus-3 Área suroeste del sector monumental, (Cámaras Montalbán) 2005- 2009**, Sagvntvm, Extra-8, Valencia, 2010, p: 107- 126.
- HASSINI (Hicham), «Nouvelles découvertes archéologiques», **Le patrimoine Maure (Amazigh) du Maroc Antique**, (Actes du premier colloque sur le patrimoine Maure (Amazigh) du Maroc Antique, Fès, le 29- 31 Mars 2013), publications de Faculté des lettres et sciences humaines Fès-Saïss, n° 33, Fès-Saïss, 2014, p: 152- 164.
- HESNARD (A), LENOIR (Maurice), «Les négociants italiens en Maurétanie avant l'annexion», **Histoire et Archéologie de l'Afrique du Nord** (Deuxième Colloque International, Grenoble, 5-9 avril 1983), Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, Paris, 1985, p: 49-51.
- IZQUIERDO PERAILE (Isabel), et autre, «Las fases púnico-mauritanas I (175/150 A 80/50 A. C.) Y II (80/50 A. C.- 15 D.C)», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 141 -168.
- JODIN (André), «La Maurétanie et les relations ibéro-puniques», **Actes du 82(e) Congrès National des Sociétés** (Savantes, section d'archéologie, Bordeaux, 1957), Presses Universitaires de France, Paris, 1959, p: 215-220.
- JODIN (André), PONSICH (Michel), «La céramique estampée du Maroc», **B.A.M**, IV, 1960, Rabat, p: 287-317.
- JODIN (André), «Bijoux et amulettes du Maroc punique», **B.A.M**, VI, 1966, Rabat, p: 55-90.
- JODIN (André), «L'archéologie phénicienne au Maroc : Ses problèmes et ses résultats», **Hespéris-Tamuda**, VII, 1966, Rabat, p: 9-16.

l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 289-298.

- LENOIR (Maurice), «Lixus à l'époque romaine», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 271-287.
- LIMANE (Hassan), «La céramique du sud de la Gaule à Lixus», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 299-303.
- LOPEZ PARDO (Fernando), «Reflexiones sobre el origen de Lixus y su Delubrum Herculis en el contexto de la empresa commercial fenicia», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 85-10.
- MAASS-LINDEMANN (Gerta), «A comparison of the phoenician pottery of Lixus with the west phoenician pottery of Spain», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n°166, Palais Farnèse, 1992, p: 175-180.
- MARCY (Georges), «Notes linguistiques autour du Périple d'Hannon», **Hespéris**, XX, 1935, Rabat, p: 21-72.
- JODIN (André), **Mogador, comptoir phénicien du Maroc atlantique**, Marocaines et Internationales, Tanger, 1966.
- JODIN (André), PIGANIOL (André), **Les établissements de Juba II aux îles Purpuraires**, Marocaines et Internationales, Paris, 1967.
- JODIN (André), PONSICH (Michel), «Nouvelles observations sur la céramique estampée du Maroc romain», **B.A.M**, VII, 1967, Rabat, p: 499-546.
- JODIN (André), «Les Grecs d'Asie et l'exploration du littoral marocain», **Homenaje a Garcia BELLIDO**, II, 1976, Universidad Complutense, Madrid, p: 57- 91.
- JODIN (André), **Recherches sur la métrologie du Maroc punique et Hellénistique**, Marocaines et Internationales, Tanger, 1976.
- JORDA PEREZ (Guillem), «Estudio paleocarpológico», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco-Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 221- 228.
- LASSERE (Jean-Marie), LE GLAY (Marcel), **Vbique Popvlvs, peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 av. J.-C. 235 ap. J.-C.)**, C.N.R.S, Paris, 1977.
- LE GLAY (Marcel), **Saturne africain**, Arts et Métiers Graphiques, vol. I, II, III, Paris, 1961-1966.
- LE MONIES (?), «Une inscription latine de Lixus», **B.A.M**, VI, 1966, Rabat, p: 531-535.
- LENOIR (Eliane), «Enceintes urbaines et thermes de Lixus», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par

Carthage», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l’école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 45-57.

- ORTEGA (Iván Fumado), et autre, «La época mauritana», **Lixus-3 Área suroeste del sector monumental, (Cámaras Montalbán) 2005-2009**, Sagvntvm, Extra-8, Valencia, 2010, p: 127-150.
- ORTEGA (Iván Fumado), et autre, «La ocupación mauritana», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 87- 139.
- ORTEGA (Iván Fumado), MLILOU (Brahim), «La ocupación romana», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco-Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 71- 86.
- PASCUAL (Ignacio), DE MADARIA (José Luis), «La arquitectura», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 45- 50.
- PASCUAL (Ignacio), DE MADARIA (José Luis), ALVAREZ (Nuria), «La arquitectura», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 135- 139.
- PELLEGRIN (A), «Observation sur quelques noms de lieux cités dans le Maroc Antique de J. Carcopino», **B.E.P.M**, XXXVI, 1949, Rabat, p : 11-14.
- MARCY (Georges), «Le Périple d'Hannon dans le Maroc antique de M. J. Carcopino», **Journal Asiatique**, CCXXXIV, 1943-1945, Paris, p: 1-57.
- MARION (Jean), «Notes sur quelques monnaies Mauritaniennes inédites», **B.A.M**, IV, 1960, Rabat, p: 93-105.
- MARION (Jean), «Inscriptions sur objets métalliques en Maurétanie Tingitane», **Antiquités Africaines**, X, 1976, Paris, p: 93-105.
- MAUNY (Raymond), «Note sur le Périple d'Hannon», **1(ère) Conférence Internationale des Africanistes de l'Ouest** (II, Comptes-rendus), Institut Français d'Afrique Noire, Dakar, 1945 (1951), p: 509-530.
- MERIN (Alfred), «La véritable portée du périple d'Hannon», **Journal des savants**, Paris, 1944, p: 62- 76.
- MESNAGE (Jean), **Romanisation de l'Afrique (Tunisie, Algérie, Maroc)**, G. Beauchesne, Paris, 1913.
- MOREL (Jean-Paul), «Céramique à vernis noir du Maroc», **Antiquités Africaines**, II, 1968, Paris, p: 55-76.
- MOREL (Jean-Paul), «La céramique à vernis noir du Maroc : une révision», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l’école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 217-233.
- MOULAY RCHID (El Mostafa), «Lixus et Gadès: réalité et idéologie d'une symétrie», **Hommages à Ettore Lepore**, Les Belles- Lettres, Paris, 1989, p: 325-332.
- NIEMEYER (Hans-Georg), «Lixus: fondation de la première expansion phénicienne, vue de

- PONSICH (Michel), «La céramique arétine dans le Nord de la Maurétanie Tingitane», **B.A.M**, XV, 1983-1984, Rabat, p : 139-209.
- PONSICH (Michel), «Implantation rurale du Maroc Phénicien», **D.H.A (Les Phénicien à la conquête de la Méditerranée)**, N° 132, Paris, 1988, p : 201, 214.
- PONSICH (Michel), TARRADELL (Miguel), **Garum et industries antiques de salaison dans la Méditerranée occidentale**, P.U.F, Paris, 1965.
- REBUFFAT (René), «Les nomades de Lixus», **B.C.T.H.S**, n°18, 1988, Paris, p: 77-86.
- REBUFFAT (René), «La frontière du Loukkos au Bas-Empire», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 365-377.
- RICHINI (Sergio), «Hercule à Lixus et le Jardin des Hespérides», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 115-121.
- RODRIGUEZ SANTANA (Carmen Gloria), RODRIGO GARCIA (María José), «Las ictiofaunas arqueológicas», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco-Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 241- 252.
- ROGET (Raymonde), **Index de topographie antique du Maroc**, Paul Geuthner, Paris, 1938.
- ROMAN (Didac), et autre, «La primera ocupación del sector», **Lixus-3 Área suroeste del sector**
- PICARD (Charles), «Musées et sites archéologiques du Maroc», **Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres**, Paris, 1946, p : 662-676.
- PICARD (Charles), «A travers les musées et les sites de l'Afrique du Nord, recherches archéologiques : I, le Maroc», **R.A**, XXVII, 1947, Paris, p : 173-239.
- PONSICH (Michel), «Lixus, cité légendaire entre dans l'histoire», **Archéologia**, N°4, 1965, Paris, p: 23-27.
- PONSICH (Michel), «Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc : Région de Lixus», **B.A.M**, VI, 1966, Rabat, p : 377-42 2.
- PONSICH (Michel), «Fouilles de Lixus en 1963», **B.C.T.H.S. 1963-1964**, Paris, 1966, p:181-197.
- PONSICH (Michel), «Fouilles puniques et romaines à Lixus», **Hespéris-Tamuda**, VII, 1966, Rabat, p: 17-22.
- PONSICH (Michel), «Un théâtre grec au Maroc?», **B.A.M**, VI, 1966, Rabat, p: 317-322.
- PONSICH (Michel), «Une mosaïque du dieu Océan à Lixus», **B.A.M**, VI, 1966, Rabat, p: 323-328.
- PONSICH (Michel), «Lixus : informations archéologiques», **A.N.R.W**, sous la direction de Temporini (H), De Gruyter, II, 10, 2, Berlin-New-York, 1982, p: 817-849.
- PONSICH (Michel), «Térritoires utiles du Maroc punique», **Phönizier im Westen,** (Die Beiträge des Internationalen Symposiums uber Die phonizische Expansion im Westlichen Mittelmeerraum, 24-27 avril 1979), Herausgegeben von Hans Georg Niemeyer, Mainz am Rhein, 1982, p: 429-444.

- TARRADELL (Miguel), «Las excavaciones de Lixus (Marruecos)», **Ampurias**, XIII, 1951, Barcelona, p: 186-190.
- TARRADELL (Miguel), **Marruecos antiguo a través del Museo arqueologico de Tetuan**, Cremades, Tetuan ,1951.
- TARRADELL (Miguel), «Dos bronces de Lixus: los grupos de Hércules y Anteo y de Teseo y el Minotauro», **Tamuda**, I, 1953, Tetuan, p: 59-81.
- TARRADELL (Miguel), «Las campanas de excavaciones de 1954 y 1955 en Lixus (Marruecos)», **Actas del IV(e) Congreso Nacional de Arqueología**, (Burgos, 1955), Zaragoza, 1957, p: 193-207.
- TARRADELL (Miguel), «Breve noticia sobre las excavaciones realizadas en Tamuda y Lixus en 1958», **Tamuda**, VI, 1958, Tetuan, p: 372-379.
- TARRADELL (Miguel), **Lixus: Historia de la ciudad. Guía de las ruinas y de la sección de Lixus del museo arqueológico de Tetuan**, Instituto Muley el-Hassan, Tetuan, 1959.
- TARRADELL (Miguel), **Historia de Marruecos: Marruecos púnico**, Editorial Cremades, Tetuan, 1960.
- TARRADELL-FONT (Núria), RUIZ CABRERO (Luis Alberto), «Numismática y epigrafía prelatina», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco- Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 18٣- 200.
- TERRASSE (Henri), **Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du Protectorat français**, Atlantides, Casablanca, 1949-1950.
- THOUVENOT (Raymond), «Défense de Polybe», **Hespéris**, XXXV, 1948, Rabat, Paris, p: 79-92.

monumental, (Cámaras Montalbán) 2005-2009, Sagvntvm, Extra-8, Valencia, 2010, p: 53-106.

- ROSADO BONET (Helena), et autre, «La ocupación púnica», **Lixus-2 Ladera sur: Excavaciones arqueológicas Marroco-Españolas en la colonia fenicia campañas 2000- 2003**, Sagvntvm, Extra- 6, Valencia, 2005, p: 141- 154.
- ROSADO BONET (Helena), et autre, «La ocupación púnico-mauritana», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico- mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 51- 72.
- ROUILLARD (Pierre), «Le commerce grec du V(e).et IV(e). siècle av. J.-C. dans les régions de Lixus et Gadès», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 207-215.
- ROUSSEAUX (M), «Hannon au Maroc», **Revue Africaine**, XCIII, 1949, Alger, p: 161-232.
- SCHMITT (Paul), **Le Maroc d'après la Géographie de Claude Ptolémée**, Centre de Recherches A. Piganiol, Tours, 1973.
- SENAC (Raymond), «Le périple du carthaginois Hannon», **B.A.G.B, supplément Lettres d'Humanité**, XXV, 1966, Paris, p: 510-538.
- SOLA SOLE (J.-M.), «La inscripción púnico-libyca de Lixus», **Sefarad**, XIX, 1959, Madrid, p: 371-378.
- TARRADEL- FONT (Nuria), «Las monedas», **Lixus: Colonia fenicia y ciudad púnico-mauritana, Anotaciones sobre su ocupación medieval**, Sagvntvm, Extra-4, Valencia, ٢٠٠١, p: 247 -252.

- THOUVENOT (Raymond), «Rapport sur l'activité du Service des Antiquités du Maroc en 1948», **B.C.T.H.S**, Paris, 1946-1949, p: 634-643
- THOUVENOT (Raymond), «Promenade archéologique au Musée de Tétouan», **R.E.A**, LII, 1950, Annales de la Faculté des Lettres de Bordeaux, Bordeaux, p: 138-145.
- THOUVENOT (Raymond), «Les manufactures impériales au Maroc romain», **P.S.A.M**, X, 1954, Rabat, Paris, p: 213-216.
- THOUVENOT (Raymond), «Les mosaïques de Maurétanie Tingitane», **La Mosaïque gréco-romaine,** (Colloques Internationaux du C.N.R.S, Paris, 29 Août 3 sept. 1963), Paris, 1966, p: 267-274.
- THOUVENOT (Raymond), «Les recherches archéologiques au Maroc : notes de voyage», **B.C.T.H.S**, III, 1968, Paris, p: 269-272.
- TISSOT (Charles-Joseph), **Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane**, Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres de l'Institut de France, 1(ère) série, T.IX, Paris, 1878.
- TOVAR (A.), TARRADELL (Miguel), «Cuatro inscripciones líbicas inéditas del museo arqueológico de Tétuan», **le [Primero] Congreso arqueológico del Marrueco español** (Tetuan 22-26 Juin 1953), Servicio de Arqueología, Tetuan, 1954, p: 433-442.
- VAZQUEZ HOYS (Ana Maria), «Lixus en el panorama religioso fenicio de occidente», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 103-113.
- VILLARD (François), «Céramique grecque du Maroc», **B.A.M**, IV, 1960, Rabat, p:1-26.
- XELLA (Paolo), «La religion phénico-punique au Maroc: les apports de l'épigraphie», **Lixus** (Actes du Colloque organisé par l'I.N.S.A.P de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 novembre 1989), Collection de l'école française de Rome, n° 166, Palais Farnèse, 1992, p: 137-143.

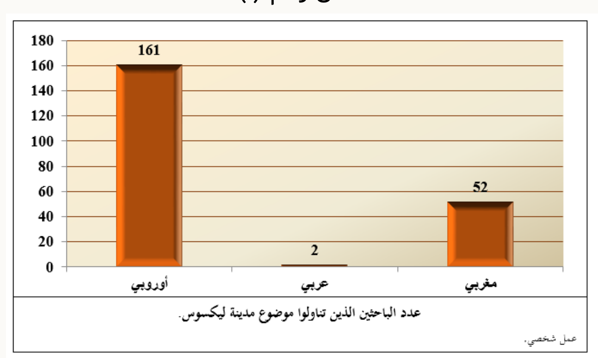
خاتمةٌ

لقد أحرزت الأبحاث التاريخية والأثرية التي شملت موقع ليكسوس، تقدمًا ملحوظًا في الآونة الأخيرة. وذلك بفضل اعتماد الباحثين على مصادر متنوعة، كما تبين لنا من حصيلة الدراسة البيبليوغرافية التي قمنا بإنجازها. وكذلك توظيفهم لمجموعة من العلوم الحديثة التي مكنتهم من التدقيق في المعطيات الكلاسيكية، ورصد بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمنطقة، وكذا تكوين صورة عن نوعية العلاقات التي جمعتها بالشعوب المتوسطية الأخرى. ما جعل منها مادة علمية غنية، تسمح بطرح آفاق أخرى للبحث في هذا الموضوع. خاصةً وأن حملات التنقيب بالمركز بعد سنة ١٩٨٩م، لم تعدّ حكرًا على الأوروبيين، بحيث أصبحت تنظم حملات مشتركة ضمت باحثين مغاربة وأجانب على حد سواء، وهو ما أثمر عنها نتائج مهمة ساهمت بشكل كبير في تطورها.

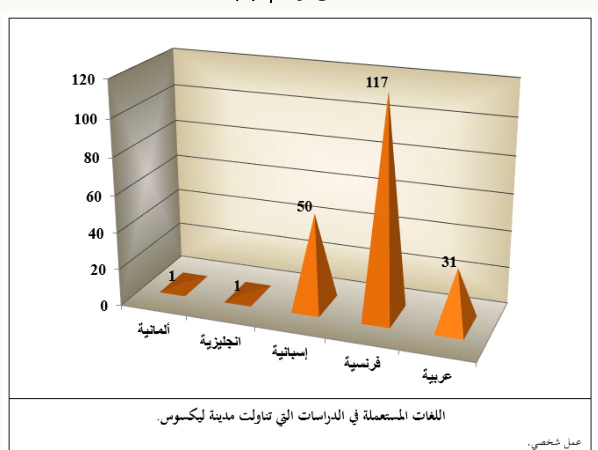
لكن قبل ذلك لابد من تجاوز بعض العراقيل التي سبق وأن أشرنا إليها، كي لا تحول دون استمرار تقدم هذه الأبحاث، وتقديم الجديد حول هذه المعلمة: كالاهتمام بالعمل الفردي أكثر من العمل الجماعي، الأمر الذي لا يساعد على إخراج البحث في أحسن صورة. وأيضًا كثرة الدراسات باللغة لأجنبية، فعلى الرغم من كونها يمكن أن تساهم في التعريف بتاريخ هذه المدينة في الأوساط الأوروبية، إلا أنها في نفس الوقت تظل غير معروفة في الأوساط المغربية، بسبب عدم إتقان الكثيرين لتلك اللغات، مما يعلل عدم إدراكهم لقيمة تراثهم التاريخي الإنساني الذي يعكس جزء من ثقافتهم وحضارتهم.

الملاحق

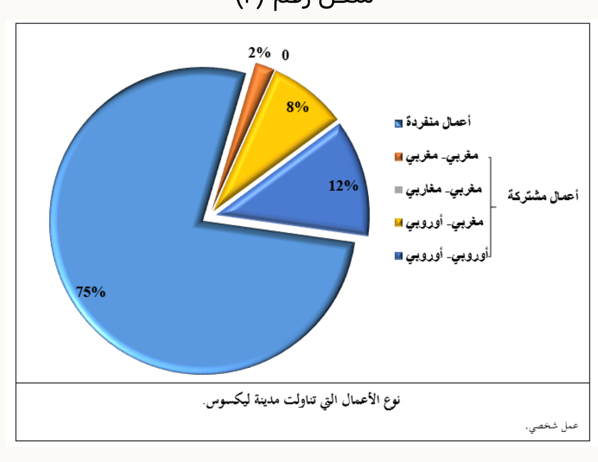
شكل رقم (١)



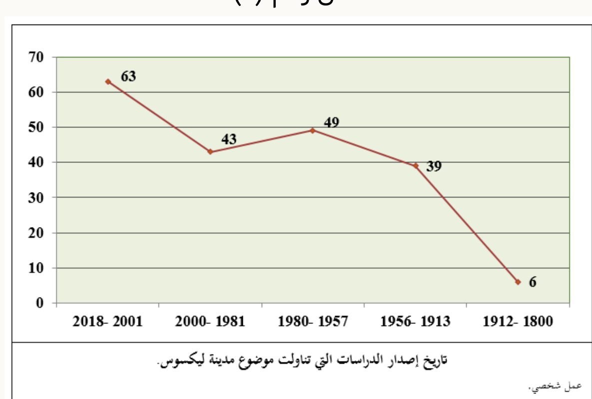
شكل رقم (٤)



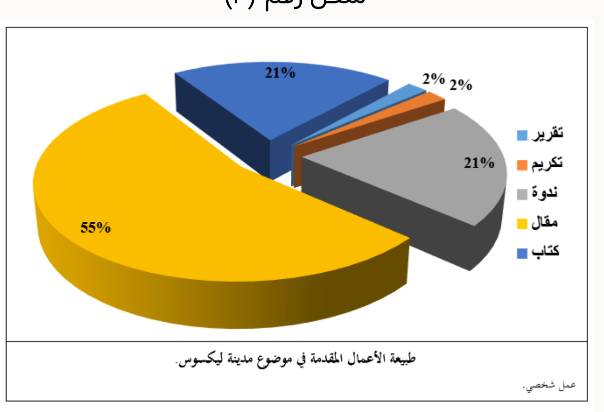
شكل رقم (٢)



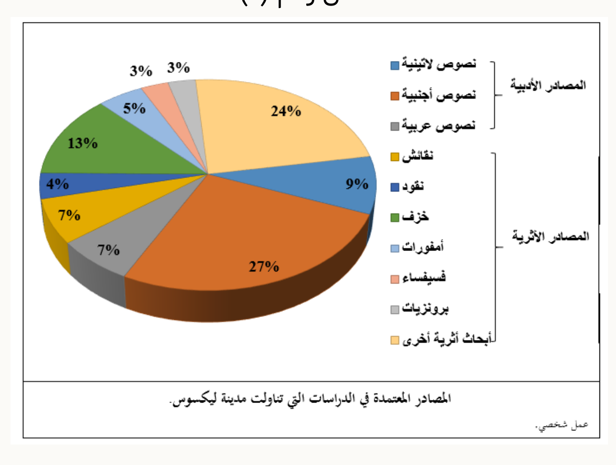
شكل رقم (٥)



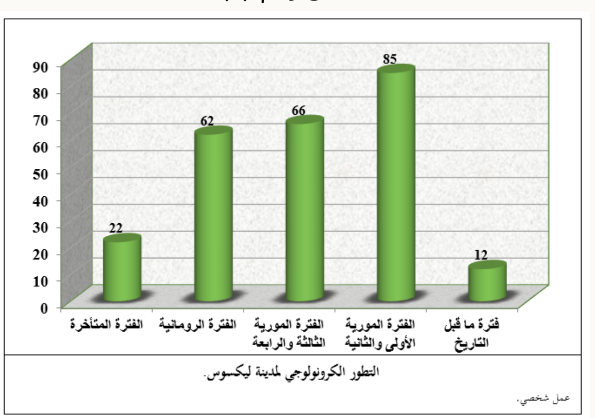
شكل رقم (٣)



شكل رقم (٦)



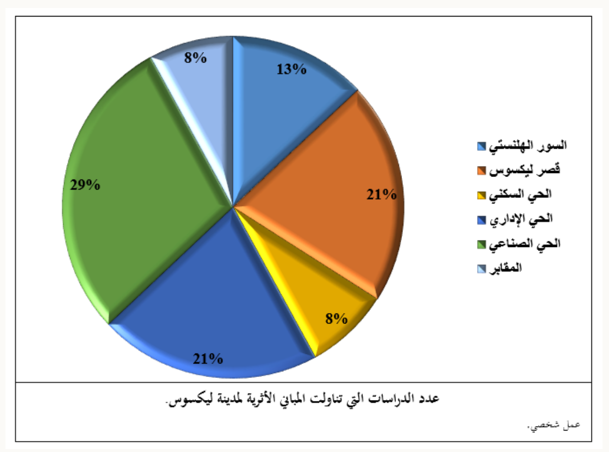
شكل رقم (٧)



التطور الكرونولوجي لمدينة ليكسوس.

عمل شخصي.

شكل رقم (٨)



عدد الدراسات التي تناولت المباني الأثرية لمدينة ليكسوس.

عمل شخصي.

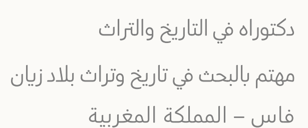
الاحالات المرجعية:

(١) العزيفي (محمد رضوان)، **ليكسوس، مستوطنة فينيقية بالساحل الأطلنطي للمغرب**، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سلسلة الرسائل والأطروحات الجامعية، مطبعة الأفق، فاس، ٢٠١٤م، ص: ١٣.

(٢) عرايشي (حميد)، **المغرب القديم في الاسطغرافيا الحديثة والمعاصرة**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ قديم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ج. ١، وجدة، ٢٠٠٢م- ٢٠٠٣م، ص: ٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

قصبة مَنْثْ
التاريخ والذاكرة

د. جواد التباعي

دكتوراه في التاريخ والتراث
مهتم بالبحث في تاريخ وتراث بلاد زيان
فاس – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

تزخر بلاد زيان حول مدينة خنيفرة وسط المغرب بتراث معماري زاخر نؤثثه العديد من المعالم، من بينها القصبات التي لا تقل عراقة عن نظيراتها ال ٧٦ عبر أنحاء البلاد رغم أنها لم تحظ بالعناية الكافية. في هذا الإطار وسعيًا منا للتعريف بهذه المآثر، وبعد التطرق في مقال سابق لقصبة موحى أوحمو الزياني بعاصمة المنطقة، نهدف من وراء هذا المقال للتعريف بهذه القصبة "الشبه مغمورة" بين الباحثين خاصة وأنها ثاني أهم قصبات المنطقة، واتبعنا في ذلك منهجًا تاريخيًا وصفيًا من خلال الغوص في سبب تسمية القصبة وعلاقتها بالسهل، السياق التاريخي لتشييدها، وأبرز مكوناتها وخصائصها المعمارية، وإبراز أهميتها في تاريخ المغرب بصفة عامة وأدوارها الريادية في تاريخ قبائل زيان على وجه الخصوص. ذلك أنها مكنت المخزن من ضبط تحركات القبائل الجبلية نحو السهل، ومكنته من تأمين الطرق، وجمع الضرائب. تميز معمارها عموما بتكيفه مع محيطه العام، وساهمت عبر تاريخها في حفظ الذاكرة الجماعية للمنطقة حتى اليوم. لذلك نوصي بالدعوة لتكثيف البحث الأركيولوجي والسيوسيولوجي بمحيط القصبة. ونهمس في آذان القائمين على الشأن الثقافي على كافة المستويات (المحلي، الجهوي، الوطني) للعمل على تثمين وحماية هذا الموقع ومواقع أخرى مشابهة يمكن أن تشكل في المستقبل القريب مسارات سياحية تجمع بين السياحة الثقافية والرياضية، خاصةً أن المنطقة نقطة التقاء بين السهل والجبل، وتتوفر على كل شروط الراحة والسياحة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٢	أكتوبر	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٦	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الفترة الإسماعيلية؛ التراث المعماري؛ قبائل زيان؛ تاريخ المغرب؛ المولى إسماعيل

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.309679 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

جواد التباعي، **"قصبة مَنْث: التاريخ والذاكرة".-** دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٥٨ – ٦٤.

Corresponding author: jaouadtabbai@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

ارتبطت دراسة القصبات عادة برصد التطورات السياسية والاقتصادية المرافقة لها، مغفلة بذلك التحولات الأخرى التي ترافق إحداث هذا النوع من العمارة الدفاعية التي تكون معرضة للهجوم في أي لحظة. وهذا ما يجعل أهلها في وضعية دفاعية على الدوام.

تنتشر ببلاد زيان مجموعة من القصبات والقلاع العسكرية التي كانت وسيلة لتوسيع دائرة السلطة السلطانية. وقربت المسافة بين مركز القرار والمجال الممتد[١]، على الأقل منذ العهد المرابطي. واكتسى نظام القصبات خلال عهد المولى إسماعيل طابعًا جديدًا تجلى في توظيفها لحماية الحدود الخارجية، وجمع الضرائب، وردع القبائل الثائرة قبل أن تصبح النواة الأولى لمجموعة من مراكز ومدن[٢] البلاد. نركز في هذا الفصل على دراسة وتثمين قصبات بلاد زيان شبه المندثرة كقصبة أَدْخسَانْ. ونعرف بالقصبات التي تصارع من أجل البقاء كشاهد ثقافي على مرحلة مهمة من تاريخ المنطقة كقصبتي موحى أوحمو الزياني، ومنت. ومجهودات وسبل إحياء أمجادها لتبقى شاهدا حيا عن ذاكرة المنطقة.

القصبة "Casbah" لغة: "جوف القصر أو القصر نفسه، وقصبة السواد مدينتها، وهي أيضا القرية"[٣]. واصطلاحًا استحكامٌ حربي بُني للدفاع عن المدينة وحماية الممر الرابط بين السهل والجبل. تشمل قصر القائد ومستقر عائلته ومقربيه وحُماته، ومستودعات المال والسلاح[٤]، وتُعَدّ ملجأ لاحتماء القائد في حالة سقوط المدينة أو عند ثورة محتملة لسكانها[٥]. يرى باحث أن للقلعة والقصبة غاية واحدة هي التحصن ضد العدو، إلا أن القلاع أقرب إلى جهاز للدولة منها إلى جهاز للقبيلة أو "الجْمَاعَةْ"، بينما تعد القصبة مركز السلطة السياسية والروحية بالمدينة[٦]. وترى باحثة أخرى أن القصبة كلمة مغربية تقابلها القلعة في المشرق[٧].

أولاً: قصبة مَنْث (الموقع والتسمية)

تعرف قصبة مَنْث عند جيرانها بـ "إغرم أقديم"، وتميزا لها عن " إغرم أوسار" جوز لنا انتماؤنا للمنطقة أن نطلق عليها ابتداءً من اليوم "قصبة منت". تقع بعد حوالي ٦ كلم من مركز أَكْـلمُوسْ بإقليم خنيفرة وسط المغرب، على الطريق الجهوية نحو ولماس على ارتفاع ١٢٨٠م عن سطح البحر عند قدم جبل أَمْدغُوسْ (١٥٣١م). شيدت على خط التماس بين زيان، وقبائل مجاورة خاصة زمور وكروان، وسط أزاغار زيان على كتلة ما قبل كمبرية، كلها عيون متدفقة فوق سطح الأرض حتى في عز الصيف. لا تبعد كثيرا عن واد أَكْـلمُوسْ أبرز وديان غرب زيان[٨].

تشير روايات من العقد الثاني من القرن العشرين إلى أن Mintكلمة فرنسية مقابلة للكلمة المحلية "فليو"، لكونه أكثر الأعشاب انتشارًا بمروج الهضبة. لكن هذه الرواية لا تصمد أمام ورود الكلمة في المصادر التاريخية، وتحديدًا عند أبي القاسم الزياني كقصبة تاريخية كانت تضاهي قصبات أدخسان وتادلا. وعثرنا على التسمية أيضا في مخطوط يعود إلى زمن محمد بن مبارك التستاوتي، تشير إلى توقف الجيش السعدي بها. وانطلاقًا من نفس المخطوط، نلاحظ أن مَنْث تحريف لكلمة "أُمَنْث"، وتذكر أن قائد جيش أحمد المنصور كان يُكذِّبُ كرامات الشيخ محمد بن مبارك التستاوتي، فقام هذا الأخير بإطلاق النحل عليه في "حادثة النحل"[٩]. فر قائد أحمد المنصور عبر تازطوط[١٠] (أحد بوحسوسن الحالية) إلى ما بعد اغْوُينَاث وأُجْبِرَ على الاعتراف بكرامات الشيخ المذكور قائلا: "أُمَّنْثُ بالله والرسول" في إشارة لتصديقه لكرامات التستاوتي فسميت المنطقة بأَمَنْث[١١]، وتدريجيا حذفت الألف لتبقى مَنْث.

وفي طرح آخر عثرنا على كلمة "منت" في الثقافة الحسانية (ثقافة سكان الصحراء المغربية) حيث يقولون: "هـذِه أرضُ مَنْث" أي: هذه أرض سهلية يتأخر فيها الخصب والاخضرار مدة طويلة بعد جفاف الأراضي المجاورة، وهي الصفة التي تنطبق على مروج وسهول منت الخصبة. لكن السؤال الذي يتطلب تعميق البحث هو: **ما علاقة منطقة منت بقبائل الجنوب المغربي؟**

في محاولة أولية للإجابة على هذا السؤال نجد أنفسنا أمام طرحين:

الأول: أن التسمية جاءت مع "عبيد البخاري" المنحدرين من الجنوب المغربي، الذين استقروا بالقصبة. الثاني: يعود إلى العلاقة التاريخية بين قبائل "تيدرارين" بجنوب المغرب، وضريح مولاي بوعزة المعروف عندهم بذي القبرين حيث يرجح ما توفر من معطيا أنهم أثناء زياراتهم لضريح الولي بعد وفاته مروا من المنطقة التي لا تبعد عن الضريح إلا بحوالي ٢٠ كلم، فأطلقوا عليها هذا الوصف الجغرافي المقتضب، وندعم هذا الرأي باستقرار بعض العائلات المنحدرة من الصحراء المغربية بمنطقة منت حتى اليوم.

عمومًا وفي غياب معطيات وأدلة ملموسة يمكن الأخذ بطرحي التأصيل الطوبونيمي للكلمة فالثاني هو تأصيل طبيعي جيولوجي للمنطقة تؤكده المعطيات على الأرض، بينما تحدد

الرواية المكان بدقة بغض النظر عن صحة الكرامة من عدمها. تتجاوز مساحتها ٦٢٠٠ هكتار، ويتراوح ارتفاع الهضبة بين ١٣١١م عند وادي إفزاون و٢٩٥١م، عند بداية قدم جبل أمْدغُوش.

ثانيًا: السياق التاريخي لتشييد قصبة مَنْث وأهم مكوناتها المعمارية

استغلت قبائل الرحل التي كانت تجوب المراعي الممتدة جنوب الأطلس الكبير، أحد نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلادي للقيام تحركات قبلية واسعة النطاق غيرت إلى حد بعيد الخريطة البشرية لمغرب هذه المرحلة. ونتج عن ذلك انهيار اقتصادي واضطراب اجتماعي، وانشغال الدولة العلوية بمشاكل المناطق الشمالية، فاندفعت في عمليات غزو واسعة لتركيز وجودها في المجال.

تدافعت داخل مجال دراستنا قبائل عدة أبرزها زمور وزعير وزيان وكروان وأيت نظير، لكن منطق القوة حسم لصالح زيان. وبهدف الحد من هذا التدافع شيد المولى إسماعيل ستًا وسبعين قصبة، تمتد من نواحي وجدة حتى وادي نون بالسوس الأقصى[١٢] لضمان استقرار نسبي للمغرب خلال فترة حكمه. ونظرًا لما عرفه الأطلس المتوسط من محاولة إيجاد سلطة بديلة بقيادة الإمارة الدلائية، صار لزاما على المولى إسماعيل بناء أو تجديد قصبة تتناسب وحجم التحديات التي خلفها هذا الحدث، ومنع القبائل الجبلية من الزحف نحو هضاب مَنْث الخصبة فشيد بها قصبة لضبط الدينامية الاجتماعية للقبائل، على امتداد الطرق التجارية السلطانية الكبرى[١٣]. لكن الإهمال والتدهور الذي وصلت إليه اليوم، يستدعيان إماطة اللثام عن مكوناتها، وأهم أدوارها التاريخية تمهيدا لمشاريع تثمينها وتوظيفها في السياحة الثقافية القروية.

ينفرد أبو القاسم الزياني بالإشارة إلى أن المولى إسماعيل أمر "ببناء قصبة مَنْث وقصبة تادلة"[١٤] سنة (١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م)، بالتزامن مع بناء قصبة أدخسان. كانت بذلك واحدة من قصبات الجبهة المتقدمة التابعة لقصبة أدخسان، تنطلق منها الحركات لردع القبائل المتمردة بأزاغار زيان الحيوي، وتتوقف بها القوافل التجارية القادمة من الغرب نحو تافيلالت. ودليلنا في ذلك إحاطتها بسور واحد. وظفت لمراقبة تحركات القبائل المجاورة، ومنعها من النزول للمرعى والحرث ونحوهما.[١٥] بالمقابل لم تشر المصادر التاريخية الأخرى لا من قريب ولا من بعيد إلى القصبة، رغم أنها كانت إلى جانب قصبتي أكواري وتادلا أبرز وسائل حماية طريق الغرب. وضمان أمن الطرق التجارية الواصلة بين الأقاليم الجنوبية وبلاد السودان إضافة إلى استخلاص المستحقات الجبائية[١٦].

بقيت القصبة غير معروفة لدى الباحثين المغاربة وحتى المحليين، لكن الإلحاح في البحث والسؤال عن موقعها وآثارها، وتحديد موقعها طيلة هذا العمل قادنا للوصول إليها صيف ٢٠١٩.

مكنتنا التحريات الميدانية من العثور على بقايا قصبة مَنْث وهي قصبة مربعة الشكل مكونة من:

الأسوار: وهي أسوار تنسجم مع محيطها العام فتخلب المناظر، أبعادها (90X90م)، وسمكها ١,٥م. تتخللها فتحات مربعة ضيقة ومنتظمة أفقيا، تمكن من استعمال البنادق. حليت أعاليها بشرفات للدلالة على النهاية العلوية للأسوار العلوية، وهي شرفات مسننة تدل بقاياها على الوظيفة العسكرية للقصبة.

الأبراج: تضم كل واجهة من واجهات السور الخارجي للقصبة أربعة أبراج مربعة تدعمه. سمك جدرانها ١,٥م، وأبعادها (4x 4م). يتم الاتصال بينها عبر ممشى السور الذي يمكن الجنود من أداء مهامهم على أكمل وجه.

الأبواب: وهي الوسيلة الوحيدة للتواصل بين داخل وخارج القصبة. جاءت أبوابها كبيرة مدعمة الجوانب بأبراج مربعة أكثر تحصينًا من غيرها دون زخرفة، تدل بقاياها على أن الباب الرئيسي كان في الواجهة الشرقية للقصبة في مقابل جبل أمدغوس، وبهذا القسم الأكثر تحصينا شيدت دار بالقرب من الباب الرئيسي الذي يرجح من خلال مساحته أنه كان بابا ذي مصراعين لا مصراع واحد. بالمقابل توجد في الجهة الغربية آثار حصن يرجح أنه منفذ في الحالات الحرجة.

المكونات الداخلية: ضمت مساكن للجند، ومخازن للطعام والسلاح، ومسجد... تمت الاستعانة بالأجر في بعض عناصرها المعمارية الداخلية كالنوافذ، والأقواس كما تدل على ذلك بقايا ركام وسط القصبة. وعلى غرار القصبات الإسماعيلية تميزت بفندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل.

تجسد الطابع العام لهندسة قصبات الفترة الإسماعيلية، من خلال لتقيد بضوابط العمارة الإسلامية الصحراوية سواء داخل الأسوار أو خارجها. صممت بتصميم منطقي يشمل كل المرافق والأجنحة ومرابط الخيل ومخازن المؤن وأبراج التحصين والمراقبة وان كانت لا ترقى إلى مستوى القصبات التي شيدت في الحواضر الكبرى كفاس ومكناس وتادلا وغيرها.

شيدت الأسوار بتقنية التراب المدكوك أو الطابية، والحجر، والجير. يقوم البناؤون بعد حفر الأساسات باختيار أماكن ومقالع التراب الأصلح من المناطق المجاورة، ونقله إلى مكان العمل عن طريق وسائل النقل أو بالدواب. ويتم فتح أكوام التراب المجمعة من الوسط على شكل صهريج دائري، يملأ بالماء والجير، ويخمر لمدة طويلة قد تتجاوز الشهر قبل أن يشرع في العمل بتخليط الجزء المحتاج فقط لملء الحفر بالحجارة المخلوطة بالطين والجير إلى أن توازي الأرضية[١٧]، ثم "يعمدون إلى وضع صندوق خشبي أولا يرمون فيه الملاط ثم يدكونه بقوة ثم يسحبون الصندوق ويتركون الملاط يجف"[١٨].

مع فارق بسيط يتجلى في استخدام الرمل المحلي الخشن بالمخلوط بالجير. تتخلله أحيانا أحجار بركانية سوداء وكَرانيتية محلية، وبعض قطع من الآجُر المحروق التي يزداد حجمها وعددها في زوايا الأسوار والأبراج. ورغم انتشار الحجارة الضخمة بجوار القصبة، فإن المولى إسماعيل فضل استخدام تقنية التابوت في بناء أسوار هذه القصبة ولضمان تماسك الطبقات فيما بينها وتشكيل كتلة متراصة ومنسجمة من جهة لكونه أصبح خاصية عمرانية مغربية بالنسبة للحصون والأسوار والرباطات، ولقدرة الطين على امتصاص الحرارة والبرودة، والمحافظة على اعتدالها عبر الفصول من جهة أخرى.

هدم القصبة:

"لما مات المولى إسماعيل انقطع عن عسكر القلع المدد الذي كان به قوامهم ولم يلتفت إليهم أحد من أولاد الملوك من بعد، ولا وصلهم بإعانة فخرجوا إلى التمعش على أولادهم وأنفسهم بالقبائل التي هم فيها وامتدت أيدي النهب للقلع التي تركوها فأخذوا أبوابها وسقوفها ولم يبق إلا الجدران..."[١٩]

ثالثًا: تحولات وضعية هضبة مَنْث والوضعية الحالية لقصبتها

١/٣-تحول هضبة مَنْث إلى ملكية باشوات زيان في الذاكرة المحلية

يصف شارل دوفوكو منت خريف ١٨٨٣ بقوله "هضبة جرداء سطحها رملي صلب وعار تنتشر فوقه قطع صغيرة ومتفرقة من الأردواز، يكسوها نبات مخضر بعد الأمطار الربيعية، ويرويها عدد كبير من المجاري الصافية"[٢٠]. وجاء في العدد ١٣١١من الجريدة الرسمية للمملكة سنة ١٩٣٨، أن بعض عقارات "مَنْث" كانت في ملكية قبيلة آيت عْمَرْ. وبناء على بعض التصحيحات وعلى تقرير ملحق في الموضوع بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٣٨م بلغت مساحته ٥٠٤١٠ هكتار تقريبًا على ملكية فرع اِزِيشُّونْ من آيت عْمَرْ، يتكون من ثلاث قطع:

القطعة الأولى: تسمى "منسلار ٣" تبلغ مساحتها ١٤٢٠٩٠ هكتار يحدها الملك الغابوي ووادي كسيكو. **القطعة الثانية:** تسمى "بُوخَلْخَالْ" على مساحة ٣٣٥٥٧٠ هكتار، يحدها ملك غابوي قسم بُوخَلْخَالْ، وشْعبَة أجيوُان، وطريق لمرور البغال نحو رأس بُوخَلْخَالْ وحمو ولد عباس ومن معه. ويجاورها عند النصب ٤ ملك زيان والأراضي المشتركة بينهم. **القطعة الثالثة:** تسمى "بُوتَازَارتْ"[٢١] مساحتها ٥٠٥٠ هكتار تحدها أملاك الغابة، واد كسيكسو[٢٢].

بناءً على هذا النص الرسمي، نستنتج أن آيت عْمَرْ كانوا يملكون جزءً مهما من أراضي مَنْث امتد سنة ١٩٣٨ حتى رأس بُوخَلْخَالْ.

تحولت ملكية هضبة مَنْث بعد هذا التاريخ من ملكية آيت عْمَرْ، إلى ملكية باشوات زيان خلال الفترة الاستعمارية. بناءً على اتفاق للمستعمر مع باشوات وقواد المرحلة الاستعمارية، التزموا فيه بضمان الأمن مقابل السيطرة على الأرض. ووفقًا للذاكرة الجماعية لشيوخ القبائل المستقرة بها، والمجاورة لها فقد سيطر عليها الباشا حَسَنْ عامل زيان في إطار حَرْكَاتْ قوية للمنطقة، وأمر خدمه بدفن ذخيرة بالقرب من إحدى العيون المائية. اشتكى آيت عْمَرْ الباشا للحاكم الفرنسي الذي حضر إلى عين المكان وطالبهم بدليل ملكية الأرض.

ـ **قالوا:** هذه أرضنا وهذه زرائبنا وحطاتنا[٢٣].

ـ **أجاب الباشا:** بل تلك زرائب رعاتي وحجتهم واهنة.

ـ **رد الحاكم:** وما دليك على ذلك؟

ـ **قال الباشا:** كان جدي يعيش ويقاتل على هذه الأرض، وأوصاني أن أبحث عن ذخيرة تركها بمكان ما قرب العين.

أمر بعدها الحاكم الفرنسي بالحفر، فوجد الذخيرة المعلومة وأجبر آيت عْمرْ على الرحيل في الحين إلى ما وراء واد بُوكْمَايْلْ الذي أصبح حدا بين زيان وآيت عْمَرْ فأصبحوا تدريجيا جزءً من زمور. وتقول رواية أخرى أن آيت عْمَرْ ادعوا توفرهم على وثائق ملكية الهضبة، فأمرهم الحاكم الفرنسي بإحضار الوثائق إلى سوق اثنين أكلمُوسْ. اعترضهم خدام الباشا وصادروا وثائقهم. وأصبحت مَنْث التي تضم أزيد من ٦٢٠٠ هكتار من المراعي أرضا زيانية ضمن نفوذ آيت حَرْكَاتْ، وكانت آيت حَدُو حَمُو أكثر القبائل قطعانا بها متبوعين بآيت مْعِيْ[٢٤].

تنقسم مَنْث حاليًا إلى دوارين هما: دوار الباشا (حَسَنْ)، ودوار أمْهـرُوڨ (القايد أمْهـرُوڨ). تكون سكانها من خدامهما وأعوانهما، ومن قبائل اشترت، أو اكترت أراضيها منهما، وبها آثار القصبة الإسماعيلية المنسية.

٢/٣-الوضعية الحالية لقصبة مَنْث

تؤكد الروايات الشفوية، أن أسوار الواجهات الشمالية والشرقية والغربية للقصبة متماسكة، كانت تقطنها مئات اللقالق عند معاينتها في بداية ستينات القرن الماضي. أما عند زيارتنا لها في ٢٢ غشت ٢٠١٩، فقد تهاوت جدران الواجهات الشرقية والغربية والجنوبية رغم بقاء بعض آثارها تعلو أرضية القصبة بأقل من متر. بالمقابل ما يزال جزء من الجدار الشمالي، وبعض جدران برجين من أبراجه صامدة في وجه عاديات الزمن وشاهدًا على حقبة مهمة من تاريخ المنطقة حتى اليوم.

يقع مجال القصبة في ملكية إمحزان الذين يحرصون على حماية تراث أجدادهم. وحجتنا في ذلك على استقرار خلفهم حتى اليوم بجوار القصبة، وحرصهم على الاحتفال بالمناسبات في الخيام الرفيعة في كل المناسبات، وهو ما يستدعي تفعيل دور اللجنة الوطنية للتراث العسكري التي أحدثت منذ سنة ٢٠٠٠ لتجديد القصبة حتى تندمج في محيطها الذي يوفر كل الإمكانيات الطبيعية من أودية، وطرق، وجبال، وغابات، وسهول دائمة الخضرة.

خَاتِمَةٌ

مارست قصبة منت إلى جانب وظيفة سكن الجنود، وتخزين المؤن، وظائف عسكرية واقتصادية متعددة. وبفضلها تم تطويق مجال أزاغار زيان، واستعاد المخزن المركزي هيبته. وانتشر بذلك الأمن والاستقرار، في التجمعات والبوادي المجاورة على طول محاور التجارية بين الغرب وطرق التجارة الصحراوية، مما انعكس إيجابًا على اقتصاد البلاد، وفسح المجال أمام السلطان مولاي إسماعيل لتحقيق نهضة رائدة على جميع الأصعدة وإعادة ترتيب موازين القوى الداخلية في البلاد.

شيدت من الطين والرمل الأبيض الموجودين بكثرة في محيطها، والمتميزين بالصلابة والقدرة على مواجهة عاديات الزمن. وشكلت إلى جانب قصبة أدخسان أشهر القصبات العسكرية بلاد زيان، كما توجد العشرات من القصبات (تيغرمين) المخصصة للسكن، والتي شيدها أبناء ومعارف القائد الزياني على الضفة اليمنى على لنهر مُ رْبِيعْ، وبجنْ الڤاسْ، وأزُوكُو، ومَنْث، والكُعِيدَة، أبرزها قصبات الباشا حسن ابن موحى وحمو الزياني بجبل أقلال[٢٥] بل وعاينا قصبات لقادة زيان وبنفس المواصفات بين أزمور والجديدة بدكالة.

تشير الأرقام إلى أن ١٠٧% من قصبات البلاد فقط في حالة جيدة لأنها تحظى باهتمام الدولة والمستثمرين الخواص، بينما ما يزال معظمها يصارع عوادي الزمان والإهمال والتهميش، والبعض الآخر اندثر أولم يعد لها إلا قليل الأثر[٢٦]. وهو أمر يدفعنا للهمس بصوت جهوري للقائمين على الشأن الثقافي محليا وجهويا ووطنيا لحماية هذا التراث المعماري الأصيل المهدد بالاندثار. وذلك بتكثيف الجهود للرفع من نسبة القصبات المصنفة بجهتنا في إطار العدالة المجالية، خاصةً مع خلق "الشركة الوطنية لتثمين القصبات لترميم وإعادة تأهيل القصبات" في أفق إدماجها في التنمية المستدامة.[٢٧] وبموازاة ذلك يظل الأمل معقودًا على البحث الأركيولوجي للكشف عن المزيد من أسرار هذه القصبة المنسية، وتحقيق التكامل المطلوب بين التاريخ والأركيولوجيا.

الملاحق

21/08/2019

الصورة 2: صورة تركيبية لبقايا الواجهة الشمالية لقصبة منت وأحد أبراجها

قوائم اللوح
حبل وقطع خشبية لضمان التوازن
الجبهة
دفة اللوحْ
الشكّال(مشبْ جانبي)

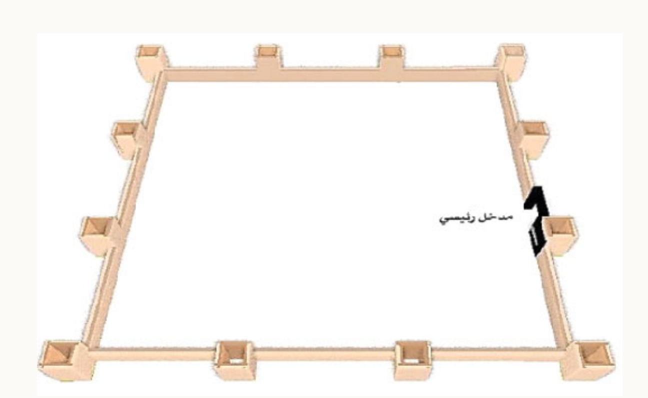
رسم توضيحي ١

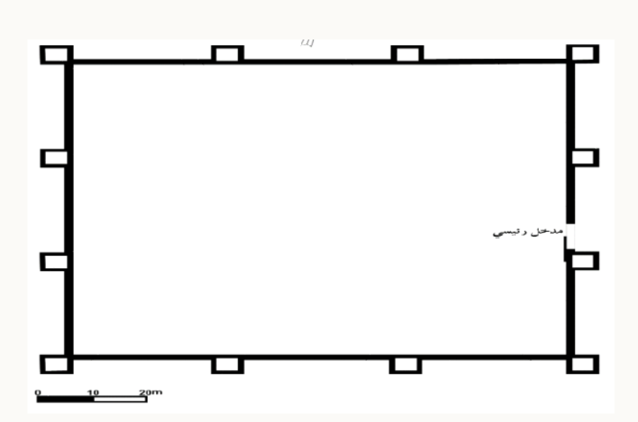
تقنية التابوت المستخدمة في بناء أسور القصبة[٢٨]



الصورة 1

جانب مما تبقى من ملقى الجدارين الجنوبي والغربي للقصبة





تصميم ١

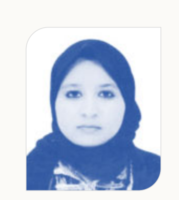
تصميمان للواجهة الخارجية لقصبة مَنْث(٢٩)

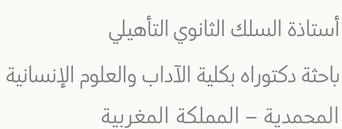
الاحالات المرجعية:

(١) جادور محمد، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، منشورات عكاظ، ٢٠١١. ص٨٩.
(٢) حناوي محمد، **النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف**، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠٠٣م، ص ٢١٧.
(٣) ابن منظور محمد بن مكرم بن على جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤، ج٢، ص٦٧٦-٦٧٧.
(٤) عامر حسن أحمد عجلان، **"العمائر الحربية الأندلسية القصبات نموذجا"**، ضمن مجلة كان التاريخية، ع ٣٢، يونيو ٢٠١٦، ص١٥١-١٦١.
(٥) أقصبي منير، **العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ**، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٥. ص١٨.
(٦) عامر حسن أحمد عجلان، مق. س، ص ١٥٢.
(٧) المغاري مينة، مادة "قصبة"، ضمن **معلمة المغرب**...، مطابع سلا، ٢٠٠٤، ج١٩، ص٦٦٣٣.
(٨) وفر الموقع للقصبة مطلا على منطقة يتجاوز أفق الرؤية فيها ٢٠ كلم بين جبلي تورزيان وسيدي صالح جنوبا، وبين أدار مولاي هاشم وبُوتكُرْضَنْ وتَابُوقلمْتْ شمالا، بينما يمتد أفق الرؤية غربا حتى ضواحي ولماس (٣٥ كلم).
(٩) تقول الرواية الواردة في المخطوط (نوردها مع التحفظ على بعض مضامينها) أن أخبار شهرة التستاوتي وصلت إلى أحمد المنصور فأرسل إليه بالقدوم. فأمر الشيخ طلبته بأن يكتبوا إليه:" فلولا أن أمرك الله علينا وعلى غيرنا ونسبك لجدنا[...] لعزلناك عن ملك ربنا وما قال لك الناس فينا فسر الألوهية والملكوتية والرسالة والنبوءة فأقدم بنفسك ترنا" فغضب السلطان وأرسل له عشرة آلاف فارس فلما رآهم يبتسم وهو يقول: "أولهم النحل وأمر ثان" فامتلأ ما بين السماء والأرض نحلا ولم يبرح من العشرة آلاف إلا القليل. فلما سمع السلطان الخبر ركب في مائة ألف فارس وارتحل حتى نزل منت فأقام بها نحو أربعين يوما وهو حيثما تحرك تلقاه أسراب النحل حتى تأدب وتاب، واتخذ التستاوتي في عز الله وهيبته وأطلق عليه بويزيزوان (صاحب النحل). (المحلى، ورقة ٩، ص ١٧).
(١٠) **تازطوط**(le pigeon ramier) : كلمة أمازيغية أصلها " أزضوض وتنطق باللهجة المحلية "الزطوط"، وهي طائر من جنس الحمام يميل لونه إلى الزرقة، يتميز بوجود بقعتين باللون الأبيض على جانب العنق وعلى أطراف الجناحين. الزطوط هو حمام الغابة، وهو من الطيور المألوفة التي تفضل العيش بعيدًا عن المناطق المأهولة بالسكان ويوجد هذا الطائر بأعداد كبيرة في غابات بوحسوسن حتى اليوم.
(١١) لم نعثر في مصادر الدولة السعدية ولا في اللغة المحلية على ما يعضد هذه الرواية، لكننا لا نستبعد أن يكون السياق العام لهذه التسمية صحيحا مع بعض الإضافات لإضفاء الطابع الكرامي على الحدث.
(١٢) الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة -الرباط، ط٢، ١٩٩١، ص٨١.
(١٣) بوزكراوي مريم، **الأدوار التاريخية والمقومات التراثية للقصبات العسكرية - القصبة الإسماعيلية نموذجا**. مطابع الرباط نت، ٢٠١٦، ص٥
(١٤) الزياني أبو القاسم، **الترجمان المعرب**، ص ٢١-٢٢.
(١٥) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا**...، ج٧، ص ٧٠.
(١٦) الفاسي محمد، رسائل إسماعيلية، صدرت عن السلطان مولاي إسماعيل إلى ولد الأمير المامون، وعددها خمسة. المطبعة الملكية بالرباط ١٣٨٧/١٩٦٧، ص. ١٩.
(١٧) لوكيلي منتصر، قصبة سلوان التاريخية: من المقاربة الأثرية إلى سبل رد الاعتبار، ضمن **ندوة قصبة سلوان التاريخ والحضارة**، منشورات المجلس العلمي للناضور، مطبعة شركة الواحة، الناظور، ط١، ٢٠١٧، ص٢٠٤.
(١٨) ويندوز جون، **الرحلة إلى مكناس**، ترجمة زهرة إخوان، مراجعة نجية العلمي وفاطمة بوعبدلي، نشورات ك. آ. ع. إ، مكناس، ١٩٩٣، ص ٤١.
(١٩) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، م. س، ج ٥، ص. ٥٧٣.
(٢٠) دوفوكو شارل، **التعرف على المغرب**، ترجمة المختار بلعربي، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩، ج١، ص٦٣.
(٢١) **بوتازارت**: كلمة أمازيغية مركبة من " بو " أي صاحب، و"تازارت" أي شجرة التين. وتعني الكلمة مجتمعة صاحب شجرة التين. والراجح أن المنطقة كانت معروفة بشجرة تين أكثر من اسم صاحبها.
(٢٢) الجريدة الرسمية، عدد ١١٣١، بتاريخ ٠٤/٢٩/ ١٩٣٨، **قرار وزيري بتاريخ ٢٠ محرم عام ١٣٥٦ (٠٣/٢٢/١٩٣٨) بالمصادقة على أعمال التحديد الإداري المتعلق بالعقار المشترك المدعو "منت" الكائن بتراب قبيلة ايت عمار (بوالماس)**، ص ٧٤٨.
(٢٣) **الحطة**: المكان المعلوم الذي يستقر فيه المنتجعون خلال كل موسم انتجاع.
(٢٤) أقبوش إدريس، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية (١٩١٢-١٩٥٦)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، ك. آ. ع. إ، القنيطرة، ٢٠١٦-٢٠١٧. وفي هذا الصدد يتداول لشيوخ آيت معي أنهم أصحاب هذه الأراضي وأن الباشا أمرهم ذات يوم بالمغادرة لمدة يوم أو يومين لتسهيل عملية القنص ثم منعهم من العودة بعد ذلك (رواية شفوية لبعض شيوخ آيت معي بتاريخ ٢٠١٩/٠٨/٠١).
(25) Pilant Lieutenant, "Notes Contributives À L'étude De La Confédération Zayan", **Les Archives Berbères**, Publication Du Comité d'Études Berbères De Rabat, 1919, P95
(٢٦) القاضي محمد، **"القلاع والقصبات في المغرب"**، مجلة الثقافة الشعبية، منشورات الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث، مطبعة أوال، البحرين، ع ٤٠، شتاء ٢٠١٨، ص ١٨٠-١٨٢.
(٢٧) شهير وسام، **"تثمين قصبة سلوان ورهانات التنمية"**، ندوة قصبة سلوان التاريخ والحضارة، منشورات المجلس العلمي للناضور، مطبعة شركة الواحة، الناظور، ط١، ٢٠١٧، ص ٢٣.
(28) Bazzana André, «L'architecture De Terre Au Moyen-Âge Considérations Générales Et Exemples Andalous », **Colloque International Sur L'architecture En Méditerranoïde**, Rabat, 1999, P199.
(٢٩) التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس، ٢٠٢٠-٢٠٢١، ص٢٣٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الماء والحرب في حواضر المغرب الأقصى
خلال العصر الوسيط



مُلَخَّصْ

يقتضي البحث في تمظهرات وأشكال العلاقة القائمة بين الماء والحرب في تاريخ المغرب إبان الفترة الوسيطية تسليط الضوء على مختلف تجليات وأبعاد الترابطات والعلائق الكائنة ما بين عناصر هذه الثنائية، وذلك من خلال إبراز دور الماء في تحصين الحواضر والمنشآت العسكرية ببلاد المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، مع تبيان أوجه استخدامات الماء في ساحات الوغى باعتباره وسيلة عسكرية، ثم الإشارة لمختلف التدابير الاحترازية التي اتخذت لاتقاء شر الحصارات التي يوظف فيها هذا العنصر الطبيعي. ولقد استلزم الإبحار في لجة هذا البحث الاعتماد على ترسانة مهمة من التآليف المصدرية المختلفة، تنوعت ما بين كتب التاريخ العام أو ما يصطلح عليه بالكتب الإخبارية التقليدية، وكتب الرحلات والجغرافيا، وكتب الأحكام السلطانية والمصنفات العسكرية، بالإضافة إلى العديد من المراجع والمقالات التي عنيت بذات الموضوع. وهو ما مكننا من تسجيل مجموعة من النتائج المرتبطة بأهمية الماء في مختلف العمليات العسكرية بدءًا من التحصين، والدفاع، وأماكن نزول وتمييز الجيوش، وصولا إلى عمليات الحصار والهجوم. الشيء الذي كان يفرض الحرص التام على ضمان تزود الحواضر بالموارد المائية الكافية قصد التمكن من تلبية مختلف الحاجيات والاستعمالات. وهو ما استوجب القيام بمجموعة من التدابير الاحترازية ذات البعد الاستباقي من قبيل عملية حفر الآبار وحفظ وتخزين المياه بالاعتماد على مجموعة من التقنيات والمنشآت المائية. كما لن يفوتنا استحضار دور هذا العنصر الحيوي المهم في عملية ترسيم الحدود وضبط مجالات السيادة والسلطة بين مختلف القوى السياسية المتصارعة في العديد من المحطات التاريخية المختلفة. ومما ينبغي الإلماح إليه هو أن هذه الورقة البحثية تأتي كمحاولة لاستجلاء معالم الترابط بين الماء والحرب، وذلك في سياق المقاربات والدراسات التي تروم سبر الأغوار الغائبة سوى لماما في بعض إنتاجاتنا ودراساتنا التاريخية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٨ أكتوبر ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ٠٣ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الماء؛ الحرب؛ الحصار؛ التحصين؛ الحواضر؛ الهجوم؛ تدابير احترازية

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310054 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

لمياء جوبير. "الماء والحرب في حواضر المغرب الأقصى: خلال العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٦٥ – ٧٣.

Corresponding author: lamiaa.joubeir@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

يرتبط البحث في ثنائية الماء والحرب بالنقطة المتعلقة بتأثير الظروف المناخية على واقع الحرب، وهو ما يجرنا للحديث عن الارتباط الحاصل بين العامل الطبيعي المتمثل في الماء وعلاقته بالحرب، وهي العلاقة التي أوضح الأستاذ محمد استيتو مظاهرها وجزئياتها في إحدى مساهماته حين قال: "هذه العلاقة [...] تظهر بصفة خاصة في استغلال ينابيع الماء ونقطها ومجاريها في المعارك والمواجهات كوسيلة من وسائل الدفاع أو الضغط والابتزاز أو الهجوم[١]. فالماء يلعب دورًا مهمًا في كافة التجمعات البشرية، خاصةً خلال الحروب والنزاعات العسكرية حيث يصبح حضوره حاسما لضمان البقاء على قيد الحياة. ووعيا بمدى أهميته، أجاز العديد من الفقهاء المسلمين توظيفه واستخدامه سلاحًا في مختلف الحروب والمعارك المرتبطة بفريضة الجهاد[٢]. من هذا المنطلق، سنحاول إلقاء أضواء كاشفة على هذا الموضوع من خلال اسكتناه مظاهر التواشج ما بين عنصر الماء وظاهرة الحرب في الحواضر المغربية. جدير بالذكر أن هذه المحاولة تأتي في سياق قيام العديد من الباحثين بمقاربة هذا الموضوع ورصد معالم هذه العلاقة في فترات زمنية مختلفة، فيما تشمل جغرافيا هذه الدراسات جل بلاد المغرب، بل يمتد مجال بعضها ليطال بلاد الأندلس أيضًا[٣]. ومما ينبغي توضيحه أن مساهمتنا قيد العرض ستغطي جغرافيًا ومجاليًا حواضر[٤] بلاد المغرب الأقصى، بينما سيمتد الوعاء الزمني المخصص لهذه الدراسة من بواكير العصر الوسيط المتسم بالانقسامات والاضطرابات السياسية إلى الفترة الثانية من هذا العصر التي تميزت بظهور الدول الكبرى[٥]، وهي الفترة التي ارتأينا التركيز عليها بشكل كبير نظرا لتوفر المادة الخبرية الخاصة بهذه الفترة.

تضطلع إشكالية هذه الورقة بشكل رئيس، بالكشف عن مختلف مظاهر وتجليات العلاقة القائمة ما بين الماء والحرب في حواضر المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ولتعميق مدارك الإشكالية التي نروم معالجتها سندرج إلى صفها مجموعة من التساؤلات. فما هو دور عنصر الماء في عملية تحصين الحواضر المغربية؟ وما هي أشكال ومظاهر استخدام الماء في المعارك والحروب بوصفه آلية عسكرية؟ وما هي أبرز التدابير والإجراءات الاحترازية التي اتخذت داخل الحواضر المغربية لضمان الإمدادات المائية؟

أولاً: دور الماء في عملية تحصين الحواضر

إن معالجة الإشكالية المتعلقة باعتماد الماء وسيلة للتحصين والدفاع، يحيلنا في البداية على الحديث عن حضور الماء بوصفه عنصرًا أساسيًا للحياة في مختلف المواقع والمجالات الحضارية، باعتباره من أهم الموارد الطبيعية الضرورية لاستقرار المجتمعات البشرية؛ واستمرار مختلف أنشطتها الاجتماعية والاقتصادية. وهو ما يفسر ذكره باعتباره شرطا مهما في اختطاط المدن والحواضر[٦]. فضلاً عن إمكانية اعتباره وسيلة طبيعية للتحصين والدفاع تفيد في دفع مساوئ الحصارات المباغتة للأعداء. فكما قال ابن خلدون في معرض حديثه عن الشروط التي ينبغي مراعاتها عند اختطاط المدن لضمان حمايتها " فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها[٧].

ويتجسد استغلال مجاري المياه تحسبا للحصارات وزيادة في التحصين في المواقع التي اختيرت لتشييد العديد من المدن والتحصينات العسكرية، فمدينة المعمورة على سبيل المثال " أسسها أحد ملوك الموحدين على مصب نهر سبو.. لتحمي المصب وتحول دون دخول سفن الأعداء إلى النهر"[٨]. ومن الأوجه المفصحة عن الاعتماد على الأودية كحواجز طبيعية، نذكر ما أشار له أحد المؤرخين بخصوص حاضرتي أبي رقراق، "سلا لم يكن لها سور قبالة الوادي..، لأن الأقدمين كانوا يعتبرون الأودية والأنهار الجارية والأجراف العالية بمثابة الحصون والأسوار لما يؤسسونه من المدن والقرى حولها، مثال ذلك مدينة الرباط أمامها، فإن الأسوار الموحدية وقفت عند أجراف الوادي، ولم تتجاوزه اكتفاء به"[٩]. بيد أن اقتحام النصارى لمدينة سلا من ناحية الوادي سنة ٦٥٨هـ فرض تغيير هذه القناعة، فكان أول ما قام به يعقوب المنصور فور تمكنه من إخراج النصارى بعد محاصرتهم وقتالهم هو بناء "السور الغربي الذي يقابل الوادي، لأنها كانت لا سور لها من تلك الجهة وكان خروج النصارى منه، فسار في بنائه من أول دار إلى البحر"[١٠].

وزيادة في تحصين المدينة المذكورة أحيطت هذه الأخيرة بسور اختير في موضع قريب من الوادي فقد "أحاط أبو الحسن أرض شالة – سلا بسور مشرف على مجرى الوادي أسفله، يرتفع فوق الأرض المرتفعة، وينخفض بانخفاض الأرض المنخفضة..."[١١]. ويبدو أن الأمر نفسه ينطبق على المجالات التي

اختيرت لبناء وإقامة مجموعة من المنشآت العسكرية كقصبة المهدية (الأودية حاليًا) بمدينة رباط الفتح فقد بنيت القصبة على مصب أبي رقراق "فهي على النهر من جهة وعلى البحر من جهة أخرى"[١٢]. وفي ذلك يقول صاحب المن بالإمامة " لما وصل الخليفة إلى سلى في عام خمسة وأربعين وخمس مائة ...أمر ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا"[١٣].كما يلاحظ أن العديد من التحصينات العسكرية الأخرى من قبيل الأسوار والأبواب تتموقع بدورها على مقربة من مصادر المياه، ولا يقتصر الأمر فقط على مواضع تشييد القصبات. وفي هذا السياق نذكر ما أشار له ابن حوقل في معرض حديثه عن مدينة مليلية "وكانت مليلة مدينة ذات سور منيع.. وكان ماؤها يحيط بأكثر سورها من بئر فيها عين عظيمة"[١٤]. والأبواب بوصفها تحصينات عسكرية نجدها هي الأخرى تتموضع بمحاذاة مصادر المياه، فقد افترض أحد الباحثين أن باب عيون صنهاجة بمدينة فاس الذي يعرف حاليًا بباب الساكمة قد بني هو الآخر على مقربة من مكان تواجد عيون صنهاجة خلال القرن (٧هـ /١٣م)[١٥].

ولا تفوتنا الإشارة قبل إسدال ستار هذا المحور إلى استخدام الأنهار كحدود سياسية طبيعية بين الكيانات المتنازعة على حكم المغرب خاصة في فترة الاضطرابات. فلا يقتصر الأمر فقط على استغلال مجاري المياه كحواجز تفيد في تحصين الحواضر والدفاع عنها، فقد تم الاعتماد على الأنهار والأودية بوصفها معالم جغرافية تفيد في ضبط مجالات السيادة والنفوذ. ومن النصوص التاريخية التي يمكن الاستئناس بها لتأكيد هذا المعطى، نذكر ما أشار له ابن أبي زرع الفاسي في سياق حديثه عن حدود الدولة المرينية على عهد الأمير عثمان بن عبد الحق، حيث قال:" وفي سنة خمس وعشرين وستمئة قوي أمره بالمغرب، فطاع له جميع قبائله وملك جميع بواديه من وادي ملوية إلى رباط الفتح"[١٦]. وهذا ما يمكن تسجيله أيضًا خلال فترة حكم السلطان المريني يعقوب الذي أرسل له الخليفة الموحدي المرتضى صاحب مراكش سنة ٦٥٨هـ هدية وكتابا يطلب من خلاله سلمه، فصالحه السلطان المريني يعقوب وجعل الحد بينهما وادي أم الربيع[١٧].

ثانيًا: أشكال ومظاهر توظيف الماء في ساحات الحروب والمعارك

تتعدد مزايا تشييد المدن والحواضر على ضفاف المجاري المائية فهي تساهم في خلق نوع من الاستبحار العمراني، وهو ما يؤثر بالإيجاب على وضعية المدينة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. إلا أنه وفي بعض الحالات التي تعبر عنها بعض الأحداث والوقائع التاريخية، نجد أن هذه المجاري أصبحت نقطة ضعف بالنسبة لتلك التجمعات السكانية حيث يتم استغلالها وسيلة لضرب الحصار أو التهديد بالمواجهة، الشيء الذي كان يجبر الساكنة في كثير من الأحيان على إعلان الطاعة والاستسلام لأعدائهم وخصومهم[١٨]. وفي هذا السياق نحيل على بعض النصوص الواردة في كتب الأحكام السلطانية، والتي تفيد في تبيان كيفية استغلال المياه أثناء الحصار لإضعاف شوكة العدو كما الشأن بالنسبة للماوردي حين قال: "ويجوز أن يغور عليهم المياه ويقطعها عنهم وإن كان فيهم نساء وأطفال، لأنه من أقوى أسباب ضعفهم والظفر بهم عنوة وصلحا، وإذا استسقى منهم عطشان، كان الأمير مخيرا بين سقيه أو منعه، كما كان مخيرا فيه بين قتله أو تركه"[١٩].

ومن القرائن التاريخية التي تجسد عملية توظيف مياه الأنهار أداة لإخضاع الخصوم ووسيلة لاقتحام المدن، نشير للحصارات التي تعرضت لها مدينة فاس في محطات تاريخية مختلفة، فمنذ فترة حكم المغراويين، أشهر سلاح الماء في وجه المدينة وساكنتها، بعدما أقدم ابن عم الأمير "دوناس بن حمامة" المسمى "حماد بن معنصر بن المعز" على قطع مياه واد فاس على عدوة القرويين في خضم نزاع الأميرين المستعر، الشيء الذي كان سيؤدي إلى شلل كلي للحياة الحضرية داخل المدينة وتوقف مختلف أنشطتها ، لولا توفر العدوة على منابع طبيعية بداخلها[٢٠]. ولقد حاصر الخليفة الموحدي عبد المومن الكومي مدينة فاس سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) وهزم المشرف عليها أبو محمد الجياني من خلال استغلال الوادي الذي يخترقها. وهو ما عبر عنه صاحب الحلل الموشية بقوله " بالغ في حصارها، وأقام محاصرًا لها نحو تسعة أشهر، وأهلها يقاتلون خارج البلاد، ومن أشد ما دهاهم به أن الوادي الذي يشق مدينة فاس سده عليهم، وأمر الناس أن يسووا الحطب والخشب، ويرفعوا التراب على ذلك سدًا بعد آخر حتى احتبس الماء، وحصر الوادي، فصار الفحص كله بحرا، وأقام الماء يرتفع إلى أن صار بحرًا تجري فيه السفن، استعان على ذلك بكثرة الآلات والعلم، واتساع الفحص، ثم هدم السد بمرة، فوقع عليهم السور"[٢١]. كما أن السلطان المريني أبو بكر بن عبد الحق استخدم نفس الوسيلة، حيث قام باستغلال الماء لحصار مدينة فاس وقتالها، بعدما " قطع الوادي الداخل إليها وجلب أهل مكناسة والقبائل إلى قتالها، ولم يرفع عنها الحصار إلا بعد فتحها"[٢٢].

ويبدو أن مدينة تازة اصطليت بذات السلاح، فخلال فترة الاضطرابات كان يتم استغلال النهر الذي ينحدر من الأطلس ويمر بالمدينة ويخترق جامعها الكبير، حيث " يغير الجبليون أحيانا مجراه عندما يختصمون مع سكان المدينة، ويصرفونه إلى مكان آخر فتتأذى المدينة كثيرا، إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب ولا الحصول على ماء صالح للشرب، ويضطر السكان إلى الاكتفاء بماء الخزانات العكر. ثم يرد الجبليون الماء إلى المدينة عندما يعود السلام"[٢٣]. وبالمثل، استخدم عنصر الماء في مدينة سجلماسة كوسيلة للضغط على أهلها أثناء النزاعات، فقد كان المتنازعون يقومون بإتلاف قنوات السقي المجلوبة من النهر، كما كان يتم تغوير عيونها مثلما حدث سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) وهو ما كان يسبب أزمة خانقة للمدينة.[٢٤]

وبمراكش أيضًا وظف الماء كأداة لإحكام الحصار من خلال قطع المياه وعدم تمكين الخصوم من الحصول على الماء، فخلال حكم الخليفة الرشيد وتحديدًا سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) حوصرت حاضرة الدولة الموحدية من طرف عرب الخلط الذين استعانوا بابن وقاريط الموالي ليحيى بن الناصر وقاموا بإحكام الحصار على المدينة وساكنتها بعدما "حشدوا حشودهم واجتمعوا من كل أوب وفج واستقبلوا الحضرة.. فأحدقوا بجنباتها، وخيموا بأحوازها وجهاتها، وشرعوا في تدمير البحائر وقطع مياهها وشجراتها"[٢٥]. وهو ما أدى لفرار الناس بعدما تملكهم الرعب وانقطعت أمامهم السبل وأصبح الجوع والعطش يهددهم. وأثناء محاولة الخليفة الرشيد الخروج من أغمات بعد الهرب من مراكش بمعية أهل مشورته، تدخل عنصر الماء أيضًا ليعيق عملية فرارهم، فقد "لقوا من المشاق في تلك الأوعار والمضايق ومجاري المياه.. ما لا يوصف"[٢٦]. ومن الأحداث التاريخية المهمة التي تضطلع بكشف دور الماء البارز في تغيير مجريات الحرب، نذكر معركة البحيرة أو البحيرية التي جرت ما بين المرابطين والموحدين سنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م)، قرب أسوار العاصمة مراكش، فهذه الواقعة تشهد على فاعلية العوامل الطبيعية ومدى تحكمها في المجال الحربي، فقد أثرت السواقي والحفائر المائية التي بلغت سعة مغار بعضها ثلاثون ذراعًا على مجريات المعركة ، وهو ما نستشفه من نص صاحب نظم الجمان بقوله: "فكانت المدافعات بينهم على رؤوس العيون من سواقي الرقائق فاستشهد من استشهد من الموحدين وانحاز باقيهم إلى التمنع بداخل البحيرة" [٢٧]. ولقد تدخل عنصر الماء مرة أخرى في هذه المعركة ليحول دون استمرارها بفعل هطول الأمطار. وهو ما عبر عنه ابن القطان بقوله: "وكان من لطف الله تعالى أن جاءت السماء بمطر وابل في عشى ذلك اليوم فانكفأ له المجسمون إلى ديارهم ليعاودوا القتال بعد ذهاب كللهم"[٢٨].

وتتمثل الوظيفة الحربية للماء أيضًا في استغلال نقط الماء كمحطات مهمة لاستراحة الجند وضمان تزودهم بالموارد المائية خلال معاركهم البعيدة والطويلة، ولعل هذا ما يفسر اقتران ذكر المعارك بالأنهار والعيون والآبار في مواضع نزول والتقاء الجيوش.[٢٩] ويبدو أن ما عضد ذلك هو قيام العديد من الفقهاء بالتأكيد على أهمية نزول الحاميات العسكرية في المواضع القريبة من مصادر المياه من خلال مؤلفاتهم التي عنيت بأحكام الجهاد. مثال ذلك، النصيحة التي أوردها المرادي في كتابه السياسة والمعروف بالإشارة في تدبير الإمارة عندما قال: "واحتل للشمس أن تكون معك في وقت اللقاء، وللريح أن تكون معك وقت الهجوم وللماء وللمرعى أن يكونا معك في مكان النزول"[٣٠]. ويتجسد الوعي بالبعد الاستراتيجي والعسكري لهذه المواضع في مجموعة من الوقائع والمعارك الحربية خلال محطات تاريخية مختلفة. نتبين ذلك من خلال صراع الزناتيين وأمويي الأندلس على المغرب الأقصى المتمثل في خلاف زيري بن عطية والحاجب المنصور الذي قام بإرسال مولاه واضح الفتا بجيش عظيم سنة ٣٨٦هـ لمواجهة زيري وانطلق واضح من طنجة حيث "لتقا الجمعان بوادي ردات"[٣١]. ولقد أدت هزيمة واضح الفتا إلى تجدد النزاع، فقد أرسل المنصور ابنه عبد الملك المظفر ومعه واضح الفتا بجميع عسكر الأندلس لمحاربة زيري بن عطية، ليلتقي الجمعان مرة أخرى بوادي منى من أحواز طنجة[٣٢]. وغداة حكم الأسر الكبرى يمكن ملاحظة نفس الأمر المرتبط بخوض المعارك بمحاذاة المجاري المائية واستغلالها كمجالات حربية لمواجهة الخصوم، ففي عهد المرابطين عبر يوسف بن تاشفين نهر أم الربيع في جيوش لا تحصى لقتال البورغواطيين، بعدما قاموا بقتل العلماء الذين أرسلهم للقيام بمهمة الوعظ والإرشاد، ففر البورغواطيون من تامسنا وعبروا نهر أبي رقراق في اتجاه فاس، فقام "ملك فاس حين علم بتأهب أهل تامسنا لعبور نهر أبي رقراق والسير إلى جهة فاس، بعقد هدنة مع الزناتيين وقصد النهر على رأس جيش عرمرم ،حيث واجه ملك تامسنا الشقي الذي كانت جنوده منهوكة جوعًا وبؤسًا، وهو يريد عبور النهر، لكن الممر قطع عنه من قبل ملك فاس، فاضطر الأشقياء المطاردون اليائسون أن يتفرقوا في الغابات بين صخور يصعب اجتيازها. وقد أحاطت بهم جنود الملك وحاصرتهم إلى أن هلكوا بإحدى الطرق الثلاث: منهم من غرقوا في النهر، ومنهم من ترددوا من أعالي الصخور فدقت

أعناقهم، ومنهم من تمكنوا من الخروج من الماء.. وضربت أعناقهم بالسيف".[٣٣]

وخلال فترة حكم الموحدين، تمكن خليفة المهدي عبد المومن الكومي من السيطرة على بلاد المغرب بعد عدة حروب ومعارك كتلك التي خاضها ضد قبيلة دكالة بمحاذاة البحر إذ" قاتل عبد المؤمن قبيلة دكالة، فانحازت إلى الساحل.. ولما اصطفوا وتأهبوا للقتال، جاءهم من ناحية أخرى غير الناحية التي اعتقدوها، فانحل نظامهم، وفل جمعهم، وخرجوا عن وعر الموضع الذي كانوا به، فألجأهم السيف إلى البحر، فقتل أكثرهم في الماء"[٣٤]. وفي إطار استكمال بسط السلطة والسيادة على المجال سرح الخليفة المذكور جيشا بقيادة الشيخ أبو حفص الهنتاني لمواجهة محمد بن هود السلاوي الثائر بماسة، حيث جرت أطوار المعركة بمحاذاة وادي ماسة الذي كان مسرحا لمجريات المعركة والتي وصفها الكاتب والفقيه أبي جعفر بن عطية القضاعي في رسالة الفتح الموجهة للخليفة الموحدي عبد المومن بقوله: "..ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعا في الخروج إلى ما ينجيه؛ اختطفته الأسنة اختطافا، وأذاقته موتا ذعافا، ومن لج في الترامي على لجه؛ ورام البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بذقنه غرقه؛ ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه، يتناولون قتلهم طعنًا وضربًا، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولا عظيمًا وكربًا، حتى انبسطت مراقات الدماء، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقته؛ حمرة الشفق على زرقة السماء، وجزت العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جري الأبحرا!"[٣٥].

ويبدو أن العمل بهذه الاستراتيجية قد تواصل مع بني مرين، فقد نشبت عدة معارك ما بين المصامدة والعصبية الزناتية الناشئة على مقربة من الأودية، كما الشأن لأول مواجهة بين المرينيين والموحدين بقيادة أبا علي بن وانودين سنة (٦١٣هـ /١٢١٦م)، حيث "هزم بنو مرين جيش الموحدين بفحص وادي النكور، فدخل الموحدون مدينة فاس عرايا قد تستروا بالمشعلة فسمي عام المشعلة"[٣٦]. والحرص على خوض المعارك بالقرب من مصادر المياه يظهر في العديد من المواجهات التي جمعت ما بين القوتين، يمكن فهم ذلك من خلال استقراء مضمون الحادثة التالية، فعندما قام الخليفة الموحدي السعيد بالخروج من مراكش باتجاه تامسنا في حركة لمحاربة الأمير المريني أبي يحيى ومن معه من بني مرين، حدث نزاع ما بين الفريقين بسبب الماء،" فلما وصل السعيد بمحلته [...] بادر أكثر أهل العسكر للماء عند وصولهم لشرب جوابهم، فمنعهم بنو مرين من شربه فتجالدوا بالسيوف والرماح عليه، والأمير أبو يحيى على ربوة ناشر أعلامه، والقتال على الماء بين الفريقين أمامه" [٣٧]. وهو ما يمكن استخلاصه أيضًا من المعطيات المفصلة التي أوردها ابن عذاري في بيانه المعرب حول معركة أم الرجلين التي جرت أطوارها بمحاذاة نهر أم الربيع سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦٠م)، ففي عهد الخليفة المرتضى "اجتمع الجمعان وأوقع الحرب الفريقان، ثم صدرت العساكر المرينية إلى جهة الوادي المذكور، فطمع الموحدون في العلو والظهور.. ثم بعد ذلك رجعت عساكر بني مرين على عساكر الموحدين فهزموهم أجمعين وقتلوا منهم خلقا بموضع أم الرجلين"[٣٨].

وفي السياق نفسه المرتبط باقتران ذكر المواضع القريبة من الأودية بمجموعة من الوقائع العسكرية نسوق بعض الأمثلة التي توضح أن عملية تمييز العساكر وترتيبها هي الأخرى كانت تتم بمحاذاة مصادر المياه العذبة، فقبل فتح عبد المومن الكومي لفاس "نزل في عين أدقا.. وميز الموحدين في عدوة سبو.. وجازوا الوادي ساقة بعد ساقة.. وكان بينهم وبين الصحراوي واد يسمى بسد رواغ"[٣٩]. وعندما أراد الخليفة نفسه استفتاح مراكش خرج من مكناسة قاصدا دار ملك المرابطين و" أخذ على طريق تادلا فميز فيها، وجاء هسكورة وصنهاجة بعسكرهم وهبط بهم الخليفة رضي الله عنه على وادي أم الربيع"[٤٠]. ولقد قام الخليفة الموحدي السعيد هو الآخر بنفس الشيء عندما أراد تجهيز جيوشه بعدما ملك بنو مرين مكناسة " فخرج للقتال من مراكش في جيوش عظيمة وجنود وافرة من الموحدين والمصامدة والعرب، فسار حتى وصل إلى وادي بهت، فنزل به وأخذ في تمييز جيوشه"[٤١].

ثالثًا: تدابير وإجراءات لتوفير المياه قبل المعارك

تحتم حروب الحصار اتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات الاحترازية التي ترتبط بتأمين كل ما هو ضروري وأساسي للجند وللحاميات العسكرية، كالماء الذي يتم العمل على ضمان توفره من خلال الحرص على تأمين مختلف مصادره استعدادا للحصارات. هذا الهاجس يبرز بوضوح وبجلاء في إحدى الروايات المتعلقة بتفسير صعوبة معرفة مصدر المياه التي كانت تصل إلى مراكش، إذ جاء في هذا التفسير ما مفاده أن " ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش.. ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض.. وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش، ويقول المؤرخون أن الملك الذي أسس مراكش توقع بفعل معطيات بعض المنجمين أنه سيخوض

معارك كثيرة، فأنجز بواسطة الفن السحري جميع العوائق الطارئة في تلك القناة، حيث لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء فلا يستطيع أن يقطعه عنها"[٤٢].

وبما أن المدن والتحصينات العسكرية الكائنة بها لطالما كانت مهددة بالاصطلاء بتبعات الحروب والنزاعات، فقد تم الحرص على اتخاذ مجموعة من التدابير الاحترازية التي تنم عن الحيطة والتوجس من الحصارات وما قد يترتب عنها من انقطاع للمياه ،الشيء الذي يتواءم ومجموعة من التوجيهات الواردة في المصنفات العسكرية والتي تبين ضرورة توفير المؤن والماء استعدادا للحصارات المحتملة، وهو ما عبر عنه ابن منكلي بقوله:" فالاحتراس من المحاصرة جمع الطعام والأعلاف والمتاع والطعام والملح....وحفر الآبار للماء إن خافوا غور الماء أو جمعه أيام الأمطار في الصهاريج إلا أن يكون فيها عين الماء أو العيون، فيأمنوا العطش"[٤٣]. فالخوف من استخدام عنصر الماء كوسيلة ضغط هو ما يفسر الحرص على حفر الآبار باعتبارها من أهم مصادر المياه العذبة. إذ يعزى قيام العديد من القادة العسكريين بعملية حفر الآبار في ركن أسوار بعض المدن إلى هذا الهاجس الذي يدفعهم للعمل على ضمان الإمدادات المائية للسكان استعدادًا للحصارات العسكرية الطويلة، وهذا ما يبدو بجلاء في عمارة مجموعة من المدن الموحدية[٤٤]. وبالموازاة مع هذه العملية كان يتم الاعتماد على مجموعة من التقنيات والمنشآت المائية لتوفير المياه وتخزينها والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:- المواجل: وبلسان سكان المغرب الأقصى "المطفيات" أو "النطافي"، هي " تقنيات عتيقة تدخل ضمن ما يسمى بحصاد مياه الأمطار، وكل هذا من أجل تدبير المياه السطحية في أوجهها المتعددة، في حالة الوفرة والندرة ولأغراض متعددة كالشرب وتوريد الماشية"[٤٥]. ومن النماذج المذكورة في المراجع والتي تعبر عن هذا الصنف من التقنيات نشير للنطفية الموجودة بقصبة المهدية برباط الفتح، والتي كانت تستخدم لتجميع وتوفير مياه الأمطار[٤٦].

الصهاريج: مفردها صهريج، ويطلق عليها سكان المغرب الأقصى اسم البركة (بكسر الباء). هي عبارة عن أحواض مائية واسعة تستخدم لتجميع المياه وتخزينها [٤٧]. ومن أشهر الصهاريج المعروفة صهريج المنارة الكائن بالحاضرة الوسيطية مراكش. بني صهريج المنارة بأمر من الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي الكومي سنة ١١٥٧م، وهو عبارة عن حوض مائي ضخم يبلغ طوله ٢٠٠ م وعرضه يفوق١٥٠م، فيما يتراوح عمقه بين مترين وثلاثة أمتار[٤٨]. استخدم هذا الصهريج في العديد من المجالات تلبية لحاجيات السكان من الموارد المائية، وتوفيرا لمياه السقي للحدائق المحيطة به، والأهم أنه " استعمل زيادة على ضبط وتنظيم مياه الساقيات والخطارات والأمطار في تدريب الجنود الذين كانوا يحاربون بالأندلس وفي حدود الإمبراطورية"[٤٩]. كما نشير إلى الصهاريج التي تم بناؤها من طرف عبد المومن الكومي بعدما اختار المهدية (قصبة الأوداية حاليا) مقرا لإقامته، فقد كان أول ما قام به هو بناء قصره بالإضافة إلى مجموعة من صهاريج المياه أمام جامع القصبة[٥٠]. ولقد تحدث ابن صاحب الصلاة عن هذه الصهاريج باستفاضة، إذ ذكر أن الخليفة أبو يعقوب يوسف عند وصوله إلى المهدية " ألفى الماء الجاري المسرب الذي جلبه أبوه رضي الله عنه في عام خمسة وأربعين المؤرخ، فسد جريه وأسن ماؤه، وتعطل في البطاح والبحاير سقيه، فأمر بإعادته إلى حالته الأولى، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع، يجتمع فيه الماء، ثم يجري من ذلك الصهريج إلى السقاية المذكورة حيث شرب العسكر والناس وخيلهم ومواشيهم.."[٥١].

الخزانات: يُعَدّ الخزان أو الجب من أهم التقنيات المستخدمة لجمع الماء وتخزينه، ويدل مصطلح "الجب" في كل من اللغة العربية والإسبانية على خزان مغلق مغطى بقباب، يبنى في العادة تحت مستوى السطح وقد يكون نصف تحت . أرضي[٥٢]. ومن النصوص التي أشارت إلى حضور هذه المنشأة في الحواضر الوسيطية، نذكر نص الوزان الذي تحدث عن الخزانات الكائنة بمدينة تازة والتي كان يتم استخدام مياهها العكرة عندما يتم تغيير مجرى النهر الداخل إلى المدينة من طرف الجبليين أثناء حدوث النزاعات والاضطرابات[٥٣].

القورجة: عنصر معماري يرتبط بالوظيفة العسكرية، ويستلزم حضور الماء في موضع تشييده، والقورجة " جدار يخرج من جسم سور مدينة أو حصن، وفي الغالب ما يكون متعامدًا معه، يساهم في تدعيم القدرات الدفاعية للجهة الأضعف منه أو يمكن من الوصول-في أمان-إلى البحر أو نقطة مياه موجودة من الخارج، وغالبا ما ينتهي بباب أو ببرج منيع، ويكون هذا الجدار عبارة عن ستار (سور واحد) أو ممر مكشوف أو مغطى، يحد بسورين متوازيين"[٥٤]. في المغرب نتوفر على مجموعة من الأمثلة عن القورجات البرية والبحرية. ومن النماذج المرتبطة بالصنف الأول نذكر قورجة فاس، فيما تمثل القورجة الموجودة ضمن تحصينات طنجة على البحر الأبيض المتوسط الصنف الثاني [٥٥].

يحسن بنا في هذا المضمار وقبل أن نطوي أوراق دراسة هذا المحور، أن نشير للطرح الذي يقول بدور الحرب البارز وإسهامها الواضح في ابتداع مجموعة من التقنيات والمنشآت المائية التي ارتبط ظهورها بهاجس الخوف من الحصارات[٥٦]. وهو الرأي الذي لا يحول دون لفت الانتباه لدور الحرب في تخريب هذا النوع من المنشآت المعمارية. مصداق ذلك، تدمير الساقية البديعة التي أنشئت في عهد عبد المومن الكومي بقصبة المهدية لضمان تزودها بالماء سنة (٥٤٥هـ/١١٥١م)، حيث تم تخريبها أواسط القرن (٧هـ/١٣م)".. أثناء الحروب التي شنها الملوك المرينيون ضد أسرة المنصور"[٥٧]. إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه حيال بعض هذه الوقائع التاريخية في ظل الإشارات اليتيمة التي تفصح عنها المادة الخبرية هو ظروف وملابسات هذه العمليات التخريبية وأسبابها. فلا نعلم أن كان تدمير الساقية المذكورة أمرًا مستهدفًا للحيلولة دون تزود القصبة بالماء؟ أم أنها لا تعدو أن تكون سوى نتيجة عرضية لإحدى العمليات العسكرية التي عصفت بالقصبة؟

خَاتمِةٌ

ختامًا، يمكن القول إن موضوع مساهمتنا الموسوم بالماء والحرب في حواضر المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط الذي كان محل اهتمام واقتحام من طرفنا ليعد نافذة جديدة تنفتح على آفاق أرحب في حقل الدراسات التاريخية لارتباطه بمجال التاريخ الإشكالي ولاشتغاله على حقول معرفية جديدة بعيدة عن النمطية. وتأتي هذه المساهمة المتواضعة لتنضاف إلى قائمة دراسات أخرى حازت قصب السبق في معالجتها لهذا الموضوع.

وكحصاد إجمالي لما سبق وتم عرضه بناء على المادة المصدرية والمرجعية التي قمنا بتوظيفها، يمكننا القول أن مظاهر الترابط الحاصل ما بين عنصر الماء وظاهرة الحرب يتخذ أشكالاً ومعالم متعددة تبرز بجلاء ووضوح في مختلف العمليات العسكرية بدءا من التحصين، والدفاع، وأماكن نزول وتمييز الجيوش، وصولا إلى عمليات الحصار والهجوم، بالإضافة إلى مختلف التدابير ذات البعد الاستباقي التي يتم الاعتماد عليها اتقاء لشر الحصارات. وهو ما يفضي بنا للتأكيد على دور الماء في رسم معالم بعض ملاحمنا الحربية.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد استيتو، "**الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة؟**"، ضمن أعمال ندوة: الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحسن الثاني عين الشق، سلسلة ندوات ومحاضرات رقم ١١، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٩. ص ١٧٨، بتصرف.

(2) Fransisco Vidal Castro, « L'eau et le château en AL –Andalus et au Maghrib :Structures ,Gestion et Pouvoir (Xe-XVe Siècles)» In Le château et la nature ,Actes des Rencontres d'archéologie et d'histoire en Périgord,les 24,25et 26 septembre 2004,textes réunis par Anne –Marie Cocula et Michel Combet, Scripta Varia,11,37-74 .CAHMS-Institut d'histoire de Boccard ,Bordeaux –Paris , 2005 ,p69. ,p 6٢,63.

(٣) من أهم الدراسات التي اهتمت بدراسة العلاقة القائمة ما بين الماء والحرب، نذكر: - محمد استيتو، "**الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة؟**"، ضمن أعمال ندوة: الماء في تاريخ المغرب.- سعيد بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس، خلال القرنين ٧و٨هـ/١٣و١٤م، **إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٧م.- لوبنى زبير، **الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين ٩١٦-١٠٦٩هـ/ ١٥١٠-١٦٥٩م**، منشورات دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط،٢٠١٦.

(٤) حواضر مفردها حاضرة، "والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار". انظر: جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور) **لسان العرب**، ج ٤، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٩٧.

(٥) نقصد بالدول الكبرى الكيانات السياسية التي حكمت بلاد المغرب في الفترة الزمنية التي تتراوح ما بين القرنين ١١م و ١٥م، وهي: الدولة المرابطية (حوالي ٤٦٠هـ- ٥٤٠هـ/ ١٠٦٨م-١١٤٧م)، الدولة الموحدية (٥١٤هـ-٦٦٨هـ/ ١١٢٠م-١٢٦٩م) والمرينية (٦٦٨هـ - ٨٦٩هـ/١٢٦٩م - ١٤٦٤م). لمزيد من التفصيل، انظر: أحمد عزاوي، **مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي**، ج ٢ (عصر الدول الكبرى: المرابطية، الموحدية والمرينية)، الطبعة الثالثة، الرباط، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ١٣،٥٣،٨٤.

(٦) العديد من المؤرخين يؤكدون على أهمية عنصر الماء كشرط رئيس لبناء المدن وتأسيسها. راجع ما جاء عند ابن أبي زرع في هذا الباب "وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان". انظر: علي ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص٣٣. وحسب رواية ابن القاضي عن شروط تأسيس المدينة قال: "حكي عن الحكماء أنها قالت: لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر، ونهر جار، وقاض عدل، وعالم عامل، وأسواق قائمة، وقالت الحكماء أيضًا: "أحسن المدن هي التي تجمع خمسة أشياء: نهر جار، ومحرث طيب، وحطب قريب، وسور حصين، و سلطان قاهر، إذ به صلاح أهلها وتأمين سبلها ". انظر: أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ٤٢.

(٧) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ج ٢، دار البلخي، الطبعة الأولى، دمشق،٢٠٠٤، ص ١٥.

(٨) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة وتعليق: محمد حجي - محمد الأخضر، ج١، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت،١٩٨٣، ص ٢١.

(٩) جعفر الناصري، **سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية**، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج١، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط،١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ١٧٨.

(١٠) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص ٣٠١.

(١١) جعفر الناصري، **سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية**، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج٢، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط،١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ١١٨.

(١٢) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص ٢٠١.

(١٣) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين**، تحقيق: د عبد الهادي التازي دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٥٨، بتصرف.

(١٤) ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،١٩٩٢، ص ٧٩.

(١٥) انظر: طارق يشي، **أسوار وأبواب مدينة فاس خلال العصر الوسيط – مقاربة طبونيمية تاريخية** -، دارأبي رقراق،٢٠١٩، ص ٦١-٦٢.

(١٦) ابن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص٣٧.

(١٧) انظر: ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص ٣٠٢.

(١٨) انظر: محمد استيتو، "**الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة؟**، ص ١٨٣.

(١٩) علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق، أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، الكويت، ص ٧٢.

(20) Tariq Madani, «*Le réseau* hydraulique d*e la ville de Fès*»,*Archéologie islamique,N 8-9,Maisonneuve et Larose,Paris,1999,p123.*

(٢١) مؤرخ مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1979.ص١٣٦،١٣٥.

(٢٢) سعيد بنحمادة، **الغرب الإسلامي " مباحث في العلوم التجريبية"**، ص ١٦٨.

(٢٣) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص ٣٥٤.

(٢٤) انظر: سعيد واحيحي، "**دور عنصر الماء في بناء واندراس بعض المدن المغربية الوسيطية سجلماسة نموذجًا**"، ضمن أعمال ندوة: الماء بمنطقة دبدو: الذاكرة والإشكاليات البيئية والقانونية وآثار التدخل البشري، منشورات جمعية ابن خلدون للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية وحماية المآثر التاريخية والبيئة بدبدو،٢٠١٨، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢٥) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، وعبد القادر زمامة، قسم الموحدين، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٣١٨.

(٢٦) ابن عذاري المراكشي، المرجع السابق، ص٣٢٣.

(٢٧) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ص ١٦٠.

(٢٨) ابن القطان المراكشي، المرجع السابق، ص ١٦١.

(٢٩) انظر: سعيد بنحمادة، **الغرب الإسلامي " مباحث في العلوم التجريبية"**، ص ١٦٦-١٦٥.

(٣٠) محمد بن الحسن المرادي، **كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق: محمد حسن محمد إسماعيل وأحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٣، ص ٦٣.

(٣١) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص١٠٥. يقع هذا الوادي بالقرب من منطقة مشرع بلقصيري.

(٣٢) انظر: ابن أبي زرع الفاسي، المرجع السابق، ص١٠٦.

(٣٣) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص ١٩٥.

(٣٤) مؤرخ مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، ص ١٤٧.

(٣٥) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج٢، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص١٩٩٧م، ص ٢١٢-٢١٣.

(٣٦) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص٢٧٢-٢٧٣.

(٣٧) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، قسم الموحدين، ص ٣٧١.

(٣٨) ابن عذاري المراكشي، المرجع السابق، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٣٩) أبي بكر الصنهاجي (البيذق)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص٦١.

(٤٠) أبي بكر الصنهاجي (البيذق)، المرجع السابق، ص٦٣.

(٤١) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص ٢٩٢.

(٤٢) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص ١٣٦.

(٤٣) ابن منكلي الناصري، **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٠ ص ٣٧٩.

(٤٤) انظر: سعيد بنحمادة، **الغرب الإسلامي "مباحث في العلوم التجريبية"**، ص ١٧٥.

(٤٥) محمد رضاوي، "**النطافي تقنية عتيقة لتدبير ندرة الموارد المائية بعبدة: ضرورات وآفاق التثمين**"، ضمن أعمال ندوة: التراب والمجتمع بالمغرب: تحولات، ديناميات ورهانات"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية،٢٠١٩، ص ٢٢٢.

(٤٦) انظر: محمد بوجندار، **مقدمة الفتح: من تاريخ رباط الفتح**، جامعة محمد الخامس أكدال ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٥، مطبعة الأمنية، ٢٠١٢، ص ٤٧.

(٤٧) انظر: نور الدين أمعيط، "**مصطلحات التراث المائي بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط: نماذج وقضايا من القرنين ٥و ٦هـ/١١و١٢م**"، ضمن أعمال ندوة: التراث المائي والتنمية بالمغرب، تنسيق: علي بنطالب، عزيز بن الطالب و مصطفى أقبير، منشورات المعهد الملكي للثقافى الأمازيغية، ٢٠١٨، ص ١٠٨.

(٤٨) انظر: عبد المالك ناصري، "**صهريج وحدائق المنارة: نزهة المراكشيين القدامى**"، مجلة زمان: المغرب كما كان، ع٥٢، ٢٠١٨، ص ٧٣.

(٤٩) محمد الكنيدري، **مراكش: تاريخ، تراث، ثقافة وروحانية**، منشورات مركز التنمية لجهة تانسيفت، مراكش، ٢٠١١، ص ٢٠.

(٥٠) انظر: جعفر الناصري، **سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية**، ج١، ص ٢٢٢.

(٥١) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين**، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٥٢) انظر: لوبنى زوبير، "**الماء داخل الحصون المخزنية بالمغرب الوسيط: إكراهات الاستعمال وحدود الإمكانيات**"، مجلة هسبريس ـ تمودا، العددL17 ، 2 رقم101ـ2019،128 م. ص ١٠٣-١٠٥.

نقلاً عن: – Fransisco Vidal Castro , « L'eau et le château en AL Andalus et au Maghrib :Structures ,Gestion et Pouvoir (Xe-XVe Siècles)» ,p38 .

(٥٣) انظر: الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص ٣٥٤.

(٥٤) منير أقصبي، "**القورجة "بالمغرب: قراءة في بعض النماذج من خلال النصوص التاريخية والشواهد الأثرية**"، ضمن أعمال ندوة الأمن في تاريخ المغرب، تنسيق: محمد اليزيدي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية-ظهر المهراز بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، ٢٠٢١، ص ١٨٨. نقلاً عن: Robert Ricard, « Couraça et Coracha» ,p152.

(٥٥) انظر: لوبنى زوبير، «**القورجة في التحصينات المغربية الوسيطية بين الأمن المائي والهاجس الدفاعي**"، مجلة المناهل، ملف العدد: إطلالة على حصيلة الدراسات التاريخية المغربية، العدد ٩٩ (أبريل، ماي، يونيو ٢٠٢٠) ص ٤٠٧ـ٤١٣، بتصرف .

(٥٦) انظر: حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ٦٠٩-٨٦٩هـ/ ١٢١٢-١٤٦٥**، سلسلة أبحاث مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، منشورات عكاظ،2010 م ص ٥٢٥.

(٥٧) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص ٢٠٢.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الدور الثقافي والسياسي للمؤسسات العلمية الرسمية في خراسان
خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي



إيهاب نبيل رفاعي

باحث دكتوراه تاريخ إسلامي

كلية دار العلوم

جامعة المنيا – جمهورية مصر العربية

مُلَخَّصْ

يقدم هذا المقال موجزًا تاريخيًا عن دور البنى الفوقية، في الثقافة والسياسة في إقليم خراسان، أحد أقاليم المشرق الإسلامي، والذي يتمتع بأهمية جيو- استراتيجية خاصة للخلافة العباسية، تلك البنى الفوقية التي تمظهرت في المؤسسات العلمية الرسمية مثل: المدارس والمكتبات، وغير الرسمية التي تجلت في بلاط السلاطين والأمراء والخلفاء، الأمر الذي يشي بتسييس القضايا التي تتصل بالفكر والثقافة في أقاليم المشرق الإسلامي خاصة، والعالم الإسلامي عامة؛ ليبرز ذلك قاعدة منهجية تاريخية، وهي انطلاق الفكر يكن من الواقع – ليس العكس - الذي صنعه، أو البيئة الحاضنة التي تشكِّل النص التاريخي، لكن يتم تناولها بآلية جدلية لا ميكانيكية تخِّل وتبسط وتعتسف الأحكام التاريخية؛ لذا فالحركة تكن من الداخل إلى الخارج، فتم إبراز دور المدارس والمكتبات وبلاط السلاطين الفكري والسياسي، غير منعزلين عن تناول التيار العقلي بين الازدهار والتقهقر. وقد توصل الباحث إلى أهمية دور المؤسسات العلمية الرسمية المدارس والمكتبات في نشر العلوم والثقافة والفكر على اختلاف أنماطها ومذاهبها، والتي من شأنها إثراء الحياة الفكرية والثقافية في خراسان والمشرق الإسلامي كافة خلال القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). أضف إلى ذلك اقتران الدور السياسي بالثقافي، والذي تجلى في بروز دور بلاط السلاطين والأمراء في تبني أبرز وأشهر المفكرين والعلماء والفقهاء؛ لعقد مجالس العلم والمناظرات فيما بينهم، أو بين الفرق والمذاهب والأيديولوجيات المتباينة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٤ أكتوبر ٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر: ٢٥ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

خراسان؛ المؤسسات العلمية؛ المعتزلة؛ الأشعري؛ علم الكلام

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310324

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إيهاب نبيل رفاعي. "الدور الثقافي والسياسي للمؤسسات العلمية الرسمية في خراسان خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٧٤ – ٨٣.

Corresponding author: ehabhistory@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

لم تنقطع الصلة ألبته بين الثقافة والسياسة في أي عصر من العصور التاريخية؛ ذلك لأن منبتهما جذر واحد متمثل في الواقع السوسيو- اقتصادي، ذلك الجذر الرئيسي لكل الأبنية الفوقية التي تشكّلت وفقًا لمدى التطور والتناقض والسيرورة والصيرورة لحركة المجتمع وأنماط إنتاجه وعلاقاتها، فكل عصر يعكس ثقافته التي تعبر عنه سواء عصر ازدهار أو اضمحلال؛ لذا كان اختيار عنوان الورقة البحثية الدور الثقافي والسياسي للمؤسسات العلمية التي اكتظت بها حواضر العالم الإسلامي في مشرقه، في فترة من فترات ذروته وتحولاته السياسية الأكثر زخمًا، والتي تدور حول القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، حيث وجود أكثر من خلافة إسلامية تحكم مناطق وأقاليم مترامية الأطراف مثل الخلافة العباسية (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م) والخلافة الفاطمية الإسماعيلية (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م)، تلك الخلافتان اللتان تنازعتا حول ضم الكثير من أقاليم المشرق الإسلامي، مما انعكس ذلك الصراع في صورة مذهبية سنية – شيعية، الأمر الذي استتبع تأسيس منابر ومنارات فكرية تُؤطِر للصراع فكريًا وثقافيًا.

عند انتصاف القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، قد نشط دعاة المذاهب والفرق المعارضة في نشر دعوتهم في مناطق متفرقة وعديدة، خاصة في أقاليم العراق العجمي، وأشهرها خراسان وطبرستان وجرجان وما وراء النهر، وبالتحديد خراسان التي تُشكِّل إقليم استراتيجي ذو أهمية جيوسياسية للخلافة العباسية منذ انطلاق دعوتها منه عام (١٠٠هـ/٧١٧م)، بالإضافة إلى أن الواقع التاريخي السوسيو- اقتصادي في نهاية القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) قد شهد تحولاً هامًا ومفصليًا، وهو ما أكده بطروشوفسكي بقوله بدخول الخلافة واندفاعها نحو مرحلة المجتمع الإقطاعي المتكامل، الأمر الذي استتبع مأسسة إطار فكري يدافع عن هذا التطور والتحول الاقتصادي الجديد سياسيًا وفكريًا.

انطلاقًا من تلك المقدمة النظرية قسمت موضوع الدراسة إلى ثلاث محاور ذات صلة وثيقة ببعض لا انفصام بينهم أولهم تناول دور المدارس والمكتبات في نشر وترويج الفكر الإسلامي، أما المحور الثاني دور بلاط السلاطين والأمراء في احتضان الثقافة والفكر لما تمثله من إطار حاضن للسياسة بصفة رسمية؛ لذا ارتأيت أن ادخله في نسيج التناول المؤسسي لنشر الثقافة لغرض سياسي، بحيث يصير كلاهما مندغمين فكريًا على أرضية تاريخية، فأما المحور الثالث يتمثل في طرح تساؤل جدير بالإجابة عليه وهو هل صمد التيار العقلي على الرغم من محاولة قمعه؟

أولاً: دور المدارس والمكتبات في نشر وترويج الفكر الإسلامي

لقد اشتهرت مدينة نيسابور بنشاطها العلمي وتعتبر أول مدينة سبقت إلى تأسيس المدارس، بجانب أنها تحوي أكثر من عشرين مدرسة علمية وغيرها من عشرات المساجد ومراكز الصوفية والمكتبات، مما أدى إلى اندفاع الكثير من سائر البلاد الإسلامية للانتقال إليها والترحال[١]. وقد اختلف حول نشأة أول مدرسة في نيسابور بل وفي خراسان نفسها، وأصل هذه المدارس أيضًا، فقد أشار بارتولد[٢] إلى أثر البوذية في إنشاء المدارس وقال بأنها تقليد (للنوبهار) أو (Vihara) ودلل على ذلك أن المدارس ظهرت أول الأمر في شرق العالم الإسلامي، ولم تظهر في غرب بلاد فارس أو في بغداد إلا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كما أشار إلى أن هذه المدارس كانت مستقلة عن تدبير الحكومات وسياستها؛ حيث هذه المدارس – كما سنرى فيما بعد – أُنشئت بإيعاز من السلاطين والأمراء لأهداف سياسية ومذهبية وأبرزها تلك التي أمر بإنشائها نظام الملك والمشهورة باسم النظاميات.

ويرى شوقي ضيف[٣] أن أول مدرسة بُنيت بمدينة نيسابور في منتصف القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) كانت مدرسة "أبي حفص الفقيه" وكان يدرس بها للطلاب الفقيه الحنفي ابن شاهويه*(ت:٣٦١هـ / ٩٧١ م) ، لكن لم يحدد تاريخ بنائها، ومن ناحية أخرى نجد عند المؤرخ العراقي ناجي معروف[٤] قائمة بمدارس وُجدت في نيسابور تأسست على يد علماء عرب، بل وأُنشئت قبل مدارس نظام الملك، في خراسان وما وراء النهر مثل:

- مدرسة "حسان بن محمد الأموي القرشي" المعروف بأبي الوليد النيسابورى أنشئت بنيسابور قبل ٣٤٩هـ - ٩٦٠م.
- مدرسة "ابن حبان التميمي البستى" ٣٥٤هـ - ٩٦٥م.
- المدرسة "الصاعدية" عام ٤٠٢ هـ - ١٠١١م.
- مدرسة "سهل الصعلوكى العجلى" ٤٠٤ هـ - ١٠١٣م.
- مدرسة "أبى عثمان الصابونى" ٤٠٥هـ - ١٠١٤م.
- مدرسة "ابن فورك الأنصاري" ٤٠٦هـ - ١٠١٥م.
- مدرسة "ابن ناضرة الأسدي" ببوشنج ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م.
- المدرسة القشيرية قبل عام ٤٦٥هـ - ١٠٧٢م.

هذا فضلًا عن مدارس أخرى أنشأها العلماء العرب أنفسهم أو أنشئت لهم في خراسان، وكانت الدراسة باللغة العربية في المدارس التي أنشأها العلماء المسلمون بالمشرق الإسلامي، سواء كانوا من العرب أرومة أو بالولاء[٥]، ثم كثر بناء المدارس في النصف الأول من القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، مثل المدرسة البيهقية التي بناها الإمام "أبو الحسن محمد بن شعيب البيهقي" مفتي الشافعية بنيسابور[٦]، وأيضًا مدرسة الاستراباذي (ت:٤٤٠هـ/١٠٥٧م) التي بُنيت لأصحاب المذهب الشافعي، والمدرسة السعدية التي بناها الأمير نصر بن سبكتكين عام (٣٨٩هـ/٩٩٩م)[٧]، وقد أُنشئت المدارس في المشرق الإسلامي عمومًا أحادية المذهب أي لم توجد مدارس ثنائية مشتركة بين مذهبين ولا ثلاثية ولا رباعية[٨].

والآن نلقي الضوء على بعض النظاميات الموجودة بخراسان والتي بُنيت على غرار نظامية بغداد التي أسسها الوزير نظام الملك عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م).

١/١-نظامية مرو

وكان في نظامية مرو خزانة كتب وضعها نظام الملك تحوي الكثير من الكتب والمصادر تشتمل العلوم الإسلامية في مختلف المذاهب السنية، وقد درس فيها أغلب الأسرة السمعانية ومن أشهر رجالها "أبو المظفر السمعاني التميمي" (ت: ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م). وهو منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني المروزي فقيه على المذهب الحنفي، أخذ الفقه الحنفي عن أبيه، وبقى حنفيًا يدَّرس ويناظر، وقدم إلى نيسابور وحضر مجالس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، ثم تحول إلى المذهب الشافعي عام (٤٥٠هـ/ ١٠١١م)، واضطرب لذلك أهل مرو وتشوش العامة[٩].

نستنتج من هذا النص دلالة واضحة على أن المذهبين السنيين الحنفي والشافعي كانا في صراع دائم ومدى ارتباط ذلك بالعامة من الناس.

٢/١-نظامية هرات

من أشهر علمائها "أبو بكر الشاشي" (ت:٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م) وهو محمد بن علي بن حامد الإمام وكان يدرس بهرات على المذهب الشافعي[١٠]. وهناك أيضًا وُجدت مدارس للعلوم بمدينة بلخ، التي أُشتهرت بمقامات الطلاب والأرزاق جارية على من طلب العلم، ويبرز هنا العامل السوسيو- اقتصادي تمثل ذلك في أن بلخ أثرى مدينة حيث بها مياسير التجار وأراضي زراعية خصبة يمتلكها الأغنياء[١١].

كذلك يصف الإصطخري[١٢] أهل بلخ ومرو بأنهم أنجب أهل خراسان فى الفقه والدين والنظر والكلام، وكانت لفقهاء خراسان طريقة خاصة في الفقه، تُعرف بهم وكان يقابلها الطريقة العراقية، ويرى ابن خلكان أن أول من جمع بين الطريقتين هو "أبو على الحسين السخي" من كبار تلامذة "أبي بكر القفال المروزي" وهو من كبار الفقهاء الشافعيين في خراسان وصاحب مؤلفات قيِّمة في الفقه، وأن أول من وضع علم الخلاف الفقيه "أبو زيد عبدالله الدبوسي" وهو فقيه على المذهب الحنفي، الذي كان يقيم ببخارى وتوفي هناك عام(٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)[١٣].

بعد أن وضحنا دور المدارس في نشر وترويج الفكر الإسلامي، جاء دور آخر للمكتبات التي انتشرت بشدة منذ أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، والتي أسهمت بدور كبير للغاية في انتشار العلوم والفكر، سواء في الدويلات السنية أو الدول الشيعية كالبويهية والفاطمية. فقد تزايد الاهتمام بالمكتبات العامة، حيث وُجدت مكتبات الوراقين التي تعرض فيها الكتب للبيع، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقًا مستقلًا، وكانت هناك مكتبات عامة للدولة، وأيضًا في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يفقه العلماء على طلاب العلم في الجوامع[١٤] مثل مكتبة جامع نيسابور الكبيرة والتي تعود جذورها إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[١٥].

فضلًا عن وجود رعاه للعلم يبنون المكتبات للطلاب ومثال شهير على ذلك أن الفقية "ابن حبان البستى" (ت: ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب[١٦]. كذلك وقد شغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة، أولها مكتبة عضد الدولة البويهى، والثانية مكتبة وزيره "ابن العميد" وكانت أكبر من السابقة، وأما الثالثة مكتبة "الصاحب بن عباد" وزير مؤيد الدولة بالرى، ويقال أنها أضعاف مكتبة ابن العميد[١٧].

ويذكر أن الأمير نوح بن منصور الساماني أمير خراسان، قد أرسل إلى "الصاحب بن عباد" وزير مؤيد الدولة البويهي في السر يستدعيه ويرغبه في خدمته، فاعتذر له الصاحب بداعي أن لديه من كتب العلم ما يحمل على ٤٠٠ جمل أو أكثر، وأيضًا جعل مكتبته وقفيه عامة وتاريخ وقفها (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) وهي السنة التي توفي فيها الصاحب[١٨]. وهناك سبب آخر ساعد على انتشار العلم وترويجه، وهو تنقل العلماء والرواة في أقاليم المشرق الإسلامي، مما أضفى سيولة على الجانب الثقافي، فمثلًا هناك

من روى بجرجان عن جماعة من أهل الري وهرات، لا سيما أن السلطان محمود الغزنوي يبعث لهم من سائر الأمصار مثل: "أبي سعد حمد بن منصور بن الحسن الجولكي" الذي كان رئيسًا لعلماء جرجان وقد جاء إلى غرنة حاضرة السلطنة الغزنوية[١٩].

ثانيًا: دور بلاط السلاطين والأمراء في احتضان الثقافة والفكر

لقد كان لبلاط السلاطين والأمراء في المشرق الإسلامي دور هام في نقل ونشر الفكر الإسلامي بمختلف أنواعه، فضلًا عن احتضانهم للعلماء والفقهاء، ومن ثم جرت صراعات ومناظرات ومناقشات علمية يحاول كل فريق إثبات وجهة نظره ونشر مذهبه، بالإضافة إلى سبب آخر لا يمكن إغفاله وهو سبب سياسي جعل كل أمير أو سلطان يلجأ لجذب العلماء إلى بلاطه، فترتب عليه أحداث مرتبطة بنواحٍ مذهبية واجتماعية. والآن نلقي الضوء على هذا الدور الذي لعبه بلاط السلاطين والأمراء في خراسان خاصة والمشرق الإسلامي عامة، ولنبدأ بالبلاط الساماني الذي تغلب عليه النزعة القومية الفارسية.

لقد كان لتأثير النزعة الفارسية الواضحة في بلاط هؤلاء الأمراء السامانيين، حيث يعتبر من أهم المراكز التي جذبت الناظمين بالشعر الفارسي، سواء في خراسان أو بخارى[٢٠]، ومن أشهر حكام الدولة السامانية الذين عرفوا باهتماماتهم بالعلم، وتقديرهم للعلماء ،وشغفهم بالكتب والمؤلفات "نوح بن نصر الساماني"، الذي كان من أدباء أمراء السامانيين[٢١]، ومنهم أيضًا الأمير "إسماعيل بن أحمد" الذي كان يحسن إلى محمد بن نصر المروزي، وهو أحد العلماء والفقهاء وله مؤلفات كثيرة، وهو من أفقه علماء نيسابور[٢٢]. حيث كان الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني يصل محمد نصر المروروزي في كل عام ٤٠٠٠ درهم، فضلًا عن الأمير "نصر بن أحمد" الذي أولى العلم عنايته واهتمامه، حتى ألف له الطيب الطاهرى كتاب "أدب النفوس"[٢٣].

وقد كان "أبو بكر محمد بن زكريا الرازي" – وهو من أشهر الأطباء وله ما يزيد على مائة مؤلف في الطب – من أبرز العلماء الذين حرص السامانيون المعاصرون له على الاستفادة من علمه، وكانت بينه وبين "منصور بن إسماعيل الساماني" صداقة فألف له الرازي كتاب "المنصوري"، وألف أيضًا كتاب "القصد" للأمير أبي على أحمد بن إسماعيل الساماني[٢٤]. كما يذكر ابن كثير[٢٥] استضافة الأمير نوح بن نصر الساماني للطبيب الفيلسوف ابن سينا (ت:٤٢٨هـ/١٠٣٦م)؛ ذلك لأن الأمير كان يعاني من مرض فعالجه ابن سينا، إضافة إلى أنه أثرى البلاط الساماني بعلمه وإبداعاته، فأغدق عليه الأمير نوح العديد من الهدايا، وكون له مكتبة ضخمة تحوي الكثير من العلوم.

هذا بالإضافة إلى ميزة تميز بها البلاط الساماني، ألا وهي مجالس عقد للمناظرة بين يدى الأمراء، فكان الأمير يسأل المسألة ثم يتكلمون عليها ولكن في مذاهب أهل السنة فقط[٢٦]؛ لأنه بالطبع لم يكن باستطاعة الأمراء السنيين مناقشة أي مذهب معارض مثل الشيعة والمعتزلة، ولعل المناظرات التي كانت تجري بين المذهبين الحنفي والشافعي تزيد من حدة الصراع بينهما ولاسيما أن السلطة السامانية متمذهبة بالمذهب السنى الحنفي.

ولم يختلف الأمر بالنسبة للبلاط الغزنوى، الذي استطاع جذب العلماء والشعراء إليه، لاسيما في عهد السلطان محمود الغزنوي، الذي جعل بلاط خراسان وغزنة من أروع المراكز الثقافية والعلمية في المشرق الإسلامي، وإن كان لنا رأى آخر في مسألة جذب العلماء سنناقشه فيما بعد. لقد حرص السلطان محمود الغزنوي على استقدام العلماء والفقهاء السنيين، وذلك بالطبع لمحاربة الفكر المعارض المتمثل في الشيعة والمعتزلة، ومن ضمن العلماء الذين كانوا يحضرون مجلسه "على بن عبد الله النيسابوري" الذي استقدمه السلطان محمود عام (٤١٤هـ/١٠٢٣م)؛ للسماع منه، وأيضًا استطاع استقدام "الاستغداديزي" وهو عالم وأديب (ت: ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م) والذي كان فيما بعد مؤدبًا لأولاده[٢٧].

لكن أهذا يكفي لأن نقول بأن عصر السلطان محمود الغزنوي هو عصر حرية الفكر؟ هناك أحد المؤرخين[٢٨] قد قال بأن عهد السلطان محمود من ألمع العهود، إذ جعل غزنة من أروع المراكز الثقافية، وأن بلاطه ملاذًا لمشاهير العلماء والأدباء، وتألق في عهده نجم كثير من الفلاسفة والشعراء أمثال البيروني والفردوسي والدقيقي.

وقد ذهب باحث آخر[٢٩] إلى القول بأن النشاط العلمي الذى ظهر على أيام السلطان محمود الغزنوى، قد ظهر بواسطة التخويف لا الترغيب، بحيث يجعل مركزه في قصره وترنو إليه الأبصار وتشخص إليه الأنظار، حيث يعتبر محمود الغزنوى من كبار الخاطفين لرجال العلم والآداب والفنون، وكثيرًا ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوي على كثير من الازدراء والامتهان، ولم يكن بين رجال العلم في زمانه أفضل من "ابن سينا" و"البيرونى"، وكان الاثنان يعيشان مع زمرة منتخبة من رجال العلم والأدب مثل الفيلسوف "أبى سهل المسيحى"

والطبيب "أبى الخير الحسن بن الخمار"، والرياضي "أبى نصر بن العرَّاق".

بالإضافة إلى أنه بعد إغارة السلطان محمود الغزنوى على أملاك الخوارزميين(*) عام (٤٠٨هـ/١٠١٧م)، بعث السلطان محمود إلى "مأمون بن مأمون" (ت: ٤٠٧ هـ/١٠١٦م) أمير خوارزم يقول فيها: "لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم مثل فلان وفلان وكل واحد منهم قد أصبح نسجًا وحده وبرز في عمله، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعًا إلى قصري حتى يتشرفوا بلقائي، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم، ونرجو أن يحقق لنا أمير خوارزم هذه الرغبة التي أبديناها ......"[٣٠].

فهذا الخطاب على ظاهره معتدل اللهجة، ولكنه في الحقيقة كان مجرد أمر من محمود إلى الأمير مأمون، بأن يبعث إليه بمن لديه من رجال العلم والأدب، فأبدى ثلاثة من الرجال وهم البيروني والخمَّار والعَّراق رغبتهم في الذهاب، بينما رفض ابن سينا وهرب إلى ابيورد ثم طوس فنيسابور ومنها إلى جرجان، وكان يتولاها في ذلك الوقت رجل العلم والأدب شمس المعالي قابوس بن وشمكير بن زيار" (٣٦٨-٤٠٣هـ/٩٧٧ - ١٠١٢م)[٣١].

يتضح من تلك النصوص الواردة عن جذب السلطان محمود الغزنوي للعلماء والأدباء، أنه بالفعل أراد الشهرة والإعلام عن أنه رجل علم راعي العلماء والأدباء، بالإضافة إلى استغلال هؤلاء العلماء لمحاربة معارضي السلطة، إلا أن هناك بعض العلماء تمت معاملتهم بشكل سيء مثل البيروني، ووفقًا لما ذكره كراتشكوفسكي[٣٢] عن إصرار محمود الغزنوي على أخذ البيروني معه إلى غزنة عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) بوصفه عنصرًا لا يطمأن إليه، وتكاد لا تحلو مصنفاته المتأخرة بأجمعها من الشكوى المرة لما يلاقيه من سوء التقدير ولمصيره الشخصي، لاسيما أن البيروني عرف عنه في تلك الفترة معاناته من شظف العيش.

أما عن عصر الدولة البويهية وهم شيعة زيدية، فقد كان أمراء بني بويه من المهتمين بالعلوم العقلية، حيث بلاطهم كان مقصدًا للمشتغلين بهذه الدراسات، وقد آوى إليهم ابن سينا بعد فراره من سطوة محمود الغزنوي، وعندهم وجد الراحة والفرصة لتأليف كثير من مؤلفاته القيمة الموجودة حتى الآن[٣٣].

فهناك رأى يقول بتشيع الفيلسوف ابن سينا، وأن تشيعه هذا سبَّب اضطهاد السلطان محمود الغزنوى له، حيث يقول ابن سينا حاكيًا عن أبيه: "وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، ويُعد من الإسماعيلية وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه[٣٤].

من الواضح أن هذا النص يشي بتشيع ابن سينا على المذهب الإسماعيلي، وتعاليمه عن طريق أبيه، وبالفعل انعكس ذلك على أفكاره. كذلك وزراء الديلميين ورجال حاشيتهم من هواة العلم والفلسفة مثل "أبي على بن سوار" كاتب عضد الدولة البويهي الذي أنشأ في البصرة مكتبة ومدرسة للمعتزلة[٣٥]، فلعل هذا يفسر التقارب الفكري بين الشيعة والمعتزلة ولاسيما أن المذهبين يتمتعان بأعمال العقل وحرية الفكر والتطور والتجديد.

وعلى نفس النهج صار الفاطميون في رعاية العلماء والعلم وبناء المدارس والمكتبات، والجدير بالذكر أن العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي، خصوصًا الذين كانوا يعانون من الفقر، أرسل إليهم الفاطميون يستدعونهم إليهم ويضمنون لهم العيش الكريم، بل والذي يدعو إلى الإعجاب بالفاطميين أن بعض العلماء الذين استدعوهم أو وفدوا إليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين[٣٦]، لكن هناك بعض العلماء عملوا لحساب الفاطميين، مثل اتصال الرحَّالة ابن حوقل بهم، وفي هذا الصدد ذكر المستشرق الهولندى "دوزى" أن هذا الرحالة كان يتجسس ويعمل لحساب الفاطميين في الأندلس[٣٧].

خلاصة القول، أن لبلاط الأمراء والسلاطين دورًا هامًا في نشر وترويج الفكر الإسلامي، على الرغم من أن المصالح السياسية هي الهدف الأساسي من اهتمام الأمراء والسلاطين في جذب العلماء والمفكرين، خصوصًا الدويلات السنية مثل السامانيين أو الغزنويين أو السلاجقة، لكن مع أغراض الأمراء والسلاطين في ذلك، فقد أبدع العلماء والمفكرون في إخراج كل ما لديهم من فكر؛ لإثراء الحضارة الإسلامية، على الرغم أيضًا من التعصب المذهبي الموجود استطاع العلماء غير السنيين في إثراء الفكر الإسلامي.

ثالثًا: هل صمد التيار العقلي على الرغم من محاولة قمعه؟

ننتقل الآن إلى الحديث عن نقطة نحن نرى أنها في غاية الأهمية؛ لأن الحديث عن التيار العقلي، الذي ضم بين دفتيه الفلسفة وعلم الكلام (في صيغته الإعتزالية) كفكر مختص بذاته ليس بمنأى عن تلك الجوانب؛ لذا فلنحاول الإجابة عن هذا التساؤل المهم.

بداية لا بد أن نشير إلى مقاربة فكرية مهمة ألا وهي علم الكلام؛ لأنه ينطوي على كثير من الأفكار التي زادت وطورت من الفكر والثقافة الإسلامية، بل وتسببت في زيادة صراع المذاهب المختلفة، خاصّة ضد المعتزلة – الذي سيأتي ذكرهم فيما بعد- وهم رواد التفكير العقلاني. وقد عرَّف الغزالي[٣٨] (ت: ٥٠٥هـ/ ١١١١م) علم الكلام" بأن غرضه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة ؛ فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بالكلام، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصوصهم".

وتعريف ابن خلدون[٣٩] (ت: ٨٠٦هـ/ ١٤٠٦م) لعلم الكلام نجده مرادف لتعريف الغزالي، حيث يقول : "علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة". إننا نلاحظ شيئًا هامًا في تعريف الغزالي لعلم الكلام، ألا وهو "استناد المتكلمين أو اعتمادهم على مقدمات تسلموها من خصوصهم"، **ما معنى هذا الكلام؟**

المعنى هو الاعتماد على البراهين العقلية والأدلة العقلية، في تفسير الأشياء وتدعيمها للكتاب والسنة، وهي أهم سمة تميز المعتزلة، وهم المقصودون بالخصوم في كلام الغزالي، خاصّة أن الغزالي متبع المذهب الأشعري، والأشعري نفسه كان من تلاميذ الجُبَّائي المعتزلي، أي أن المذهب الأشعري اكتسب سمة مهمة، وهي النظر العقلي، لكن لم يعملها بالشكل المطلوب؛ لأنه أصبح مذهبًا سياسيًا للخلافة العباسية ضمنيًا، وأصبح مرتبطًا بالمصالح السياسية والاقتصادية، فبالتالي كان الهدف هو القمع الفكري للمعتزلة، الذين أطلقوا العنان للعقل فأثرى الفكر الإسلامي، فأصبح المذهب الأشعري غطاء إيديولوجي للنظام الإقطاعي، الذي تزايد نفوذه وساد في عهد السلاجقة الأتراك ومثَّله الإمام الغزالي.

أي إن الأشعرية أنشأوا علم كلام خاصًا بهم؛ لمواجهة فكر المعتزلة الذين ابتكروا علم كلام عقلي؛ لإزالة اللاهوتية والنصية الأثرية عن الفكر الإسلامي، وإطلاق حرية العقل. وفي هذا الصدد يفرق أبو حيان التوحيدي[٤٠] بين طريقة المتكلمين والفلاسفة، بأن المتكلمين هم الذين استخدموا الجدل وتوظيف الفلسفة لخدمة الدين والحديث بشيء من العقل والمنطق، لكن استخدامهم محدود بالنسبة للعقل فهم نقليون أو نصيون أكثر، أما الفلاسفة فهم يحكِّمون العقل في جميع آرائهم ومناقشاتهم، ويُطلق عليه ترتيب العقل الطبيعي.

وكانت خلافة المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦ – ٨٦١م) خاتمة لعصر حافل بالآداء والمبادئ، وفاتحة لعصر آخر قُيدت فيه الآراء والأفكار، وفتحت فيه السلطة للمحافظين من الفقهاء والمحدثين[٤١]، كذلك بعد أن بويع الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩ – ٢٨٩هـ / ٨٩٢ – ٩٠١م) أصدر قرارًا بمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها، ومن يفعل يحبس ويعذب[٤٢]. كذلك سار على نفس النهج الخليفة القادر بالله وبوصفه زعيمًا دينيًا روحيًا للخلافة كان يترأس اجتماعات الفقهاء الذين كانوا يصدرون الفتاوى بتكفير الفاطميين الشيعة وتحريم حرية الفكر، فضلًا عن أن الخليفة نفسه وضع بعض الكُتيبات يهاجم فيها المعتزلة والمذهب العقلي[٤٣].

يتضح من النصوص السابقة أن الخلافة العباسية أخذت على عاتقها محاربة الفكر الفلسفي والنظر العقلي، بمساعدة فقهاء السنة المرتبطين بالسلطة، وهذا بالطبع لم يخل من الدوافع السياسية والاجتماعية الموجودة، علمًا بأن العصر العباسي الثاني أُطلق عليه عصر تسلط الأتراك، وفقدان الخلافة هيبتها، هذا بجانب النمط الإقطاعي الذي ساد المشرق الإسلامي عمومًا، ما جعل هناك منظِّرين للمذهب الأشعري الذي أصبح الغطاء الفكري للنظام الإقطاعي.

فلم يخطئ فيليب حتي[٤٤] حين قال بمبدأ (بلا كيف)، الذي نتج عن الفكر الأشعري، وهو يقضي على حرية الفكر ويحاول إخمادها وإيقاف البحث العلمي، وقد كان الغرض من المدرسة النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك، نشر المذهب الأشعري بعد سيادة نظام الإقطاع العسكري.

ففي هذا الصدد يرد السيد محسن الأمين[٤٥] على قول الذهبي – وهو أحد فقهاء السنة – حين وصف الذهبي علم الكلام والمنطق، بأنه علم مترد وضد الدين، وقد جاء رد السيد محسن الأمين بأن الدين هو الذي حث على العلم والنظر والاستدلال، فالذهبي وغيره إنما يتبعون فيها قول الأشعري. وحسبنا مقولة الحسن البصري بأن العقل هو الذى يدفع إلى الجنة ويحمي من النار[٤٦]. إذن أصبح الصراع الآن ضد المعتزلة وضد الفلسفة، التي أصبحت في محنة حقيقية، منذ أن تكاتفت الخلافة مع الدويلات السنية في المشرق، ضد كل ثوري معارض يتبنى فكر حر، مثل المعتزلة والشيعة خصوصًا الزيدية والإسماعيلية.

وقد وُفق بطروشوفسكي[٤٧] - في رأيي- في قوله بأن الصراع مع المعتزلة وفلاسفة الإرادة الحرة حتم على أهل السنة استخدام أصول ثابتة جديدة، فلم يكتفوا بمعاقبة المعارضين

ومطاردتهم فحسب، بل استخدموا سلاح الفكر والعقيدة ضدهم، ورغم هذا فإن اندفاع تيار التكامل الإقطاعي في أقطار الخلافة، كان السبب الأصلي في ظهور علم إلهيات جديد عند السنة. لكن قبل ولوج موضوع صمود الفلسفة في وجه السلطة العباسية ومعاونيها، يجب أن تشير إلى شئ هام، ألا وهو وجه التناقض بين نظام السلطة المائل للإقطاعية، واعتناقهم في نفس مذهب أبي حنيفة الحر حتى ولو اسمًا فقط.

نقول أن المذهب الحنفي قد ساد معظم أقاليم المشرق الإسلامي، على الرغم من تعبير مذهب أبي حنيفة عن صيغة بورجوازية مثلى في الأحكام، وكان أبو حنيفة يتطلع إلى إقامة صيغة تعالج الحاضر وتضع في اعتبارها المستقبل، ومن القرائن الدالة على أن مذهب أبي حنيفة اكتسب "صيغة بورجوازية" في الأحكام، أن الآخذين به كانوا في الغالب تجارًا وحرفيين، فالمعتزلة – الذين كانوا زعماؤهم تجارًا – كانوا كذلك أحنافًا، وأيضًا يعرف عنه تعاطفه وتأييده للثورات الزيدية، وذلك كله يقيم الدليل على أن مذهبه في الفقه عبَّر عن تطلع القوى الثورية نحو إقرار نظام في التشريع، يضمن مزيدًا من تنامي المد البورجوازي، ويفسر ذلك مطالبة الفقهاء الأحناف الخلافة العباسية مرارًا بإلغاء المكوس، ونجاحهم في إرغامها على استصدار تشريعات لمصلحة التجار[٤٨]، ولم يخطئ كاهن[٤٩] حين ذهب إلى أن هؤلاء الفقهاء عبروا عن مصلحة فئة من التجار اتصلوا بها.

من ناحية أخرى لم يكن من الغريب أن نجد إشارة عن أحد المؤرخين[٥٠] عن وجود صلة بين المذهب الشافعي السني والمذهب المعتزلي، لاسيما أن الشافعي تتلمذ في المدينة بعد عودته من اليمن على "إبراهيم بن أبي يحيى" وهو معتزلي المذهب، وكان الشافعي يعتبره من الثقات، لعل هذا يفسر وجود التفسيرات العقلية والنظر والاستدلال في فقه وفتاوي الشافعي. كذلك نجد إشارة أخرى لدى ابن العماد الحنبلي[٥١] بأن شيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار بن أحمد عبد الجبار كان شافعي المذهب، وأصبح فيما بعد شيخ المعتزلة إلى أن توفى عام (٤١٥هـ / ١٠٢٤م).

أما عن صمود الفلسفة الإسلامية على الرغم من محاولات قمعها وقمع الفكر الحر المعارض، فإننا نبدأ بالحديث عن رواد التنوير أو أصحاب الفكر العقلاني، الذي تبنى الحفاظ على التراث الفلسفي، بل وسعى إلى التطوير والتجديد بصبغة إسلامية، ألا وهم المعتزلة. فيتحدث الجاحظ[٥٢] وهو معتزلي المذهب عن قيمة وأهمية العقل بأنه أشد احتياجًا من السيف، وأسرع إلى التجديد والتغيير، واستخدامه كقيمة في التفكير مثل الدواء الذي يقتل المرض أو السم، لا يقوى معارضوه على مقارعته لضعف حجتهم، فمن أدركه أدرك كثيرًا من احتياجاته. فرأي الجاحظ يعكس شيئًا له دلالة مهمة، ألا وهي كيف انعكست أهمية العقل على الواقع سواء السياسي أو الاجتماعي، فالجاحظ يشير إلى ناحية تنويرية تثويرية من شأنها الارتباط الوثيق بالناحية السياسية، وبالفعل هذا ما حدث من تعضيد ومساندة المعتزلة للشيعة الزيدية في ثوراتها ضد السامانيين والخلافة العباسية السنية.

لدرجة أن دفعت أحد المؤرخين[٥٣] إلى القول بأن القاضي عبد الجبار لم يكن بين الزيدية عالم ومحقق أبرز منه. خصوصًا أنه من المعروف أن القاضي عبد الجبار من أعلام المعتزلة الكبار، لكن تصنيف المؤرخ له ضمن الزيدية ربما لاتفاق كبير بين المذهبين من الناحية الفكرية مما انعكس على نشاط الشيعة السياسي، ووجود اتفاق على بعض الأفكار مثل مسألة الإمامة عند الزيدية، فالمعتزلة تقول بولاية المفضول مع وجود الأفضل وهذا ما تقول به الزيدية.

وقد أشار حسن حنفي[٥٤] إلى أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها وقت ظهور المعتزلة، وسيادتها للفكر في أواخر العصر العباسي الأول وبداية الثاني، أي منذ عهد الخلافة المأمون حتى مجيء الخليفة المتوكل – والذي بدأ مرحلة القمع الفكري- وهذا الاختيار الاعتزالي قد يكون أكثر تعبيرًا عن حاجات العصر والواقع، وأكثر تلبية لمطالبه، فقد رفض المذهب الطبيعي قديمًا؛ لأنه كان خطرًا على التوحيد وفاعليته، وهو مذهب أصحاب الطبائع عند الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، إبراهيم النظَّام (ت: ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، معمر بن عبَّاد (ت: ٢٢٠هـ/٨٣٥م).

وقد وصف حسن حنفي[٥٥] المذهب الأشعري عند معرض حديثه عن علم الكلام، بأنه الرجوع إلى النص الخام أي أنه شبه المتكلمين بوزراء الداخلية، ومهمتهم الدفاع عن العقل الداخلي، الذى لا يمكن له أن يتطلع إلى حضارات الغير أو فلسفاتهم، على الرغم أن نشأة علم الكلام كان هدفها تحويل النص إلى معنى، والآية إلى فكرة، ومحاولة العثور على نظرية عقلية خالصة للنص، إلا أنه لم يحقق ذلك واكتفى بالرد على الفرق الخصوم والرد على الملاحدة، وأصبحنا أسرى للنصوص بعد أن كانت النصوص أسرى لعقول القدماء[٥٦].

أما عن الفلسفة ونشأتها فهي تشبه وزارة الخارجية، ومهمتها التعامل مع حضارات أخرى غازية والانفتاح عليها وفي مقدمتها الحضارة اليونانية، وقد حاولوا إعادة بناء العلم النظري

القديم (علم الكلام) على أساس من المفاهيم الجديدة، مستعملين نفس أسلحتهم التصورية، ومن ثَمَّ فإن الفلسفة من جنس علم الكلام، ونجد كثيرًا من المتكلمين فلاسفة، وكثيرًا من الفلاسفة متكلمين مثل الكندي وابن رشد، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير، بأنهم استطاعوا القضاء على ظاهرة الضمور في علم الكلام، وأيضًا الاستغناء عن منهج النص السائد في علم الكلام، بالإضافة إلى كشف الجانب الرمزي في النص الديني، ومن ثم تكون مهمة الفيلسوف النفاذ إلى ما وراء الخيال، والقضاء على حرفية المعنى؛ لذلك تعتبر الفلسفة تطوير للفكر الاعتزالي وللتنزيه الإلهي[٥٧].

فضلًا عن أن الفلسفة أفق أوسع من علم الكلام، ففي حين أن علم الكلام يغلب عليه الرفض وضيق الأفق والتحيز المسبق والتعصب أحيانًا، وُجِد أن الفلسفة يغلب عليها القبول، غير أن أهم سمة للفرق بين الاثنين، أن علم الكلام يعارض الخصم ويكفره، في حين أن الفلسفة تضم الخصم في حقيقة أعلى منها[٥٨]، وفي هذا الصدد قد ذهب أبو حيان التوحيدي[٥٩] (ت: ٤١٤هـ/١٠٢٣م) بتسارع المعتزلة إلى التكفير، وأنهم أكثر الفرق قذفًا لخصومهم بالتكفير أعلقهم بأسباب الفسق والهتك. لكننا نرى بعكس ما قال به التوحيدي؛ لأن هذا متناقض لما تتضمنه الأصول الخمسة عند المعتزلة، وهناك أصل يسمى "المنزلة بين المنزلتين"، فمرتكب الكبيرة عند المعتزلة ليس بكافر ولا بمؤمن، بل هو فاسق اي منزلة بين الكافر والمؤمن.

وإذا كانت الفلسفة قد لقيت كل الترحيب بين صفوف الشيعة، خاصة الإسماعيلية، واستخدمت بعض الآراء الفلسفية لتدعيم وجهة نظرهم في بعض القضايا، فإن هذا الأمر قد بلغ ذروته في عهد بني بويه، الذين سيطروا على الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، ذلك أن البويهيين نشأوا نشأة ثورية في بيئة شيعية وهم لا يرون بني العباس أصحاب حق في الخلافة، ومن ثم أرادوا أن يتخلصوا منهم، لكنهم أدركوا خطورة هذه الخطوة على كيانهم السياسي، فعدلوا عنها واستعاضوا عن ذلك بتشجيع كل حركة وكل فكر يمكن أن يسهم في إضعاف هذه الخلافة السنية[٦٠].

كذلك وجد الفكر اليوناني ترحيبًا لدى الفاطميين وتوسعوا في دراسته، لاسيما أن الحياة العقلية في العالم الإسلامي في القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وما بعده كان أكثر العلماء النابغين كانوا متأثرين بالآراء الشيعية، ونرى بعض الفلاسفة الذين كانوا على صلة بالتشيع مثل ابن حوقل وابن سينا وجماعة إخوان الصفا، وفيلسوف الدعوة الفاطمية وحجتها في العراق وكرمان "أحمد حميد الدين الكرماني"[٦١].

ويذكر فيليب حتي[٦٢] أن النظام الإسماعيلي يشبه الفيثاغورثية اليونانية القديمة من حيث اعتبار العدد "سبعة" مقدسًا، وقد جعلت السبعية النظام الكوني والحوادث التاريخية أمرًا مرتبًا على هذا العدد، وهم يتبعون في حدوث الكائنات فلسفة غنوصية مبنية إلى حد ما على الأفلاطونية المحدثة، ويجعلون التجليات سبعة هي: الله، العقل، النفس، المادة الأصلية، الفضاء، الزمن، عالم الأرضين والبشر. لعل هذا انعكس أيضًا على فكرة الإمامة، بأنها سبعة أئمة تتوقف عند محمد ابن إسماعيل الإمام السابع، وبالتالي أيضًا انعكس على فكرهم السياسي، مما أدى أحيانا إلى التطرف وتمثَّل ذلك في ظهور فرقة القرامطة. إذن يظهر لنا بوضوح أن الشيعة ومعهم المعتزلة هم حماة الفلسفة في المشرق الإسلامي، على الرغم من القمع الفكري الموجود آنذاك، سواء في حقبة الغزنويين أو السلاجقة الأتراك أصحاب العقلية البدوية والعسكرية[٦٣].

ومن خلال ما سبق نستطيع القول أن التعددية المذهبية والفكرية هي ناتج تحولات سوسيو سياسية، قد تجلت وتمظهرت في مبدأ الحرية العقلية في تفسير النص الديني، وأنه حق مطلق لكل إنسان وليس من حق أي سلطة، قهر هذا الحق واغتصابه كما فعل فقهاء السلطة السنية، سواء الخلافة العباسية أو حراسها من الدويلات السنية[٦٤].

خَاتِمَةٌ

في نهاية تلك الورقة البحثية التي حاولنا فيها قدر الإمكان تتبع المسار السوسيو-سياسي والسوسيو- ثقافي لدور المؤسسات العلمية في خراسان نخلص إلى:

- أهمية دور المؤسسات العلمية الرسمية المدارس والمكتبات في نشر العلوم والثقافة والفكر على اختلاف أنماطها ومذاهبها، والتي من شأنها إثراء الحياة الفكرية والثقافية في خراسان والمشرق الإسلامي كافة خلال القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).
- اقتران الدور السياسي بالثقافي، والذي تجلى في بروز دور بلاط السلاطين والأمراء في تبني أبرز وأشهر المفكرين والعلماء والفقهاء؛ لعقد مجالس العلم والمناظرات فيما بينهم، أو بين الفرق والمذاهب والأيديولوجيات المتباينة.
- تبيان الغاية السياسية من وراء تبني السلاطين لعقد المجالس والمناظرات الفقهية والعلمية، والتي تمثَّلت في قمع معارضيها من المذاهب الشيعية والاعتزالية؛ الأمر الذي استدعى إنشاء مدارس ذي مغزى سياسي كالنظاميات، بهدف نهائي وهو الهيمنة السياسية المدفوعة بمصالح طبقية، فكان التداخل بين الثقافي والسياسي.
- رصد مقاومة التيار العقلي الذي تمظهر في أفكار كلًا من الشيعة والمعتزلة، الذين اتخذوا من الفلسفة والتنوير سلاحًا عقليًا، واجهوا به انغلاق التيار الرسمي السني، فكان ابتكار علم كلام معتزلي وشيعي في مواجهة علم الكلام السني في صيغته الأشعرية، الذي أصبح مذهب سلطة الخلافة العباسية رسميًا، وكذلك مذهب الدويلات الطرفية السنية كالغزنويين والسلاجقة.

الاحالات المرجعية:

(١) الحافظ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي، **تاريخ نيسابور**، ط قم، ١٤٠٣ هـ.ق – ١٣٦٢ هـ.ش، ص١.

(٢) **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، د.ت – د.م، ص٥٨.

(٣) **عصر الدول والإمارات**، ط ٤ دار المعارف، مصر ١٩٩٦م، ج ٤، ص٥٢٢.

* ابن شاهويه: هو من فقهاء الحنفية وجمع الفقه وعلم الحساب، وقد تولى قضاء فارس، وتوفي عام ٣٦١هـ. (أنظر: بن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر – بيروت ١٩٧٠م، ج٣، ص٣٤٨).

(٤) **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، ط. مطبعة الإرشاد - بغداد ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م، ص٤.

(٥) ناجي معروف، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، ص٥.

(٦) ذبيح الله صفا، **تاريخ أدبيات درايران**، تهران1334هـ. ش، ج١، ص٢٦٥.

(٧) شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات**، ج ٤، ص٥٢٣.

(٨) ناجي معروف، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، ص٢٢٢.

(٩) ناجي معروف، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، ص٦١،٦٣.

(١٠) ناجي معروف، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، ص٦٥.

(١١) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة – القاهرة، د.ت، ص٤٨٣.

(١٢) الاصطخرى، **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر الحينى، ط. القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص١٥٨.

(١٣) محمد محمدي، **الأدب الفارسي (أهم أدواره وأشهر أعلامه)**، ط ٢ طهران ١٩٩٥م، ص١٥٩– ١٦٠.

(١٤) شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات**، ج٤، ص٥٢٣.

(١٥) يحيى الساعاتي، **الوقف وبنية المكتبة العربية (استبطان للموروث الثقافي)**، ط٢. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٦٧.

(١٦) شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات**، ج٢، ص٥٢٤.

(١٧) نفسه، نفسه، نفس الجزء، ص٥٢٤.

(١٨) يحيى الساعاتي، **الوقف وبنية المكتبة العربية** (استبطان للموروث الثقافي)، ص٤٠.

(١٩) السهمي، **تاريخ جرجان**، ط٢. عالم الكتب – بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص٣٢٨.

(٢٠) حسن أحمد، **الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى**، ط. القاهرة د. ت، ص٧٠.

(٢١) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج ٨، ط. دار الكتب العلمية –بيروت ١٩٩٣م، ص١٧٨.

(٢٢) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ط. دار الكتب العلمية-بيروت ١٩٨٦م، ج٩ ص٣١٥،٣١٧؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج ١١، ص١٠٢.

(٢٣) الثعالبي، **يتيمه الدهر**، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ج٤، ص ٢٧٩؛ هاله شاكر، **دور وخزائن الكتب في المشرق الإسلامي منذ عصر المأمون حتى القرن السابع الهجري**، رسالة دكتوراه، إشراف: سيدة الكاشف – كلية البنات - عين شمس، ط١. القاهرة ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ص٦٧.

(٢٤) ابن أبى أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، ط. دار مكتبة الحياة – بيروت ١٩٦٥م، ص٣٨٢.

(٢٥) **البداية والنهاية**، ط٢. دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج ١٢، ص٣٩.

(٢٦) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ط٢. مطبعة بريل - ليدن ١٩٠٩م، ص٣٣٩.

(٢٧) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج١٣، ص٢٧٦؛ هالة شاكر: **دور الكتب والخزائن في المشرق الإسلامي**، ص.٧٠.

(٢٨) سيد أمير على، **مختصر تاريخ العرب**، ط١. دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦١م، ص٢٦٩.

(٢٩) إدوارد جرانفيل براون، **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي**، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، ط١ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م، ج٢، ص. ١١٠–١١١.

(٣٠) إدوارد براون، **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي**، ج ٢، ص١٢.

(٣١) براون، نفسه، نفس الجزء، ص١١٢.

(٣٢) **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، عدة أجزاء، ط. جامعة الدول العربية ١٩٧٥م، ج١، ص٢٤٦.

(٣٣) محمد محمدي، **الأدب الفارسي**، ص١٦٣.

(٣٤) ابن أبى أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٤٣٧.

(٣٥) محمد محمدى، **الأدب الفارسي**، ص١٦٣.

(٣٦) حسن الأمين، **دائرة المعارف الشيعة**، ج ١٢، ط دار التعارف – بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص١٥٨،١٥٩.

(٣٧) زكى محمد حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص٤١.

(٣٨) المنقذ من الضلال، ط المطبعة الميمنية. مصر ١٣٠٩هـ، ص٦ – ٧.

(٣٩) **المقدمة**، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، ط١ دار الفجر – القاهرة – ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٥٥١.

(٤٠) **المقابسات**، تحقيق: حسن السندوبى، ط١ . دار المعارف (سوسة تونس) ١٩٩١م، ص١١٥ (المقابسة ٤٨).

(٤١) أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، ط. ١ دار الكتاب العربي – بيروت، د.ت، ج٢، ص٤٨.

(٤٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص٣٧ ؛ ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، ج٢، ص١٧٢.

(٤٣) سيد أمير على، **مختصر تاريخ العرب**، ترجمة: منير البعلكي، ط١ دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦١م، ص٢٦٨.

(٤٤) **تاريخ العرب**، ط٩ . دار غندور – بيروت ١٩٩٤م، ص٥٠٣.

(٤٥) **أعيان الشيعة**، ط ٤ مطبعة الإنصاف – بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م، ج١، ص١٧٢.

(٤٦) السيوطي، **تحفة المجالس ونزهة المجالس**، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٣٦هـ - ١٩٠٨م، ص٥.

(٤٧) **الإسلام في إيران**، ترجمة: السباعي محمد السباعي، ط ٢ دار الزهراء للنشر – القاهرة ١٩٩٣م، ص١٤٧.

(٤٨) محمود إسماعيل: **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، ط ٣ مكتبة مدبولي ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص. ١٧.

(٤٩) **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية**، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص٩٤.

(٥٠) مصطفى الشكعة، **الأئمة الأربعة**، ط٣، دار الكتاب المصري ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص٥٨.

(٥١) **شذرات الذهب**، ط . مكتبة القدسي- القاهرة. ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، ج٣، ص٢٠٣.

(٥٢) **رسائل التربيع والتدوير**، تحقيق : عبد السلام هارون، ط١ . مكتبة الخانجي – مصر ٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص١٠٤.

(٥٣) **شذرات الذهب**، ج٣، ص٢٠٣.

(٥٤) **التراث والتجديد**، ط المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٠م، د.م، ص١٩.

(٥٥) **التراث والتجديد**، ص١٧٩.

(٥٦) ابن اسفنديار، **تاريخ طبرستان**، ترجمة: أحمد محمد نادى، ط المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة – ٢٠٠٢م، ص١١١.

(٥٧) حسن حنفي، **التراث والتجديد**، ص. ١٨.

(٥٨) حسن حنفي، نفسه، ص١٨٢.

(٥٩) أبي حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، تحقيق: وداد القاضي، ط١، دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج٤، ص٢١٦.

(٦٠) عبد المجيد أبو الفتوح، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد**، ط١. جدة عالم المعرفة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٥٦ – ٥٧.

(٦١) حسن الأمين، **دائرة المعارف الشيعية**، ص١٦٣.

(٦٢) **تاريخ العرب**، ص٥١٥.

(٦٣) أوليرى دي لاسى، **الفكر العربي ومكانه في التاريخ**، ص١٤٥.

(٦٤) فريال حسن خليفة، **أهمية العقل (الإصلاح الديني والتواصل الحضاري)**، ط١. القاهرة – مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م، ص٥٦.

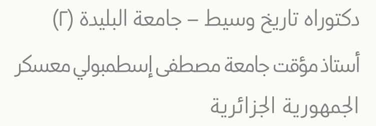

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

وَاقِعُ النَّظَرِياتِ النَّقْدِيةِ في العَهد الزَّيَاني (٦٣٣ – ٩٦٢هـ/١٢٣٥ – ١٥٥٤م)



د. أمحمد طاهري


دكتوراه تاريخ وسيط – جامعة البليدة (٢)
أستاذ مؤقت جامعة مصطفى إسطمبولي معسكر
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

إنّ مَسعى هذا المقال هو إبراز واقع النّظريات النّقدية في العهد الزّياني (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م) من خلال التركيز على التطور الذي عرفه هذا الجانب بالمشرق والمغرب والأندلس. لذا كانت النظرية الكمّية التي اهتدى لها الفقيه أبو موسى عيسى بن الإمام والتي عادة ما تُنسب إلى العلاّمة المقريزي، هي بادرةٌ من فقهاء بني زيان في إظهار نوع من الإبداع الفكري في المجال النّقدي ما دفع السلطة الحاكمة إلى خَلقِ مَشروعٍ مَسؤولٍ مُشتركٍ هدفه مواجهة الأزمات النّقدية التي عمّ انتشارها بالأسواق الزّيانية خاصّة ظاهرة الغش بالنّقد. ولتبيان هذه القضايا وما تطرحه من إشكالات تتبعت الدّراسة المسار التّاريخي للمعاملات النّقدية، كما وقفت عند أهم النّظريات النّقدية بالمشرق والمغرب والأندلس في العصر الوسيط مع إبراز مُساهمة علماء تلمسان في المجال النّقدي خاصة النظرية الكمّية ودور الفقيه والسُّلطة في عمليات الإصلاح النّقدي زمن بني زيان. وقد تبين من خلال الدراسة أنّ الفكر النّقدي قد عرف عمومًا عبر تاريخه الموغل عدّة تطورات نظرًا لتعقّد المعاملات المالية وتشعبها ما يفرض على الإنسان مسايرة هذا التطور وذلك بإيجاد صيغٍ مُختلفةٍ تسهل عليه البيع والشراء وعقد الصفقات وصَرْفُ العُملات، فكان النقد أوّل الأمر يرتكز على ما يستطيع الإنسان جعله قيمة لكلّ متمول ما دفعه لاختراع المقايضة وعدّة أصناف من النّقد كان أبرزها النقود السلعية والنّقدية والورقية لسدّ حاجاته الرئيسة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٨	أكتوبر	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٣٠	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

المُعامَلاتِ النّقدية؛ المجتمع الزياني؛ المقريزي؛ تلمسان؛ العصر الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310366 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أمحمد طاهري، "واقِعُ النَّظَرِياتِ النَّقْدِيةِ في العَهد الزَّيَاني (٦٣٣ – ٩٦٢هـ/١٢٣٥ – ١٥٥٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٨٤ – ٩٣.

Corresponding author: tahrimhamed1981pr@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لم يخرج المجتمع الزّياني عن مسار المجتمعات الأخرى في اعتبار الذّهب والفضّة أوما يسمّى بنظام المعدنين أنّهما القاعدة الأساسية للسّياسة النّقدية في العصر الوسيط. لذا فهما وسيلة تبادل ومقياس للقِيم ومُستودعٌ لها في اقتناء اللّوازم والضروريات الأساسية للحياة. وتكمن فوائد نظام المعدنين في كون قيمة النّقد شديدة الارتباط بقاعدة الذّهب والفضّة لذا فإنّ انخفاض أو ارتفاع قيمتها يؤثّر بشكل مباشر على النّقد. يبدو أنّ المجتمعات الإسلامية قد أخذت بهذا النظام الذي يعتمد على الذّهب والفضّة بدرجة أولى. فكان بنو زيان من الذين ساروا على دَرْبِ من سبقهم في ذلك وجعلوا له ضوابط شرعية وتقنية عملية لتحقيق الرفاه الاقتصادي للدولة.

ونظرًا لانعدام توزيع عادل للثروة المعدنية، فقد ذهب العديد من العلماء والفقهاء على إيجاد نظريات نّقدية موضوعية عقلانية عِلمية هدفها الوصول إلى نتائج تثبت حقيقة النّقد ووظائفه الرئيسية انطلاقًا من كون هذه الثروة قابلة للزوال يُرجى المحافظة عليها وربّما النَّظرُ في وسائل بديلة. ولمّا كان علماء تلمسان هم دِعَامة السُلطان بالدولة الزّيانية، فقد تحمل هؤلاء مسؤولية الحفاظ على قيمة النّقد وذلك بإيجاد نظريات نّقدية تكون سندًا للسُلطان والرعية تعمل على تقنين المعاملات المالية والنّقدية بالأسواق الزّيانية وتسعى لحلّ جميع الأزمات المالية التي تعتور حركة المال وقيمة النّقد داخل الدولة وخارجها.

نهدف من خلال هذه الدّراسة إلى تبيان أهم النّظريات النّقدية المشرقية والمغربية في العصر الوسيط، مع إبراز مُساهمة علماء تلمسان في المجال النّقدي خاصّة النظرية الكميّة ودور الفقيه والسُلطة في عمليات الإصلاح النّقدي ومدى توظيف هذه النظريات في مجال ردع الأزمات النّقدية التي عم انتشارها أسواق بني زيان. ولا ندّعي السبق في ذلك، إلّا موضوعنا المرتبط بتشخيص النظريات النّقدية الزّيانية لم ينل حظّه من الدّراسة والبحث، باستثناء بعض الدّراسات التّاريخية ذات الطابع الاقتصادي التي أشارت بشكل عام لظاهرة الغشّ بالنّقد بشكلٍ مُقتضبٍ ممّا يحتاج إلى المزيد من التمحيص في المصادر الوسيطية التي تناولت التاريخ الزّياني، وذلك لتشخيص طبيعة الفكر النّقدي الزّياني ومدى قدرته على إيجاد نظريات نقدية تواجه التحديات المالية والنقدية المستجدة، مقارنة بما عرفه المشرق الإسلامي وبلاد الأندلس.

وعليه فإنّ عملنا هذا يبحث في مكنون استشكال رئيس يفتّش في: **طبيعة الفكر النّقدي الزّياني؟ وهل تمكّنت شريحة العلماء من بني زيان من وضع نظريات نقدية تعكس هذا التطور تضاهي به الأمم الأخرى من العالم الإسلامي؟** مع ذلك، سنحاول الغور في هذه الإشكالية والنّبش في ترسباتها من خلال عدّة تساؤلات فرعية تشمل تتبع المسار التاريخي للمعاملات النّقدية؟ **وهل كان لعلماء الإسلام بالمشرق والمغرب الإسلامي الوسيط مساهمة في تطور الفكر النّقدي؟ ما طبيعة الفكر النّقدي الزّياني وهل تمّ توظيفه في حلّ الأزمات النّقدية؟**

أوّلًا: التّطوّرُ التَّاريخيُ للمُعامَلاتِ النَّقدية

مرّ النّقد في تاريخه بعدّة تطورات تعبر عن تطور الفكر النّقدي نظرًا لتعقّد المعاملات المالية وتشعبها، ما يفرض على الإنسان مسايرة هذا التطور وذلك بإيجاد صيغٍ مُختلفةٍ تسهل عليه البيع والشراء وعقد الصفقات وصَرْفُ العُملات، حيث يمكن إيجازها في النّقاط التالية:

١/١- المُقَايَضَةُ

هي عملية استبدال سلعة بسلعة من دون وسائط في عملية التبادل، إلاّ أنّها طرحت عدّة صعوبات مُرتبطةٍ بعدم توافق رغبات المتعاملين بها؛ خاصّة الكمّية والنّوعية والجودة مع عدم قابلية السّلع للتجزئة وتخزين قيمة المنتج. لذا فهي ليست مستودعًا للقيمة إضافة إلى صعوبة إخضاع المنتجات المتبادلة للحساب كوحدات النّقد كما أنّها لا تخضع للدفع المؤجل والادخار[١].

٢/١- النُّقُودُ السِّلْعِيَةُ

هي مجموع السّلع المستعملة في عملية التبادل؛ حيث اختلفت حسب البيئة ونوعية المنتوج، وتشمل جميع المنتجات الزراعية والحيوانية. ومن عيوبها عدم القدرة على التّخزين لفترات طويلة خوفًا من التَّلَفِ مع حاجتها لمساحات واسعة للتَّخزين إضافة إلى صعوبة التّجزئة خاصّة الوسائط الحيوانية[٢].

٣/١- النُّقُودُ المَعْدَنِيَّةُ

تشمل جميع أصناف المعادن المختلفة وزنًا وعددًا وقيمًا، وأبرزها الذّهب والفضّة لتميزهما بعدة صفات منها: القبول العام، سهولة السك والطرق، الجمع، التفرقة، التشكيل، جمال الصورة، ثبات السمات، وحدة الوزن، القدرة على التّجزئة، ثبات القيمة، القدرة على التجانس بسهولة الادخار والقدرة على العيش لمدة طويلة[٣]. والظاهر أنّ إقبال الرعية على اختيار الذّهب والفضّة من دون المعادن الأخرى، لما تمتاز به المعادن

الأخرى من صفات طاردة للتعامل فعدم اختيار الحديد هو لِصَدَئِه والرّصاص لاسوداده[٤].

٤/١- النُّقُودُ الوَرَقِيَّةُ

تشمل الأوراق التي تُطْرحُ لعملية التبادل، نظرًا لظهور عدّة صعاب في استخدام المعدن، وقد ظهر نظام استعمال الورق بدولة الصين في القرن (٣هـ/٩م) حيث كان الورق يُصنع من شجرة التوت، وانتقل استعماله أيّام دولة المماليك وسمي بـ: "الجَاوْ" وبلغت قيمة الورقة منه عشرةَ دنانيرَ[٥]. من هنا يمكننا القول، أنّ تطور الفكر النّقدي قد خضع لعدّة مؤثرات داخلية وخارجية جعلت الإنسان يفكر في تغيير طريقة تعاملاته المالية والنّقدية، فما كانت المقايضة إلاّ وجها من أوجه تطور الفكر النّقدي وأسلوب اتّبعه الفرد لسدّ حاجاته اليومية. ولعلّ عدم نجاعة هذا الأسلوب وما تركه من مشاكل نقدية ومالية حتّم عليه اللجوء إلى معاملات أخرى كالنقود السلعية والمعدنية والورقية تضمن له معاملات أكثر أمانًا وصدقًا ومصداقية وسط سوق المعاملات المالية وتحقق له رغبات أكثر.

ثانيًا: مُنتخَبَاتٌ مِن النَّظَرِيات النَّقْدِيةِ المَشْرقيةِ والمَغْربيةِ في العَصرِ الوَسِيط

١/٢- الفِكْرُ النَّقْدِيُ عند ابنِ خَلدون

تؤكّد العديد من المصادر على ضرورة الاهتمام بالنَّقد[٦] لكونه مرتبط بالمعاملات الفقهية والعبادات كتحديد نصاب الزّكاة والذّهب والفضّة، ومن ذلك قول صاحب الدَّوحَة: "إذا استقامت السكّة استقرّ نصاب الزّكاة وتقاديرُ المُعاوضات والتبرعات وقِيمُ المستهلكات وارتفعت الخُصُومات"[٧]، وفي حالة إهمالها "كثرُ الرِّبا واخْتلَّت العُقودُ، وكثُرت الخُصُومات في المُعاوضَات والعُقود"[٨]. والملاحظ من خلال ما ذكره صاحب الدَّوْحة أنّه أعطى للنَّقد صبغةً شرعيةً، فعليه تتوقف صحة العبادات والعقود وقيم المستهلكات الموجودة داخل الأسواق، لذا فإنّ أصالة النّقد عنده ترفع الرّبا والخصومات وتساهم في الاستقرار السّياسي والاقتصادي والاجتماعي والنَّقدي خاصّةً.

مِن هُنا، فقد حاول بعض العلماء أن يجدوا لأنفسهم ودُوَلهم نظرياتٍ نَّقديةٍ تُزيلُ اللِّثام عن الأزمات وترفع الغُبْنَ عن تضارب الآراء حول وظائف النَّقد. ومن هؤلاء العلاّمة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)[٩] الذي ساق لنا عدّة نظريات حول النَّقد استنبطت من خلال تجاربه ومُلاحظاته العلمية الموضوعية، حيث كانت بلاد تلمسان هي إحدى المحطّات التي زارها[١٠].

ومن أهم ما ذكره العلاّمة في مجال الفكر النّقدي قوله: "إنّ الله خلق الحَجَرين المعدنيين من الذّهب والفضّة قيمة لكلّ مُتمولٍ، وهما الذّخيرةُ والقَنِيَّةُ، لأهل العالم في الغَالب وإنِ اِقْتَنَى سواهما في بعض الأحيان فإنّما هو القَصْدُ تحصيلها بما يقع من حَوالَةِ الأسواق التي هما عنها بمعزلٍ فهما أصل المكاسب والتِقنية والذّخيرة"[١١] وأضاف في مواضع أخرى عن السّكة وشروطها وطرق صناعتها والحفاظ على قيمها[١٢]. لذا كانت قاعدة المعدنيين هي من أبرز القواعد الأساسية المعتمدة في النّظام المالي الإسلامي خاصّة في العصور الوسطى والتي تعتمد على الذّهب والفضّة كوسيلة في عمليات التبادل وإعطاء الأجر واقتناء السّلع والخدمات[١٣].

المستشف من خلال هذا النّص أن ابن خلدون قد جعل للنّقد العديد من الوظائف يمكن توضيحها في النّقاط التالية:

وَسِيطٌ للتَّبَادُلِ:

يقصد به قدرة النّقد على البيع والشراء وتسهيل عملية تبادل السّلع والخدمات وتحقيق الرغبات[١٤]، وهذا ما أكّده المقريزي بقوله: "إنّ النّقود التي تكون أثمانًا للمبيعات وقِيمًا للأعمال إنّما هي الذّهب والفضّة"[١٥].

مِقْيَاسٌ لِلقِيمَةِ:

يشمل ثبات القيمة وقياسها للمجهودات والسّلع والخدمات وقدرتها على تحديد أثمان المبيعات والمقتنيات ولكلّ مُتمولٍ. لذا يجب أن يكون النّقد ثابت القيمة مصنوعًا من المعدنيين[١٦].

مسْتَوْدعٌ لِلقِيَمِ:

قدرة النّقد على الادخار ومجابهة التحديات المالية المستقبلية. لذا فهي مُستودعٌ للثروة يمكن الاستفادة منها في أي وقت، مع أنّ ثبات هذه القيم يكون نسبيًا[١٧].

قَاعِدَةٌ لِلمَدْفُوعَاتِ:

ونخصُ بالذّكر المؤجّلة خاصّة الديون والالتزامات المالية[١٨]، إضافة إلى كونه وحدة حساب تلقى قُبولًا عامًّا لدى الرعية. لذا فهي مُستمرةٌ ونَادرةٌ ومُعرَّفةٌ شكلًا ومضمونًا وحجمًا[١٩].

الجلي أنّ وظيفة النّقد في الاقتصاد الإسلامي تختلف عن نظيره في الاقتصاد الوضعي، حيث إنّ الإسلام يشترط النّقد كوسيلة للحفاظ على القُدرة الشرائية للرعية عكس ما ذهب إليه الوضعيون الذين اعتبروا النّقد سلعة كباقي السّلع وإيراد مهم لاقتناء اللّوازم[٢٠]. البَارزُ في الأمر، أنّ ابن خلدون قد أعطى وصفًا دقيقًا لوظيفة النّقد كنظرية تعطي للعُملة مصداقيةً شرعيةً في المعاملات المالية، حيث اعتبر النّقد وسيلة أداء غرضٍ محددٍ دون أن يكون سلعة تباع وتشترى، كما منح له

قيمة تبادلية وعلى أنّه مستودعٌ للقيم الاستهلاكية والإنتاجية[٢١]، كما طرح ابن خلدون فكرة الإصدار النّقدي وربطها بالدولة باعتبارها صاحبة السيادة في سكّ العملة عن طريق دار الضرب، حفاظا على مرونة العملة التي تسير عكس اتّجاه الأسعار[٢٢].

٢/٢- الفِكْرُ النَّقْدِي عند المقريزي

نضيف إلى العلاّمة ابن خلدون شخصية أخرى لا تقلّ أهمية عنه وهو تقي الدّين أبو العبّاس المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) [٢٣] الذي بدا تأثّره بشيخه ابن خلدون واضحًا[٢٤]، وإن كان اهتمامه خصّ المشرق الإسلامي إلاّ أنّ نظرياته عمّت العالم الإسلامي قاطبةً خاصّة في المجال النّقدي. الظّاهر أنّ المقريزي قد خصّص للمجال النّقدي العديد من المؤلّفات[٢٥]، عكس ابن خلدون الذي نعتقد أنّه أدرج نظرياته النّقدية ضمن كتاب المقدّمة[٢٦]، ومن أبرز النظريات المقريزية النّقدية نذكر:

أ-نِظَامُ المَعْدنَيين:

أشار فيها المقريزي إلى كون الذّهب والفضّة هما الوسيلة المثلى في التعامل بقوله: "إنّ النّقود التي تكون أثمانًا للمبيعات وقيمًا للأعمال إنّما هي الذّهب والفضّة فقط، لا يعلم في خَبرٍ صَحيحٍ ولا سَقيمٍ من أمّة من الأُممِ ولا طائفةٍ من طوائف البشر أنّهم اتّخذوا في قديم الزمان ولا حديثه نَقدًا غيرهما"[٢٧]، ويضيف في موضع آخر قوله: "وكانت نقود العرب في الجاهلية التي تدور بينها الذّهب والفضّة ولا غَيْرُ"[٢٨].

ب-النَظَرِيةُ الكَمِّيةُ:

تذهب هذه النظرية على أن النّقود الرديئة تطرد النّقد الجيّد من الأسواق لقول المقريزي: "وللنَّاسِ ثلاثُ نُقودٍ أكثرها الفُلوسُ وهو النّقد الرَائِجُ الغَالِبُ والثاني الذَّهَب وهو أقلُّ وُجْدانًا من الفُلوس أمام الفضَّةِ فقلتْ: حتىّ بَطُلَ التَّعَامُلُ بها لعزَّتها"[٢٩]. يُفسّر المقريزي هذه الظّاهرة أنّ سببها دخول الفِلس النُّحاسي بكمياتٍ كبيرةٍ إلى سوق العُملة؛ نتيجة زيادة التّرف وارتفاع النفقات الملكية، ما دفع السلطة لإغراق الأسواق بالنّقد دون تطابقٍ مع وتيرة الإنتاج، وهوما يضعف قدرة الرعية على اقتناء اللّوازم[٣٠].

يبدو أنّ هذه النظرة تتطابق مع نظرية Thomas Gresham(١٥١٩-١٥٧٩م) المستشار المالي للملكة إليزابيت الأولى والقائلة أنّ: " la mauvaise monnaie chasse la bonne"، أي أنّ تخفيض العُملة الجيّدة يزيد من سرعة تداول النّقد الرديء، فيجعل الرعية تحتفظ بالجيّد وتطرح الرديء الذي تزيد سرعة تداوله بين الأفراد ما يؤدي إلى قلّة تداول النّقد الجيّد[٣١].

والحقّ أنّ النّظريات النّقدية للمقريزي قد أسمدت جذورها من تجاربه الشخصية وخبرته بالمناصب الحكومية خاصّة حرفة الحسبة التي شملت مراقبة النّقد وتطوراته[٣٢]، ما جعله رجلا فطنا حذرا في تفسير الأمور الاقتصادية عامّة والنّقدية خاصّة، فما كانت هذه النّظريات والإشارات النّقدية التي وردت في مؤلّفاته إلاّ تعبيرا عن مدى قدرة الرجل على حلّ المشاكل التي اعتورت بلاد مصر أيّامه، فقدّم لنا مشروعا نقديا علميا يحاول من خلاله تجسيد نظرياته النّقدية وتوجّهاته الفكرية وتطلعاته في خلق مجتمع خال من الأزمات المالية.

٣/٢- الفِكْرُ النَّقْدِيُ عِنْد ابن حزم الظّاهري ومَسْأَلَةُ إلغاءِ السِّكَةِ

الغريبُ في نظريات النّقد هو المشروع الذّي قدّمه ابن حزم الظّاهري (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)[٣٣] في كتابه "سياسة الإمامة وتدبير المملكة" الذّي يعد مفقودًا على حدّ ما ذكره أحد الباحثين حيث وصفه بأقدم كتاب في علم السياسة بالمغرب الإسلامي[٣٤]. وممّا جاء في مشروعه قوله: "فأمّا السِّكة فيجب على الإمام قَطعُها جُملةً لأنّها لم تكن قَطُّ على عهد النّبي صلّى الله عليه وسلّم ولا في عهد أئمة الفضل رضي الله عنهم ولا بالمسلمين إليها حَاجَةٌ، بَلِ الضَرورةُ دَافعةٌ إلى قطعها جُملةً وإنمّا أحدثها الحجّاج ومن ولاّهُ"[٣٥].

ويذهب ابن حزم إلى ضرورة إلغاء التعامل بالسّكة بشكل نهائي كونها بِدعةٌ مُستحدثةٌ من طرف بني أمية وأنهّا ظلم للنّاس وإفساد للزّكاة ومدعاة للرّبا، وقدّم هذا الأخير بديلا لها وهو ضرورة الاحتفاظ بمعدن الذّهب والفضّة الخالصة مع تعويضها بمعدن آخر هو النّحاس أو الحديد نظرا لوفرتهما أو أنهّما أقلّ قيمة من الذّهب والفضّة، فإن تعرّضَا للتّدليس فلا بأس عليهما لكونهما أقلّ قيمة من الذّهب والفضّة [٣٦].

الظّاهر أنّ فكرة ابن حزم الظّاهري قد لقيت معارضة شديدة من طرف أبي العبّاس أحمد السَّبتي العَزَفِي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م)[٣٧] الذّي ذهب إلى عدم قدرة السُلطة على قطع السّكة نهائيا؛ لكونها مرتبطة بحياة الرعية وأنّ وجودها مُستمدٌ من رَوح الشريعة الإسلامية وبها تصح العبادات والمعاملات، كما أنّ اقتصارها على النّحاس والحديد يجعل فيه مشقةً وعسرًا لقضاء حوائجِ النّاس[٣٨]. وبذلك فإنّ ما طرحه ابن حزم حول هذه النّظرية قد قابله السّبتي بمعارضة شديدة؛ لما حوته من مشاكل قد تعطّل مصالح الرعية ناهيك

عن صعوبة تجسيدها على أرض الواقع، فكانت نظرية ابن حزم مجرّد رأي شخصي أخي به ستّة الأوّلين في ضرورة التعامل بنظام المعدنين، في حين عرفت الأمّة الإسلامية تطورات فكرية نقدية تخلّت فيها عن هذا النظام واستبدلته بأنظمة النّقد والورق وهو ما يضفي على الفكر النّقدي صفة التطور المستمر تبعا لحاجات الفرد وتطلعاته المالية والنّقدية.

ثالثًا: مُسَاهَمَةُ عُلماءِ تلمسان في الفِكرِ النّقدي

أمام هذا الزخم الكبير من النظريات النّقدية، فقد حاول بنو زيان بفكرهم المالي والنّقدي إيجاد نظريات تنطبق مع واقعهم الاقتصادي بُغية الوصول إلى مجموعة من الضّوابط التي تحدد مفهوم النّقد ووظائفه في الأسواق المالية. والحقّ أنّ الحديث عن هذه النظريات النّقدية الزيانية أمرٌ عسيرٌ في ظلّ انعدام المادة العلمية المتعلّقة بالمجال النّقدي. فلا نَكَادُ نعثر – على قدر مجهودنا من البحث- على أيَّةِ مُساهمةٍ عِلميةٍ أو سُلْطوية حاولت إيجاد نظريات نّقدية يمكن اعتبارها سنَدًا في تطور الفكر النّقدي الزّياني. إلّا أنّ هذا الطرح لا يمنع من وجود مُحاولاتٍ جديرةٍ بالاهتمام أشار لها بعض النّوازل الفقهية، حيث أدرج صاحب المعيار نَازِلةً للفقيه أبو موسى عيسى بن محمّد بن عبد الله بن الإمام الحِميري التّلمساني (ت.٧٤٩هـ/١٣٤٨م) يُظهر من خلالها الفقيه فكره النّقدي.[٣٩]

ونظرا لأهمية النّازلة سوف نقوم بإدراج نصّها كاملا قوله: "الذّهب والفضّة هما مادةُ الدّنانير والدّراهم المضروبة منهما المتوصلُ بها إلى الأغراض، وأَثمانُ الأشياء وقيمتها تَتَقوّمُ بذاتها ويُقوَّمُ غيرها بها، بخلاف سائر المتمولات فإنّه يُكالُ منها ويوزن وأنْ تقوم بذاته فإنّهُ لا يتقوم به غيره، وما لا يكال ولا يوزن فإنّه لا يتقوم بذاته، ولا يقوم به غيره، وإن جعل غيرها في بعض الأقطار ثمنًا كالفلوس وشبهها فلتعذّر الصّرف بها يتصرّف فيه كالفلوس أو بعدهما أن يكون نادرًا ومن ثمّ لم يبلغ بها في باب الرّبا مبلغها فوقع فيها الخلاف ما قد خصّهما الله بالذّكر في الكنز بين سائر الأموال"[٤٠]. ويضيف في موضعٍ آخر مؤكّدًا كلامه قولــه: "... وإذا ثبُت لهما هذا القدر من الاعتبار والتّفضيل...نفى ذلك امتهانهما واستعمالهما في غير المضروب منهما للّذي هو ثمن الأشياء وقيمتها فيقلُّ المضروب منهما في أيدي النّاس بصرف مادتهما في غير ما جعلت له، مع ما يُضــاف إلى ذلك من التّشبه بالأعــاجم والسَّرْفِ المنهي عنه في غير موضع" [٤١].

بتحليل مضمون هذه النصوص، يظهر لنا أنّ الفقيه التّلمساني أبو موسى عيسى بن الإمام قد أظهر براعة وقدرة في استنباط العديد من النظريات النّقدية التّي تعبّر عن تطور الفكر النّقدي الزياني وأبرزها:

- اعتبار الذّهب والفضّة ذات وظيفة ثمينة؛ وهما المتوصل بهما لكلّ الأغراض ووسيلة لاقتناء السّلع والخدمات.
- تطابق النّقد مع الأثمان لكون جميع السّلع تقوّم بهذه العملية والتي قد يقوم بها غيرها، وهنا قد أشار إلى النّقود السّلعية التي ظهرت قبل المعدنية.
- تأثر الذّهب والفضّة وتذبذب قيمتهما نظرًا لخصوصيات المعدن وقابليتهما للاكتناز.
- اعتبارهما مقياس للكيل والميزان نظرا لأصالتهما وقيمهما الثابتة لذا يعدّان مقوّما للقيم.
- ضرورة استعمال النّقد المضروب من الذّهب والفضّة في عين المضروب الذي يقابل السعر[٤٢].

والجدير بالملاحظة هنا، إشارة أبو موسى عيسى بن الإمام إلى النظرية الكمّية للمقريزي زمن بني زيان، حيث يذهب إلى تراجع قيمة النّقد من الذّهب والفضّة نظرًا لظهور الفلس النّحاسي وتعذّر الصّرف ممّا أدى إلى انتشار الرّبا والغشّ بالدراهم وكثرة الخلافات، وبذلك يتزايد المغشوش من النّقد بالأسواق الزّيانية، وما زاد الأمر سُوءًا تراجع دار الضرب عن سكّ الذّهب والفضّة وتوجيه مادتهما لصناعة الحلي والأواني والرّكابِ والتّحْلية متشبّهين بالعجم وكثرة الإسراف المنهي عنه شرعا إشباعا لرغبات الحكّام[٤٣].

ولعلّ اهتداء الفقيه إلى هذه النظرية مردّه للأوضاع النّقدية التي مرّت بها الدولة والتي عرفت انتشار ظاهرة الغشّ بالعملة ورواج النّقد الرديء بدل الجيّد. وهنا نخصّ بالذّكر الفلس النّحاسي الذي صمتت عنه المصادر المعاصرة للدّولة ماعدا ما ذكره الوزّان بقوله: "ويسكّ الملك نقودا من الذّهب الرّديء...ويسكّ أيضا نقودًا فضّية غير خالصة، وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع" [٤٤]. وأمام هذه النظرية النّقدية التي عادة ما تنسب إلى المقريزي (ت.٨٤٥هـ/١٤٤١م) والتي وجدت في ثنايا ما ذكره الفقيه التلمساني (ت.٧٤٩هـ/١٣٤٨م) يجعلنا نتساءل عمن كان له السَبْقُ في وضعها واكتشاف تفاصيلها؟

٣/١- النَظَرِيةُ الكَمِّيةُ فِي النَّقدِ مَشْرقيةٌ أم مَغْربيةٌ؟

بالنّظر إلى مجموعة من الاعتبارات المتشابهة بين فكر الرجلين ومساهمتهما في تطور الفكر النّقدي، فإنّ مسألة الحسم في أصول هذه النّظرية التي عادة ما نسبها المشارقة إلى المقريزي، فإنّنا نَرُومُ في عملنا هذا إسناد أمرها الأوّل إلى الفقيه التلمساني استنادا إلى مجموعة من الاعتبارات العِلمية أهمّها:

- الاختلاف الواضح في تاريخ وفاة الرجلين، حيث نجد وفاة المقريزي كانت سنة (ت.٨٤٥هـ/١٤٤١م) في حين كانت وفاة الفقيه التّلمساني سنة (ت.٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
- اقتصار رحلات المقريزي العلمية على بلاد الشام والقاهرة ومكّة المكرّمة [٤٥]، في حين أنّ الفقيه أبو موسى عيسى بن الإمام كانت له رحلة رفقة أخيه إلى تونس والجزائر ومليانة وكذلك بلاد المشرق سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م[٤٦].

الملاحظ هنا أنّ رحلة الفقيه التّلمساني للمشرق كانت في زمن لم يولد به المقريزي بعد، خاصّة إذا اعتبرنا تاريخ ميلاده سنة (٧٦٦هـ/١٣٦٤م) أي بحوالي ٤٦ سنة، ما يدل أنّ النظرية الكمّية (النّقد الرديء يطرد النّقد الجيد) كانت موجودة وقد شهدها أبو موسى عيسى بن الإمام إمّا بتلمسان أو إحدى البلاد التي زارها. وبذلك فإنّه وضع تفاصيل هذه النظرية قبل المقريزي بأربعين سنة بمصر المملوكية، كما أنّ إمكانية الالتقاء به مستبعدة جدّا نظرا لفارق السنّ وتاريخ الرحلة.

-التفوق العلمي للفقيه التّلمساني حيث نجده من الّذين دخلوا في مناظرات علمية مع شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)[٤٧]، في حين نجد أنّ المقريزي قد اِنتهل علمه من أحد أصحاب ابن تيمية وهو الفقيه برهان الدّين أبو إسحاق إبراهيم الأموي الحبلي (ت٨٠٥ هـ/١٤٠٢م)[٤٨]وهذا ما يدل على فارق المكانة العلمية في التّحصيل المعرفي من منابع المعرفة.

-بروز هذه النّظرية بشكل متقارب من طرف الفقيه التلمساني خاصّة زمن الفتوى الذي بعثها السلطان المريني أبي الحسن المريني للعالم أبي موسى عمران المشذالي يوم ٠٧ محرم (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)[٤٩] حيث جاءت هذه النظرية في ردّه على نفس النازلة حول استعمال الركاب من الذّهب[٥٠]. وبذلك فإنّ تاريخ بروز النظرية الكمّية ينحصر ما بين (٧٤٠-٧٤٩هـ/١٣٣٩-١٣٤٨م) والتي لم يصرّح بها المقريزي إلاّ سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) في مؤلّفه إغاثة الأمّة بكشف الغمّة[٥١].

بناءً على ما سبق ذكره، يتّضح لنا أنّ فقهاء تلمسان قد كان لهم دور بارز في تطور الفكر النّقدي أيام بني زيان، ولعلّ أسبقية الفقيه أبو موسى عيسى بن الإمام المقريزي في تشخيص النظرية الكمّية بأربعين سنة قبل زمن المقريزي والتي حدّدت تقريبا ما بين (٧٤٠-٧٤٩هـ/١٣٣٩-١٣٤٨م) دليل على تطور الفكر النّقدي الزّياني الذي وجد لنفسه مكانا ضمن السّياسات النّقدية آنذاك. ولعلّ اهتداء المقريزي لهذه النظرية مرتبط بشيخه العلاّمة ابن خلدون الذي أظهر إعجابا به وبمؤلّفاته، وربّما كان ابن خلدون أثناء إقامته بمصر قد نشر بذور الفكر الاقتصادي النّقدي والتي أثمرت في شخص المقريزي[٥٢].

كما أنّ مسألة أخذ ابن خلدون لهذه النظرية من الفقيه التلمساني أمرٌ واردٌ؛ كون رحلة الفقيه كانت سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) قبل ميلاد ابن خلدون بحوالي ١٢ سنة باعتبار سنة ميلاده (٧٣٢هـ/١٣٣١م). وإذا اعتبرنا أنّ تاريخ النّظرية الذي يعود سنة (٧٤٠-٧٤٩هـ/١٣٣٩-١٣٤٨م) كان عمر ابن خلدون ما بين ٨-١٧ سنة؛ أي كان في مرحلة التكوين العلمي والنضج الفكري، خاصّة وأنّ كتاب المقدّمة قد استغرق منه أربع سنوات لتأليفه (٧٧٦-٧٨٠هـ/١٣٧٤-١٣٧٨م)[٥٣] ليكون مصدرًا جاهزًا للمقريزي للاستفادة منه. وبذلك فإنّ مساهمة أبو موسى عيسى بن الإمام هي إحدى المحاولات الزّيانية الرامية إلى تطوير الفكر النّقدي الزّياني لمجابهة الأزمات النّقدية التي تصيب الدولة، وماهي النظرية الكمّية إلاّ مثالٌ من مجموعة من النّظريات يتوقف بروزها على درجة وفرة المادة المصدرية في المجال النّقدي.

٣/٢- السُلطةِ والفَقِيه في عهد بني زيان؛ نموذج للعمل التشاركي في عملِياتِ الإصْلاحِ النّقدي

تعتبر ظاهرة الغشّ بالعملة التي انتشرت زمن بني زيان والتي تفاقمت بشكل واضح خاصّة بعد سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م) نظرًا لمجموعة من الاعتبارات المتعددة سواء الداخلية أو الخارجية عاملا مهما في تراكم الأزمات النّقدية وبروزها بشكل متفاوت طيلة فترة حكم سلاطين بني زيان. ولعلّ كثرة الأزمات الاقتصادية التي عرفتها قد أدّت إلى تصعيد الأمر بشكل كبير نظرًا للانقطاع الموارد الأولية على دار الضرب وتوقف عملية سكّ العملة، ما يؤدي إلى الغلاء وتذبذب قيمة العملة وتزايد وتيرة الإنفاق لدى السلطة مقارنة بتراجع الإيرادات.[٥٤]

وبذلك فإنّ هذا الركود الاقتصادي يدفع الرعية والسلطة إلى استعمال الغشّ بالعملة مع الاحتفاظ بالعملة الجديدة ليصبح النّقد الرديء أكثر رواجًا.[٥٥] هذا ما أكّده العقباني الذي

أشار لهذه الظاهرة بأنّ فساد سكّة المسلمين قد أصبحت عامّة ببلاد المغرب حتى كادت رؤوس أموالهم تنقرض نظرا للغلاء الذي صاحب انتشار النّقود الرديئة بدل النّقود الجيدة.(٥٦)

لذا تصبح النظرية الكميّة أكثر حضورًا بأسواق بني زيان نظرا لتوفر كمية كافية من النّقد المغشوش بالأسواق يصعب على الرعية التنازل عنها، لكونها قد أصبحت عُرْفًا وعادةً في المعاملات المالية، بعد فقدان الجيّد ورواج الرديء.(٥٧) وهذا ما يزيد من سرعة تداول العملة الرديئة وتراجع قيمتها كون الرعية تريد التخلّص منها خوفا من الغلاء والتدحرج السريع لقيمتها، وهذا ما أكّده الفقيه أبو عبد الله محمّد بن أحمد المقري (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)(٥٨) بقوله: "فكانوا لذلك يتعاطونها في المبايعات على كَثْرةٍ حتى صار من عنده شيء منها – النّقد الرديء – يريد الخروج عنها في أي غرض حَضَرَ من غير مبالاةٍ بغلاءٍ أو رُخصٍ لتوقُّعِ قطعها"(٥٩).

ومهما يكن من أمر، فإنّ عمليات الإصلاح قد اتخذت وتيرةً تصاعديةً تبعا لحجم ظاهرة الغش خاصّة بعد سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م) أيّام تدخل اليهود بالمعاملات المالية. ولعلّ من أبرز السُبل المتّبعة كإجراء وقائي وحلٍ مؤقتٍ للظّاهرة، يُعَدّ قطع العملة من التداول حلًا أشارت إليه بعض النّوازل؛ فإذا انقطع النّقد واستبدل بغيره وجب على الرعية ترك القديمة بالتعامل محلّ الجديدة(٦٠)، كما سمحت السلطة أحيانا برواج النّقدين -قديم وجديد- حفاظا على رؤوس الأموال وقضاء الديون والقروض زمن انعقادها(٦١). ومن هنا، تصبح الرعية مجبرة على ترك التعامل القديم محلّ الجديد نظرا لقيام السلاطين بإلغاء السّكة السابقة لقول أحد الفقهاء "لا يحكم إلاّ بالمتأخرة لإبطال السلطان إيّاها فصارت كالعدم"(٦٢).

الواضح أنّ سلاطين بني زيان قد ساروا على هذا النهج في إصلاح نقودهم زمن العقباني(ت٨٧١هـ/١٤٦٦م) خاصّة أيام السلاطين الأواخر للدولة وانتشار الدراهم المزيفة، حيث أمر السلطان في الاشتداد في البحث عن أصلها ومُحدثها إن كان فردا أو جماعة، وأن يلزم فاعلها بالعقاب الشديد والطواف به بالأسواق، كي يكون نَكالًا وعبرةً للآخرين ثم حبسه فيما بعد. كما يعمد السلطان على إنزال أمره على من يتولّون تفقد النّقد من المحتسب والقضاة لمتابعة الأمر حتى تطيب نقود الرعية بما يعم نفعه بالدّنيا والآخرة(٦٣).

يشير الفقيه أبو عبد الله بن أحمد المقري (ت.٧٩٥هـ/١٣٩٢م) إلى الإصلاحات التي قدّمها السلطان أبو حمّو موسى الثاني (ت.٧٩١هـ/١٣٨٨م) أو من كان قد سبقه، عندما انتشر النّقد النّاقص المغشوش بكثرة وأصبح النّاقص مثل الوازن، وتسامح النّاس في ذلك وصار الأمر عادة يُعْتقدُ لُزومها، وهذا ما دفع السلطان إلى إلزام النّاس الوازن على ما ضُربت عليه السّكة، وأن لا يتجاوز شيء من النّقص، فمالُوا عمّا يجب لهم في اقتضاء تلك الأثمان من وازن وناقص إذا لم يرضوا بالنّاقص إلاّ لكونه كالوازن في أكثر المعاملات(٦٤).

الملاحظ من خلال هذه الإشارات أنّ طبقة الفقهاء قد تحمّلت جانبا مهمّا في المساهمة في عملية الإصلاح النّقدي بالدولة الزّيانية وذلك بتوظيف فكرها النّقدي الذي يستمد قوّته من روح الشّريعة الإسلامية، وما هي الفتاوى التي تناولتها النّوازل إلاّ تعبيرٌ عن لجوء الرعية أو السلاطين لهذه الفئة بغية التأثير في الوضع على أمل تراجع الظاهرة والقضاء على الفساد. لذا كان هذا التآزر في القضاء على الغشّ عبّر عنه أبو عبد الله بن محمّد بن أحمد المقري (ت.٧٩٥هـ/١٣٩٢م) صراحة في فشل السلطة للقضاء عليها بقوله: "وقد كان السلطان تكرّر منه المَنْعُ من البيع بالدّراهم النّاقصة...ثم كثُر التسامح وشاع في النّاس حتى أهملوا الوازن...ثمّ نفر الأمير بإلزام النّاس الوازن... فمالوا عمّا يجب لهم في اقتضاء تلك الأثمان من وازن وناقص".(٦٥)

المستشف من خلال هذا النص هي تلك المحاولات المتكررة للسلطة في إرجاع النّاس للنقد للوازن في المعاملات، إلاّ أنّ إصلاحاته باءت بالفشل نظرا لتسامح السلطة وتساهلها في ذلك ما دفع السلطان والرعية إلى اللّجوء إلى الخطاب الديني الفقهي كحلّ للأزمة. وممّا يؤكّد فشل السلطة الزّيانية في القضاء على الفساد النّقدي ما ذكره العقباني قوله: "ولم يقع لمادة ذلك حسمٌ ولا إزالةٌ حتى كادت رؤوس أموال النّاس تنقرض من أيديهم بغلاء الأسعار"(٦٦). ولعلّ هذا النّص هو ما يؤكّد حجم الظاهرة التي تفشت بشكل كبير صعّب على السلطة إدراك تأثيراتها على الاقتصاد خاصّة في مجال الأسعار.

من خلال هذا العرض نخلص للقول، أنّ المحاولات الإصلاحية لسلاطين بني زيان في ردع الظّاهرة قد تفاوتت من فترة لأخرى حسب حجم الضرر، ولعل التآزر الواضح بين السلطة والفقهاء في حمل مشروع إصلاحي نّقدي قد عبّر عن قوة الظّاهرة ما يستدعي تظافر الجهود بين الطرفين. لذا فإنّ إصدار السلطة لنقد مغشوش له مبرراته الاقتصادية، كما كان تأييد الفقهاء لجواز التعامل بالنّقد النّاقص في الوزن دليل على شعور الطرفين بحجم الظاهرة وثقل المسؤولية في ضرورة الابتعاد عن الأزمة النّقدية.

خَاتِمَةٌ

وفي ختام هذه الدّراسة يمكن الخروج بالنتائج التالية:

تبيّن لنا أنّ الفكر النّقدي قد عرف عمومًا عبر تاريخه الموغل عدّة تطورات نظرًا لتعقّد المعاملات المالية وتشعبها ما يفرض على الإنسان مسايرة هذا التطور وذلك بإيجاد صيغ مُختلفةٍ تسهل عليه البيع والشراء وعقد الصفقات وصَرْفُ العُملات، فكان النّقد أوّل الأمر يرتكز على ما يستطيع الإنسان جعله قيمة لكلّ متمول ما دفعه لاختراع المقايضة وعدّة أصناف من النّقد كان أبرزها النقود السلعية والنّقدية والورقية لسدّ حاجاته الرئيسة.

يُعَدّ العلاّمة ابن خلدون من أبرز علماء المسلمين الذين منحوا للنّقد العديد من النظريات التي منحت للعُملة مصداقيةً شرعيةً في المعاملات المالية حيث اعتبره وسيلة أداء غرضٍ محدّدٍ كما منح له قيمة تبادلية وأنّه مستودعٌ للقيم الاستهلاكية والإنتاجية، ناهيك عن طرحه فكرة الإصدار النّقدي التي ربطها بالدولة باعتبارها صاحبة السيادة في سكّ العملة عن طريق دار الضرب.

الحقّ أنّ المقريزي هو أيضًا حلقة هامّة في تطور الفكر النّقدي في العصر الوسيط حيث ساهمت نظرياته النّقدية في تشخيص الأزمات النّقدية فكان فكره النقدي أهم عون للسلطة والرعية في تجاوز الأزمات المالية والنّقدية.

الجلي أنّ نظرية ابن حزم الظّاهري التي تدعو إلى إلغاء السكّة نهائيا والرجوع إلى نظام المعدنين، قد لقيت معارضة شديدة من العديد من الفقهاء والعلماء كان أبرزهم أبي العبّاس أحمد السَّبتي العَزَفِي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م) الذّي رفض هذه النظرية لعدم تطابقها مع النصوص الشرعية والواقع الاقتصادي ومالها من ضرر على العام والخاص.

تأكّد لنا أنّ الفكر النّقدي في عهد بني زيان قد عرف تطورا بارزًا تبعا للأوضاع الاقتصادية المحيطة بالدّولة، لذا فما كنت مُساهمة الفقيه أبو موسى عيسى إلاّ أُنموذجًا فريدًا من عدد لا بأس من النظريات النّقدية التي حاولت السُلطة الزيانية الاستفادة منها للخروج من الأزمة النّقدية. ولعلّ اهتداء الفقيه الزّياني إلى النظرية الكميّة التي عَادةً ما يَعزُوها البعض إلى المقريزي يجعنا نُفكر في قدرة فقهاء الدولة الزّيانية على الإبداع والتَمَوْقُع وسط النظريات التي عرفها المغرب والمشرق والأندلس في إطار المهام الشرعية الموكلة لهم. لذا كانت هذه النظريات أساسًا صلبًا وسندًا قويًا للسلطة الزّيانية لحمل مشروعٍ مشتركٍ مع الفقهاء للخروج من الأزمة النّقدية التي عرفتها الدّولة.

الاحالات المرجعية:

(١) حسن محمود العمري، **نظرية استقرار النقد عند المقريزي**، رسالة ماجستير، إشراف عبد الرؤوف الخرابشة ورياض المومني، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الفقه والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، ١٤١٧ه/١٩٩٦م، ص:٢٢-٢٣؛ محمّد عثمان شبير، **المعاملات المالية المعاصرة**، ط.٦، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢٧ه/٢٠٠٧م، ص:١٥٠-١٥١.

(٢) حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص:٢٣-٢٧؛ سكينة بويلي، **الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون والمقريزي**، أطروحة دكتوراه، إشراف سعيد فكرة، كلية العلوم الإسلامية، قسم الشريعة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ١٤٣٣-١٤٣٦ه/٢٠١٤-٢٠١٥م، ص:٣٤١.

(٣) حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص:٢٧-٢٨؛ محمد عثمان شبير، المرجع السابق، ص:١٥٢-١٥٣؛ سكينة بويلي، المرجع السابق، ص:٣٤١.

(٤) حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص:٢٧.

(٥) نفسه ص:٣٣-٣٤؛ محمد عثمان شبير، المرجع السابق، ص:٥٠.

(٦) **لغة:** النّقد خلاف النّسِيئَةِ، والنّقد والتَّنْقادُ هو تمييز الدراهم وإخراج الزّيف منها، وقيل إن النّقد هو تمييزها وإعطاؤها وأخذها، وفي اللّغة الأعجمية هو مقتبس من الكلمة اللاّتينية"Moneta" ومعناه التَبَدِّي أو الأشياء المحذورة، وقد أطلقت هذه التسمية على الآلهة جينيُور القادرة على التنبؤ بالإمبراطورية الرومانية. وبذلك فإنّ النّقد هو خلاف الدَّين والعرض. والشخص النّاقد هو من يعرف النّقد جيدا. والنّقدان هما الذّهب والفضّة. **أمّا اصطلاحًا** فقد عرّفه أحد الباحثين بقوله: "كلّ ما نال ثقة النّاس في التعامل به وأصبح ثمنا ومعيارا للأموال" أو "كلّ شيء يلقى قبولا عاما كوسيط للتبادل مهما كان ذلك الشيء على أي حال يكون"، أو هو" ما سوى العروض من الأثمان سواء كانت بالخِلقة- ذهبا وفضة- أو بالاصطلاح- فلوسًا أو ورقًا- إذا تحقق لها الرواج فلا تتعين بالتعيين"، وحصرت المصادر التاريخية، هذا النّقد بالذّهب والفضّة، فقد سماه الدِّمشقي بالمال الصَّامت، وأضاف آخرون الفلوس النّحاسية. يُنظر: ابن منظور، جمال الدّين أبو الفضل(ت ٧١١ه/١٣١١م)، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، د.ت،ج٦،ص:٤٥١٧؛ الدّمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي(عاش في القرن ٦ه/١٢م)، **الإشارة في محاسن التجارة**، تحقيق البشرى الشوريجي، ط. ١، مكتبة الكليات الأزهرية، الإسكندرية،١٣٩٨ه/١٩٧٧م، ص:١٧؛رحيم حسين ناصر، **النّقد والسياسة النّقدية في إطار الفكرين الإسلامي والغربي**، دار المناهج للنشر والتوزيع،عمان،الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م، ص:١٥؛ رفيق يونس المصري،**الإسلام والنّقود**،ط.٢،مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز،جدة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م،ص:٣٠؛ خالد عبد الله المصلح،**التضخم النّقدي في الفقه الإسلامي**،رسالة الدكتوراه في الفقه الإسلامي، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، فرع القصيم،١٤٢٥ه/٢٠٠٤م،ص:٤٨؛ يوسف كمال محمد، **المصرفية الإسلامية**،ط.٢،دار الوفاء للطباعة والنشر،المنصورة،١٤١٦هـ/١٩٩٦م،ص:٢٠؛ محمد عثمان شبير، المرجع السابق،ص:١٥٠،١٤٨-١٥٢؛حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص:٢٢-٢٨؛ سكينة بويلي، المرجع السابق، ص:٣٤١.

(٧) ابن يوسف الحكيم، أبو حسن علي (كان حيا سنة ٧٤٩ه/١٣٤٨م)، **الدَّوْحَةُ المُشْتَبَكَةُ في ضَوابِطِ دار السِّكةِ**، تحقيق حسين مؤنس، مجلّة

المعهـد المصري للدراسـات الإسـلامية في مدريـد، العـدد١-٢، المجلة السادس،١٣٧٨ه/١٩٥٨م، ص، ١١٤.

(٨) المصدر نفسه، ص:١١٤.

(٩) للمزيـد عـن حياتـه ونشـأته وسـيرته ينظـر: ابـن خلـدون، عبـد الرحمـن بـن محمد الحضري الإشـبيلي (٨٠٨هــ/١٤٠٥م)، **رحلة ابـن خلـدون**، تحقيـق محمـد تاويـت الطنجـي، ط.١، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، لبنان،١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،ص:٢٧ وما بعدها؛ ابـن الخطيـب، لسـان الـدين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، مراجعة وتقديم وتعليق بوزيـان الـدراجي، دار الأمـل للدراسـات والنشـر والتوزيـع، الجزائـر، ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م، ج٤، ص: ٥١٦ ومـا بعـدها؛ ابـن خلـدون، عبـد الرحمن بن محمد الحضري الإشبيلي (٨٠٨هــ/١٤٠٥م)، **شـفاء السـائل وتهـذيب المسـائل**، تحقيـق محمـد مطيـع الحافظ، ط.١، دار الفكـر/ دار الفكر المعاصر، دمشق/ بيروت لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص:٢٤-٢٩.

(١٠) ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص: ٩٧، ١٨٦-١٨٧.

(١١) ابـن خلـدون، عبـد الـرحمن بـن محمّـد الحضـري الإشـبيلي (٨٠٨هــ/١٤٠٥م)، **مقدّمة ابـن خلـدون**، ضبطه خليل شحادة وراجعه سـهيل زكّـار، دار الفكـر للطباعـة والنشـر والتوزيـع، بـيروت، لبنـان، ١٤٢١ه/٢٠٠١م، ج١، ص: ٤٧٨.

(١٢) المصدر نفسه، ج١، ص: ٢٨١-٢٨٢، ٣٢٢-٣٢٤.

(١٣) نفسه، ج١، ص:٤٧٨.

(١٤) رفيق يونس المصري، المرجع السابق، ص: ١٥؛ عدنان خالد التركماني، **السياسـة النّقديـة والمصـرفية**، مؤسسـة الرسـالة، عـمان/ بـيروت،١٤٠٩ه/١٩٨٨م، ص: ٤٨-٥٠؛ محمـد عـثمان شـبير، المرجـع السـابق، ص:١٥٤؛ يوسـف كـمال محمـود، المرجـع السـابق، ص: ٢١؛ حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص:٤٧-٤٨.

(١٥) المقريـزي، تقـي الـدّين أبي العبّـاس أحمـد بـن عـلي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **إغاثة الأمّة بكشـف الغمّة**، تحقيق كرم حلمي فرحات، ط.١، عين للدراسات والبحوث العلمية والاجتماعية، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص: ١٢٠.

(١٦) عـدنان خالـد الـتركماني، المرجع السـابق، ص: ٥٠-٥١؛ سـيّد شـوربجي عبـد المولى، **الفكـر الاقتصادي عنـد ابـن خلـدون، الأسـعار والنقـود**، دراسة تحليلية، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بـن سـعود الإسـلامية، وزارة التعلـيم العـالي، المملكـة العربيـة السـعودية،١٤٠٩ه/١٩٨٩م، ص:٥٧؛ رفيـق يـونس المصـري، المرجـع السـابق، ص: ١٥؛ محمـد عـثمان شـبير، المرجـع السـابق، ص:١٥٤؛ يوسف كمال يوسف، المرجع السابق، ص:٢١.

(١٧) عدنان خالد التركماني، المرجع السابق، ص: ٥٣-٥٤.

(١٨) محمد عثمان شبير، المرجع السابق، ص:١٥٥.

(١٩) رفيـق يـونس المصـري، المرجـع السـابق، ص:١٥-١٧؛ يوسـف كـمال محمـود، المرجـع السـابق، ص:١٨،٢١؛ سـيد شـوربجي عبـد المـولى، المرجع السابق، ص:٥٨.

(٢٠) يوسـف كمال محمود، المرجع السابق، ص: ٢١؛ حسـن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ٥٣-٥٧.

(٢١) رفيق يونس المصري، المرجع السابق، ص: ١٥؛ عدنان خالد التركماني، المرجع السابق، ص: ٥٠-٥١.

(٢٢) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدّمة، ج١، ص: ٣٢٣.

(٢٣) لقـب بتقـي الـدّين ويكنـى بـأبي العبّـاس، جمع بـين العلـم والتـأليف والفكـر والحسـبة واللّغـة والحـديث مـن العلـوم، ولـد بالقـاهرة سـنة٧٦٦هــ/١٣٦٤م) في حـارة برجـوان. أخـذ المـذهب الحنفـي والشافعي، كانت له عدة رحلات أبرزها رحلته للشـام ومكة والقـاهرة. حظـي بمكانـة لائقـة لـدى السـلطان الظـاهر برقـوق(٧٧٤-٨٠٢هــ/١٣٧٢-١٣٩٩م) ولـده فـرج بـن برقـوق(٨٠٢-٨٠٤هــ/١٣٩٩-١٤٠١م). شـغل المقريـزي عـدّة وظـائف منهـا الـوعظ بالمسـاجد، الحسـبة، الخطابـة، الإمامـة، القضـاء، التـدريس تـوفي سـنة ٨٤٥هــ/١٤٤١م. يُنظـر: ابـن تَغْري بـردي، أبـو المحاسـن جـمال الـدّين يوسـف بـن الأمير سيف الـدّين (ت٨٧٤ه/١٤٦٩م)، **المَنهلُ الصّافي**، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م، ج١، ص:٣٩٤؛ السَّخَاوي، شمس الدّين أبي الخيرّ محمّـد بـن عبـد الـرّحمن(ت٩٠٢هــ/١٤٩٦م)، **الضَّوءُ اللاّمِعُ في علماءِ القرنِ التّاسعِ**، مصر،١٣٤٥هــ/١٩٢٦م، ج٢، ص:٢١-٢٢، ٢٤؛ ج٤، ص:١٤٤.

(٢٤) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٣(قسم الدراسة).

(٢٥) مـن هـذه المؤلّفـات نـذكر: نبـذة العقـود في أمـور النّقـود، المكاييـل والموازين الشرعية، إغاثة الأمة بكشـف الغمة، المقاصـد السـنية في معرفـة الأجسـام المعدنيـة، شـذور العقـود في ذكـر النّقـود القديمـة والإسـلامية، يُنظـر: حسـن محمـود العمـري، المرجع السـابق، ص: ١٠-١١.

(٢٦) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدّمة، ج١، ص: ٢٨١-٢٨٢،٣٢٢-٣٢٤.

(٢٧) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٢٠.

(٢٨) نفسه، ص: ١٢١.

(٢٩) نفسه، ص: ١٤١.

(٣٠) نفسه، ص: ١٤١، ١٤٥.

(٣١) حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ١٠٢-١٠٣؛ سكينة بـويلي، المرجع السابق، ص: ٣٥٢-٣٥٣،

Henri Laurent, **La Loi De Gresham Au Moyen –Age**, Essai Sur La Circulation Monetaire Entre La Flamdre Et Le Brabant, A La Fin Du Xive Siecle, Revue Belge De Philologie Et D' Histoire, Bruxelles, Tome 05, 1933,P: 748.

(٣٢) حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ١٣.

(٣٣) ابن حزم الظّاهري هو أبو محمّد بن أحمد بن سعيد ابـن حزم بـن غالب القُـرشي النسـب. ولـد سـنة ٣٨٤هــ/٩٩٤م وكانـت وفاتـه سـنة ٤٥٦هــ/١٠٦٣م، نشـأ في بيـت مـال وعـز وجـاه. أخـذ عـن الكثـير مـن العلماء زمنـه، لـه العديـد مـن المؤلّفـات التـي قاربـت ٤٠٠ مجلّد أي ما يقارب ٨٠ ألف ورقـة. يُنظـر: ابـن صـاعد، أبـو القاسـم أحمـد الأندلسـي (ت. ٤٦٢هــ/١٠٦٩م)، **طبقـات الأمـم**، المطبعـة الكاثوليكيـة، بيروت،١٣٣١هـ/١٩١٢م، ص: ٧٥- ٧٧؛ الحُميدي، أبو عبدالله محمّد بـن الفتوح (ت. ٤٨٨ه/١٠٩٥م)، **جَذْوة المُقتبس في ذِكْرِ وُلاّةِ الأندلس**، الدار المصرية، مصر،١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص: ٣٠٨-٣٠٩؛ المقري، أحمد بـن محمّـد التّلمسـاني (ت. ١٠٤١ه/١٦٣١م)، **نفـح الطّيـب مـن غُصـن الأنـدلس الرّطيـب**، دار الكتاب العـربي، بـيروت،١٣٦٩هـ/١٩٤٩م،ج٢، ص:٣٧٤؛ محمّد أبـو زهـرة، **ابـن حزم حياته وعصره وآراؤه الفقهيـة**، دار الفكر العربي،القاهرة،د.ت،ص:٢١ وما بعدها.

(٣٤) تعـدّدت الأسـماء التـي نسـبت لهـذا الكتـاب فقـد سـمّاه ابـن بسـام "الإمامة والسّياسة" وسماه المقري" الإمامة والخلافة". يُنظر: ابـن بسّام الشّنتريني، أبو الحسـن علي (ت. ٥٤٢ه/١١٤٧م)، **الذّخيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة**، تحقيـق إحسـان عبـاس، دار الثقافـة، بـيروت

لبنان، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، القسم الأول، المجلّد الأوّل، ص:١٧١؛ المقري، المصدر السابق، ج١، ص:٣٦٥.

(٣٥) العزفي، أبو العباس السّبتي (ت. ٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، **إِثْبَاتُ مَا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌ لمن أراد الوُقوفَ على حقيقة الدّينارِ والدّرهمِ والصّاعِ والمُدّ**، تخريج ودراسة محمّد الشريف، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتّحدة، ١٤٢٠ه/١٩٩٩م، ص:١٠٤.

(٣٦) وهو من الأسرة العَزَفية بسبتة ولد سنة٦٥٧/١٣٠٦م. تولى قضاء سبتة والتّدريس بها. ينظر" العزفي، المصدر السابق، ص: ١٥-١٨(مقدمة الدراسة)؛ المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التّلمساني (ت. ١٠٤١هـ/١٦٣١م)، **أزهارُ الرياض في أخبار عياض**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م، ج٢، ص:٣٧٤-٣٧٦.

(٣٧) العزفي، المصدر السابق، ص: ١٠٤-١٠٥.

(٣٨) نفسه، ص: ١٠٦-١١٠.

(٣٩) هو أحد الأخوين المعروفين بأبناء الإمام التلمساني وأخوه أبو زيد عبد الرحمن. من أهل برشك نزل الدولة الزيانية أيام السلطان أبي حمّو الأوّل بعد رحيله من تونس رفقة أخيه، حيث كانت وفاته سنة٧٤٩هـ/١٣٤٨م متأثرا بوباء الطاعون. يُنظر ترجمته: التّنبكتي، أحمد بابا (ت. ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)، **نَيْلُ الابتهاج بتطريز الدّيباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط.١، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٣٩٨هـ/١٩٨٩م ،ص: ٢٩١-٢٩٧؛ التَّنَسي، محمّد بن عبد الله (ت ٨٩٩هـ/١٤٩٣)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نَظم الدُّرِ والعُقْيانِ في شرف بني زيّان**، تحقيق محمود آغا بوعياد، دار موفم للنشر، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ، ص: ١٢٧؛ ابن خلدون، أبو زكرياء يحي (ت.٧٨٠هـ/١٣٧٨م) **بُغْيةُ الرُّوَّادِ في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ، ج١، ص: ١٦٩-١٧٠؛ خير الدّين الزّركلي، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب المستعمرين والمستشرقين**، ط.١٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م، ج٥، ص: ١٠٨؛ محمّد بوشقيف، **تطور العلوم بالمغرب الأوسط، خلال القرنين الثامن والتّاسع الهجريين (١٤ – ١٥م)**، رسالة دكتوراه، إشراف عبدلي لخضر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التّاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ١٤٣١ – ١٤٣٢ه/٢٠١٠ – ٢٠١١م، ص: ٢٨٦ وما بعدها.

(٤٠) الونشريسي، أبو العبّاس أحمد بن يحي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م)، **المِعْيَارُ المُعرّبُ عن فتاوى أهل إفريقيةَ والأندلس والمغرب**، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمّد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، ١٤٠١ه/١٩٨١م، ج٦، ص: ٣٥٧-٣٥٨.

(٤١) المصدر نفسه، ج٦، ص: ٣٥٨.

(٤٢) نفسه، ص: ٣٥٧-٣٥٨.

(٤٣) نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٤٤) الوزّان، الحسن بن محمّد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت. بعد ٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمّد حجي ومحمّد الأخضر، ط.٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص:٢٣.

(٤٥) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٣ (قسم الدراسة).

(٤٦) محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص: ٢٨٦-٢٩٠.

(٤٧) خير الدّين الزركلي، المرجع السابق، ج١، ص: ١٤٤.

(٤٨) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١١ (قسم الدراسة)؛ حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ٧٠.

(٤٩) الونشريسي، المصدر السابق، ج٦، ص: ٣٢٩-٣٣٧؛ المازوني، أبو زكرياء يحي بن موسى بن عيسى (ت. ٨٣٣هـ/١٤٧٨م)، **الدُّرَرُ المَكْنُونةُ في نَوازلِ مازُونَةَ**، دراسة وتحقيق قندوز ماحي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، د.ت، ج١، ص: ٧٢٣-٧٣٩.

(٥٠) الونشريسي، المصدر السابق، ج٦، ص: ٣٣٧.

(٥١) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٩ (قسم الدّراسة).

(٥٢) نفسه، ص: ١٣ (قسم الدراسة)؛ حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ٨٠.

(٥٣) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدّمة، ج١، ص: ٣٠ (قسم الدراسة).

(٥٤) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣١؛ الوزّان، المصدر السابق، ج٢، ص:١٩.

(٥٥) حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ١٠٢-١٠٣.

(٥٦) العُقباني، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التّلمساني (ت ٨٧١هـ/١٤٦٧م)، **تُحْفَةُ النَّاظِرِ وغنيمة الذَّاكِرِ في حفظ الشعائر وتغيير المَناكِرِ**، تحقيق علي الشنوفي، *Extrait du Bullettin d'études orientales de L'institut Français de DAMAS, Tome xix, 1967*، ص: ٢٣٦.

(٥٧) الونشريسي، المصدر السابق، ج٥، ص: ١٨٩-١٩٠.

(٥٨) هو محمّد بن محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن القرشي المَقّري التّلمساني. من أشهر علماء المذهب المالكي قاضي الجماعة بفاس، ولد ونشأ وتعلّم بتلمسان وتونس والمغرب. رحل للمشرق للحج فأخذ عنه العلماء ثمّ نزل الأندلس وانتهت رحلته بغرناطة، توفي بفاس ونُقلت رُفاته إلى تلمسان. يُنظر: التّنبكتي، المصدر السابق، ص: ٤٢٠ وما بعدها؛ عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر**، ط.٢، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص:٣١٢-٣١٣؛ محمّد بن محمد مخلوف، **شجرة النّور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٣٤٩م، ص:٢٣٢(ترجمة رقم٨٣٢).

(٥٩) الونشريسي، المصدر السابق، ج٥، ص: ١٩٠.

(٦٠) نفسه، ج٦، ص:٧٦، ١٠٥-١٠٦.

(٦١) نفسه، ص: ١١٧-١١٨، ١٦٣.

(٦٢) البرْزُلي، أبو القاسم بن أحمد البَلوي التُّونسي (ت٨٤١هـ/١٤٣٨م)، **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمُفتين والحُكّام**، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط.١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣، ص: ٣١٢.

(٦٣) العقباني، المصدر السابق، ص: ٢٣٧.

(٦٤) الونشريسي، المصدر السابق، ج٥، ص: ١٩٠.

(٦٥) نفسه، ج٥، ص: ١٨٩-١٩٠.

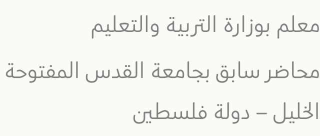
(٦٦) العقباني، المصدر السابق، ص: ٢٣٧.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الخدع العسكرية لدولة المماليك في مصر والشام
٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م





عبد الجبار أحمد محمد العملة

معلم بوزارة التربية والتعليم

محاضر سابق بجامعة القدس المفتوحة

الخليل – دولة فلسطين

مُلَخّص

اعتمد القادة السياسيون والعسكريون في دولة المماليك، استراتيجيات متنوعة في التحركات العسكرية والمعارك الحربية، وجمع المعلومات عن العدو، وكان هناك وحدات خاصة تتولى عملية التضليل والخداع واستخدام الحيل والمكائد الحربية. وقد زخرت مصادر العصر المملوكي، المعاصرة والمواكبة للأحداث السياسية والعسكرية المختلفة، بمعلومات غزيرة عن أساليب التمويه والتنكر والخدع. تتناول هذه الدراسة الخدع العسكرية لدولة المماليك في مصر والشام، مثل التمويه والخدع وسياسة الاستقطاب واستخدام الشفرات السرية سواء في المعارك أو الرسائل المتبادلة بين المسؤولين والقادة السياسيين والعسكريين، مما كان له أكبر الأثر في حسم المعارك والحروب التي خاضتها دولة المماليك مع أعدائها، سواء كانوا المغول أو الفرنج، وتأتي أهمية هذا الموضوع كونه موضوعًا على قدر كبير من الأهمية، لما له من أثر كبير في سير الأحداث في تاريخ دولة المماليك السياسي والعسكري. وقد اعتمد الباحث في بحثه على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، والذي يستند على القيام بجمع الأدلة عن المظاهرة أو الإشكالية في الماضي، ومن ثَمَّ الوصول إلى النتائج ذات القرائن. فقد تبين إن استخدام الخدع العسكرية في الحرب، يشكل عنصرًا رئيسًا في حسم المعركة في أسرع وقت وبأقل الخسائر البشرية والمادية، ويمثل استخدامها ضمانة كبيرة لحقن الدماء وسلامة الأوطان، ويعالج الفروق بين الجيوش في العدد والعتاد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٩	سبتمبر	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	١١	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

العصر المملوكي؛ الخدع الحربية؛ الجواسيس؛ المغول؛ الحروب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310368 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الجبار أحمد محمد العملة. "الخدع العسكرية لدولة المماليك في مصر والشام ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ٩٤ – ١٠٧.

Corresponding author: abdalgabarhistory@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَة

مَنْ يقرأ القرآن ويتدبر آياته، ويقف على أقوال النبي (ﷺ) وأفعاله في الجهاد والقتال، ويعي ويفهم دروس التاريخ، يجد بلا شك أن استخدام الحيل والمكر والخداع تعد من ركائز الفكر العسكري واستراتيجيات القتال، ومن أهم وسائل وأساليب الحرب والصراع. فما من قائد عسكري يريد الانتصار على أعدائه بأسرع وقت وأقل الخسائر، إلا وجب عليه أن يجعل للخدع العسكرية شأن مهم في خطته الحربية وأسلوب قتاله، قال حكيم: «الحيلة أنفع من الوسيلة».

إن استخدام وسائل وأساليب المكر والخداع تدل على فطنة وحنكة القائد العسكري، وتعبر عن معرفة ودراية بقدرات العدو وإمكانياته ونقاط قوته وضعفه، ومعرفة طبيعة مكان المعركة وجغرافيتها، لأنها تشكل العناصر الأساسية التي تقوم عليها فكرة استراتيجية المكر والخداع. إن المتتبع للتاريخ، يجد أن كثيرًا من المعارك حسمت بخدعة، وانتصرت الجيوش بحيلة، رغم قلة عددها، وضعف إمكانياتها، مقارنة بجيش عدوها الذي تفوق عليها عددًا وعدةً، لذلك نجد أن قادة الجيش المملوكي برعوا في استخدام وسائل المكر والحيل والخداع في معاركهم مع أعداء الإسلام من مغول وفرنجة، حيث تمكنت العبقرية الإسلامية من تدبير أنواع مختلفة من الخدع الحربية، التي تحطمت عليها أحلام الأعداء، وأحبطت مكرهم وكيدهم، ومكنت دولة المماليك من تحقيق الوحدة بين مصر والشام، والحفاظ على وجود المسلمين كأمة، وحررت الأرض والإنسان من الظلم والعدوان.

لقد كان لهذه الخدع والحيل الحربية التي استخدمها قادة المماليك دور بارز ومميز في التغلب على كثير من جيوش المغول والفرنجة، رغم حجم الخطر الكبير الذي شكله هؤلاء، مما يزيد الإنسان قناعةً بدور الخدع العسكرية في حسم الصراع بأسرع وقت وأقل الخسائر. من هنا جاء هذا البحث، ليعطي صورة واضحة وموجزة عن أشكال الخدع العسكرية للدولة المملوكية في صراعها مع أعدائها، وهو يغطي فترة حكم المماليك لمصر والشام بكاملها، بدءًا بعام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وانتهاءً بعام (٩٢٣هـ/١٥١٧م).

مشكلة البحث:

التعرف على أهم الخدع والمكائد والحيل الحربية التي ابتكرها المماليك وطوروها وعملوا على تطبيقها في سياساتهم الحربية، ومعاركهم مع المغول والفرنجة، وفي مختلف نشاطاتهم السياسية والعسكرية مع مختلف الأطراف المعادية والمسالمة للدولة، وأثر هذه الخدع والحيل في تحقيق أهداف دولة المماليك سياسيًا وعسكرياً واستراتيجيًا.

الدراسات السابقة:

هناك بعض الدراسات التي عالجت موضوع الخدع العسكرية عند المسلمين، أهمها:

- الخدع العسكرية للمسلمين في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، إعداد: جمال أحمد سليمان أبو ريدة.
- الخدع العسكرية للمسلمين في الأندلس من الفتح إلى السقوط، رسالة ماجستير، إعداد: عماد علي دياب الجرو.

وفيما عدا هاتين الدراستين، لا يوجد أية دراسات جادة أخرى، كما لا يوجد أية دراسة جادة حول الخدع العسكرية في العصر المملوكي، من هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يعالج الخدع العسكرية لدولة المماليك في مصر والشام.

تمهيد

اعتمد القادة السياسيون والعسكريون في دولة المماليك، استراتيجيات متنوعة في التحركات العسكرية والمعارك الحربية، وجمع المعلومات عن العدو، وكان هناك وحدات خاصة تتولى عملية التضليل والخداع واستخدام الحيل والمكائد الحربية. وقد زخرت مصادر العصر المملوكي، المعاصرة والمواكبة للأحداث السياسية والعسكرية المختلفة، بمعلومات غزيرة عن أساليب التمويه والتنكر والخدع التي مارسها القادة السياسيين والعسكريين المماليك في مواجهتهم لأعدائهم «الفرنج والمغول» طيلة فترة الصراع المملوكي المغولي من جهة، والصراع المملوكي الفرنجي من جهة أخرى.

لقد كانت هذه السياسة الأمنية، راسخة رسوخًا عميقًا لدى أصحاب السياسة والقرار من السلاطين والأمراء والقادة العسكريين المماليك، وكانت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لكل متتبع ومدقق لتاريخ المماليك السياسي والعسكري، في معاركهم الحاسمة مع المغول، كمعركة عين جالوت (عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ومعركة مرج الصُفر (عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م)، وغيرها، أو في معاركهم مع الفرنج أثناء حصار المدن الشامية وتحريرها، كمعركة حصار أنطاكية (عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، ومعركة حصار طرابلس وتحريرها (عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م)، ومعركة حصار عكا وتحريرها (عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م). كما كانت هذه السياسة واضحة في اتفاقياتهم وهدنهم السياسية والأمنية مع من حاربوهم من قوى وكيانات سياسية، من مغول أو فرنجة أو غيرهم، تلك الاتفاقيات التي لم تكن إلا فترة وجيزة من السلم والهدوء الذي كان يسبق العاصفة.

التمويه لغة: من موَّه، إذا لبَّس الشيء[١]، ومنه قيل للمخادع مموه، وموه فلانًا باطله إذا زينة وأظهره في صورة الحق[٢]، وفي الاصطلاح: مجموعة من التدابير، يتخذها القادة وأصحاب القرار في الدولة، في محاولة لإخفاء القوات العسكرية عن عيون العدو، مع المحافظة على سرية العدد والعدة، والإبقاء على عنصر المفاجأة[٣]، **وأما التنكر لغة**: مصدر تنكر إذا تغير حاله أو زيه حتى لا يُعرف[٤]، وفي الاصطلاح: التستر تحت غطاءٍ كاذب، كأن تكون العيون والجواسيس أثناء أداء المهام في صورة التجار أو الرحالة أو الدجالين والدراويش، أو على هيأة الصوفية وغيرهم[٥].

وأما الخدع لغة: فهي جمع، ومفردها خدعة وتعني المكر والحيلة[٦]، وهي فعلة من الخدع، يعني أن المحارب إذا خدع من يحاربه مرة واحدة وانخدع له ظفر به وهزمه[٧]، وقال ثعلب: الحرب خَدْعة، هذه أفصح اللغات[٨]، وخُدْعة: بضم الخاء وسكون الدال، وهي الاسم من الخداع، كما يقال: هذه لعبة[٩].

أما في الاصطلاح، فالخدعة الحربية: ((جزء من العلم العسكري وضرورية في المعارك على المستوى التكتيكي والاستراتيجي، وهي فن التمويه والاستتار عن الحقيقة والقيام بأعمال تضليلية لصرف العدو عن الاتجاهات والأمكنة والأعمال الأساسية))[١٠]، وفي الموسوعة العسكرية، تعرّف الخدع الحربية بأنها: ((مجمل التدابير الرامية إلى إخفاء العمليات الحقيقية عن العد، ودفعه إلى الانتباه نحو عمليات موهومة، وتشتيت قواه بشكل يسمح للعمليات الحقيقية بتحقيق القسط الأكبر من الفاعلية والمفاجأة، وقلب توازن قواته المادية والمعنوية))[١١]، وفي الحديث: ((الحرب خدعة))[١٢]، وقد أجاز الإسلام للمقاتلين الكذب والخداع والتضليل على العدو في الحرب[١٣].

أساليب التمويه والتنكر والخدع

ومن أهداف الخداع: التغلب على العدو أثناء الحرب، ومحاولة تقليل الخسائر، أو الخروج بأقل الخسائر البشرية والمادية، وكذلك الوقوف على قوة العدو، وكشف خططه واستطلاع أسراره، وتضليل العدو سيما أثناء تحركات الجيش وتحطيم الروح المعنوية له[١٤]، وبناءً عليه، ((يقدم في ولاية الحروب أشجع الناس وأعلمهم بمكايد الحروب والقتال مع النجدة والشجاعة وحسن السيرة في الاتباع))[١٥]، ((فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، والخبرة بالحروب والمخادعة فيها- فإن الحرب خدعة – وإلى القدرة على أنواع القتال، من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك))[١٦].

١- استخدام الحيلة والمكيدة

ومن صور الخدع الحربية: **استخدام الحيلة والمكيدة** عند بث العيون والجواسيس قبل لقاء العدو ومهامهم قبل المعركة، قال ابن الأزرق: ((وهي أهم ما يبدأ به قبل القتال، بث الجواسيس الثقات في عسكر العدو وبلاده، لتعرف أخبارهم مع الساعات، وما عندهم من العدة والعدد، وما لهم من المكائد والحيل، وكم عدد رؤسائهم، وشجعانهم، وما منزلتهم عند صاحبهم، ويدس إليهم ما يخدعون به من صلة أو ولاية، حتى يغدروا صاحبهم، أو يهربوا عنه ويخذلوه، عند لقائه))[١٧].

٢- استخدام الحيلة والمكيدة

ومن صور الخداع أيضًا **استخدام الكمائن** والتظاهر بالتسليم والاستسلام وارتداء ملابس العدو وحمل شارته، والعميل المزدوج، والمحاولة الجادة في تشتيت العدو وتفتيت قوته، والتخفي أثناء مسيرة التجريدة العسكرية أو الجيش ليحقق القائد مبدأ المباغتة[١٨].

وقد استخدم السلاطين والقادة العسكريين في دولة المماليك الكمين والذي كان عن عيون العدو مخفيًا، ثم ما يلبث أصحاب المهمات أن يطلبوا العدو، عن طريق العيون والجواسيس، في محاولة لإيقاعه على حين غفلة، وقد كان بين رجال الكمين إشارة متعارف عليها لبدء الخروج من الكمين[١٩]، وفي عمل العيون في وضع الكمين وساعة ظهورهم قال الهرثمي: ((ويتحرى أن يكون موضعهم في المكمن خفيًا مستورًا... لتكن ساعة ظهورهم من المكمن بالغدوات في حال الغفلة من عدوهم وعند حطهم عن دوابهم وإمراحها، وعند انتشارهم واغترارهم في أحرّ ساعة تكون في أيام الصيف، وأبرد ساعة تكون في أيام الشتاء))[٢٠]، وحول شروط الكمين يقول ابن رضوان المالقي: ((وينبغي أن ينتخب للكمين من الجند أهل جرأة وشجاعة وتيقظ وصرامة، وليس بهم أنين ولا سعال ولا عطاس، ويختار لهم من الدواب مالا يصهل ولا يعبث، ويختار لكمونهم مواضع لا تغشى ولا تؤتى قريبة من الماء لينالوا منه إن كان مكثهم يقتضي ذلك، وأن يكون إقدامهم بعد الروية والتشاور والثقة بإصابة الفرصة، ولا يخيفوا سباعًا ولا طيرًا ولا وحشًا، وأن يكون إيقاعهم كضرم الحريق، وليتجنبوا الغنائم، ولينهضوا من الكمين متفرقين إذا ترك العدو الحراسة، وإقامة الربايا، وإذا أونس من طلائعهم توانى وإذا أمرجوا دوابهم في المرعى))[٢١]، فلجأ جهاز المخابرات إلى السرية التامة في جمع المعلومات عن العدو[٢٢]، وتنكروا في زي التجار[٢٣] والفقراء والفقهاء والمتصوفة[٢٤]، وكان الهدف من التستر والتخفي عن

عيون العدو، حرمانه من الاستعداد لكسب المعركة بأسهل استراتيجية[٢٥]، فإذا بعث السلطان عيونه إلى أرض العدو، ساروا ليلاً، وكمنوا في النهار، واشترط عليهم أن يكونوا ((ممن يوثق بنصيحته وصدقه ذا حدس صائب وفراسة تامة، كثير الدهاء والحيل والخديعة ... له دربة بالأسفار، عارفا بلسان أهل البلاد، صبورًا))[٢٦]، كما يتوجب على القائد العسكري أن يستخدم المكائد في قتال العدو قبل المعركة، وذلك ببث الجواسيس الثقات في عسكر العدو وبلاده، والتعرف على أخباره وأعداده، وأمرائه وسلاحه[٢٧]، قال صاحب سير الملوك: ((يجب بث العيون في كل الأطراف دائمًا في زي تجار وسياح ومتصوفة وبائعي أدوية ودراويش لنقل كل ما يسمعون من أخبار حتى لا يظل ثمة شيء خافيًا، وحتى يمكن تلافي أي طارئ جديد في حينه[٢٨].

٣- التحايل على العدو

ومن أنواع الخدع الحربية، **التحايل على العدو**، بهدف إضعافه، ولها طرق متعددة أهمها ما فيه تخذيل العدو وذلك لإرباكه ولإيهامه بكثرة المسلمين عدةً وعددًا، وكذلك استدراج العدو إلى أماكن القتال المعدة مسبقًا، ومنها التخفي والتستر عن عيون العدو وجواسيسه، وذلك من مبدأ المفاجأة في القتال والظفر بالعدو، وقطع التموين عن العدو[٢٩]، ومن أمثال العرب: ((ربّ حيلة أنفع من قبيلة))[٣٠]، ومن الأمثلة على استخدام الحيل والخدع العسكرية، عندما استخدم الملك المظفر قطز قبل معركة عين جالوت استراتيجية عسكرية في استدراج جيش المغول عن طريق وحدة الاستطلاع والكشافة وأوقعهم في كمين قد أعد لهم في عين جالوت، بعد أن أخفى الجيش الإسلامي في الأحراش والأشجار الكثيفة المحيطة بعين جالوت، واستخدم عنصر المفاجأة بعد أن وقع المغول في الكمين[٣١]، ومن الخدع الحربية ما فعله صارم الدين أزبك قبل معركة عين جالوت عندما بعث إلى المظفر قطز مخبرًا وكاشفًا عن الخطة العسكرية للمغول وكيفية انتهاز الفرصة أثناء المعركة[٣٢]، وفي أواخر عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، استخدم الملك الظاهر بيبرس عملية التخفي عند تحرك الجيش المملوكي في غارة تأديبية على عرب زُبيد لكثرة فسادهم ولمخالطتهم الفرنج ولتآمرهم على المسلمين وكشف أخبارهم للعدو[٣٣]، كما استخدم الظاهر بيبرس عملية التخفي والتمويه في أكثر من غارة، سيما التحركات العسكرية ضد الفرنج[٣٤]، كما استخدم عملية التنكر أيضًا في أكثر من مكان، في محاولة لكشف الأمور على حقيقتها، أو لاستطلاع الأسرار وكشف الأخبار[٣٥].

ويرى ابن رضوان المالقي (ت٧٨٣هـ/١٣٨١م) أن ((أكثر ما تكون الحيل في الحرب بالكتب المفتعلة والجواسيس المأخوذة، وإشعار العدو أن أصحابه عليه لا له، وأنهم يضمرون خلافه، وأن عدوه قد تضافر عليه مع غيره من أعدائه، وأن كثيرًا من عماله قد مالأ عليه، ... لتفريق حشوده))[٣٦].

وقد ذكر ابن النحاس (ت٨١٤هـ/١٤١١م)، أنه يجب على صاحب الجيش أن يبعث بالعيون والجواسيس إلى العدو لاستطلاع أخبارهم وكشف خططهم والوقوف على ما دبروه من المكائد والكمائن، وكذلك الوقوف على أسماء الشجعان فيهم، إضافة إلى استعمال استراتيجية الخدع الحربية، ومنها العمل على المكاتبات السرية المزورة على ألسنة قادتهم وكبرائهم وإيقاع الاختلاف فيما بينهم، وأن يوغر قلوب العسكر على القادة ما كانت الحاجة إلى ذلك[٣٧].

وفي عام (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) استخدم الظاهر بيبرس المكيدة والخداع في قتل ((سليمان بن عامر العقرباني)) المعروف بـ ((زين الدين الحافظي))، حيث بعث بمكاتبات مكذوبة لإيقاع الخلاف بين هولاكو ملك المغول وبين العقرباني، وقد بين لهولاكو أن العقرباني يعمل جاهدًا لصالح ملوك مصر، فأمر بقتله وقتل كل من يلوذ به[٣٨].

وفي رجب عام (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، استخدم الظاهر بيبرس ((خدعة حربية)) في حصاره لقلعة الشقيف، والتي تعد من أهم معاقل فرسان الداوية، إضافة إلى موقعها الاستراتيجي المهم المتحكم في طرق المواصلات الداخلية[٣٩]، وذلك عندما كان العسكر محاصرًا للقلعة المذكورة، إذ وقع على مكاتبات للفرنج من عكا إلى نواب قلعة الشقيف، وفيها بعث الحماس والهمة لدى الفرسان الداوية، وأن المسلمين لا يقدرون على أخذ القلعة إذا تم الاحتفاظ بها، ودعوهم إلى الثبات والقوة وعدم الاختلاف[٤٠]، فقام الظاهر بيبرس بعمل الخدعة التي ساعدت على تسليم القلعة بأسهل الطرق وأيسرها، حيث استدعى الترجمان وأمره أن يكتب كتابًا إلى فرسان الداوية في القلعة، واستغل المعلومات والأمارات التي بالكتاب وزاد فيها ونقص منها بما يتوافق في إيقاع الاختلاف بينهم وتسليم القلعة دون قتال، وبعث بالكتاب إلى القلعة المذكورة بحيلة عملها السلطان، فلما قرأ الفرسان الكتاب اختلفوا فيما بينهم، بين مسلم ومدافع، فقرروا تسليم القلعة[٤١]، مقابل السلامة والأمان[٤٢].

وقد شدد صاحب ((الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم))، على أنه يجب أن تتوفر صفات محددة في اختيار العيون والجواسيس الذين يبعث بهم إلى بلاد العدو ومنها: ((وأن كاتم السر((ديوان الإنشاء)) لا يصرف منهم إلا من يثق به، وعلم فيه الصدق واليقظة والذكاء والفراسة التامة والحدس الصائب، وكثرة الدهاء والمكر والحيل والخديعة والبهتان، وله دُربة بالأمور ومعرفة الأسفار وخبرة بالبلاد وبطرقها، ولا يكون غريبًا، ويكون عارفًا بلغة أهل البلاد المتجسسها شبيهًا بأشكالهم حتى يندرج فيهم، ويُبهم أمره عليهم، ويعلم منه الصبر إلى ما قد يقدر عليه إن ظفر به، ويختبر رأيًا بالعين فيما يقصد الدخول فيه من تطور شكل أو فعل جديد، أو أمر، أو مكر، أو دهاء، فإن وجده كاتم السر متطبعًا قابلاً، عرض فعله على سلطانه ...))[٤٣].

وفي عام (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) استخدم بيبرس عملية التمويه عندما تحرك الجيش وظهر أمام طرابلس فجأة، كما استخدم عملية التنكر بنفسه، وذلك عندما تقررت الهدنة مع حاكم طرابلس، فدخل الظاهر بيبرس مع أتابك العسكر متنكرًا في صورة ((السلاح دار)) لإقرار الهدنة، وكانت تلك المغامرة الخطيرة ليستكشف فيها البلدة، وليقف على نقاط القوة والضعف حول أسوار البلدة وتحصيناتها[٤٤].

وعندما خرج الظاهر بيبرس من طرابلس، أخفى وجهته، ولم يشعر به الفرنج إلا والمسلمون على أبواب أنطاكية، التي كانت هدفه لتنفيذ عملياته العسكرية، وذلك في رمضان عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م[٤٥]، وقد استخدم بيبرس التخفي والتمويه على الفرنج ليحقق أهدافه عن طريق المباغتة العسكرية، وليكسب المعركة في أسرع وقت وبأقل تكلفة[٤٦]، وهاجم العسكر المنصور أسوار أنطاكية، ووقع من فيها بين القتل والأسر، إضافة إلى الغنائم الهائلة [٤٧].

ومن الخدع الحربية في المعارك البحرية، عندما أمر الظاهر بيبرس بتجهيز تجريده إلى جزيرة قبرص في أواخر عام (٦٦٩هـ/١٢٧١م)، حيث أمر بدهن السفن باللون الأسود حالها حال المراكب الفرنجية، وأن ترفع الرايات التي تحمل الصليب، في محاولة للتنكر والتمويه على القبارصة، ثم الهجوم المباغت لحسم المعركة بأسرع وقت، وعندما اقتربت المراكب من سواحل الجزيرة تحطمت بسبب شدة الرياح، وتقلبات الطقس، وتم القبض على الرجال وأخذوا أسرى[٤٨].

وفي عام (٦٧٤هـ/م١٢٧٥م)، حاصرت قوات المغول ومن حالفها من الروم، مدينة البيرة، فقدم الظاهر بيبرس باستخدام خدعة حربية استطاع من خلالها أن يرفع الحصار عن البيرة، ويوقع الاختلاف بين المغول وحلفائهم، حيث بعث بيبرس بثلاثة من القصاد إلى البيرة ومعهم رسالة من السلطان في محاولة لخداع المغول والإيقاع بمعين الدين البرواناة، في وقت واحد، فلما قارب القصاد البيرة قبض عليهم جنود المغول الذين كانوا في معسكر البرواناة وحملوهم إلى قائد المغول، فبعث بهم وبكتابهم إلى البرواناة الذي أنكرهم وأنكر ما قدموا من أجله، وقتل القصاد، وأما المكاتبات فإنها وصلت إلى أبغا في سرية تامة، وكانت سبب هلاكه فيما بعد[٤٩].

وفي عام (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، لعب جواسيس الملك المنصور قلاوون دوارًا كبيرًا في بلاد الشرق، وكانوا في زي التجار والمتصوفة والفقراء، ومن الأمثلة على ذلك عندما قدمت سفارة السلطان أحمد تكدار بن هولاكو إلى السلطان المنصور قلاوون، عن طريق نائب البيرة[٥٠]، ومعهم كتاب من سلطانهم[٥١]، وفيه أنه أسلم ويستطيب خاطر سلطان مصر، وبين أنه لا داعي لبعث الجواسيس بين البلدين، سيما بعد الاتفاق، واجتماع الكلمة، وأنه قبض على أحد جواسيس السلطان قلاوون متنكرًا في زي الفقراء، وأن مثله يقتل، وقال: ((ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين، فإن عساكرنا ((السلطان أحمد آغا)) طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح، فساءت ظنونهم حتى قتلوا من قتلوا من هذه الطوايف بغير حرمة ولا جناح ...))[٥٢]، فقام شافع بن علي ((كاتم سر السلطان)) وبأمر من الملك المنصور قلاوون، بالرد على رسالة السلطان أحمد وجاء فيها: ((... وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق، وأنه بسب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتلت جماعة من الفقراء الصالحين رجمًا بالظن، فهذا باب من ذا الجانب كان فتحه، وزند منه كان قدحة، وكم من متزين بفقير من ذلك الجانب سيروه، وإلى الاطلاع على الأمور سوروه، وظفر النواب منهم بجماعة فرفعوا عنهم السيف، ولم يكشف ما غطته حُرمة الفقر بِلَم ولا كيف))[٥٣].

وقد حذر ابن منكلي نقيب الجيش في عهد السلطان الأشرف شعبان من تسلل العدو عبر الثغور في قوله: ((ولا يدخل المدينة حمل ولا ثقل، ولا شيء مما يمكن أن تستر فيه الرجال، حتى مثل الصناديق، والجواليق، والأعكام، إلا فتشوها، وطعنوا ما أمكن منها بالمناخس[٥٤] لئلا تدخل الرجال فيها سرًا))[٥٥].

وفي عام (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، وصلت الأخبار من قبرص عن طريق العيون والجواسيس إلى بيروت، وأخبروا أن حاكم قبرص ((هيو الثالث)) أعد حملة عسكرية لقصد الساحل، فأعدت وحدة العيون والجواسيس العدة، فجهزوا كمينًا على ساحل بيروت من

جهة البر، وعندما نزلت عساكر الفرنج من المراكب إلى البر، خرجت وحدة العيون، وأوقعوا بالعساكر بين القتل والأسر، وكان جملة من أسر من رجال ملك قبرص ثمانين رجلاً، فضلاً عن الغنائم الوفيرة، ومن استطاع الفرار توجه إلى صور[٥٦].

وفي عام (٦٨٩هـ/١٢٩٠م)، قام الملك المنصور قلاوون بعمل خدعة حربية أثناء تحرك الجيش المملوكي لشن هجوم حربي على عكا، حيث أشاع أنه متوجه إلى بلاد النوبة في حملة عسكرية، وذلك للتمويه عن الهدف الحقيقي، ليحقق مبدأ المباغتة، ويحسم المعركة بأقل الخسائر المادية والبشرية، واستخدم الكتمان والسرية[٥٧]، إلا أن عيون الفرنج المندسة في البلاد، أنذرت وحذرت أصحاب القرار في عكا، إذ أن مقدم الداوية سارع إلى تحذير حكومة عكا، إلا أنها لم تأبه لهذا التحذير[٥٨].

وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون، عندما أراد فتح عكا عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م)، سير الطلائع إلى صور بقيادة "علم الدين سنجر الصوابي"، في محاولة منه لحفظ الطريق من طلائع الفرنج، وفي عملية تمويه عليهم، أثناء مسيرة الجيش إلى عكا، وتعد هذه العملية المعقدة من العمليات الناجحة، حيث استطاعت الطليعة أن تتسلم صور بالأمان وتمنع المراكب القادمة من عكا فرارًا، من الوصول إلى ميناء صور[٥٩].

وفي عام (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) بلغ المماليك "أن التتار قد توالوا بالقرب من سلمية، وأنهم يريدون الرجوع إلى بلادهم، لما بلغهم من كثرة الجيش واجتماعهم على ملكهم وكان ذلك الخبر مكيدة"، ولم تنطلِ على السلطان الناصر هذه الخدع من المغول، كما لم تنطلِ على بقية الأمراء، فتجهز الجميع بعساكرهم لمواجهة المغول وتوجهوا إلى سلمية[٦٠].

وفي عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، استطاع الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يتخذ له عيونًا من التجار في بلاد العجم، وذلك لإيواء مجموعة من الفداوية أصحاب التصفيات، بهدف اغتيال الأمراء الفارين منه، وعلى رأسهم الأمير قرا سنقر، والأمير الأفرم، وقد تنكر هؤلاء الرجال في زي التجار، وكان "علاء الدين بن المعلم" هو الذي أدار عملية الهجوم على الأمراء، حيث تجنب الظهور بعد فشل خطة القتل، واختفى مع الفداوية المرافقين له، عن طريق التجار المنتشرين في بلاد العجم[٦١].

وفي عام (٧٦٦هـ/١٣٦٤م)، وفي عهد السلطان "زين الدين شعبان بن حسين"، استغل الأمراء صغر سن السلطان، وأخذوا يحيكون الدسائس تحت جنح الظلام، والخروج عن طاعة السلطان، في محاولة من بعض الأمراء الوصول إلى سدة الحكم، واستخدم أصحاب القرار في الدولة الكمين للفتك بالخارجين على السلطة، حيث قام الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح بالخروج عن الطاعة، فقام الأمير يلبغا الخاصكي-القائم بمهام السلطنة الفعلي عن السلطان شعبان- وأكمن لأمير سلاح ورجاله كمينًا، وأوقع بهم وتم كسرهم، بعد خروج الكمناء عليهم، وقبض على أمير سلاح ورجاله، وأودعوا السجن بالإسكندرية[٦٢].

وفي عام (٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، استغل الأمراء الطامعين بالسلطنة خروج السلطان الأشرف شعبان لأداء فريضة الحج، وأشاعوا وفاته بالقرب من العقبة، وأجلسوا ابنه "علاء الدين علي" على كرسي السلطنة سلطانًا، وسرعان ما انكشفت تلك الخدعة بعد أن تم القبض على أحد المماليك ويدعى "قازان البرقشي" متخفيًا ومتنكرًا، وكان من المرافقين للسلطان في سفره للحج، وأحضروه إلى نائب القلعة، وتم التحقيق معه بعد أن أغلظوا عليه، وما سبب عودته إلى الديار المصرية قبل عودة السلطان، فأقر بخيانة بعض الأمراء بالقرب من منزلة العقبة وخروجهم على السلطان، وأن السلطان ومن تبعه من الأمراء انكسروا، وهرب السلطان[٦٣]، وأما ما كان من أمر السلطان فإنه قدم إلى القاهرة متخفيًا، وإلى منزل امرأة تدعى "آمنه زوجة ابن المشتولي" بالمحمودية، فدلت عليه امرأة أخرى[٦٤]، فقبض عليه الأمراء وأحضروه إلى القلعة، وحققوا معه عن الذخائر والأموال، ثم تسلمه أحد الأمراء فقام بخنقه تحت ستار الظلام في السادس من ذي القعدة من السنة المذكورة[٦٥].

ومن الأمثلة على استخدم السلاطين والأمراء والنواب التمويه والخدع، بسبب الصراع حول عرش المملكة، في عام (٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، عندما كان السلطان برقوق مقيمًا بالكرك، قبل توليه منصب الحكم للمرة الثانية، علم عن طريق العيون والجواسيس أن الأمراء بمصر عزموا على إرسال تجريدة للقبض على السلطان برقوق، عندها وصلت الأخبار عن طريق أحد الهجانة إلى مصر تفيد أن السلطان برقوق هرب من الكرك، وأحاطت به العربان، فبطل أمر التجريدة، وكانت تلك الأخبار مجرد حيلة افتعلها السلطان للتمويه والخداع على الأمراء المماليك في مصر، لتعطيل أمر التجريدة، وذلك لكسب الوقت لاستعادة الحكم مرة ثانية[٦٦]، وفي مقابل ذلك أصدر الأمير "منطاش" عن طريق جواسيسه إشاعة مفادها أن السلطان برقوق قبض عليه في نيابة دمشق وقطع رأسه، وكان هدفه من تلك الحيلة، طمأنة العامة في الديار المصرية، وكان لهذه الإشاعة الكاذبة أن دقت البشائر في القاهرة لمدة ثلاثة أيام[٦٧].

وفي عهد السلطان الأشرف برسباي عاث القبارصة في السواحل فسادًا، وهددوا التجارة والملاحة البحرية، فبعث الأشرف أربعة أغربة استكشافية، وعادت بالمعلومات الوفيرة عن قبرص، ومحملة بالغنائم، فقام ملك قبرص بإرسال غرابين مشحونة بالرجال والسلاح هدفها سواحل بلاد الشام ومصر، وأسر من وجدوه في طريقهم من المسلمين، فكلما قاربوا ساحلاً وجدوه مليئًا بالمراقبة والحراس، فتقدموا تجاه بيروت طلبًا للماء، وعندما وصلوا نهر الكلب، أطلقوا مدفعًا للتأكد من خلوه من الرجال، فأكمنت لهم وحدة العيون المملوكية، وعندما نزل القبارصة من المراكب خرج عليهم الكمين وأوقع بهم، وأمسكوا منهم مجموعة، وفرت الأخرى بعد أن أصيب أغلبها، وعادت إلى قبرص بخفي حنين، وأحضر الأسرى إلى السلطان[٦٨].

٤- سياسة الاستقطاب

ومن الحيل العسكرية والخدع الحربية **سياسة الاستقطاب**، فعندما قدم على المظفر قطز أحد عيون المغول، ادعى أنه فر من جحيم المغول، وذلك قبل معركة عين جالوت، حاول المظفر قطز استقطابه ليتعرف على أخبار المغول، ويكشف خططهم ويطلع على أسرارهم، فما كان من السلطان قطز إلا أن أكرمه، وجعله ((سلاح دار))، وفي عين جالوت ((لما كان يوم المصاف والتحم القتال، ضرب ذلك الشاب السلطان بسهم، فلن يخطى الجواد لسعادة الاسلام ونصرة أمة النبي عليه السلام، فوقع السلطان على الأرض، وقتل ذلك الشاب))[٦٩].

ومن الشواهد الأخرى، عام (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، قدم جماعة من المغول من أصحاب الملك بركة خان مستأمنين وافدين، فأمر السلطان الظاهر بيبرس نواب الشام باستقبالهم وإكرامهم، وقدم لهم الهدايا الثمينة، وأحسن إليهم، وعند قدومهم إلى الديار المصرية خرج السلطان بنفسه لقائهم، ورتب لهم المساكن والإقامة[٧٠]، ويتحدث ابن عبد الظاهر عن تلك الواقعة بقوله: ((وحملت إليهم -أصحاب بركة خان- الخلع، وسيقت الخيول، وفرقت فيهم الأموال ولعبوا الكرة مع السلطان، ثم أمر كبرائهم بمائة فارس فما دونها، وباقيهم نزلهم في جملة بحريته ومماليكه، وصار كل منهم كأمير مستقل، له الأجناد والغلمان، واسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنة، وأفردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم، وحسن إسلام جميعهم، وبلغ التتار ذلك، فتوافدوا جماعة بعد جماعة، والسلطان يعتمد معهم هذا الإحسان، ويفرقهم كل جماعة بين أضعافها من المماليك السلطانية))[٧١]. ثم بعث الظاهر بيبرس سفارة إلى الملك بركة خان في عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م) يستميله إليه، ويغريه بقتال هولاكو، ويحثه على الجهاد، ويخبره بوصول جماعته إلى الديار المصرية، وأنه أكرمهم، وأحسن إليهم من أجل ملكهم[٧٢].

وكان هدف السلطان من هذه السياسة، استغلال الخلاف الذي نشأ بين اتباع بركة خان وهولاكو لإضعاف المغول بشكل عام والقضاء على خطرهم الذي هدد المشرق الإسلامي، ولا بد من الإشارة إلى أن سياسة الاستقطاب هذه لأتباع بركة خان، تندرج في إطار الحيل والخدع السياسية، وسياسة الاحتواء الذي مارسها بيبرس تجاه المغول. وقد نجح الظاهر بيبرس عام (٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، في استقطاب الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج، صاحب سُميساط، وكان عينًا للسلطان بيبرس على المغول، فلما تأكد للمغول ذلك، قبض عليه، وحمل إلى الأردو، لكنه تمكن من الفرار، وحضر إلى البيرة، ثم إلى دمشق، فاستقبله الملك الظاهر بيبرس وأكرمه وأحسن إليه، واستقر بالديار المصرية[٧٣].

ونجح الظاهر بيبرس أيضًا في استقطاب الفداوية في بلاد الشام وتحويلهم إلى سهام قاتلة في نحر العدو، بعد أن كانوا شوكة في طريق ملوك الإسلام[٧٤]، فأكرمهم السلطان وأحسن إليهم، وبعث لهم الهدايا والعطايا[٧٥]، قال ابن شداد: ((ومنها ما فعله مع الإسماعيلية، فإنه قهرهم وقسرهم واستعبدهم حتى صار يبعثهم لقتل من عاداه، وناوأه ممن بعد أو قرب))[٧٦].

كما استخدمهم الملك الناصر محمد بن قلاوون سلاحًا فعالاً في تتبع الأمراء الفارين إلى بلاد العجم والقضاء عليهم، يقول ابن بطوطة: ((وهم -الفداوية -سهام الملك الناصر، وبهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها))[٧٧]. كما استفاد السلطان الظاهر بيبرس من عملية الاستقطاب في استمالة وزير سلاجقة الروم ((معين الدين البرواناة))، والذي كان في ظاهر الأمر مع المغول، وذلك لنفوذهم على بلاد السلاجقة، ولوجود حامية المغول على أرض السلاجقة، بينما كان في الباطن عينًا للظاهر بيبرس على المغول، واستطاعت سياسة الاستقطاب تلك، كشف خطط المغول وتحركاتهم العسكرية، وكانت التقارير السرية تصل إلى قلعة الجبل دون انقطاع[٧٨]، وهذه من الأساليب السياسية والحيل الأمنية التي انتهجها الظاهر بيبرس لمواجهة العدو المغولي.

وفي عام (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، في عهد الملك المنصور قلاوون، وقبل معركة حمص التاريخية، استطاعت وحدة الاستطلاع في عينتاب أن تأسر أحد رجال قائد المغول ويدعى ((جلدر بهادر))،

فأمر المنصور قلاوون بالإحسان إليه، واستمالته ثم استجوابه، بعد أن وعده بالخير، فأخبر بخطة المغول وعددهم وعدتهم[٧٩].

وفي عام (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، استقطب الملك الناصر فرج بن برقوق جماعة من عسكر تيمورلنك، بعد وقعة كانت مع مقدمة المغول، انتصرت فيها تجريده السلطان بالقرب من جبل الثلج «من جبال دمشق»، وهرب الكثير من عسكر تيمورلنك، وقتل البعض منهم، وبعد تلك الواقعة حضر جماعة من العسكر للسلطان فاستمالهم وأحسن إليهم، ودخلوا في طاعة الناصر فرج، وأخبروا أن ابن تيمورلنك وصهره وجماعة من التركمان قتلوا، وأن تيمورلنك كثير الحيل والخداع، والمكر والدهاء، وأخبروا بنزوله على البقاع[٨٠].

وفي عهد السلطان قايتباي المحمودي استطاعت السلطات المملوكية استمالة الأمير العثماني «جم» واستقطابه، حيث فر هذا الأمير من الدولة العثمانية بسبب الصراعات السياسية والعسكرية على الحكم، إذ أمر السلطان قايتباي المحمودي نوابه في حلب باستقبال الأمير العثماني بكل حفاوة وتكريم[٨١]، واستخدم الأمير المذكور ورقة ايجابية للضغط على العثمانيين ومساومتهم[٨٢]، وهذه من الحيل السياسية التي استخدمها المماليك.

٥- استخدام الشفرة السرية

ومن الحيل والخدع العسكرية التي استخدمها المماليك أيضًا أثناء مواجهتهم للمغول والفرنج في بلاد الشام، **استخدام الشفرة السرية**[٨٣] في الرسائل الدبلوماسية، والرسائل العسكرية -سيما زمن الحروب-والتي تحتوي عادة على الخطط العسكرية، وتحديد الأماكن السرية، ويُخشى من تسرب المعلومات إلى العدو فيلجأ أصحاب القرار إلى تشفير الرسائل، كما يُلجأ إلى تشفير الرسائل في مهام الجاسوسية لتضليل العدو، وذلك بتقديم معلومات غير صحيحة[٨٤].

استخدم سلاطين دولة المماليك السرية في إيصال الأوامر العسكرية، والتوجيهات القتالية، أو المهام السلطانية، وتعد الشفرة وسيلة من الوسائل المستخدمة عند اقتراب الخطر، أو لإيصال الأمر، وقد تنوعت الشفرات بتنوع المهام والأهمية، ومن أنواع الشفرات المستخدمة المسموعة وضع صوت التكبير[٨٥] والتهليل، أو عبارات محددة مثل: «يا فرج الله»، «يا نصر الله»، سيما إذا صادف ذلك بيات العسكر وقبل اللقاء[٨٦]، أو استخدام الموسيقى والطبول والنقارات[٨٧]، والزمر، والكوسات[٨٨]، والصياح، أو الطلقات النارية[٨٩]، وأما المرئية مثل اشعال النار في أعلى المرقب، أو برج المراقبة ليلاً، والدخان نهارًا[٩٠]، واستخدم العصائب[٩١]، أو استخدام الرايات كان ذلك عددًا أو لونًا[٩٢]، أو بعض الإيماءات والإشارات الجسدية[٩٣]، وكذلك استخدام كلمات متعارف عليها «البطائق» وصبغ الحمام بألوان مختلفة، عبر الحمام الرسائلي[٩٤].

أما الشفرات المسموعة، فقد استخدم سلاطين المماليك وحدة خاصة بهذا الشأن وتعرف بـ«الطبلخاناه»، وهي عبارة عن طبول متعددة وأبواق وزمر متنوعة تصدر أصوات مختلفة، وتستخدم في السلم والحرب، وعليها موظفون كل في مجاله[٩٥].

أما في السلم فيستخدم منها الكوسات، وهي عبارة عن صنج نحاسية دائرية الشكل يدق بإحداها على الأخرى، وتصدر صوتًا مدويًا في القلعة، وهي علامة لتجميع العساكر على وجه السرعة، كما تدق لمراسيم الاحتفال بمحمل الحج أو للاحتفال بتنصيب السلطان الجديد أو الاحتفال بأمير وغيره[٩٦].

أما في الحرب فتقرع الطبول ولها مدلولها، فكانت القرعة الأولى بالقلعة إشارة إلى التعليق على الدواب، والقرعة الثانية تشير إلى الإسراج، والثالثة تشير إلى الركوب والاستعداد[٩٧]، وهي أيضًا علامة للاستعداد والنفير وإشارة إلى بدء القتال وإرهاب العدو في الحرب[٩٨]، وقد استخدمها المظفر قطز في معركة عين جالوت، حيث ضربت الكوسات، وامتلأ الوادي بالأصوات مما أنزل في قلوب المغول الخوف والذعر[٩٩].

وفي عهد المنصور قلاوون في معركة حمص (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، استخدمت السناجق «الرايات» والكوسات معًا، وكانت علامة لإخفاء موضع الملك، حيث ذكر شافع بن علي أن السلطان عندما بلغه خبر الميسرة وتعثرها في بداية المعركة، وأن المغول وصلت خلف السناجق السلطانية، أمر بكف الكوسات ولف السناجق[١٠٠].

وفي عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م)، استخدمت الطبول والكوسات أثناء استرداد عكا، وكانت إشارة إلى بداية الهجوم، فأرهبت العدو، وشلت حركتهم، وأدخلت الرعب في قلوبهم، قال ابن تغري بردي عن الطبول والكوسات «... وضربوا الكوسات، فكان لها أصوات مهولة، وحس عظيم مزعج...»[١٠١]، ففي هذه العلامة « الطبول والكوسات» نشوة للجندي المسلم «ومكسرة لقلوب الأعداء»[١٠٢].

كما استخدم الملك الناصر محمد بن قلاوون الطبول والكوسات في معركة شقحب التاريخية عام (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، وقد ذكر ابن تغري بردي أن مقدم المغول، لم يكن يعلم بقدوم السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلا عند قدومه وذلك في قوله: «... وإذا بكوسات السلطان والبوقات قد زحفت وأزعجت

الأرض وأرجفت القلوب بحسها ...وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل والطبول تضرب، وتلاحق بهم من كان انهزم شيئًا بعد شيء))[١٠٣].

ويضرب الطبل عند خروج الكمناء لمباغتة العدو، إشارة للبدء في المهام[١٠٤]، وتستخدم الشفرة الصوتية أثناء استلام فرقة عسكرية مكان أخرى، ويكون ذلك بصوت معين ومتعارف عليه لدى الفرقتين[١٠٥].

وتظهر أهمية الشفرة السرية، أو الإشارة المتعارف عليها لدى الوحدة الواحدة في قتال البحر، قال ابن منكلي: ((إن كنت قريبًا من أرض العدو، أو شطر العدو يأتي إليك، فلتكن لك نواظر، وعسس في البر والبحر، وتوثق أمورك، وتستيقظ وتطيل السهر، وتكون متأهبًا للمصافقة، فإذا حضر وقت القتال، وأنت على ما ذكرناه من تعبيتك، فصفف مراكبك بأشكال مختلفة بقدر ما يتحمل المكان ويمكّن المكان الرماة))[١٠٦]، وعند القتال، شدد ابن منكلي على استخدام الإشارة المتعارف عليها بين الجند والقائد في قوله: ((وتجعل لهم علامة إذا سمعوها أو رأوها ليبادروا لإنجاز الرأي، وتجعل في مكان ظاهر في مركبك أيها المقدم علامة، مثل بند أو طرادة لتنظر المراكب الأخرى العلامة، فيعولون عليه: هل يقاتلون أم لا ؟ أو يحيطون بالعدو أو يميلون إلى جهة لمعونة جانب قد ضعف، أو يبطلون القذف أم لا؟ أم يجتهدون في ذلك، أو يقصرون، ويكون قد قرر ذلك في العلامة أنها إذا مالت إلى جهة اليمين، يكون لهم فعل ما، أو إلى اليسار غير ذلك، وإذا رفعت فيعمل عمل آخر، وإذا نزلت فغير ذلك، أو إذا نفضت أو تحركت دل سوى ذلك كله، أو إذا نقلت أو نحيت أو غيرت الألوان التي في رأس العلامة مثل أحمر فصار أزرق أو غير ذلك من الألوان، فإن ذلك علامات لأمور قد قررت، وأجود ما يكون أن تعاني عمل هذه العلامات المذكورة بيدك أيها المقدم، وتريّض المقدمين الذين تحت يدك على معرفة العلامات، ليعرفوها معرفة جيدة، وعلى ما تدل، ولما هي، وإلى متى هي، وكيف هي، ويحققون معرفة ذلك، حتى لا يغلطوا فيه))[١٠٧].

وأن تكون العلامة أو الإشارة في مكان ظاهر من المركب لتشاهدها جميع الوحدات المشاركة في قتال العدو بالبحر، مثل الأعلام وألوانها، وطريقة تحريكها، والدلالة على معرفتها، وأن يدرب عليها الكل تدريبًا جيدًا، ويعرفونها معرفة تامة تكون لهم دلالة مؤكدة[١٠٨].

كما استخدمت العصائب وهي الأعلام أو الرايات السلطانية، وهي مصنوعة من الحرير الأصفر المطرز بالذهب، وعليها ألقاب السلطان وأسمه يتم رفعها في المواكب السلطانية المختلفة، كما ترفع إشارة للخروج إلى القتال، وكذلك ترفع أثناء القتال نفسه[١٠٩]، وتستخدم أيضًا إشارة على النصر، كما حدث في عهد الظاهر بيبرس، عندما حاصر قلعة أرسوف في رجب عام (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) فما شعر الإفرنج إلا والأعلام قد نصبت على القلعة[١١٠]، وتستخدم للتمويه أحيانًا كما كان في عهد السلطان برقوق عام (٨٠٠هـ/١٣٩٧م) عندما قرر مجموعة من الأمراء قتله، وعندما وصله الخبر في طريق العودة للقلعة، عمل على تعمية في تأخير العصائب السلطانية حتى يستطيع التمويه على الأمراء، ويصل على وجه السرعة إلى القلعة[١١١].

وعند ذكر الطلائع وتدبيرها، تظهر أهمية الشفرات السرية، وأعدادها، كنوع من التيقظ والاحتراز، وحرمان جواسيس العدو من استغلال المعلومات وتوظيفها، فقد استخدمت الشفرة السرية كإشارة مفهومة بين صاحب الطليعة وقائد العساكر السلطانية[١١٢].

ومن الشفرات الأخرى المستخدمة في زمن دولة المماليك، عند نزول المغول ومن حالفهم من الأرمن على البيرة عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، عندما استخدم التحالف منجنيقًا فرنجيًا، واستخدم أهل قلعة البيرة منجنيقًا للدفاع ولم يصب الهدف لزيادة ذراع في ساعد المنجنيق، فقال الرامي المسلم ((وهنا الشفرة السرية وطريقة إرسالها)): ((لو قطع الله من ساعدك ذراعًا، كان أهل البيرة يستريحون منك لقلة معرفتك))[١١٣]، عند ذلك فهم الرامي الذي على القلعة الإشارة، وقطع ذراعًا من ساعد المنجنيق وأصاب الهدف، وكسر المنجنيق الفرنجي، وخرج أهل البيرة ليلاً وقاتلوا المغول وحلفائهم وأحرقوا بقية المنجنيقات وعادوا سريعًا[١١٤].

ومن الشفرات الأخرى المستخدمة، بعد وفاة الملك الأشرف خليل (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، حيث قام الأمير زين الدين كتبغا المنصوري ومعه جماعة من الأمراء في طلب الأمير بيدرا قاتل الملك الأشرف - وقد ميز كتبغا أتباعه من الأمراء والجنود بعلامة تمييزًا لهم عن أصحاب بيدرا، وهي عبارة عن مناديل تلبس من الرقبة إلى تحت الإبط[١١٥]، ومن الأدوار التي لعبته الشفرات، ما حدث قبل واقعة الاسكندرية (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، عندما أرسلت وحدة التجسس المضادة في قبرص معلومات دقيقة ومختصرة وفي غاية السرية إلى الإسكندرية وبها

"العمارة عند القبرصي"[١١٦]، وتعني تلك الإشارة أن ملك قبرص "بطرس لوزنيان" يعمل على إعداد حملة عسكرية هدفها الإسكندرية، بينما لم تكن هناك عيون مبصرة، ولا آذان صاغية للتعامل مع تلك الشفرة، تبين ذلك عندما شاهد الأمير يلبغا الدمار الذي حل بالإسكندرية حيث "لام نفسه على عدم التركيز بها حين بلغه أن العمارة بجزيرة قبرص"[١١٧].

ومن الشفرات السرية التي استخدمت زمن الملك الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/١٣٩٨-١٤١٢م)، ما ذكره القلقشندي المعاصر لدولة الجراكسة في قوله: "ومما وقع من ذلك في زماننا"[١١٨]، عندما كان تيمورلنك بالعراق في محاولة لغزو البلاد الشامية، فقد ورد على السلطان برقوق رسالة مشفرة من مملكة حلب وبها "أنه وقع بتلك البلاد سيل عظيم ساق جملة من الأُسْد والنمورة والحيّات، وأنه دفع حية عظيمة سعة رأسها بقدر قوس، وقرئ الكتاب بحضرة السلطان، وحملوا ذلك على ظاهره، من أن المراد حقيقة السيل، وأنه لقوته ساق تلك الحية والسباع وغيرها، وشاع ذلك بين الكافة من الأمراء وأهل الدولة وسائر الرعية، ومضى الأمر على ذلك، ثم ظهر أن المقصود بذلك السيل وما فيه هو تُمُرلنك وعساكره، وأنه كنى بالحية العظيمة عن نفسه، وبالسباع والحيات عن عساكره"[١١٩].

ومن الشفرات الأخرى أن القادة العسكريين اصطحبوا الحمام الرسائلي أثناء تحرك الجيش، أو التجريدة، وأثناء المعارك، لتحمل تحت أجنحتها البطائق المشفرة والتي تحتوي على رموز معينة، إضافة إلى أن الحمام كان يحمل شفرة خاصة، لذا صبغ باللون الأزرق بالنهار-لون السماء-وباللون الأسود بالليل أحيانًا، تحرزًا من العدو وجواسيسه[١٢٠].

وكان للحمام الرسائلي "الزاجل" دور في نقل الشفرات السرية، التي لم تكن مفهومة إلا لصاحبها المرسلة إليه، ليحل رموزها ويستطلع خبرها[١٢١]، ليس فقط في زمن المماليك، بل وفي العهد الأيوبي أيضًا[١٢٢]، حيث استخدم الحمام الزاجل كإشارة للنصر أو الهزيمة، فعندما تعرض جناح العسكر السلطاني في بداية معركة حمص سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) للخلل والاضطراب، سرح الحمام مباشرة مصبوغًا بالسواد، دلالة على انتصار العدو، وعندما عاود العسكر الكرة ونصرهم الله، سرح الحمام بالبطائق، يحمل البشارة بالنصر على العدو[١٢٣]، وللطيور السلطانية التي تحمل علامة، إشارة معينة في أرجلها أو على مناقيرها، أو تعطر بالروائح الزكية، وعند وصولها بالبطاقة، فلا يقطعها إلا السلطان بنفسه[١٢٤]، وقد ذكر القلقشندي الشفرة السرية تحت مسمى "التعمية" في الكتابة حفاظًا على سرية المعلومة[١٢٥].

خاتِمَةٌ

تضمن هذا البحث جملة من الموضوعات المتعلقة بالخدع والحيل، بدءًا بتعريف التمويه والتنكر والخدع لغة واصطلاحًا، مرورًا بأهداف الخدع وأنواعها وانتهاءً بالحديث المفصل عن السياق التاريخي التي استخدمت فيه هذه الخدع بصورها المختلفة. ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ما يلي:

- إن استخدام الخدع العسكرية في الحرب، يشكل عنصرًا رئيسًا في حسم المعركة في أسرع وقت وبأقل الخسائر البشرية والمادية، ويمثل استخدامها ضمانة كبيرة لحقن الدماء وسلامة الأوطان، ويعالج الفروق بين الجيوش في العدد والعتاد.
- إن استخدام الخدع العسكرية في الحرب قديمًا وحديثًا يعتبر جزءًا رئيسًا في خطة القتال لأي قائد يريد حسم المعركة لصالحه، فالقائد الأقدر على استخدام الحيل والأسرع إلى تنفيذها، هو الأجدر بتحقيق النصر.
- للخدع العسكرية أشكال وألوان مختلفة، وهي غير محددة بمكان أو زمان معينين، فقد تكون قبل المعركة أو في خضمها أو بعدها، الأمر الذي يتطلب حنكة وفطنة من القائد وتقدير للموقف والظرف الذي يكفل تدبير أنجع الحيل.
- إن تدبير الخدع يحتاج من القائد خبرة ودراية بطبيعة وجغرافية ومكان المعركة، وقدرات العدو وإمكانياته العسكرية.
- استخدم المماليك تشفير المعلومات العسكرية والسياسية والأمنية والحربية في المراسلات توقيًا من عيون العدو، وأخذًا بالأسباب ومعرفةً بالنظام، خاصة في الحروب والمعارك التي دارت رحاها بين جيش المماليك من جهة، والمغول والفرنجة من جهة أخرى، وقد انعكس ذلك إيجابيًا على مسار الأحداث التي وقعت في أتون هذا الصراع، فجنت دولة المماليك ثمارها كما تم التخطيط لها.
- يُعَدّ العرب والمسلمين أول مَنْ ابتكر علم التعمية، ولادة ونشأةً وتطورًا، وأرسوا قواعده، ووضعوا أسسه ومصطلحاته المتداولة.
- تبين أن أصحاب السياسة والقرار في دولة المماليك، كانت لديهم تقنيات عسكرية فريدة من نوعها، تمثلت في إعداد الجندي إعدادًا خلقيًا وتربويًا ودينيًا وعسكريًا منذ نعومة أظفاره.
- المهارات القتالية والخبرات العسكرية والإعداد الجيد والروح المعنوية العالية والقيادة الحكيمة، أسهمت في هزيمة المغول في أكثر من معركة، كما أسهمت في تصفية الوجود الفرنجي في آخر معاقلهم في بلاد الشام.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ/١٣١١م) **لسان العرب**، ١٨ج، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م، ج١٣، ص٢٢٦، وسيشار إليه: ابن منظور، **لسان العرب**.

(٢) الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، (ت. ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) **تاج العروس من جواهر القاموس**، ٤٠جزء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، د. م، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م. ج٣٦، ص٥٠٩، وسيشار إليه: الزبيدي، **تاج العروس**.

(٣) الأيوبي، الهيثم، وآخرون، **الموسوعة العسكرية**، ٤أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط٢، ٢٠٠٣م، ج١، ص٣٠٩، وسيشار إليه: الأيوبي، **الموسوعة العسكرية**.

(٤) مصطفى، إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، ٢ج، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٩٥٢، وسيشار إليه: مصطفى، **المعجم الوسيط**.

(٥) ابن الأزرق: أبي عبد الله (ت٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، جزءان، تحقيق: علي سامي النشار، منشورات زوارة الإعلام العراقية، ١٩٧٧م، ج١، ص٤١٤، وسيشار إليه: ابن الأزرق، **بدائع السلك**.

(٦) مسعود، جبران، **الرائد**، معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقاً لحروفها الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٩٢م ص٣٢٩، وسيشار إليه: جبران، **الرائد**.

(٧) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص٣٨.

(٨) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص٣٨.

(٩) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص٣٨.

(١٠) هيكل، محمد خير، **الجهاد والقتال في السياسة الشرعية**، ٣ أجزاء، دار البيارق، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٢، ص١٢٩٢، وسيشار إليه: هيكل، **الجهاد والقتال**.

(١١) الأيوبي، **الموسوعة العسكرية**، ج٢، ص٥٣.

(١٢) البخاري الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م) **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، حديث رقم ٣٠٣٠، ص٧٤٥، وسيشار إليه: البخاري، **صحيح البخاري**.

(١٣) البخاري **صحيح البخاري**، حديث رقم ٣٠٣١، ص٧٤٦؛ هيكل، **الجهاد والقتال**، ج٢، ص١٢٩١-١٢٩٧؛ غمق، ضو مفتاح، **نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام**، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، د.م، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٨٧، وسيشار إليه: غمق، **نظرية الحرب**

(١٤) هيكل، **الجهاد والقتال**، ج٢، ص١٢٩٤.

(١٥) الموصلي، محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الشافعي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) **كتاب حسن السلوك الحافظ دولة الملوك**، دراسة وتحقيق وتعليق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٨٩-٩٠، وسيشار إليه: الموصلي، **كتاب حسن السلوك**.

(١٦) الموصلي، **كتاب حسن السلوك**، ص٩٣.

(١٧) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج١، ص١٦٢.

(١٨) ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري، (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م) **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص١٠٢، وسيشار إليه: ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**.

(١٩) ابن منكلي، محمد، (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م) **الأدلة الرسمية في التعابي الحربية**، تحقيق: محمود شيت خطاب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د.م، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨، ص١٩٩، وسيشار إليه: ابن منكلي، **الأدلة الرسمية**؛ ابن رضوان المالقي، أبو القاسم ابن يوسف ابن رضوان، (ت٧٨٣هـ/١٣٨١م) **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق: علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٠٤، وسيشار إليه: المالقي، **الشهب اللامعة**.

(٢٠) الهرثمي، أبو سعيد الشعراني «صاحب الخليفة المأمون» «عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي» **مختصر سياسة الحروب**، تحقيق: عبد الرؤوف عون، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.م، ١٩٢٤م، ص٥٠، وسيشار إليه: الهرثمي، **مختصر سياسة الحروب**.

(٢١) ابن رضوان المالقي، **الشهب اللامعة**، ص١٠٤.

(٢٢) واترسون، جيمس، **فرسان الإسلام وحروب المماليك**، ترجمة: يعقوب عبد الرحمن، مراجعة: حاتم الطاوي، تقديم: جون مان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص١٤٧، وسيشار إليه: واترسون، **فرسان الإسلام**؛ الحارثي، فهد بن علي بن حامد، **العيون والجواسيس في دولة المماليك(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، إشراف: مريزن بن سعيد بن مريزن عسيري، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص٣١٨، وسيشار إليه: الحارثي، **العيون والجواسيس**.

R.Amitai – preiss ((Mamluk Espionage Among the Mongols and Franks)), Asian and African studies, vol22, 1988,The cecret war .p.139.

(٢٣) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص١٩٤.

(٢٤) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٢٠٩؛ النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٣جزء، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ج٣١، ص٦٠، وسيشار إليه: النويري، **نهاية الأرب**.

(٢٥) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٢٣٥.

(٢٦) القلقشندي، أحمد بن علي، (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ١٥جزء، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ج١، ص١٥٩-١٦٣، وسيشار إليه: القلقشندي، **صبح الأعشى**.

(٢٧) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج١، ص١٦٢.

(٢٨) الطوسي، نظام الملك وزير السلاجقة المشهور، (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، **سير الملوك أو سياسة نامة**، ترجمه عن الفارسية: يوسف بكار، دار المناهل، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م، ص١١٢، وسيشار إليه: الطوسي، **سير الملوك**.

(٢٩) غمق، **نظرية الحرب** ؛ ص١٨٦-١٨٧.

(٣٠) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج١، ص١٦٩.

(٣١) ابن أيبك الدواداري، أبي بكر عبد الله بن أيبك، (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، **كنز الدرر وجامع الغرر**، ٩أجزاء، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الجزء السابع: سعيد عبد الفتاح عاشور الجزء الثامن: تحقيق: ألرخ هارمان، ج٨، ص٤٩، وسيشار إليه: ابن أيبك الدواداري، **كنز الدرر**.

(٣٢) ابن أيبك الدواداري، **كنز الدرر**، ج٨، ص٥٦.

(٣٣) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص١٠٢؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد العبيدي المقريزي، (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ٨أجزاء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٥٣٨، وسيشار إليه: المقريزي، **السلوك**.

(٣٤) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٢٢٩، ٢٣٥، ٢٨١، ٢٩٢، ٣٠٧، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٩١، ٤٣٢.

(٣٥) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٣٤٣.

(٣٦) ابن رضوان المالقي، **الشهب اللامعة**، ص٣٩١.

(٣٧) ابـن النحـاس، أبي زكريـا أحمـد بـن إبـراهيم بـن محمـد الدمشـقي الـدمياطي، (ت٨١٤هـ/١٤١١م)، **مشـارع الأشـواق إلى مصـارع العشـاق ومثـير الغـرام إلى دار السـلام ((في الجهـاد وفضـائله))**، تحقيـق ودراسـة: إدريـس محمـد عـلي و محمـد خالـد اسـتنبولي، دار البشـائر الإسـلامية، بـيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٠٧٥-١٠٧٦، وسيشار إليه: ابن النحاس، **مشارع الأشواق**.

(٣٨) النويري، **نهاية الأرب**، جـ٣٠، ص٧٠-٧١؛

Amitai, Mamluk Espionage, The battle of Ayn jalut, p30-34.

(٣٩) طقوش، محمد سهيل، **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، دار النفـائس، بـيروت، ط١، ١٤١٨ه/١٩٩٧م، ص١٢٥، وسيشـار إليـه: طقوش، **تاريخ المماليك**.

(٤٠) ابـن العسـال، مفضـل بـن أبي الفضـائل، (تـوفي بعـد عـام ٧٥٩ه / ١٣٥٧م)، **النهج السـديد والـدر الفريـد فيما بعـد تاريخ ابـن العميد**، جزءان، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي السيد، دار سعد الـدين، دمشـق، ط١، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، جـ١، ص١٦١، وسيشـار إليه: ابن العسال، **النهج السديد**.

(٤١) ابن العسال، **النهج السديد**، جـ١، ص١٦١-١٦٢.

(٤٢) عـندما تسـلم الظـاهر بيـبرس قلعـة الشـقيف قـبض عـلى جماعـة فرسان الداوية وكان عددهم أربعمائة وثمانين فارسًا، وبعـث بهـم إلى صور، وأمر بالتحفظ عليهم، يُنظر: ابن العسال، **النهـج السـديد**، جـ١، ص١٦١-١٦٢.

(٤٣) السـحماوي شـمس الـدين محمـد، (ت٨٦٨ه/١٤٦٤م)، **الثغـر الباسـم في صناعة الكاتـب والخاتم المعروف بـ ((المقصـد الرفيـع المنشـأ الهـادي لـديوان الإنشـاء للخالـدي))**، جزءان، دراسـة وتحقيـق: أشرف محمـد أنـس، مراجعـة: حسـين نصـار، مطبعـة دار الكتـب والوثـائق القوميـة، القـاهرة، ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م، جـ١، ص٣٣٧، وسيشـار إليـه: السحماوي، **الثغر الباسم**.

(٤٤) شافع بن عـلي، نـاصر الـدين شـافع بـن عـلي بـن عبـاس بـن إسـماعيل، (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، **حسـن المناقـب السريـة المنتزعـة مـن السـيرة الظاهريـــة**، تحقيـــق: عبـــد العزيـــز الخـــويطر، الريـــاض، ط٢، ١٤١٠ه/١٩٨٩م، ص٢٥٩-٢٦٠، وسيشار إليه: شافع بن علي، **حسن المناقب**.

(٤٥) بيبرس المنصوري، ركن الدين بيبرس، (ت٧٢٥ه/١٣٢٥م)، **زبـدة الفكـرة في تـاريخ الهجـرة**، الجـزء٩، تحقيـق: دونالـد س، ريتشـاردن، الشركـة المتحدة للتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، جـ٩، ص١١١، وسيشـار إليه: بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة**.

(٤٦) شافع بن علي، **حسن المناقب**، ص٢٦٠-٢٦١.

(٤٧) رنسيمان، ستيفين، **تاريخ الحروب الصليبية**، ٥أجزاء، نقلـه إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت،١٩٩٧م، جـ٥، ص٥٥٧-٥٥٨، وسيشار إليه: رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**.

(٤٨) المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ص٧٠-٧١؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسـن يوسـف بـن تغـري بـردي الأتـابكي،(ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، **النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصر والقـاهرة**، ١٦جـزء، قـدم لـه وعلـق عليه: محمد حسـين شـمس الـدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، جـ٧، ص١٣٩، وسيشار إليه: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**؛ واترسون، **فرسان الإسلام**، ص١٩٠.

(٤٩) ابن شداد، عز الـدين محمـد بـن عـلي بـن إبـراهيم، (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، **تاريخ الملك الظاهر**، اعتناء: أحمد حطيط، فرانـز شـتاينر بفيسـبادن، يصـدرها جمعيـة المستشـرقين الألمانيـة، بـيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٢٦، وسيشار إليه: ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**.

(٥٠) تكونت سـفارة السـلطان أحمـد آغـا، من قاضي سيواس: الشيخ قطـب الـدين محمـود الشـيرازي، وصـاحب الـروم: الأمـير بهـاء الـدين أتابـك السلطان مسعود، ووزير ماردين الصاحب شـمس الـدين محمـد بـن الصـاحب شرف الـدين، وكـان في اسـتقبالهم في البـيرة: الأمـير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كبك، وقـد أمـرهم المنصـور قـلاوون بـالتحفظ عـلى السـفارة واخفـائهم عـن العامـة والقـدوم بهـم سرًا والسـير بهـم لـيلاً، فكـان الأمـر كـما أمـر، يُنظـر: المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ص١٥٧-١٥٨.

(٥١) شافع بن علي، **الفضل المأثور من سيرة السـلطان الملـك المنصـور**، تحقيـق: عمـر عبـد السـلام تـدمري، المكتبـة العصريـة، صـيدا، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٩٤-١١٣، وسيشار إليه: شافع بن علي، **الفضل المأثور**؛ ابن أيبك الدواداري، **كنز الدرر**، جـ٨، ص٢٤٩-٢٦٠.

(٥٢) ابن أيبـك الـدواداري، **كنـز الـدرر**، جـ٨، ص٢٥٢-٢٥٣؛ ابـن العسـال، **النهـج السـديد**، جـ١، ص٢٧٧.

(٥٣) شافع بن علي، **الفضل المأثور**، ص١٠٨.

(٥٤) **المنـاخس أو المنـاخز**: مـن نخـز: نخزه بحديـدة أو نحوهـا، وقيـل: "وجـأه ونخزه بكلمة: أوجعه بها" يُنظر: ابن منظـور، **لسـان العـرب**، جـ١٤، ص ٨٣.

(٥٥) ابن منكلي، **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الـدروب**، جزءان، دراسـة وتحقيـق: نبيـل محمـد عبـد العزيـز أحمـد، مطبعـة دار الكتـب المصريـة، القـاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣٩٠، وسيشـار إليـه: ابـن مـنكلي، **الحيل في الحروب**.

(٥٦) إديـوري بيـتر، و. **قـبرص والحـروب الصـليبية**، دار الملتقـى للطباعـة والنشر، قـبرص، ليماسـول، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٨٥-٩٢. وسيشـار إليه: إديوري، **قبرص والحروب الصليبية**.

(٥٧) رنسـيمان، **تـاريخ الحـروب الصـليبية**، جـ٥، ص٦٩٣؛ واترسـون، **فرسـان الإسلام**، ص٢٧٦.

(٥٨) رنسـيمان، **تـاريخ الحـروب الصـليبية**، جــ٥، ص٦٩٣؛ طقـوش، **تـاريخ المماليك**، ص١٨٩.

(٥٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، جـ٨، ص٧.

(٦٠) اليـونيني، قطـب الـدين بـن مـوسى بـن محمـد بـن أحمـد، (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، **ذيـل مـرآة الزمـان**، ٣ أجـزاء، ج١، ج٢، ج٣، مطبعـة مجلـس دائـرة المعـارف العثمانيـة بحيـدر أبـاد الـدكن، ط١، ١٣٧٤ه/١٩٥٤م. ذيـل مـرآة الزمـان " ٦٩٧-٧١١هــ/١٢٩٧-١٣١٢م "، دراسة وتحقيق: حمزة أحمد عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبـو ظبـي، ط١،١٤٢٨هــ/٢٠٠٧م، جــ١، ص٢٥١، وسيشـار إليـه: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**.

(٦١) دفـتري، فرهـاد، **الإسـماعيليون في العصرـ الوسـيط تـاريخهم وفكـرهم**، ترجمة: سيف الدين القصير، منشورات المدى للثقافة والنشرـ، دمشـق، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٥٨، وسيشـار إليـه: دفـتري، **الإسماعيليون**.

(٦٢) المقريزي، **السلوك**، جـ٤، ص٢٨٩-٢٩٠؛ ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، **جواهر السلوك في أمر الخلفـاء والملـوك**، تقـديم وتحقيـق وتعليـق: محمـد زيـنهم، الـدار الثقافيـة للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٢٠٨، وسيشار إليه: ابن إياس، **جواهر السلوك**.

(٦٣) المقريزي، **السلوك**، جـ٥، ص١٢؛ ابن إياس، **جواهر السلوك**، ص٢١٩-٢٢٠.

(٦٤) قيل إن الذي دَل عـلى مكـان السـلطان هـو المملـوك قـازان الـذي تـم القـبض عليه متنكرًا في القاهرة، يُنظر: المقريزي، **السـلوك**، جـ٥، ص١٢.

(٦٥) المقريزي، **السلوك**، جـ٥، ص١٣؛ ابن إياس، **جواهر السلوك**، ص٢٢١.

(٦٦) ابن إياس **جواهر السلوك**، ص٢٤٩.

(٦٧) ابن إياس **جواهر السلوك**، ص٢٥١.

(٦٨) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **إنباء الغُمر بأنباء العُمر**، ٤أجزاء، تحقيق: حسن حبشي، وزارة الأوقاف –المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، جـ٣، ص٣٤٦، وسيشار إليه: ابن حجر، **إنباء الغُمر**؛

ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل، (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م)، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١١٦-١١٧، وسيشار إليه: ابن شاهين الظاهري، **زبدة كشف الممالك**؛ الحارثي، **العيون والجواسيس**، ص٣٢٩.

(٦٩) ابن أيبك الدواداري، **كنز الدرر**، جـ٨، ص٥٠.

(٧٠) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص١٣٧؛ شافع بن علي، **حسن المناقب**، ص١٠٧؛ الرمزي، **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار**، جزءان، قدم له وعلق عليه ووضع فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، جـ١، ص٤٢٠-٤٢١، وسيشار إليه: الرمزي، **تلفيق الأخبار**.

(٧١) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص١٣٨؛ الرمزي، **تلفيق الأخبار**، جـ١، ص٤٢١.

(٧٢) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص١٣٩؛ الرمزي، **تلفيق الأخبار**، جـ١، ص٤٢٤.

(٧٣) شافع بن علي، **حسن المناقب**، ص٣١٣؛ المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ص ٨٦.

(٧٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ١، ص١٥٦-١٥٧.

(٧٥) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٧٦) ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، ص٣١٣.

(٧٧) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م، ص٩٥، وسيشار إليه: ابن بطوطة، **تحفة النظار**.

(٧٨) طقوش، **تاريخ المماليك**، ص١٣٩-١٤٠.

(٧٩) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص٦٩-٧١؛ واترسون، فرسان الإسلام، ص٢٥٩.

(٨٠) المقريزي، السلوك، جـ٦، ص٤٧-٤٨؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، جـ١٢، ص١٨٦؛ ابن إياس، **جواهر السلوك**، ص٢٨٨.

(٨١) ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ٥أجزاء، تحقيق: محمد مصطفى، د.ن، د.ت.جـ٣، ص١٨٣، وسيشار إليه: ابن إياس، **بدائع الزهور**؛ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي، (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٣٩، وسيشار إليه: ابن طولون، **مفاكهة الخلان**؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن محمد الأنصاري الحنبلي، (ت٩٧٧هـ/١٥٦٩م)، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، جزءا، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، جـ٢، ص٣٦٧-٣٦٨، وسيشار إليه: الجزيري، **الدرر الفرائد المنظمة**؛ طقوش، **تاريخ المماليك**، ص٤٨٧.

(٨٢) الجزيري، **الدرر الفرائد المنظمة**، جـ٢، ص٣٦٨؛ طقوش، **تاريخ المماليك**، ص٤٨٧.

(٨٣) **الشفرة**: لغة ما عرض وحور، والجمع شُفر وشفار، وفي الاصطلاح: عبارة عن رموز وعلامات أو إشارات محددة تستخدمها مؤسسة معينة للتفاهم السري فيما بينهم، ولا يحل رمزها ويفهم معناها إلا الأطراف المعنية فقط، وقد أطلق عليها القدماء اسم التعمية، وتعني لغة : الإخفاء والتلبيس، واصطلاحًا: تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم، باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص، واستخراجها عكس ذلك: يجري فيه تحويل النص المعمى إلى نص واضح، يُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، جـ٧، ص١٥٠، جـ٩، ٤١٣؛ الحارثي، **العيون والجواسيس**، ص٢٦٩؛ مراياتي، محمد وآخرون. **علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب**، الجزء الأول: دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم، تقديم: شاكر الفحام، جـ١، ص٥٩،٩، ١١٣-١٢٥، وسيشار إليه: مراياتي، **علم التعمية**؛ مصطفى، **المعجم الوسيط**، ص٤٨٧.

(٨٤) عطية الله، أحمد، **القاموس السياسي**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٨م، ص٦٨٧-٦٨٨، وسيشار إليه: عطية الله، **القاموس السياسي**.

(٨٥) ابن منكلي، **الأدلة الرسمية**، ص١٥٣،

(٨٦) الحارثي، **العيون والجواسيس**، ص٢٧٠.

(٨٧) ابن منكلي، **الحيل في الحروب**، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٨٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص٧، ٨؛ العمايرة، محمد عبد الله سالم، **المعجم العسكري المملوكي**، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٠م، ص٢٦١، وسيشار إليه: العمايرة، **المعجم العسكري المملوكي**.

(٨٩) ابن منكلي، الأدلة الرسمية، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٩٠) صالح بن يحيى، عاش في ((القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد))، **تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب**، نشره: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٢م،، ص٦٠، وسيشار إليه: صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت**.

(٩١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٢، ص١٤٢؛ المقريزي، **السلوك**، جـ٥، ص٤١٨

(٩٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص٧.

(٩٣) ابن منكلي، **الحيل في الحروب**، ص٢٣٩؛ الحارثي، **العيون والجواسيس**، ص٢٧١.

(٩٤) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، جـ١، ص١٠٣، ١٧٧، ١٩١؛ المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، ٤أجزاء، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، جـ٣، ص٤٠٣، وسيشار إليه: المقريزي، **الخطط**.

(٩٥) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص٧-٨.

(٩٦) العمايرة، **المعجم العسكري المملوكي**، ص٢٦١.

(٩٧) ابن منكلي، **الحيل في الحروب**، ص٣٣٧.

(٩٨) ابن منكلي، **الحيل في الحروب**، ص٣٣٨.

(٩٩) المقريزي، **السلوك**، جـ١، ص٥١٦.

(١٠٠) شافع بن علي، **الفضل المأثور**، ص٧٢.

(١٠١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، جـ٨، ص٥.

(١٠٢) ابن منكلي، **الحيل في الحروب**، ص٣٣٨.

(١٠٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، جـ٨، ص١٢٨.

(١٠٤) الحارثي، **العيون والجواسيس**، ص٢٧٣.

(١٠٥) ابن منكلي، **الحيل في الحروب**، ص٣٤٠.

(١٠٦) ابن منكلي، **الأدلة الرسمية**، ص٢٤٥-٢٤٦.

(١٠٧) ابن منكلي، **الأدلة الرسمية**، ص٢٤٦-٢٤٧.

(١٠٨) ابن منكلي، **الأدلة الرسمية**، ص٢٤٦.

(١٠٩) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٤، ص٧؛ العمايرة، **المعجم العسكري المملوكي**، ص٢١٦.

(١١٠) المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ص٢١.

(١١١) المقريزي، **السلوك**، جـ٥، ص٤١٨.

(١١٢) الهرثمي، **مختصر سياسة الحروب**، ص٥٠.

(١١٣) ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، ص١٢٥؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، جـ٣، ص١١٤-١١٥.

(١١٤) ابن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، ص١٢٥؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، جـ٣، ص١١٥.

(١١٥) المقريزي، **السلوك**، جـ٢، ص٢٤٨.

(١١٦) المقريزي، **السلوك**، جـ٥، ص١٠٤.

(١١٧) الإسكندراني، محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني، (ت بعد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٢م)، **كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به**

الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ٥أجزاء، تحقيق: ايتين كومب وعزيز سوريال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، جـ٣، ص٢١٢، وسيشار إليه: الإسكندراني، **كتاب الإلمام بالإعلام**.

(١١٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٩، ص٢٤٨.

(١١٩) القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٩، ص٢٤٨-٢٤٩.

(١٢٠) ماجد، عبد المنعم، **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**، جـ١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م،، جـ١، ص٦٤-٦٥، وسيشار إليه: ماجد، **نظم دولة سلاطين المماليك**.

(١٢١) عبد العزيز، نبيل محمد، **الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك**، المجلة التاريخية المصرية، م٢٢، ص٤١-٨٠، ١٩٧٥م، ص٥٠-٥١، وسيشار إليه: عبد العزيز، **الحمام الزاجل**.

(١٢٢) ابن العماد الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م)، **حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس وهو الكتاب المسمى "الفتح القسي في الفتح القدسي"**، قدم له ووضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٢٠، وسيشار إليه: ابن العماد الأصفهاني، **الفتح القسي**.

(١٢٣) ابن أيبك الدواداري، **كنز الدرر**، جـ٨، ص٢٤٤-٢٤٥.

(١٢٤) المقريزي، **الخطط**، جـ٣، ص٤٠٣.

(١٢٥) لأهمية الشفرة السرية «التعمية» أورد القلقشندي عنها فصلاً في إخفاء ما في الكتب من السر، وذكر نوعًا منها تكتب بنوع من الأقلام لا تظهر فيها الكتابة مباشرة إلا عن طريق المعالجة أو عرضه على النار، وهو أشبه ما يكون بالحبر السري، ويذكر أيضًا أن من طرق الأقدمين في كتابة الرسائل المشفرة عكس حروف الكلمات فمثلاً: «محمد، دمحم، وعلي، يلع، ومنهم من يستبدل الحروف بالأعداد، واشترط على من يحل هذه الرموز شروط منها الذكاء والفطنة ومعرفة بحلها. يُنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، جـ٩، ص٢٢٨-٢٣٣.


مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الجزائريون السّوافة بالحاضرة تونس
لمحة عن تاريخ جالية وافدة زمن الحماية الفرنسية
١٨٨١ – ١٩٥٦



د. محمد السعداوي
دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس
أستاذ تعليم ثانوي -المعهد النموذجي ساقية الزيت
الجمهورية التونسية

مُلَخَّص

نمثّل المقالة دراسة مونوغرافية تاريخية تعنى بتقديم لمحة عن تاريخ استقرار المهاجرين الجزائريين السوافة بمدينة تونس خلال الفترة الاستعمارية (١٨٨١- ١٩٥٦). وقد تطرقنا فيها إلى الظروف التي دفعتهم إلى الهجرة من وادي سوف بالجزائر إلى البلاد التونسية: فمنها عوامل تنفير دفعتهم إلى مغادرة موطنهم، ومنها، في المقابل، عوامل جذب رغّبتهم في اختيار الحاضرة تونس مستقرًا لهم. وتبيّن أن الأسباب المنفرة كانت أكثر فاعلية من الأسباب الجاذبة بالنظر إلى الواقع المتردي بتونس خلال تلك الفترة. وكانت هجرتهم في إطار حركية مجالية شملت المجال المغاربي، وتحولت تونس العاصمة قطبا لاستقبال وفود مغاربية وأوروبية وغيرها، ووجهة للنازحين من داخل البلاد. ومثّل السوافة فصيلاً سكانيًا بالعاصمة التونسية، حيث استقروا في عدة أحياء على غرار الربضين: باب سويقة وباب الجديد. ونجحوا في التوطن بمدينة كانت تعيش وضعًا عصيبًا زاده الاستعمار تأزما. وقد اندمجوا في مجتمع الحاضرة، ومارسوا مهنا متنوعة، فكانوا بالأساس سقّائين "قرباجية" - مهنتهم المميزة- وهي مهنة بسيطة، ومنهم تجار ومالكي عقارات. وكان اندماجهم حذرا في بيئة اجتماعية متعددة المكونات وكثيرة الانفتاح.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

تاريخ؛ هجرة؛ السوافة؛ توطّن؛ تونس؛ التاريخ الحديث والمعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310495 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد السعداوي، "الجزائريون السوافة بالحاضرة تونس: لمحة عن تاريخ جالية وافدة زمن الحماية الفرنسية ١٨٨١ – ١٩٥٦".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة -العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٠٨ – ١١٤.

Corresponding author: saadaoui_med@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

تناولت كتابات عديدة موضوع حركة تنقل السكان بالمجال المغاربي خلال الفترة الاستعمارية، فبرزت أعمال حول هجرة الجاليات المغاربية إلى تونس بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين. وكان الجزائريون السّوافة من بين تلك المجموعات التي هاجرت إلى تونس العاصمة، ودُرِسَ التحرك المجالي لتلك الجالية بشكلين: فقد كانت هجرة السوافة إلى مدينة تونس محور اهتمام ضمن سياق عام يعنى بالجاليات المغاربية بالبلاد التونسية، أو كذلك الجاليات الجزائرية بتونس؛ وكانت تلك الحركة الهجرية، هجرة السوافة إلى البلاد التونسية موضوعًا خاصًا لدراسات مجهرية. وسنسعى، بين هذين التمشيين، إلى البحث في استقرار السوافة بالحاضرة تونس، وقد استعرنا من أسس الميكروستوريا أو الميكرو- تاريخ أو التاريخ المجهري، مصطلح "المجال الضيق"[١] بالتركيز على مدينة تونس، لنعيد النظر في الموضوع من زاوية هي أقرب إلى المونوغرافيا التقليدية أو المبحثة[٢] بتسليط الضوء على مجموعة بشرية محدودة العدد. وسنركز الاهتمام على المهاجرين السّوافة باعتبارهم جالية وافدة استقرت بتونس العاصمة دون إسهاب القول في هجراتهم الموسمية بين البلدين. واخترنا أن ننزّل توافدهم وتوطّنهم في الإطار الاقتصادي والاجتماعي بالمنطقة، وخاصة تونس العاصمة، خلال فترة الحماية الفرنسية. وقد كانت مدينة تونس قطب استقبال لوفود داخلية وخارجية تزايد دفقها مع تفاقم الأزمات ولا سيما منها ما نتج عن الحربين العالميتين. فما هي ظروف توافد السّوافة على تونس؟ وكيف استقروا بالحاضرة واندمجوا في مجتمعها؟

أولاً: توافد السّوافة على مدينة تونس

١/١-الهجرة إلى تونس بين دوافع التنفير وجاذبية الترغيب

السوافة هم سكان وادي سوف الواقع بالجنوب الشرقي الجزائري، والذي يتسم ببيئة صحراوية وبحضارة واحيّة. وقد شكلوا مع مجموعات جزائرية أخرى مثل المزابية والورقلية تيارًا هجريًا نحو البلاد التونسية عقب التدخل الاستعماري الفرنسي بالجزائر سنة ١٨٣٠. وقد تفاقمت هجرة هؤلاء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. واختار قسم هام من السوافة الانتقال إلى العاصمة تونس بحثا عن العمل، ومنهم من استقر بالمدينة وعمّر بها.

ولم يكن من السهل على السوفي ترك موطن الأجداد والعيش غريبًا في أرض غير أرضه، بل دفعته ظروف ملحّة إلى الهجرة حتى استسلم إلى عواصف التنفير وجاذبية الترغيب. فقد كانت ظروف العيش بمنطقة الجنوب الجزائري وتحديدا وادي سوف متدهورة وازدادت الأوضاع سوءا عند احتداد الأزمات على غرار ما عاناه السّوافة من نقص في التموين خلال الحرب العالمية الثانية، ويضاف إلى ذلك تواتر فترات الجفاف، خاصة منها التي استمرت من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٧، والتي كانت تداعياتها وخيمة على النشاط الفلاحي المتمثل أساسًا في إنتاج التمور[٣]. وقد أدت تلك الظروف إلى نقص في الموارد وتدنّ في مستوى العيش. وازدادت الأحوال عسرا في وادي سوف بسبب انتشار الأمراض والأوبئة التي هددت حياة السكان في ظل تدني ظروف الرعاية الصحية[٤]. ولا يغيب عن الأذهان ما تسبب فيه الاستعمار الزراعي الفرنسي من اضطراب في علاقة السّوفي بأرضه حيث سُلِبَتْ الملكيات من أصحابها،[٥] وأجبر الكثيرون على الهجرة ومغادرة المنطقة. وقد عمّق الاستعمار أزمة مجتمع الأرياف والبوادي، ومنها المجتمع السّوفي بحضره وبدوه، حتى أصبحت المدن ملاذا نحو حياة أفضل. وتوفرت مدينة تونس على مؤهلات أو مقومات أسالت لعاب مجموعات كثيرة، منهم السّوافة.

لقد حظيت البلاد التونسية بتشريعات متميزة كانت نتاجا للحركة الإصلاحية خلال القرن التاسع عشر، فصدر قانون عهد الأمان سنة ١٨٥٧، ومن بعده دستور ١٨٦١، وهما نصان يضمنان للأجانب الأمان الكامل، ويمنحانهم الحق في التملك والتجارة. وتحدّث بعض الأوروبيين عن درجة الاستقطاب العالية التي تمتعت بها مدينة تونس حتى أنها كانت أكثر جذبا من أحياء الجزائر بفضل ما توفرت عليه من رفاه شرقي، ومقاه وحمامات، وحفلات شرقية، وأشغال عمومية، وجامعة الزيتونة، ومكتبات، وحلقات أدب، وإدارة تونسية متميزة...الخ[٦] فحفّزت تلك المغريات السّوافة أو بعضهم على الاستقرار بتونس العاصمة، وكانت تونس في مخيالهم "بلد الشّغل والسّعادة."[٧]

في الحقيقة، لابد من مراجعة القول المتصل بجاذبية مدينة تونس وقوة استقطابها للمهاجرين السوافة، وللجاليات المغاربية عموما، لأنها، في الواقع، لم تكن مدينة الأحلام في فترة الحماية الفرنسية، ولا سيما في الفترات الحالكة مثلما كانت الحال بين الحربين العالميتين. لقد تزايدت تشكيّات الأهالي - سكان الحاضرة- من ارتفاع أسعار المواد الأساسية في السوق

السوداء كالزيت والفحم وغاز الوقود، وكانوا يطالبون بالتصدي للمضاربين.[8]

ارتفاع أسعار بعض المواد الغذائية الأساسية بتونس خلال الحرب العالمية الثانية[9]

المادة	القسط الشهري للفرد الواحد	السعر القانوني	سعر سوق السوداء
الخبز	٢٥٠ غراع	٥،٢٠ فرنكا/ ١ كغ	من ٣٥ إلى ٥٠ فرنكا/ ١ كغ
السكر	٣٠٠ غراع	٩ فرنك/١ كغ	من ٤٠ إلى ٥٠ فرنكا/ ١ كغ
الزيت	نصف لتر	من ٢٨ إلى ٣٣ فرنكا/ ١ لتر	من ٧٠ إلى ٨٠ فرنكا/ ١ لتر

ويضاف إلى ذلك انحسار الواردات وقلة موارد التزويد بالمواد الغذائية، فاضطرت السلطات الاستعمارية إلى توزيع المؤونة على السكان بالتقسيط.

وشهدت الحاضرة تونس حركة نزوح كثيفة، وغير مسبوقة فتوافد عليها من الجهات الداخلية للبلاد بين سنتي ١٩٣٦ و١٩٤٦ حوالي ١٠٠٠٠ نسمة[10] حتى اختنق المجال الحضري، وتعمّقت أزمة المدينة التي صارت عرضة لظاهرة "ترييف استثنائية" منذ الحرب العالمية الأولى[11]، وجلب عادات البادية إلى الفضاء المديني. وانتشر الفقر والبؤس وتفشت البطالة، فقد تم إحصاء ٥٣٥٠٩٩ فقير بالبلاد بعيد الحرب العالمية الثانية بنسبة ٢٠،٧٩ % من مجموع السكان، دون احتساب فقراء مدينة تونس، بمعنى أن خمس السكان كانوا لا يقدرون على توفير الحد الأدنى من مستوى المعيشة سنة ١٩٤٨.[12] وبرزت ظاهرة جديدة تمثلت في احتراف التسول، فقد بلغ عدد المتسولين بالحاضرة ٤٦٩٣ متسولا سنة ١٩٣٤.[13]

عدد النازحين بالبلاد التونسية بين سنتي ١٩٢٦ و١٩٥٦[14]

الفترة	عدد النازحين	مجموع النازحين
١٩٢٦- ١٩٣٦	١٠٠٠	٩٠٨٤
١٩٣٦- ١٩٥٦	١٤٠٠٠	٢٨٤٣٥٥

واذا تأرجحت همّة السوفي بين رغبة جامحة في انعتاق من العيش في مجال منفّر، وتعلّق شديد بعالم جذّاب ومرغّب في الاستقرار والتعمير، فإنه يجوز القول إن مدينة تونس رغم حالتها المتردية في فترة الاستعمار، قد كانت أوفر حظا من جهات أخرى بالمنطقة المغاربية، وخاصة الجهة الصحراوية التي انحدر منها السّوافة، فكانت تونس بالنسبة إليهم خيارا بديلا عن موطنهم وهو خيار بين أمرين أحلاهما مرّ، فمهما كانت الحالة بتونس تعيسة والحياة بها ضنكى بسبب ظروف مستعصية، فإن الاستقرار بها في نظر السوافة كان هو الملاذ الوحيد حتى يأمنوا شر الاستعمار، ويضمنوا حدًا أدنى من العيش يحفظ لهم كرامتهم.

٢/١-توافد السوافة على مدينة تونس قبلة الأخلاط والأجناس

لقد كان المجال المغاربي منفتحا على تيارات هجرية متعددة داخلية-داخل المنطقة-وخارجية. ووفد على البلاد التونسية منذ التدخل الاستعماري بالجزائر مهاجرون جزائريون خاصة من جهتي التل والصحراء. وكان السوافة يهاجرون إلى تونس وأغلبهم من جنس الذكور، فعلى عشرة رجال نعدّ امرأة واحدة مهاجرة.[15] وقد كانت حركة السوافة نحو تونس مألوفة منذ الفترة الحديثة، حيث كان هنالك تقارب حضاري وعلاقة جوار متينة بين مجتمع وادي سوف ومجتمع الجريد بالجنوب الغربي التونسي. وقد بدأ توافدهم إلى الحاضرة يتقلّص بين سنتي ١٩٣٩ و١٩٥٦، في الفترة التي تراجعت فيها الحركية الهجرية عموما نحو تونس العاصمة[16]. وكان تنقل السوافة اعتياديًا بين تلك المدينة ومسقط الرأس، ومن الدارج عندهم، كما هي الحال عند الورقلية، ترك العودة إلى الموطن الأصلي بصفة نهائية في صورة زواجهم بتونسيات، على عكس المزابية الذين كانوا مشدودين أكثر إلى العودة حتى بعد انقضاء ثلاثة أعوام أو أربعة مقاما بالحاضرة.[17]

ولقد نجح المهاجرون السوافة إلى تونس في كسر حواجز الرقابة الحدودية التي كانت تفرضها السلطات الاستعمارية التي ما انفكت تسعى جاهدة إلى تجزئة المجال المغاربي وتطويعه، فتحولت حركة السكان الخارجة عن طوق الرقابة إلى هجرة سرية وجبت مقاومتها. ويعزى ذلك التشديد إلى عدة أسباب أبرزها الاحتراس من تنقّل الجزائريين نحو تونس حتى لا يكون سببًا في تكوين اضطرابات ثورية.[18] وكانت السلطات الفرنسية تضيّق الخناق على الجزائريين المقيمين بتونس، وتضغط على السلط التونسية لكي تغلق في وجوه الوافدين من الجزائر أبواب الاستقرار بها ولكي لا تتحول تونس إلى قاعدة خلفية للمقاومة الجزائرية.[19]

وكانت وفود السوافة على تونس العاصمة من بين وفود عديدة أخرى، لذلك كانت المدينة واجهة استقطاب لأخلاط من

الناس، وفضاء متعددا وديناميكيا un espace pluriel et dynamique[٢٠]. فاستقبلت نازحين من دواخل البلاد، وأوروبيين من إيطاليين ومالطيين. وكان الفرنسيون من أكثر الوافدين على المدينة عددا، وكانت هنالك أيضا الجاليات المغاربية من طرابلسية وجزائرية ومغربية. ولم تكن الحاضرة قادرة على استيعاب الأدفاق الهجرية الكثيفة التي ارتفع تدفقها في سيل منهمر، كلما اشتدت الأزمات في ظروف متصلة بالحروب أو/ ولعوامل طبيعية مناخية مرتبطة أساسا بكثرة الجفاف: ففيما بين الحربين العالميتين استقبلت مدينة تونس ٣٠٠٠ نازح من البدو منحدرين من المناطق الداخلية[٢١]، فغصّت بهم المدينة وانتشرت بنواحيها المباني الفوضوية المتمثلة في الأكواخ، كما ساهموا في تنامي أمراض اجتماعية على غرار السرقة والبغاء العلني والسري.[٢٢]

وشملت حركة اللجوء إلى مدينة تونس خلال الحرب العالمية الثانية أعدادا كبيرة من اللاجئين الفرنسيين الذين سهلت لهم سلطات الحماية قدومهم، وهو أمر أقلق الأوساط التونسية كثيرا تخوفا من كثرة الاكتظاظ.[٢٣] ونتج عن تلك الحرب بروز هجرات سرية إلى تونس مثل المتسللين عبر الحدود البحرية من الإيطاليين القادمين من صقلية الذين نزلوا بسواحل الوطن القبلي سنة ١٩٤٧[٢٤]. وكانت مدينة تونس، رغم تأزمها الذي بات مزمنا طيلة الفترة الاستعمارية، جنة موعودة في عيون أشباح من المعدمين قادمين من الآفاق حالمين بانعتاق من بؤس مقيت نغّص حياتهم، وزادهم الاستعمار تعاسة وفقرا. وحل السّوافة بالمكان على فترات متعاقبة للسبب نفسه تقريبا، وتقاسموا العيش مع مجموعات تونسية ومغاربية وأوروبية متعددة، فكيف استقروا بالعاصمة تونس؟ وكيف اندمجوا في مجتمعها؟

ثانيًا: استقرار السّوافة بتونس العاصمة

٢/١-توطّن السّوافة بالحاضرة

إذا كانت هجرات السّوافة إلى تونس في الغالب موسمية، فإن مجموعة مهمة منهم استقرت بالمدينة، فحسب تعداد سكاني لسنة ١٩٣٩ابلغ عددهم ٢٣٠٠ نسمة من جملة ١٣٠٠٠ جزائري بتونس العاصمة، أي بنسبة ١٧,٦٩ %[٢٥]، بعد أن كانوا يمثلون ٣٠ % من مجموع ٨٦٧٢، عدد الجالية الجزائرية بتونس سنة ١٩٢١.[٢٦] ويعتبر وجود السّوافة بمدينة تونس هاما، خاصة أن الجزائريين كانوا يمثلون أكبر عدد من "الأجانب المسلمين" بنسبة ٧٥ % في السنة نفسها.[٢٧]

وكانت رابطة الزواج دافعا قويا وحافزًا حاسمًا على استقرار السوافة بالحاضرة تونس، فبالتقريب كل المستقرين منهم بها في إطار أسري كانوا متزوجين من تونسيات من أسفل الهرم الاجتماعي تناسبا مع وضعهم المتدني، وكان كل ذلك يحصل في الغالب لأن المرأة السوفية يصعب عليها ترك موطنها بإرادتها[٢٨] وقد سكن السوافة بنواح متعددة من مجال معمار تونس العاصمة فاستقروا مثلا بربضيْ باب سويقة، وباب الجديد، وبنهج باب الخضراء، وبباب سعدون، وبنهج سيدي البشير، وبراس الدرب.[٢٩] واستوطنوا بأحياء تكونت بفعل الأدفاق الهجرية في النصف الأول من القرن العشرين على غرار الملاسين والجبل الأحمر،[٣٠] وهي أحياء قصديرية ذات بناء عشوائي، وسكانها من طبقة اجتماعية سفلى، ومنبوذون من بَلْدِيَّةِ الحاضرة.

لقد استقر الجزائريون السوافة بتونس العاصمة، وشكلوا عنصرًا مكونًا لنسيج سكاني فسيفسائي بها. وقبل التطرق إلى مظاهر اندماجهم في المجتمع الجديد، ارتأينا إثارة نقطة متصلة بمدى تقبّل التوانسة للوافدين منهم، ففي قراءة مصدرية لوثيقة أرشيفية، تبيّن لنا انزعاج سكان العاصمة التونسية من نزيف توافد الأوروبيين خاصة على ربض باب سويقة في شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٢، واعتبروا أن ذلك قد يهدّد أمنهم الغذائي ويتسبب في نقص مؤونتهم.[٣١] وفي المقابل، لم نعثر على وثيقة تتضمن ما يفيد عدم تقبّلهم للوافدين السوافة ولا للوافدين المغاربيين أو العرب، بصفة عامة، إلا أنهم أبدوا بعض القلق- كما أسلفنا الذكر- إزاء نزوح جموع البدو الذين كان يُخشى منهم إفساد العيش بالمدينة. ولم يكن السوافة الذين استقروا بالعاصمة تونس من بين العناصر غير المرغوب فيها les indisérables التي تمثل عبئا على المدينة، واستوجب الأمر تدخلا لتطهيرها منهم.[٣٢]

٢/٢-اندماج السّوافة في مجتمع مدينة تونس

لقد ساهم السوافة في تنشيط الحركة الاقتصادية بمدينة تونس، لأنهم كانوا يمثلون قوة عمل، حتى إنه كان معروفا عنهم أنهم لم يكونوا يعزمون على القدوم إلا لما يكون لديهم علم مسبق بوجود موطن شغل. وقد فرضوا وجودهم خاصة في المهن الشاقة وغير المرغوب فيها أحيانا، كالعِتالة وتنظيف الشوارع وقنوات الصرف الصحي، ومسح الأحذية وتلميعها.[٣٣] ولم يستنكفوا من تلك الأعمال التي كانت متاحة لديهم، والتي وجدوا فيها مصدرا للرزق، في الوقت الذي كانت فئة البَلْدِيَّةِ

تحتكر فيه المهن "النبيلة" ولا تسمح لـ "البرانية" (الغرباء) بمشاركتهم إياها حفاظا على مقومات تميزهم الحضري.[٣٤]

واختص السوافة أو عرفوا بامتهان حرفة القرباجي، سقّاء الماء، le métier le plus type، فقالت عنهم جرمين مارتي *Germaine Marty* واصفة عملهم: "**نصادفهم غالبا حاملين على ظهورهم قربا من جلد المعز، مملوءة من الحنفيات العمومية... ويلبسون مآزر سميكة من الجلد لتحميهم من الماء. وكانت سيقانهم عارية.**"[٣٥]. ويبرز هذا الوصف وضعية مهنية شاقة، وحياة قاسية يصارعهما السوفي من أجل توفير مصدر عيشه، فكان القرباجي يوصل الماء إلى المساكن بمقابل خمسة فرنكات للقربة الواحدة.[٣٦] واختص السوافة بتلك المهنة، وكانوا مشهورين بها في الحاضرة تونس، لأنها عمل احترفه أجدادهم في موطنهم بوادي سوف، وتوارثوه جيلا بعد جيل. وكانوا بواسطة القرباجية يقدمون شغلا ذا بعدين: بعد اقتصادي، وذلك بتوفير رصيد من اليد العاملة في ذلك الميدان، وبعد اجتماعي، وذلك بتزويد السكان بالماء باعتباره موردا حياتيا.

وتمتع بعض السوافة بمهن الفئات العليا- فئة الأعيان وعلياء القوم، كامتلاك العقارات والحمامات وممارسة التجارة الكبرى. وكان أولئك منحدرين من طبقات سوفية غنيّة قدمت إلى تونس منذ زمن بعيد،[٣٧] وعلى سبيل الذكر لا الحصر، فقد تحوّل بعضهم إلى ملاكين كبار ومستثمرين بتونس العاصمة، منهم الشريف بن محمد بن صالح الذي امتلك عقارات كثيرة بالمدينة وكان شيخ الطريقة القادرية بوادي سوف سنة ١٩٤١، وكذلك عمارة بن صالح الذي ملك مغازة كبرى لبيع الزيت وفندقا بباب الخضراء.[٣٨] وتؤكد هذه المعطيات أن مدينة تونس ضمت من السوافة من صاروا من أرباب الأعمال، وضمنوا لأنفسهم مكانة اجتماعية مرموقة في مجتمع الحاضرة.

أما من جانب المؤانسة la sociabilité، فكان معلوما عن السوفي أنه إنسان انطوائي بعض الشيء، وبطيء الاندماج؛ فكان السّوافة، في الأيام العادية، يعيشون شبه معزولين عن بقية سكان المدينة، ولكن سرعان ما يندمجون في مناسبات الحفلات مثلا.[٣٩] ويعزى عسر اندماجهم، حسب بعض الدارسين، إلى بيئتهم الاجتماعية المحافظة، ورفضهم الاختلاط، وحذرهم الشديد من المجتمع التونسي الذي كان يبدو لهم كثير الانفتاح والتحرر،[٤٠] فاحترسوا من مغبّة تفسّخ هويتهم السوفية. ومألوف أن السوفي لا يعاقر الخمر[٤١]، ولكن يبدو أنه مع تقدّم السنوات انجذب السوافة أو حتى قلة منهم إلى أجواء تونس، وانغمسوا في ملاهيها، فتحدثت المصادر عن العثور على جثة رجل سوفي بأحد شوارع المدينة كان معتادا على السّكر.[٤٢] ولا نخال أن الحالة معزولة، ولا العينة التي سقناها يمكن أن تفضي إلى استنتاج متهافت، بل حتى وان كانت الحالات من نوع هذا الاندماج قليلة في صفوف السوافة، فإنها تعتبر مؤشرًا دالاً على قوة تأثير مجتمع الحاضرة على الوافدين عليه رغم حرصهم الشديد على التمسك بخصوصيات أصالتهم. ويُرجح أن يكون انتقالهم للعيش بمدينة تونس منعرجا هاما في حياتهم حوّلهم من "بداوة الجمل"[٤٣] ذات البيئة الصحراوية، إلى عالم الحضر والتمدن في أكبر تجلياته، شأنهم في ذلك شأن المجموعات التونسية التي نزحت من الجنوب. وإذا كانوا قد تعايشوا مع الأوضاع التي كانت سائدة بتونس خاصة في أزمنة المساغب، فإن الموازنة بين الحفاظ على كينونة أصالتهم المرتكزة على مقومات النظام القبلي، وبين التأقلم مع مظاهر الحياة الجديدة في مجتمع متعدد الأخلاط والأجناس لم تكن حقا أمرًا سهلاً.

خلاصة القول، سارت مجموعة السّوافة من عالم الواحة السّاكن إلى عالم الحرف والصنائع والحركة والضجيج، حيث كل شيء فيه يبدو مختلفا، وانغرست في بيئة اجتماعية – مجتمع الحاضرة تونس- منفتحة وكثيرة التنوع بفعل تعدّد الجاليات التي ضمّتها منذ عهود بعيدة، فاندمجت مع بقية السكان، وكان لها إسهام في تنشيط الاقتصاد عبر الاستثمار، ومن خلال إقبالها على الأعمال بما فيها التي رغب عنها غيرهم "لوضاعتها". والأكيد أن دورهم في الإثراء الحضاري كان محفوظا بفضل ما جلبوه من عادات وتقاليد مميّزة لمنطقة وادي سوف وكذلك بفضل تمريرهم إياها إلى التونسيين.

خَاتمِةٌ

لقد كانت هجرة السّوافة باتجاه البلاد التونسية وتونس العاصمة نشيطة، وفي تدفق متواتر ومستمر. ورغم التضييقات الاستعمارية على الحركة الحدودية بين البلدين، إلا أن حركة تنقلهم لم تتوقف، فوفدوا إلى مدينة تونس متجاوزين الرقابة المشدد التي كان يفرضها المستعمر. وكان دافع تحسين ظروف العيش التي أزّمها الاستعمار الفرنسي بالجزائر من أبرز العوامل التي ساهمت في توافدهم على المدينة وخيارهم الاستقرار بها. ومع أن الهجرة إلى تونس لم تحقق لهم كل آمالهم التي تركوا من أجلها موطنهم، بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية التي كانت تخيّم على الحاضرة، فإنهم استطاعوا بفضل

جاهزيتهم ودافعيتهم إلى العمل الاستقرار وحتى الاستثمار في مجالات كانت حكرا على طبقة الأعيان.

وفي النهاية، لا يمكن اعتبار السوافة فئة قليلة مهمشة في الحاضرة تونس، مقارنة ببقية الجاليات الوافدة، ولم تكن مواقف سكان المدينة مناوئة لوجودهم، ولم تصدر في شأنهم تشكيّات تعكس انزعاجا منهم أو رفضا لتوطنهم. ولا يمكن أن نتناول تاريخ استقرارهم بها ضمن تاريخ المهمشين، حتى وان كان عددهم محدودا فانهم، بحكم التوأمة الحضارية بين تونس والجزائر منذ تعمير الإنسان لمجال شمال أفريقيا، يعدّون مكوّنا لسكان العاصمة تونس أهلا للاعتبار مثل الجاليات الوافدة المغاربية أو المسلمة بصفة عامة، وكذلك لا يختلفون عن المجموعات التونسية القادمة من بلدان الآفاق مثل الجرابة والغمراسنية والمطاوة وغيرها.

الاحالات المرجعية:

(١) التيمومي (الهادي)، **المدارس التاريخية الحديثة**، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠١٣، ص ٢٢٩.

الميكروستوريا تيار تاريخي ظهر بايطاليا في أول سبعينيات القرن العشرين. ولمزيد الاثراء حول المفهوم يمكن العودة إلى:

Ginzburg (Carlo), Poni (Carlo), « la micro- histoire », Le Débat, n° 17, 1981, pp 133- 136.

(٢) العروي (عبد الله)، **مفهوم التاريخ**، الجزء الأول، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٨٩. يطلق عبد الله العروي على المونوغرافيا عبارة "المبحثة".

(٣) زقب (عثمان)، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف ١٩١٨-١٩٤٧ وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف يوسف مناصرية، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، السنة الجامعية ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٥٠-١٥٢.

(5) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud dans la ville de Tunis pendant l’époque coloniale (١٨٨١- 1956) (Mozabites, Souafas, Ouarglias), mémoire de DEA en histoire contemporaine, Direction Habib Kazdaghli, Université de La Manouba, Tunisie, année universitaire 2003- 2004, p 15.

(6) Marty (Germaine), « les Algériens à Tunis », IBLA, n°43- 44, 1948, pp 301- 334, p 302.

(7) Ibid, p 315.

(٨) **الأرشيف الوطني التونسي (أ.و.ت)، سلسلة الحركة الوطنية، صندوق ٤٣، ملف ١، (١٩٣٩- ١٩٤٥)**، رسالة من مدير الأمن العام إلى الكاتب العام للحكومة التونسية، ١ سبتمبر ١٩٣٩.

(9) Khlifi (Omar), Moncef Bey Le Roi Martyr, Edition Kahia, Tunis, 1994, p 145.

(١٠) القصاب (أحمد)، **تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١- ١٩٥٦)**، تعريب حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٦، ص ٢٧٢.

(١١) المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

(١٢) القسنطيني (الكراي)، " الفقر والفقراء في تونس (١٩٤٥- ١٩٤٨)"، **المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي**، بيت الحكمة، قرطاج- تونس، ١٩٩٩، ص٥٣٥- ٥٨٦، ص ٥٦٧.

(١٣) التيمومي (الهادي)، **تاريخ تونس الاجتماعي**، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس- تونس، ١٩٩٧، ص ١٤٧.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(15) Marty (Germaine), « les Algériens … op, cit, p 302.

(16) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud … op, cit, p 29.

(17) Ibid, p 118.

(١٨) غالم (محمد)، "من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية"، **مجلة إنسانيات**، العدد ١٢، الجزائر، ٢٠٠٠، ص٢٧- ٣٨، ص ٢٧.

(١٩) العيد (فارس)، **علاقات الجزائريين بالمغرب الأقصى وتونس (١٨٤٨-١٩٣٠)**، أطروحة دكتوراه، إشراف د. حمدادو بن عمر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران ١، أحمد بن بلة، الجزائر، السنة الجامعية ٢٠١٦- ٢٠١٧، ص ٩٦.

(20) Gharbi (M. Lazhar), «L’historiographie tunisienne de la période moderne et contemporaine et son espace», Savoirs historiques Au Maghreb, Construction et usages, Coordination Sami Bergaoui et Hassan Remaoun, Editions CRASC, 2006, pp 65- 80, p 73.

(٢١) **(أ.و.ت)، سلسة أ، صندوق ٤، ملف ١٨/١، (١٩٣١- ١٩٤١)**، مراسلة المراقب المدني بتونس في ٢ ماي ١٩٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) **(أ.و.ت)، سلسة الحركة الوطنية، صندوق ٤٣، ملف ١**، تقرير استخباراتي بتاريخ ١٣ ماي ١٩٤٢.

(24) La dépêche tunisienne, 6 aout, 1947.

(25) Marty (Germaine), «les Algériens … op, cit, p 301.

(26) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud … op, cit, p 42.

(27) Ibid, p 41.

(28) Marty (Germaine), «les Algériens … op, cit, p 317.

(29) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud … op, cit, p 48- 49.

(30) Marty (Germaine), «les Algériens … op, cit, p 316.

(٣١) **(أ.و.ت)، سلسة الحركة الوطنية، صندوق ٤٣،...** مصدر ذكر سابقا، وثيقة عدد ١١٩.

(٣٢) كان أهل الحاضرة في فترة الثلاثينات من القرن العشرين يشتكون من كثرة المشردين ومن العناصر غير المرغوب في وجودها والتي تكاثر عددها بالمدينة، انظر:

(أ.و.ت)، السلسلة أ، صندوق ٤... مصدر ذكر سابقا.

(33) - Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p 316.

(٣٤) الماجري (عبد الكريم)، **الجاليات المغاربية بتونس ١٨٣٠- ١٩٣٩**، أطروحة دكتور، إشراف أ.د. محمد الهادي الشريف، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

(35) - Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p 316.

(٣٦) عزام عوادي (عبد القادر)، "وضعية المهاجرين السّوافة بتونس العاصمة خلال الفترة (١٩١٢- ١٩٦٢)"، **مجلة الرواق**، العدد الأول، جوان ٢٠١٥، ص٨٦- ٩٣، ص ٩٠.

(٣٧) بن جابو (أحمد)، **المهاجرون الجزائريون ونشاطهم في تونس ١٨٣٠- ١٩٥٤**، أطروحة دكتورا، إشراف د. يوسف مناصرية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية ٢٠١٠- ٢٠١١، ص ٢٠٩.

(38) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud ... op, cit, p 78.

(39) Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p ٣١٩.

(٤٠) عزام عوادي (عبد القادر)، " وضعية المهاجرين السّوافة ... **مرجع ذكر سابقا**، ص ٨٨.

(41) Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p ٣١٨.

(٤٢) **جريدة الزُهرة**، ٢٦ جانفي ١٨٩١.

(٤٣) عبارة مقتبسة من عنوان المرجع التالي: الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق ١٦- ١٩)، من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز. السباسب الوسطى مثالاً**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ٢٠٠٥.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية الحديثة
دراسة تاريخية



د. أسماء جاد الله عبد خصاونة

أستاذ مشارك – قسم التاريخ
كلية الآداب واللغات – جامعة جدارا
المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّصْ

يُعَدّ عبد الحميد بن باديس من العلماء البارزين الذي غرسوا بذور الأمل والتحرر في بعث النهضة الإصلاحية الحديثة في الجزائر وكافة أقطار المغرب العربي، ووقف محاربًا ثائرًا في وجه الاستعمار الفرنسي، من خلال عدة جبهات كان أهمها في التربية والتعليم التي اعتبرها أهم مرتكزات العمل الإصلاحي، وانجع السبل في المجتمع للتطور والنهوض، والقضاء على الجل والتخلف ومن ثَمَّ العيش بحرية واستقلال، كما أسس جمعية العلماء المسلمين التي تمكنت من إعادة بناء الإنسان الجزائري وصقل شخصيته القائمة على بعدي العروبة والإسلام، واعتلى منبر والصحافة ليقينه بالدور الفعَّال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار، ومارس نشاطه السياسي بكل جرأة ضد المستعمر، كما ركز البحث على جوانب العوامل الأساسية التي ساهمت تكوين المنظومة الفكرية لابن باديس التي استطاع من خلالها الوصول لعقل وفكر كل مواطن عربي ومسلم يؤمن بإمكانيات أمته وعظمة دينه. وقد توصل البحث إلى أن أراء ابن باديس ومواقفه كانت ذات أثر كبير ليس في حياته فقط وإنما بعد وفاته، فقد استمرت الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار الفرنسي وتمخضت عنها ثورة المليون ونصف المليون شهيد عام ١٩٥٤م، كما يرجع الفضل لابن باديس في إذكاء روح التحرر والمطالبة بالاستقلال لدى كافة الشعوب العربية في أفريقيا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٨	سبتمبر	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	١٠	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

ابن باديس؛ الحركة الإصلاحية؛ الاحتلال الفرنسي؛ تاريخ الجزائر الحديث؛ جمعية العلماء المسلمين

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310717 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسماء جاد الله عبد خصاونة. "عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية الحديثة: دراسة تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١١٥ – ١٢٥.

Corresponding author: akhasawneh@jadara.edu.jo
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَورِيةُ كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

قُدّر للجزائر أن تكون أول الأقطار العربية وقوعًا تحت براثن الاحتلال، وأن يكون مغتصبها الفرنسي من أقسى المحتلين سلوكًا وتجبر وطغيان، حيث استهدف طمس هوية الجزائر ودمجها باعتبارها جزءًا من فرنسا، ولم يترك وسيلة تمكنه من تحقيق هذا الغرض إلا اتبعها، فتعددت وسائلة، وإن جمعها هدف واحد، هو هدم عقيدة الأمة، وإماتة روح الجهاد فيها، وإفساد أخلاقها، وإقامة فواصل بينها وبين هويتها وثقافتها وتراثها، بمحاربة اللغة العربية وإحلال اللغة الفرنسية محلها، لتكون لغة التعليم والثقافة والتعامل بين الناس.

وقد قاوم الشعب الجزائري بكل قوة وعنف، حتى إن الثورات المتكررة منذ بداية الاحتلال، دفعت أحد القادة الفرنسيين للاعتراف بان سيطرة فرنسا في الجزائر ستنتهي كما انتهت سيطرة الإسبان والبرتغال سابقًا. وكانت فرنسا تعمد بعد كل ثورة شعبية إلى أساليب جديدة كي ترغم الشعب الجزائري للخضوع لها، فصادرت الأراضي، وفرضت الضرائب لتنهك كاهل المواطن الجزائري، وتفرض سيطرتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مقرونة بالقوة العسكرية المسيطرة على الأرض (الميلي، ٢٠٠٧، ص.٣٨). ولم يستسلم الشعب الجزائري لهذه المخططات، فقاوم بكل ما يملك، ودافع بما توفر لديه من إمكانات، وكانت معركة الدفاع عن الهوية واللسان العربي أشد قوة وأعظم تحديًا من معارك الحرب والقتال، وقد عبّر ابن باديس، عن إصرار أمته وتحديها لمحاولات فرنسا بقوله: "إن الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها وعنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائري" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣ ص. ٣٠٨).

وقبل الحديث عن ابن باديس نتوقف عند هذا النص الذي يصور لنا عظمة هذه الشخصية وقوة تأثيرها على المجتمع الجزائري وما حققته بشكل منفرد أولاً ثم بتظافر جهد مناصري فكره يقول محقق كتاب أثار ابن باديس: "أيها السادة: إن الشيخ ابن باديس أمة واحده استطاع بمفرده أولاً وبمساعدة إخوانه من العلماء ثانيًا أن يقوم بتربية جيل وتكوين أمة، وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها، وهو الذي استطاع أن يضع أصول نهضتنا الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية، وأن الثورة الجزائرية العظيمة في جوانبها النفسية وقوتها المعنوية التي تتمثل في كلمة "الجهاد" ترتد إلى عمله التربوي الخاص والعام، تربية الجيل في المدارس وتربية الأمة في المساجد وبرحلاته في مختلف أنحاء القطر. وإحياؤنا لذكراه إنما هو اعتراف بالجميل، وتخليد لعمله العظيم، وروحه القوية التي تمثل رمزًا من رموز حياتنا العقلية والأخلاقية، وعنصرًا من عناصر وجودنا الذاتي، لأن ابن باديس قام بعملية التربية والوعي، تلك العملية التي تعتبر أعمق نشاط يؤديه الكائن البشري على الإطلاق، لأنه به يصنع المادة البشرية الصالحة، ويصوغ الذات الاجتماعية النافعة، ويبني الشخصية المتكاملة الشاعرة بوجودها وذاتيتها وحريتها" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١، ص. ١٢٠).

هذه الفقرة توضح بما لا يدع مجال لشك قوة التأثير الذي أحدثه هذا المصلح في نفوس أبناء الجزائر، كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونسائهم وما الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤م إلا ثمرة تلك الجهود المضنية التي بذلت في المساجد والمدارس وفي مختلف نواحي الجزائر.

أولاً: المولد والنشأة

ولد عبد الحميد بن باديس في (١١ ربيع الآخِر ١٣٠٧ هـ/ ٥ كانون الأول ١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة شرق الجزائر، لأسرة من أكبر أسر قسنطينة التي لها صفحة مجيدة في تاريخ العرب بإفريقيا (معروف، ٢٠٠٦، ص. ٢٠٥)، والده السيد مصطفى بن مكي من حفظة القران الكريم وعضو المجلس الجزائري الأعلى، وعضوًا في المجلس العمالي في قسنطينة نائبا عن المدينة، والدته السيدة زهيرة بنت علي بن جلول من الأسر المشهورة بقسنطينة بالعلم والثراء (التقاز، ٢٠١٢، ص. ١٠٥). وهو ينتمي الى سلالة ترتقي في أولها الى المعز بن باديس الصنهاجي آخر سلالة دولة بني زيري في القيروان، الذين ولوا الحكم في أفريقيا من قبل الفاطميين بعد استقرارهم في مصر. (سالم، ١٩٩٩، ص.٣٥).

ونشأ عبد الحميد بن باديس وترعرع في أسرة ذات عراقة وثراء، ومشهورة بالعلم والأدب، عنيت بتعليم ابنها وتهذيبه، حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة من عمره على يد الشيخ " محمد المداسي"، وقُدم لصلاة التراويح في الناس على صغر سنه، وتعلّم مبادئ الإسلام والعربية على يد الشيخ " حمدان لونيسي" (فركوس، ٢٠١٤، ص. ٩)، تزوج وهو في سن الخامسة عشر من عمره من احدى قريباته، ورزق منها مولود ذكر اسماه إسماعيل ،حيث نهج نفس نهج والدة فأتم حفظ القران في سن مبكر، إلا أن القدر لم يمهله طويل فمات في حادث مفاجئ، لم تدم حياة ابن باديس الزوجية طويلاً حيث وقع الانفصال بينه وبين زوجته ولم يتزوج بعد ذلك، وتفرغ للعلم والعمل في سبيل

إصلاح الأمة الجزائرية ونشر العلم بين أبناء الشعب الجزائري على مختلف فئاته، شيب وشباب ذكور ونساء وكان جل همة إنقاذ الجزائر وتخليصها من مخالب الاستعمار(فلوسي، ٢٠٠٦، ص. ١٤).

سافر إلى تونس في سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) وانتسب إلى جامع الزيتونة، وتلقى العلوم الإسلامية على جماعة من أكابر علمائه، أمثال العلّامة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الخضر الحسين، ، وتمكن خلال هذه الفترة من الاطلاع على العلوم الحديثة وعلى ما يجرى في البلاد العربية والإسلامية من دعوات إصلاحية دينية وسياسية كدعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا في مصر، وعبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان في الشام وكان لهذا المحيط العلمي والبيئة الاجتماعية ، والملازمات المستمرة لرجال الفكر والإصلاح والعلم الأثر الكبير في تكوين شخصيته ومناهجه في الحياة (فركوس،٢٠١١، ص.١٨٤).

وبعد أربع سنوات قضاها ابن باديس في تحصيل العلم بكل جدّ ونشاط، تخرج في سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) حاملاً شهادة "التطويع"، وبقي عامًا آخر للتدريس حسب ما تقتضيه تقاليد هذه الجامعة، وعندما رجع إلى الجزائر شرع على الفور بإلقاء دروس في الجامع الكبير في قسنطينة ثم رحل إلى الحجاز لاستكمال فرائضة الدينية وأداء فريضة الحج عام ١٩١٢م، وهناك التقى بشيخه "حمدان الونيسي" الذي هاجر إلى المدينة المنورة، متبرّمًا من الاستعمار الفرنسي وسلطته، واشتغل هناك بتدريس الحديث، كما اتصل بعدد من علماء مصر والشام، وتتلمذ على الشيخ حسين أحمد الهندي الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر، واستثمار علمه في الإصلاح، إذ لا خير في علم ليس بعده عمل، فعاد إلى الجزائر، وفي طريق العودة مرّ بفلسطين وزار المسجد الأقصى المبارك في القدس الشريف، ومنها انتقل الى الشام ثم لبنان بعدها سافر الى مصر وأثناء رحلته لمناطق المشرق العربي ومصر اتصل بعلمائها، واطّلع على الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية فيهما(الصنهاجي،١٩٦٨، ج١، ص٧٢-٨٠، العسلي،١٩٨٣،ص. ٩٤).

ثانيًا: العوامل المؤثرة في شخصية ابن باديس

تأثر ابن باديس بمن سبقه من أعلام الأمة الإسلامية كجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا صاحب المنار، وعبد الرحمن الكواكبي، كذلك أثرت شخصية ابن باديس عدة عوامل كان لها الأثر الأكبر في تكوينها وتكوينه الفكري، ولقد أشار ابن باديس صراحةً إلى هذه العوامل والتي كان لها بالغ الأثر في شخصيته ومنها:

الأسرة: فقد كان لأسرة ابن باديس أثرها الواضح في تكوينه العلمي والعملي ويرجع ابن باديس الفضل الأكبر الى والده حيث رباه تربية دينيه وخُلقية فاضلة، ووجهه وجهة أخلاقية صالحة واختار له طريق العلم وانتقى له معلمين متميزين يجمعون الخلق، والصلاح، والنقاء، والورع. حيث قال: "إن الفضل يرجع أولا الى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقًا اتبعها ومشربًا أرده، وقاتني وأعاشني ولراني كالسهم، وراشني وحماني من المكارة صغيرا وكفاني كلف الحياة (الخطيب، ١٩٨٥، ص١٢٣).

البيئة التعليمية: يشير ابن باديس صراحة كذلك الى فضل شيوخه الذين نموا لديه حب العلم واستعداده لتحمل المشاق في سبيل ذلك فيقول " واذكر منهم رجلين فاضلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العلمية حمدان الونيسي القسنطيني وثانيهما الشيخ محمد النخيلي المدرس بجامع الزيتونة (شاهين ورمضان، ٢٠٠٢، ص. ٧).

الشعب الجزائري: يرى ابن باديس أن الأمة الجزائرية متجاوبة متفاعلة ولديها استعدادات الكمال ولها نسب عريق في المحامد والفضائل فأمة تحمل مثل هذه الصفات لابد لها من التأثير المباشر على شخصيته (سالم، ١٩٩٩، ص.٣٦).

زملاؤه من العلماء: حيث كان لوقوفهم إلى جانبه إثر قوي على مسارين باديس، فقد شد بهم ساعده وقوي من خلالهم زنده. وفي هذا يقول: "إذا كنت استمد القوة والحياة فإنما استمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني واخص منهم الأسود الكبار وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفًا إلا وجدتهم معي كالأسود". (صندل، ٢٠١٣، ص.٢٤).

القرآن الكريم: لقد كان للقرآن الكريم الدور الأكبر والأبرز في تكوين شخصية ابن باديس ويفوق تأثيره تأثير كافة العوامل السابقة، فقد صاغ القرآن الكريم نفس ابن باديس واستولى على قلبه فسار على نهج القرآن الكريم طول حياته وتتبع خطاه أثناء دعوته فكان دستوره ومنهج حياته (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١، ص.٧٧-، ٧٩).

ثالثًا: جهود ابن باديس الإصلاحية

١/٣-في التربية والتعليم

آمن ابن باديس بأن التربية هي الوسيلة الأولى للإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي، متبعًا منهج المدرسة التي ترى أن الإصلاح الاجتماعي يقوم على أساس أن الأخلاق تنبع من الداخل الإصلاح، وأن الوسيلة هي تطهير القلوب، وتغيير النفوس، وأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، مستشهدا بالآية "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (القرآن الكريم، الشمس،٩،١٠). وبهذا يكون خالف المدرسة الإصلاحية التي ترى أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من المؤسسات الاجتماعية، على اعتبار أن الإنسان صار إلى ما صار علية نتيجة عوامل البيئة المختلفة، لذا دعا للبدء بالإنسان وتغير الذات الإنسانية وتوجيهها والتركيز على العامل الأخلاقي الأساس في كل صلاح كما قال في مقالة تحت عنوان "صلاح التعليم أساس الإصلاح"، وركز على أنه لن يصلح المسلمون إلا اذا صلح علمائهم، لانهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، المرتبط بالتعليم النبوي في شكله مستشهدا بقول الرسول (ﷺ) "إنما بعثت معلمًا (الطالبي،١٩٩٧، ص١٠٠-١٠١).

وما أن استقر المقام بابن باديس في قسنطينة، حتى شرع في إلقاء الدروس العلمية في الجامع الكبير، عائدًا بالأمة المحرومة إلى هدي القرآن والسنة. منتقدًا مناهج التعليم التي كانت سائدة حين تلقيه العلم والتي كانت تهتم بالفروع والألفاظ قائلاً: واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية، مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفني الأعمار قبل الوصول إليها. وكان يلقي الدروس في تفسير القرآن بالجامع الأخضر بقسنطينة، فاستمع إليه المئات، وجذبهم حديثة العذب، وفكره الجديد، ودعوته إلى تطهير العقائد من الأوهام والأباطيل التي علقت بها (الجزار، ١٩٩٩، ص. ٢٢، فلوسي، ٢٠٦٦، ص. ١٧).

وفي الجانب التعليمي كان أبرز مساهمات ابن باديس في المساجد التي كانت الميادين التي يلقي فيها دروسه مثل الجامع الأخضر، ومسجد سيدي قموش، والجامع الكبير بقسنطينة، متطرقًا إلى إصلاح التعليم وتطوير مناهجه، (الصنهاجي، ١٩٨٦، ج١، ص. ١١٤). أما الأطفال فقد كان يعلمهم في الكتاتيب القرآنية بعد انتهاء فترات الدوام الصباحية والمسائية في كتاب "سيدي فتح الله"، وفي كتاب الزاوية القادرية بجامع "سيدي عبد المؤمن" الذي تعلم فيه سابقًا (فلوسي، ٢٠٦٦، ص. ١٨). وبضع سنوات أسس جماعة من أصحابه مكتبًا للتعليم الابتدائي في مسجد سيد بومعزة، ثم انتقل إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ثم تطوّر المكتب إلى مدرسة حديثة تحمل اسم جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي أنشئت في (رمضان ١٣٤٩ هـ/١٩٣١م) برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويذكر فلوسي أنها أول جمعية إسلامية تعنى بالتربية والتعليم يرخص لها في قسنطينة.

بعد مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر، فكان لهذا انعكاس على مضمون القانون الأساسي للجمعية حيث ركز على اعتبار أن الهدف الرئيس لهذه الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية والعربية والفرنسية، وعدم الخوض في الأمور السياسية، وتأسيس ملجأ لإيواء اليتامى الذين تتربص بهم البعثات التبشيرية لاحتوائهم وإبعادهم عن دينهم والصنائع اليدوية بين أبناء المسلمين وبناتهم، كما نص قانون الجمعية على أن يدفع القادرون من البنين مصروفات التعليم، في حين يتعلم البنات كلهن مجانًا والتأكيد على إلحاق أبناء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية وتثقيفهم باللسانين العربي والفرنسي، وإرسال الطلبة في بعثات علمية لتمكينهم من متابعة تحصيلهم العلمي في مراكز التعلمي التي كانت معروفة في ذلك الوقت، وفتح قسم خاص لتعليم البنات وتربيتهن تربية إسلامية صحيحة (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١، ص. ١١٤، فلوسي، ٢٠٠٦، ص.٢٩).

وكوّن ابن باديس لجنة للطلبة من أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية، للعناية بالطلبة ومراقبة سيرهم، والإشراف على الصندوق المالي المخصص لإعانتهم، ودعا المسلمين الجزائريين إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر، لأنه لا بقاء لهم إلا بالإسلام، ولا بقاء للإسلام إلا بالتربية والتعليم. وفيما يتعلق بالمرأة فقد حثّ ابن باديس الجزائريين على تعليم المرأة، وإنقاذها مما هي فيه من الجهل، وتكوينها على أساسٍ من العفة وحسن التدبير، والشفقة على الأولاد، وحمّل مسئولية جهل المرأة الجزائرية أولياءها، والعلماء الذين يجب عليهم أن يعلّموا الأمة، رجالها ونساءها، وقرر أنهم آثمون إثمًا كبيرًا إذا فرطوا في هذا الواجب (مطبقاني، ١٩٩٩، ص. ٦٠-٦٤). كما شارك ابن باديس في محاولة إصلاح التعليم في جامع الزيتونة بتونس، وبعث بمقترحاته إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي شكّلها حاكم تونس سنة (١٣٥٠ هـ/١٩٣١م)، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التربية والتعليم، فشمل المواد التي يجب أن يدرسها الملتحق بالجامع، من اللغة

والأدب، والعقيدة، والفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، والأخلاق، والتاريخ، والجغرافيا، ومبادئ الطبيعة والفلك، والهندسة، وجعل الدراسة في الزيتونة تتم على مرحلتين: الأولى تسمى قسم المشاركة، وتستغرق الدراسة فيه ثماني سنوات، وقسم التخصص ومدته سنتان، ويضم ثلاثة أفرع: فرع للقضاء والفتوى، وفرع للخطاب والوعظ، وفرع لتخريج الأساتذة (الصنهاجي،١٩٦٨،ج١، ص. ١١٨).

وكان لأسلوب ابن باديس الدور الأكبر في نفوس طلبته فقد أصبح مدرسة خاصة لتكوين القادة من خلال تربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم من ذل ووهن على يد المستعمر وزرع في نفوسهم الشعور بأن مسؤوليتهم ليست فقط تلقي العلم وتلقينه، بل العمل على إنقاذ أمتهم ووطنهم مما حل بهم على يد الاستعمار البغيض (العسلي ١٩٨٣، ص.٥٣). وقد كان لأسلوب ابن باديس فائق الأثر في حث الطلبة على التعلم وكان نموذج الجامع الأخضر مثالاً يُحتذي به الجميع فقد جمع العربي بالأمازيغي بالفقير بالغني بالبدوي بالمدني والحنفي بالمالكي فصهر ابن باديس هؤلاء الطلبة في بوتقة الدين أولاً ثم الوطن، فقد كان يستقبل التلاميذ بنفسه ويودعهم عند المغادرة وأوجد نظام العرفاء لمتابعة حل مشاكل الطلبة وليراقبوا سلوكهم أيضًا لا سيما وأن قسنطينة كان يقطن بها الفرنسيين الذين يتبعون عادات وسلوك مخالفة لعادات وسلوك المجتمع الجزائري. ومع كل هذا كان يتفقد الطلبة بنفسه مع صلاة الفجر ويديم الاتصال مع ذويهم لقد اهتم ابن باديس بمختلف نواحي العملية التربوية والتعليمة فانتج جيلا من الشباب الواعي والمثقف الذي اخذ على عاتقه مسؤولية تحرير البلاد من الاستعمار. (العسلي، ١٩٨٣، ص. ٥٤).

وعندما شرع الإمام ابن باديس في العمل التربوي الذي استمر فيه أربعة عشر عامًا (الزركلي، ١٩٨٦ مج ٣، ص. ٢٨٩) حيث انتهج في دعوته منهجًا يوافق الفكر الإصلاحي في البعد والغاية، وإن كان له طابع خاص في السلوك والعمل يقوم على ثلاثة محاور أساسية وهي:

المحور الأول: إصلاح عقيدة الجزائريين بالدرجة الأولى، ببيان التوحيد الذي يمثّل عمود الدعوة السلفية، وما يضادّه من الشرك، ذلك لأنّ التوحيد هو غاية إيجاد الخلق، وإرسال الرسل، ودعوة المجدّدين في كلّ العصور والأزمان، لذلك كانت دعوته قائمة على أخذ العقيدة من الأصول وعلى فهم الأوَّلين، والتحذير من الشرك ومظاهره، ومن بدعة التقليد الأعمى، ومن علم الكلام وجنايته على الأمّة، وقال أيضًا: "نحن معشر المسلمين قد كان منّا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل، وإن كنّا به مؤمنين، بَسَط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة، فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تُحَصِّل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعدّدة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمرها على الطلبة فضلاً عن العامّة" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١،ص. ٤٠٧). وظهرت عنايته الأكيدة بتربية الجيل على القرآن وتعليم أصول الدين وعقائده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكان همّه تكوين رجال قرآنيين يوجّهون التاريخ ويُغيّرون الأمّة، وقد تجلّى ذلك في بعض مقالاته حيث يقول رحمه الله: "فإنّنا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كلّ يوم" (فركوس، ٢٠١٤، ص. ١٧، الإبراهيمي، ١٩٩٧، ص. ٥٨٩).

المحور الثاني: فيتمثّل في إصلاح عقلية الجزائريين، وذلك بإصلاح العقول بالتربية والتعليم، بتكوين أجيال قائدة في الجزائر، تعمل على بعث نهضة شاملة تخرج بها من حالة الجمود والركود إلى الحيوية والنشاط، وقد كان يرى أنّ تحقيق هذه النهضة المنشودة يتوقّف بالدرجة الأولى على إصلاح الفرد الجزائري وتكوينه من الناحية الفكرية والنفسية ونجد ابن باديس يصرح بذلك بقوله: "إذ لا يكون ملك إلا بأسباب الملك، ولا تكون قوة إلا بأسباب القوة ولا تكون السيادة إلا بأسباب السيادة، وقد علمت من دينها أن السيادة لا تكون إلا بالملك وأن الملك لا يكون إلا بالقوة: قوة الأبدان وقوة العقول وقوة الأخلاق وقوة المال- وبهذه يكون العدل الذي هو أساس الملك- وأن لا قوة إلا بالعلم والعمل والتهذيب" (الصنهاجي، ١٩٦٨،ج٢، ص. ٢١٦).

المحور الثالث: يظهر في إصلاح أخلاق الجزائريين، وهذا ميدان الذي تدهور كثيرًا نتيجة لفساد العقول وفساد العقيدة الدينية، وقد كانت عنايته به بالغة من داخل الفرد بتطهير الباطن الذي هو أساس الظاهر، وتهذيب النفوس وتزكيتها وإنارة العقول وتقويم الأعمال، (فركوس،٢٠١٤، ص.١٧)، وإصلاح العقيدة حتى يعمل الفرد على تغيير ما بنفسه لكي يغيّر الله ما به من سوء وانحطاط، عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (القرآن الكريم، الرعد، ١١).

هذا، وقد اعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس أنّ سبيل النجاة والنهوض يكمن في الرجوع إلى فقه الكتاب والسنّة وعلى فهم السلف الصالح، ذلك لأنّ علماء السلف إن اتفقوا فاتفاقهم حجّة قاطعة، وإن اختلفوا فلا يجوز لأحد أن يخرج عن أقوالهم، وفي

المضمون يقول الشيخ ابن باديس رحمه الله: "لا نجاة لنا من هذا التّيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه، إلاّ بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه، وفي السنّة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحّة الفهم والاعتداد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين" (الصنهاجي، ١٩٦٨،ج١، ص. ٤١٠). وفي نصيحة نافعة ووصية جامعة يقول رحمه الله تعالى: "اعلموا جعلكم الله من وعاة العلم ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجمّلكم بعزّة الاتباع، وجنّبكم ذلّة الابتداع أنّ الواجب على كلّ مسلم في كلّ مكان وزمان أن يعتقد عقدًا يتشرب به قلبه، وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبني عليه أعماله، أنّ دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان إنما هو في القرآن والسنّة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وإنّ كلّ ما خرج عن هذه الأصول، ولم يحظ لديها بالقبول -قولاً كان أو احتمالاً- فإنه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائنًا من كان في كلّ زمان ومكان، فاحفظها واعملوا بها تهتدوا وترشدوا إن شاء الله تعالى" (الصنهاجي، ١٩٦٨،ج٣، ص. ١٦٣، الإبراهيمي، ١٩٩٧، ص. ٥٨٨).

٣/٢-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

اخذ تأثير فكر ابن باديس يظهر على مختلف نواحي الحياة في الجزائر فشهدت تطور ديني واجتماعي يخالف الاتجاه الرسمي الذي كان يشجع الطرق الصوفية لنشر الخرافات والبدع ويعمل للقضاء على اللغة العربية، لكن وقوف ابن باديس ضد هذا التوجه أضعفه وحصره بشكل كبير حيث كان لفتح المدارس العربية ومهاجمة الطرق الصوفية بالغ الأثر في نفوس الناس. لذلك لم يكن ميلاد جمعية العلماء المسلمين بالأمر الهين واليسير فقد سبقه إعداد وعمل دؤوب ومنظم ومنضبط بقواعد وأسس واضحة من قبل رجال امنوا بالإصلاح إيمانًا راسخًا عازمين على تخليص بلادهم من حالة الذل والهوان التي لحق بها على يد المستعمر الفرنسي (الإبراهيمي، ١٩٩٨٧، ص.٥٤-٦٠). فعندما احتفلت فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر في سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) شحذ هذا الاحتفال البغيض همّة علماء المسلمين في الجزائر وحماسهم وغيرتهم على دينهم ووطنهم، فتنادوا إلى إنشاء جمعية تناهض أهداف المستعمر الفرنسي، وجعلوا لها شعارًا يعبر عن اتجاههم ومقاصدهم هو: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، وانتخبوا ابن باديس رئيسًا لها لقد كان هذا الاحتفال الحافز الجدي لتأسيس جمعية العلماء فكانت العصبة التي تحفظ الذات الجزائرية المهددة من قبل المستعمر حيث اسفر نداء ابن باديس الذي اطلقه عبر الشهاب عن اجتماع ثلاثة من رفاقه في نادي الترقي وهم محمد العاصي ومحمد عبابسة وعمر إسماعيل حيث طرح بداية فكرة تأسيس حركة قومية في الجزائر إلا أن هذه الفكر استبعدت واستقر راي المجتمعين على تكوين حركة غير سياسية وإنما من خلال روحها تسيطر على الساحة السياسية في الجزائر فكانت فكرة الجمعية وكان هدفها الأول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجمع الأمة الجزائرية حول هدف واحد وقد كان تسمية محمد العاصمي هي ما تفق عليه فاطلق عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الخطيب، ١٩٨٥، ص. ١٠٠) .وقد نجحت الجمعية في توحيد الصفوف لمحاربة المستعمر الفرنسي. وحشد الأمة الجزائرية ضدها، وبعث الروح الإسلامية في النفوس، ونشر العلم بين الناس، وكان إنشاء المدارس في المساجد هو أهم وسائلها في تحقيق أهدافها، بالإضافة إلى الوعّاظ الذين كانوا يجوبون المدن والقرى، لتعبئة الناس ضد المستعمر، ونشر الوعي بينهم (زروفة، ١٩٩٩،ص. ١٢٥).

ولعب الشيخ عبد الحميد بن باديس وإخوته في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دورًا معتبرًا في إعادة بناء الإنسان الجزائري وصقل شخصيته القائمة على بعدي العروبة والإسلام، وكان مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يرى أنّه يستحيل على الجزائريين أن يحاربوا فرنسا وهم مسلوبون حضاريًا وثقافيا، فعكف على إقامة المعاهد التعليمية والمدارس القرآنية والعربية التي ألغتها فرنسا وحاربتها من باب تجفيف المنابع، وقد نجح عبد الحميد بن باديس في إنشاء تيار عريض في الساحة الجزائرية يتخذ من هويته الثقافية عنوانا له، واستطاع أن ينسف مقولة الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون الجزائريين فرنسيين حيث كتب قائلا في جريدة الشهاب لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: "أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبي حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، استوح الإسلام ثمّ أستوح تاريخك وقلبك وأعتمد على نفسك وسلام الله عليك". (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٣٦٥).

ولكي ندرك أهمية ما قام به ابن باديس ورفاقه من العلماء الغيورين، يجب أن نعلم أن فرنسا منذ أن وطأت قدماها الجزائر سنة (١٢٤٦ هـ/١٨٣٠م) عملت على القضاء على منابع الثقافة

الإسلامية بها، فأغلقت المدارس ووضعت قيودًا مهنية على فتحها، والتي قصرتها على حفظ القرآن لا غير، مع عدم التعرض لتفسير آيات القرآن، وبخاصة الآيات التي تدعو إلى التحرر، وتنادي بمقاومة الظلم والاستبداد، وعدم دراسة تاريخ الجزائر، والتاريخ العربي الإسلامي، والأدب العربي، وتحريم دراسة المواد العلمية والرياضية (الصنهاجي،١٩٦٨، ج٣، ص. ٢٥٩).

لقد كان للهدف الأساسي للجمعية والذي ورد في بيانها الأول أثر كبير في نفوس أبناء الشعب الجزائري حيث هدفت الى محاربة الآفات الاجتماعية والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتمنعه القوانين الجاري العمل بها وأنه يحق للجمعية أن تؤسس شعبًا لها في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي (الخطيب،١٩٨٥، ص. ١١١). أن هذا الشعار أو الهدف الذي انطلقت منه جمعية العلماء أعطاها الحق في أن تطرح فكرها من خلال المدارس والنوادي التي سمح لها في إنشائها في مختلف نواحي الجزائر ومن هذه الأماكن سينطلق مواكب المحررين لبلادهم من قيد الاستعمار كما كان يرى مؤسس هذه الجمعية ورفاقه وفق نظرتهم البعيدة للأحداث.

لقد كان ابن باديس ورفاقه حاذقين جدًا فاستطاعوا أن يحاربوا البدع والضلالات المنتشرة في الجزائر من جراء تشجيع المستعمر لطرق الصوفية فكان أحد أهدافهم الصريحة محاربة البدع والخرفات المنتشرة، كما استطاعوا من خلال الهدف الأساس نشر التعليم باللغة العربية، وتعزيز ونشر روح ومبادي التعاليم الإسلامية التي كانت تحاربها فرنسا بكل قوة عن طريق إرسال البعثات التبشيرية التي انتشرت في مختلف أنحاء الجزائر مستغلة حالة العوز والفقر والبطالة التي سادت أثناء الاستعمار الفرنسي فكان للجمعية الدور الأبرز في محاربة كل هذه الأمور بطريقة تدريجية تبدأ من تنشئة الجيل على المحافظة على قيمة وعاداته وتقاليده والتمسك بدينة. (الخطيب، ١٩٨٥، ص. ١١٥).

إن إسهام جمعية العلماء المسلمين في بعث روح النهوض في المجتمع الجزائري كان إسهامًا قويًا حتى قيل عن الجمعية "والحق انه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيرًا واضحًا مثلما فعلت جمعية العلماء واذا كانت المنظمات الأخرى بما في ذلك الأحزاب السياسية قد خاطبة فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب، فإن خطاب جمعية العلماء كان قد وصل أفقيًا وعاموديًا إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدنية ومن ثَمَّ هزت المجتمع الجزائري هزًا عنيفًا (زروقة، ١٩٩٩، ص.٩٥).

لقد أسس ابن باديس جمعية العلماء المسلمين مع مجموعة من العلماء الجزائريين وحافظ عليها كي تحافظ على قيم المجتمع الجزائري وجنبها كل احتكاك مباشر في بداية التأسيس مع السلطات الفرنسية حيث كان يكتب مقالته الداعية الى حقوق الشعب الجزائري والمطالبة بمسواته مساوة كاملة وإعطائه حقوقه غير منقوصة في مجلته كي يجنب الجمعية وزملائه الإحراج وأن يتحمل هو شخصيًا لا أحد سواه مسؤوليته عما يقوم به، وقد عبر عن ذلك بقوله: إن ميدان العمل في هذه الجمعية لميدان واسع وهناك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها باسمها، ولكن إن كان فيها منفعة أدخلها باسمي إن كان عند قومي قيمة لاسمي وأرجوا أن يعينني الله عليها (فركوس،٢٠١٤،ص. ٢١). بهذه العبارات عبر ابن باديس عن حرصه على الجمعية وأهدافها، وأنه يتحمل هو شخصيًا ما يترتب على أفكاره وطروحاته التي سيعرضها باسمه الشخصي بعيدًا عن أي اعتبارات.

٣/٣-إسهامات ابن باديس السياسية

تحمل علماء الجزائر العبء الأكبر في مقاومة الاستعمار الفرنسي وقادوا الأمة في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية وكان ابن باديس يرى انه من حق علماء الجزائر أن يقودوا الحركة السياسية في الجزائر فقد قال: "ما هذا العيب الذي يُعاب به علماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من أثار الوزير القسيس رشيلو؟ افيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة وإنما لكل أمرئ ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٢٩٥، مطبقاني، ص. ٨٦). وقد دعا في محاضرة له بتونس سنة (١٣٥٦هـ/١٩٣٧) العلماء المسلمين على خوض غمار السياسة وعدم الاكتفاء بالعلم فالواجب الشعبي يحتم عليه خوض هذا المجال فيقول: "كلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجد". (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٨٧).

وكانت بدايته مع السياسة مقرونة ببداية امتهانه للتعليم للنشر العلم بين أبناء الأمة الجزائرية وتعريفهم بقضائهم ومشاكلهم وقد لخص هذا الحال بقوله عندما جاؤوا تلاميذه إليه يطلبون منه أن يدعوا للاستقلال فقال لهم: يا أبنائي مَنْ أراد أن يبني منزلاً هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال فبماذا إذن قالوا بالأساس والجدران فقال: هذا ما أفعله الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص.٩٢). لم يكن ابن باديس مصلحًا فحسب، بل كان مجاهدًا سياسيًا، مجاهرًا بعدم شرعية الاحتلال الفرنسي، وأنه حكم استبدادي غير إنساني، يتناقض مع ما تزعمه من أن الجزائر فرنسية، وأحيا فكرة الوطن الجزائري بعد أن ظنّ كثيرون أن فرنسا نجحت في جعل الجزائر مقاطعة فرنسية، ودخل في معركة مع الحاكم الفرنسي سنة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) واتهمه بالتدخل في الشؤون الدينية للجزائر على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسي، وأفشل فكرة اندماج الجزائر في فرنسا التي خُدع بها كثير من الجزائريين سنة (١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٦م).

ودعا نواب الأمة الجزائريين إلى قطع حبال الأمل في الاتفاق مع الاستعمار، وضرورة الثقة بالنفس، ويرى أن تجاهل فرنسا لمطالب الجزائريين يحتم عليهم أن يقفوا في وجهها ويقوموا هذا الاستعمار وأن يعرفوا هم أنفسهم أن لهم قيمة وصوت يجب أن يسمعه الجميع، وأن الأمل مفقود في التعامل الدبلوماسي مع فرنسا لا سيما وأنها ترفض رفضًا قاطعًا التعامل مع الجزائريين المتمسكين بهوية الجزائر الإسلامية). (قاسم، د.ت، ص. ٧١)، وكان خطابه إلى جميع أحزاب الجزائر أن تتناسى خلافتها وأن تسموا فوق جراحها وخاطبهم بقوله: "حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب أمة ترى –أو ترى أكثريتها- ذلك كثيرًا علينا...! ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا"، ووقف ضد دخول الجزائر الحرب العالمية الثانية إلى جانب فرنسا (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٣٧١، سالم، ١٩٩٩، ص. ٣٤،٥٨).

وقد وقع خلاف بين ابن باديس وما يسمى باللجنة التنفيذية حيث لاحظ أن مطالب اللجنة لا ترق إلى مستوى وآمال تطلعات الشعب الجزائري، وهوجم ابن باديس في مختلف المنابر إلا أنه رد الواثق بنفسه ودعوته، وكان يرى أن التهجم عليه وعلى أفكاره دليل على قوتها وخوف المستعمر وأعوانه منها، وأنه كلما زاد المستعمر بطشًا وطغيان زاد الإصرار لدى الشعب على التحرر فما على فرنسا إلا أن تغير سياستها وإلا ستكون هي الخاسر الأول. وقد دعا للحرية والانعتاق من الاستعمار فهو يقول: "حق كلّ إنسان في الحرية كحقه في الحياة، والمتعدي عليه في شيء من حريته هو المتعدي عليه في شيء من حياته، وما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما أنزل عليهم الكتب، وما شرع لهم الشرع، إلاّ ليعرّف بني آدم كيف يحيون أحرارًا وكيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية، وكيف يعالجون آفاتها، وكيف ينظمون تلك الحياة وتلك الحرية حتى لا يعتدي بعضهم على بعض وحتى يستثمرون تلك الحياة وتلك الحرية إلى أقصى حدود الاستثمار النافع المفضي بهم إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة... ولقد كانت هذه الشريعة المحمدية بما سنّت من أصول وما وضعت من نظم وما فرضت من أحكام أعظم الشرائع في المحافظة على حياة الناس وحريتهم، وما كان انتشارها ذلك الانتشار العظيم في الزمان القليل على يد رجالها الأوّلين إلا لما شهدت فيها الأمم من تعظيم للحياة والحرية والمحافظة عليها وتسوية بين الناس فيها مما لم تعرفه تلك الأمم من قبل: لا من ملوكها ولا من أحبارها ولا من رهبانها".(الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ٤٠٨).

وفي بداية المرحلة اتخذ ابن باديس شعار "الحقّ، والعدل، والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق الذين قاموا بجميع الواجبات"، رجاء تحقيق مطالب الشعب الجزائري بطريق سلمي، ولكنّه بعد عودة وفد المؤتمر من باريس سنة: (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، اقتضت طبيعة المرحلة الجديدة إزاحته واستبداله بشعار آخر وهو: "لنعتمد على أنفسنا، ولنتكل على الله"، تعبيرًا على الحزم على الكفاح وغلق القلوب على فرنسا إلى الأبد والاستعداد للدخول في معركة ضارية، كما عبّر ذلك بقوله رحمه الله مخاطبًا الشعب الجزائري: قائلاً... وإن ضيّعت فرنسا فرصتها هذه، فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا إلى الأبد... واعلم أنّ عملك هذا على جلالته ما هو إلاّ خطوة ووثبة، وراءها خطوات ووثبات، وبعدها إمّا الحياة أو الممات"، وهذه الحقيقة عبّر عنها أيضًا في مقال آخر سنة: (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧) بلفظ (المغامرة والتضحية) وهي طريق الكفاح والحرب للخلاص من فرنسا، وظلّ ابن باديس وفيًّا لهذا المسلك الشمولي في مواجهته للاستعمار خلال كلّ سنوات نشاطه السياسي المندرج في نشاطه العامّ (زروقة، ١٩٩٩،ص. ١٥٢).

لقد حمل ابن باديس بالإضافة إلى الهم الداخلي، هم خارجي وهو هم الأمة العربية والأمة الإسلامية، ويشعر أن الوجع واحد، والهدف واحد وهو القضاء على الأمة العربية والإسلامية من قبل القوى الأوربية الطامعة في ديار المسلمين، والهادفة إلى احتلالها ونهب خيرتها، فيقف وقفة واضحة وصريحة ضد

التدخل البريطاني في فلسطين، ويرى أن البريطانيين يمهدوا الأرض للصهاينة للاحتلال فلسطين فيقول: "تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فانتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل، وقذف بهم إلى فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيمًا لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحًا لا يندمل" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٤١٣). بهذه الكلمات لخص لنا ابن باديس معاناة الأمة العربية والإسلامية وما تمثله فلسطين للجميع المسلمين.

٤/٣-نشاطه الصحافي

كان ابن باديس صحفي وقورًا هادئ رزين، يختار الموضوع، ويحدد المشكلة ثم يصف الدواء، شغوفًا بقراءة الصحف والمجلات العربية كالمنار للإمام رشيد رضا، ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب، وجريدة المؤيد واللواء والجرائد الفرنسية لادييش دوكونستونتين ولوتو وعن هذه الصحف الأخيرة يقول ابن باديس "لا ننكر أننا مع المعجبين بالصحافة الفرنسية الكبرى، ومالها من بديع نظام، ومهرة أقلام، وجرأة وإقدام"" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص٢٩٨). وكان على يقين بالدور الفعَّال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار، وكان أول احتكاك فعلي له مع الصحف عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩) حيث كان مساعدًا في تأسيس جريدة النجاح بقسنطينة ومشاركًا فعالاً في تحريرها وكتابة مقالاتها، ثم فكر في تأسيس صحيفة منفصلة له لتحقيق أهدافه ودعم نشاطه التربوي خارج المسجد (صندل، ٢٠١٣، ص. ٣٢).

وفي بداية تموز من عام ١٩٢٥ أصدر العدد الأول لصحيفة "المنتقد". التي أخذت شعار "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء". وفي العدد الثاني الصادر في ٩ تموز ١٩٢٥م، أكد من جديد على استقلالية الجريدة وشرح فلسفتها التي تعتمد على الوفاء للوطن والجرأة في بيان الحق "إننا لسنا لإنسان، ولا على إنسان، وإنما نخدم الحق والوطن، وأصبحت الصحيفة منبرًا لتوجيه وتوعية الجزائريين وقناة لنقد الوضع الاستعماري المفروض على الجزائر وصوتًا لمناصرة القضايا الكبرى للمسلمين في فترة العشرينيات كثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ومساندة الشعب الليبي. أوقفت السلطة الاستعمارية صحيفة المنتقد بعد ظهور ١٨ عددًا، فكان مصيرها كالعروة الوثقى التي أنشأها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وأوقفتها السلطات الفرنسية والبريطانية بعد صدور العدد الثامن عشر (سالم ١٩٩٩، ص. ٥٣، زروقة، ١٩٩٩، ص. ١٧٨).

أصدر الإمام عبد الحميد بن باديس جريدة أسبوعية سمَّاها الشهاب ثم حوّلها إلى مجلة شهرية. في سنواتها الأولى، كتب معظم مقالاتها وقام بتصميمها وكان يوزعها بنفسه، وكان مثله كمثل أبي الأعلى المودودي صاحب مجلة ترجمان القرآن في بداية مشواره الدعوي. وأصبحت فيما بعد تضم افتتاحية، ومقالات، وفتاوى، وقصصًا، وأخبارًا، وطرائف، وتراجم، وعرضًا للكتب، والصحف العربية، والأجنبية، وتنشر مقالات للكتاب والشعراء العرب من مصر، ولبنان، وتونس، والمغرب. وأصبح لهذه المجلة شهرة واسعة في العالم الإسلامي وصدر في حياته منها خمسة عشر عددًا، وشهد بفضلها كبار العلماء والمصلحين (الزركلي،١٩٨٦ ج٣، ص. ٢٨٩).

وتقديرًا لجهوده كتب الإمام حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات كلمة وجهها للإمام عبد الحميد بن باديس ومجلته الشهاب قائلاً: "قامت مجلة الشهاب الجزائرية التي كان يصدرها عبد الحميد بن باديس في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وإنا لنرجو أن تقفو "الشهاب" المصرية الناشئة أثرها وتجدد شبابها، وتعيد في الناس سيرتها في خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام، على أن الفضل للمتقدم وفضل السبق ليس له كفاء". وكتب أيضًا في السياق نفسه المفكر السوري الدكتور محمد المبارك في مجلة المجمع العلمي الدمشقية أنه كان يطالع في شبابه في الثلاثينيات مجلة الشهاب الجزائرية التي تصل إلى دمشق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة "بلهفة شديدة". وعن تأثيرها في المغرب، يقول الشيخ محمد غازي أحد علماء فاس "مجلة الشهاب الغراء خدمت الإسلام والمسلمين عمومًا والإصلاح والمصلحين خصوصًا، تلك الجريدة التي كان الشمال الإفريقي متعطشًا لمثلها منذ زمان (زروقة، ١٩٩٩، ١٨٥-١٨٧).

وفرض الشيخ عبد الحميد بن باديس نفسه على عالم الصحافة في فترة العشرينيات والثلاثينيات وصار رائدًا من رواد الصحافة العربية الحديثة وأرسى دعائمها على أسس متينة من الإيمان بالمبدأ والوطنية والتقاليد الصحافية العالية. وأصدر ابن باديس مجموعة من الصحف وهي: جريدة المنتقد، جريدة الشهاب. وشارك في تحرير الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومنها السنة، والصراط، والبصائر، والشريعة (شاهين ورمضان، ٢٠٠٢، ص. ٩). وله عدة مؤلفات منها: تفسير ابن باديس في مجالس الذكر، من الهدي النبوي،

رجال السلف ونساؤه، عقيدة التوحيد من القران والسنة، أحسن القصص، رسالة في الأصول، مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية، (شاهين ورمضان، ٢٠٠٢، ص. ١٤).

رابعًا: وفاته

عاش ابن باديس حياة حافلة بالعطاء من أجل تحرير أمته ونسي ابن باديس نفسه في غمرة انهماكه بالعمل العام من اجل خدمة قضية عاش ومات وهو محافظ على مبادئه مقاوم لكل الإغراءات (زروقة، ١٩٩٩، ص.١٠١). وفي مساء يوم الثلاثاء ٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ، الموافق ١٦ نيسان ١٩٤٠م، على الساعة الثانية والنصف بعد الزوال أسلم ابن باديس روحه الطاهرة لبارئها، متأثرًا بمرضه بمسقط رأسه مدينة قسنطينة، والبعض قال إنه مات مسمومًا (الخطيب،١٩٨٥، ص.١٤٦، شاهين ورمضان، ٢٠٠، ص. ١٥).

وقد شيعت جنازته في اليوم التالي لوفاته الموافق عصر يوم الأربعاء ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ، الموافق ١٧ نيسان ١٩٤٠م، وحمل جثمانه إلى مثواه طلبة الجامع الأخضر دون غيرهم وسط جموع غفيرة ما يزيد عن مئة ألف نسمة، جاءوا من كافة أنحاء القطر الجزائري لتوديعه الوداع الأخير، في حين كان عدد سكان قسنطينة آنذاك لا يتجاوز ٥٠ ألف نسمة (الميلي،٢٠٠٧، ص٧). وقد تركت وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس فراغًا كبيرا في صفوف الحركة الوطنية، وفي رجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر وغيرها، وبين جماهير الشعب التي كانت تعتبره الزعيم المخلص، والوطني الغيور على دينه، ولغته، وشعبه، ووطنه، وعلى الإسلام والعروبة، بصفة خاصة وقد قال الشيخ الشهيد العربي بن بلقاسم التبسي في تأبينه في المقبرة ما يلي: "لقد كان هو الجزائر كلها فلنجتهد الجزائر بعد وفاته أن تكون هي الشيخ عبد الحميد بن باديس" (فلوسي، ٢٠٠٦، ص. ٤٤).

خاتمةٌ

عالج البحث موضوعًا مهمًا في جهود باني النهضة الجزائرية الإمام عبد الحميد بن باديس، وأبرز البحث جوانب مهمه للإمام عبد الحميد بداية من نشأته والعوامل المؤثرة في حياته، ومجالاته الإصلاحية مبتدئًا بالتربية والتعليم الذي اعتبرها الأساس وهي مهمة للكبار والصغار للرجال والنساء، بل وركز على المرأة بشكل خاص، كما شدد على الاهتمام بالعلماء لأنهم منارة المجتمع. ومنهم يكون أساس الإصلاح بكافة جوانبه، كما ركز على الجوانب الدينية، وأسس جمعية العلماء المسلمين، وركز على السياسية وأخذ الصحافة منبرًا لبث كل أفكاره وتوجهاته.

إن الدارس لشخصية الإمام عبد بن باديس يجد صعوبة كبيرة في دراسته، ليس لندرة أو قلة المصادر والمراجع، بل لصعوبة تحديد أي جانب من الجوانب الكثيرة الغزيرة بالعلم والثقافة، الممتلئة بحب الأوطان، الواعي لخطورة مآرب الاستعمار الذي لا يقف عند حدود معينة والداعمة للحركة الصهيونية في كافة مناطق الإسلام والعروبة.

كانت أراء ابن باديس ومواقفه ذات أثر كبير ليس في حياته فقط وإنما بعد وفاته، فقد استمرت الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار الفرنسي وتمخضت عنها ثورة المليون ونصف المليون شهيد عام ١٩٥٤م، كما يرجع الفضل لابن باديس في إذكاء روح التحرر والمطالبة بالاستقلال لدى كافة الشعوب العربية في أفريقيا.

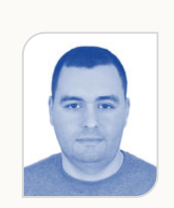
المصادر والمراجع:

- التقاز، عبد الله عبد العزيز (٢٠١٢)، **عبد الحميد بن باديس ودوره الفكري والسياسي**، المجلة العلمية لكلية الآداب، ٤١، ١١٥-١٠٤.
- الجزار، أحمد محمود، (١٩٩٩)، **الإمام المجدد ابن باديس والتصوف**، منشاة المعارف، الإسكندرية.
- الخطيب، أحمد، (١٩٨٥)، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الزركلي، خير الدين (١٩٨٦)، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج٣، دار العلم للملايين.
- زروقة، عبد الرشيد، (١٩٩٩)، **جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر**، دار الشهاب.
- سالم، محمد بهي الدين (١٩٩٩)، **ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير**، دار الشروق.
- شاهين، توفيق محمد، رمضان، محمد صالح، (٢٠٠٢) **تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير للإمام العلامة عبد الحميد بن باديس**، دار الكتب العلمية.
- الصنهاجي، عبد الحميد محمد بن باديس (١٩٦٨)، **أثار ابن باديس، أربعة أجزاء**، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٨م.
- العسلي، بسام (١٩٨٣)، **عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة**، دار النفائس.
- فركوس، أبو عبد المعز (٢٠١٤)، **شرح عقيدة التوحيد للإمام ابن باديس، الجزائر**، دار العواصم.
- فركوس، أبو عبد المعز محمد علي (٢٠١١)، **الإعلام بمنثور تراجم المشاهير والأعلام**، دار الموقع.
- فلوسي، مسعود بن موسى (٢٠٠٦)، **الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده**، دار قرطبة.
- قاسم، محمود (١٩٦٨)، **الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية**، دار المعارف.
- الميلي، محمد (٢٠٠٧)، **ابن باديس وعروبة الجزائر**، وزارة الثقافة الجزائرية.
- الإبراهيمي، أحمد طالب، (١٩٩٧)، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ج٣ عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

جريدة التحرير
لسان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية ١٩٠٩ - ١٩٦٣



د. نعيم الخرازي

دكتوراه في التاريخ الراهن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

أكاديمية الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخّص

تتناول هذه الدراسة تجربة من الصحافة الحزبية، وجانبًا من جوانب معارضة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية للنظام الملكي بعد الاستقلال. وتهدف هذه الدراسة إلى تحديد ظروف تأسيس الحزب وإصداره جريدة التحرير، وتتبع مسار خط تحريرها، ومعرفة أهم القضايا التي اهتمت بها، وكذا رصد هامش الحرية الذي كان متاحا أمام الصحافة الحزبية في بدايات الاستقلال. كما يتطرق المقال إلى ردود فعل النظام ومختلف أجهزة الدولة على خطاب الجريدة الحاد والعنيف تجاهها بالوسائل المشروعة وغير المشروعة مثل المصادرة، والحجز، والمنع، والمحاكمات، واعتقال مدير الجريدة ورئيس تحريرها منتصف دجنبر/كانون الأول ١٩٠٩، وصولا إلى تفجير مطبعة مقر الجريدة شتنبر/أيلول ١٩٦٢. كما تُحدد الدراسة أيضًا الظروف التي توقفت فيها الجريدة مؤقتًا لما يقارب السنة ما بين ١٩٠٩ و١٩٦٠، وتعويضها بجريدة الرأي العام ثم توقفها نهائيًا أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣. وقد تبين من الدراسة أن جريدة التحرير أشادت بإنجازات عبد الله إبراهيم، والوزراء المحسوبين على الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في حكومته، لكنها تعرضت للمتابعة القضائية من طرف وزراء الدفاع، والتهذيب الوطني، والبريد في حكومته فضلاً عن المدير العام للأمن الوطني مما يدل أن رئيس الحكومة لم تكن له سلطة على أولئك الوزراء التابعين للقصر. وتدريجيًا أصبحت الجريدة أداة اصطدام بين الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والنظام.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	أكتوبر	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الاتحاد الوطني؛ القوات الشعبية؛ التحرير؛ القصر؛ الحسن الثاني

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2022.311157 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نعيم الخرازي، "جريدة التحرير: لسان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية ١٩٠٩ - ١٩٦٣".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٢٦ – ١٣٨.

Corresponding author: naim.elkharrazi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

تشكل الصحافة بكل أنواعها المستقلة والحزبية والرسمية والمستأجرة (الصفراء) مصدرًا وثائقيًا أساسيًا، ومنجمًا غنيًا بالمعلومات والمعطيات التي لا غنى عنها للباحث في التاريخ المعاصر والراهن في إعادة قراءة وتحليل أحداث معينة. وتُعَدّ الصحافة الحزبية منبرًا للتواصل مع المناضلين والمتعاطفين، وتعبئة الجماهير، وتوجيه الرأي العام، وتجييش الأنصار ومواجهة الخصوم والمنافسين السياسيين وأجهزة الدولة، وكذا قناة ضرورية لتصريف مواقف الحزب والدفاع عن توجهاته الإيديولوجية، والدعاية لأفكاره.

إن القراءة المتأنية بعد المسح الشامل لأرشيف صحافة حزب ما في فترة معينة تتطلب الإلمام الجيد بالفترة التاريخية المدروسة على كافة المستويات، والمعرفة الدقيقة بتاريخ الحزب ومكوناته، وتحديد موقعه في الحكومة أو المعارضة، ومكانته ووزنه في الساحة السياسية. كما يتعين استحضار السياقات الدولية والإقليمية والوطنية، والتسلح بعدة منهجية صارمة وحس نقدي عال. وتساعد القراءة الرصينة لأرشيف صحافة الحزب الباحث في تاريخ الزمن الراهن على توثيق حدث ما، وإعادة ترتيب الوقائع، ودراسة تفاعل النخبة والجماهير مع الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية والرياضية، ومعرفة ردود فعل الرأي العام على القرارات الحكومية، وكذا رصد القضايا والمواضيع التي شغلت الأحزاب والنقابات والجمعيات والشعب عمومًا.

وشكلت جريدة التحرير، لسان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وسيلة من وسائل معارضة ومواجهة الحزب للدولة. وساهمت في رفع مستوى التوتر بين الطرفين حول العديد من القضايا ما بين سنتي ١٩٥٩ و١٩٦٣ من قبيل دعم الثورة الجزائرية، وجلاء القوات الأجنبية عن التراب الوطني، واسترجاع أراضي المعمرين، ومسألة التعليم، ودستور ١٩٦٢، والانتخابات التشريعية مايو/ أيار ١٩٦٣... مما عرضها لسلسلة من المحاكمات والمضايقات والحجز ليتوقف إصدارها نهائيًا أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٣.

فما هي ظروف إصدار الجريدة؟ ما هو خطها التحريري؟ ما أبرز القضايا التي اهتمت بها؟ ما هي المضايقات والمتابعات القضائيات التي تعرضت لها؟ ولماذا توقف إصدارها أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣؟

١- تأسيس الاتحاد الوطني للقوات الشعبية شتنبر/ أيلول ١٩٥٩

ضم حزب الاستقلال منذ تأسيسه دجنبر/ كانون الأول ١٩٤٣ أطيافا وفعاليات وطنية من مختلف فئات المجتمع المغربي البرجوازية والشعبية، ولعب أدوارا كبيرة في تنظيم وتأطير المغاربة لمواجهة سلطات الحماية الفرنسية وتحقيق الاستقلال. وأصبح الحزب بعد عودة السلطان محمد بن يوسف إلى المغرب نونبر/تشرين الثاني ١٩٥٥ فاعلا أساسيا في الحقل السياسي المغربي مدعومًا بالاتحاد المغربي للشغل، وجزء كبير من حركة المقاومة وجيش التحرير، وقاعدة جماهيرية عريضة، وهياكل تنظيمية قوية ممتدة عبر ربوع البلاد. كما تولى بعض قادته مناصب وزارية عديدة في حكومات المغرب المستقل الأولى ما بين دجنبر/كانون الأول ١٩٥٥ ويناير/كانون الثاني ١٩٦٣. لكن الوحدة التي جمعت مكونات الحزب المتباينة وغير المتجانسة زمن الحماية ضد الاستعمار سرعان ما تصدعت غداة الاستقلال، وبدأت بوادر الانشقاق والانفصال تدب في صفوفه.

بدأ الخلاف في بين جناحي حزب الاستقلال المحافظ والتقدمي عقب استقالة حكومة البكاي الثانية يوم ١٦ أبريل/ نيسان ١٩٥٨، وانطلاق المشاورات بين حزب الاستقلال والملك محمد الخامس حول تشكيل حكومة منسجمة تقتصر الاستقلاليين فقط. ضم الجناح التقليدي المحافظ معظم أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب، وتشكل الجناح التقدمي اليساري من المهدي بن بركة، وعبد الرحيم بوعبيد، وعبد الله إبراهيم، ومحمد الفقيه البصري، والمحجوب بن الصديق.

وقد انتدبت اللجنة السياسية للحزب عبد الله إبراهيم، والمحجوب بن الصديق، والفقيه البصري لتتبع تطور الأزمة الحكومية مع اللجنة التنفيذية[1]. وخلال اجتماعات قيادة الحزب ما بين أبريل/نيسان وماي/أيار ١٩٥٨ ظهرت الخلافات حول طريقة تدبير المفاوضات مع القصر، وحق الملك في تعيين بعض الوزراء (الداخلية، والصحة، والبريد)، وتوزيع بعض المناصب الحكومية بين أعضاء اللجنة التنفيذية المكلفين بالتفاوض مع القصر والذين كانوا يتفادون المواجهة مع الملك محمد الخامس، ويميلون إلى قبول مقترحاته في شأن تركيبة الحكومة، وممثلي النقابة والمقاومة (المحجوب بن الصديق، وعبد الله إبراهيم، والفقيه البصري) في اللجنة السياسية الذين أكدوا على ضرورة وضع شروط الانسجام، واحترام برنامج الحزب، والتشدد مع القصر في المفاوضات، وأبدوا تصلبا في آرائهم ومواقفهم[2].

وهكذا تسببت مشاورات تشكيل الحكومة في أزمة داخل الحزب. وبعد تنصيب حكومة أحمد بلافريج في ١٦ ماي/أيار ١٩٥٨، قاد قادة النقابة والمقاومة حملة المعارضة والتشهير برئيس الحكومة وأعضائها على صفحات جريدة الطليعة، لسان الاتحاد المغربي للشغل، ومن خلال المحاضرات والعروض التي كانوا يلقونها في مختلف المناسبات، مبرزين عيوب الحكومة، واتهموها بعدم القدرة على التسيير، وبأنها حكومة النخبة وأصحاب المصالح والبرجوازيين، وغير ذلك من النعوت التي أثارت حفيظة بعض قادة الحزب. كما أعلن الاتحاد المغربي للشغل عن سلسلة من الإضرابات من يونيو/حزيران إلى أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٨ لإزعاج الحكومة، أهمها وأخطرها إضراب موظفي الإدارات العمومية يوم ٥ يونيو/ حزيران ١٩٥٨[٣].

وتعمق الخلاف بين جناحي الحزب أثناء الاستعدادات لتحضير مؤتمر الحزب الذي تقرر انعقاده أولا يوم ٢٠ شتنبر/أيلول ١٩٥٨، ثم أجل إلى يوم ١١ يناير/كانون الثاني ١٩٥٩ حول طريقة التصويت، وأحقية مشاركة أعضاء اللجنة التنفيذية مباشرة في المؤتمر دون المرور بمسطرة الانتخاب؛ حيث عارض محمد منصور، ممثل المقاومة، ومحمد عبد الرزاق، ممثل النقابة، هذه المسألة؛ الأمر الذي أدى إلى تعطيل عمل اللجنة المكلفة بتحضير المؤتمر، وعرقلة تنظيم مؤتمر الحزب في موعده، ومهد لانقسام الحزب[٤].

ويوم ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٥٩، عقد قادة التيار اليساري عدة مؤتمرات جهوية للانشقاق عن حزب الاستقلال، وأعلنوا تأسيس الجامعات المتحدة لحزب الاستقلال[٥]. غير أن قيادة حزب الاستقلال رفعت دعوى قضائية ضد هذا التنظيم الذي اعتمد على اسم حزب الاستقلال في التسمية الجديدة للجامعات المتحدة، مطالبة بعدم استعماله[٦].

ويوم ٦ شتنبر/أيلول أسس المنشقون عن حزب الاستقلال إلى جانب أعضاء من حزب الشورى والاستقلال ومن الحركة الشعبية والأحرار المستقلين، وعناصر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي تكون من ثلاث تيارات أساسية: التيار السياسي بزعامة المهدي بن بركة، والتيار النقابي بقيادة المحجوب بن الصديق، وتيار المقاومة وجيش التحرير وعلى رأسه محمد الفقيه البصري. وكان ولي العهد مولاي الحسن ينظر بعين الريبة إلى هذا المولود الجديد، واعتبره منافسا قويا يجب إزاحته.

٢-ظروف إصدار جريدة التحرير ثاني أبريل/نيسان ١٩٥٩

ذكر محمد البصري أن مشروع جريدة التحرير وضع في الأساس ليكون منبرا إعلاميا خاصا بجيش التحرير في الجنوب. وأضاف أنه قام بزيارات مكثفة في هذا الشأن، في الصحراء والمغرب الشرقي. كما أن الدعوة إلى الاكتتاب لتأسيس الجريدة لقيت استجابة واسعة من أجل تغطية المعارك التي كان جيش التحرير يقوم بها والتوعية بمعركة الوحدة الترابية[٧]. وفي خضم الصراع بين جناحي حزب الاستقلال ما بين سنتي ١٩٥٨ و١٩٥٩، كان قادة الانفصال في حاجة إلى جريدة للتعبير عن مواقفهم، والدفاع عن أفكارهم وتنظيمهم فتم الاحتفاظ بمشروع جريدة التحرير لتكون لسان حال الجامعات المتحدة لحزب الاستقلال ثم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. كما كان الغرض أيضا من إصدار الجريدة أيضا هو الرد على هجمات صحف حزب الاستقلال مثل العلم والأيام[٨] على حكومة عبد الله إبراهيم[٩].

التحق أغلب المحررين والعمال في جريدة العلم، لسان حزب الاستقلال، بجريدة التحرير. وترأس اليوسفي اجتماعات الإعداد لإصدار التحرير، وذلك في مقر الجامعات المتحدة لحزب الاستقلال بالدار البيضاء فوق مقهى فرنسا بجانب شارع محمد الخامس. وتم الاتفاق على أن يكون ثاني أبريل/نيسان ١٩٥٩ هو يوم إصدار العدد الأول[١٠]. حددت التحرير دواعي وأهداف إصدارها في العناصر التالية:

- انعدام صحافة وطنية موضوعية تزود الناس بالأخبار دون تحيز ولا تشويه باستثناء الطليعة ولافانكارد L'Avant-Garde، معتبرة أن الصحافة التي تدعي لنفسها الوطنية ليست إلا أبواقا غايتها خدمة مصالح أشخاص أنانيين يتطلعون لفرض سيطرتهم ووجودهم على الشعب.
- تنوير الرأي العام وتثقيفه وتبصيره بشؤونه وبحقيقة الأوضاع من حوله.
- كون الصحافة الأجنبية سواء الصادرة بالمغرب أو خارجه مسخرة على العموم لخدمة مصالح المستعمر والتمكين له في المغرب بشتى الوسائل[١١].
- مناقشة مشاكل البلاد، والمساهمة في خلق وعي وطني صحيح، وإنشاء رأي عام متبصر، وتوجيه الطاقة الشعبية إلى العمل الإيجابي بغية خلق مجتمع ديمقراطي تقدمي[١٢].

- مواجهة الصحف الصادرة في المغرب التي تقوض دعائم الاستقلال، وتخدم أصحاب المصالح الدنيئة ومصالح الاستعمار المناهضة لكل عمل تقدمي منظم[١٣].

صدرت الجريدة في ست صفحات من الحجم الكبير إلى غاية منتصف دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ ثم في أربع صفحات منذ ثاني دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠ إلى غاية توقف إصدارها. وتشكل طاقمها من محمد الفقيه البصري مديرا، وعبد الرحمان اليوسفي رئيسا للتحرير، ومحمد عابد الجابري سكرتيرا للتحرير ما بين ١٩٥٩ و١٩٦١، والذي خلفه محمد بن علال الصديقي في المنصب ذاته ما بين ١٩٦١ و١٩٦٣. وشغل عبد الحي الشامي منصب المدير الإداري[١٤].

وتكونت هيئة التحرير من: محمد باهي حرمة، عبد القادر الصحراوي، عبد الطيف جبرو، محمد البارودي، محمد زنيبر، محمد فتحي، محمد علي الهواري، إبراهيم كاميل، محمد الأزرق، مصطفى العماري، فضول الصائغ، حسن العلوي، السعيد الصديقي، صالح الزعيمي، عبد السلام حجي، صبري أحمد، عبد القادر البدوي، محمد الطنجاوي، عبد السلام البوسرغيني، عبد الله رشد[١٥].

ومن بين الصحفيين الذين تناوبوا على كتابة ركن "مذكرات التحرير" نذكر محمد الطنجاوي، محمد علي الهواري، أحمد صبري عبد السلام، حجي عبد القادر الصحراوي، محمد السوسي الأسفي، علي الجداوي، معتصم عبد الهادي، ومصطفى الصباغ. وهناك من كانوا يوقعون بأسماء مستعارة مثل أبو رياض، وأبو نزار، وحماد، ومعلم، سليم مالك. وكان عبد القادر البدوي يعد ركن الفن بالجريدة[١٦].

٣- نماذج من القضايا التي تناولتها التحرير

من خلال الاطلاع على جرائد التحرير المتوفرة ما بين أبريل/نيسان ١٩٥٩ ويوليوز/تموز ١٩٦٣[١٧]، يتبين أن الخط التحريري للجريدة كان موجها للرد على هجمات صحف حزب الاستقلال على حكومة عبد الله إبراهيم، وتغطية أنشطة الجامعات المتحدة لحزب الاستقلال (أعداد ما بين أبريل/نيسان وشتنبر/أيلول ١٩٥٩)، ثم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، والاتحاد المغربي للشغل، والاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وعمليات المقاومة المسلحة الجزائرية، وجيش التحرير بالجنوب، بالإضافة إلى الإشادة بإنجازات حكومة عبد الله إبراهيم. كما انتقدت الجريدة بشكل حاد القوات المسلحة الملكية وبعض الوزارات؛ لاسيما وزارة الداخلية والتهذيب الوطني (التعليم)، والسياسة الخارجية للبلاد، والنظام الملكي بعد إسقاط حكومة عبد الله إبراهيم ماي/أيار ١٩٦٠. وتناولت أيضا قضايا الفساد، والقضايا الاقتصادية والاجتماعية في تلك المرحلة. وسنقتصر على بعض النماذج من القضايا التي تناولتها التحرير ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٣.

١/٣-الإشادة بإنجازات حكومة عبد الله إبراهيم:

قامت التحرير بتغطية كل أنشطة عبد الله إبراهيم، رئيس الحكومة، المحسوب على الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، داخل وخارج المغرب، والإشادة بإنجازات حكومته والتدابير التي اتخذتها في مختلف المجالات. ونشرت كذلك بلاغات رئاسة الحكومة. كما خصصت عدة مقالات للتنويه بأدوار عبد الرحيم بوعبيد، وزير الاقتصاد، في تحرير وبناء الاقتصاد الوطني والتخلص من التبعية لفرنسا، والإشادة بجهود المعطي بوعبيد، وزير الشغل والشؤون الاجتماعية، والتهامي عمار، وزير الفلاحة. كما أعادت نشر المقالات الصادرة في الصحف العربية، وترجمت مقالات الصحف الأجنبية عن حكومة إبراهيم[١٨].

٢/٣-دعم الثورة الجزائرية:

تابعت التحرير منذ إصدارها كل ما يتعلق بتطورات الثورة الجزائرية، وقامت بتغطية العمليات العسكرية لجبهة التحرير الوطني، والتحركات الدبلوماسية للقادة الجزائريين الخارجية على مستوى المغرب العربي، وجامعة الدول العربية، والمؤتمرات الإفريقية الآسيوية، وهيئة الأمم المتحدة والحوارات الصحفية التي أدلوا بها. ونشرت كذلك تصريحات ومواقف قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية مثل المهدي بن بركة عن حرب التحرير الجزائرية داخل المغرب وخارجه. وطالبت الجريدة الحكومة التي ترأسها الملك محمد الخامس، وأشرف ولي العهد مولاي الحسن على تسييرها بتقديم الدعم المالي والسياسي والدبلوماسي للثورة الجزائرية. وانتقدت استعمال القوات الفرنسية الأراضي المغربية لضرب الثوار الجزائريين[١٩]. كما هاجمت مواقف الحكومة المغربية واتهمتها بالضعف والخذلان والعجز عن مواجهة الاعتداءات المتكررة للفرنسيين على الحدود، وكذا في فك أسر قادة الثورة الجزائريين المعتقلين[٢٠].

٣/٣-السياسة الخارجية للمغرب

قامت التحرير بتغطية الزيارات التي قام بها محمد الخامس وولي العهد ثم الحسن الثاني وعبد الله إبراهيم إلى البلدان الأجنبية. وأشادت التحرير بإنجازات عبد الله إبراهيم في مجال السياسة الخارجية الهادفة إلى دعم الوحدة العربية وحركات التحرر الإفريقية والثورة الجزائرية، ونهج الحياد في الحرب الباردة،

وكذا الدفاع عن قضايا المغرب وإجلاء القوات الاستعمارية[٢١].

ومنذ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠؛ أي بعد ستة أشهر على إقالة حكومة إبراهيم، وجهت التحرير انتقادات حادة لسياسة القصر الخارجية وكيفية تعامله مع بعض القضايا مثل قضية موريتانيا ومسألة جلاء القوات الاستعمارية.

اتهمت الصحيفة النظام بالارتجالية في تدبير ملف موريتانيا مما تسبب في إضاعتها[٢٢]. وهاجمت الجريدة بعنف الاتفاقية المغربية الفرنسية المبرمة يوم ٢ مارس/آذار ١٩٦١ التي وضعت جدولة زمنية لجلاء القوات الفرنسية، وإخلاء القواعد الجوية إلى غاية نهاية ١٩٦٣. ووصفت النظام الملكي بالتابع والخادم لمصالح فرنسا، والخاضع لإملاءات الولايات المتحدة الأمريكية مقابل الدعم المالي، والعاجز عن تحقيق الاستقلال التام[٢٣].

٤/٣-مشروع المعمل الكيماوي بآسفي أو ما عرف إعلاميًا بفضيحة آسفي ١٩٦١

هاجمت التحرير محمد الدويري، وزير الاقتصاد الاستقلالي، في موضوع فضيحة رشوة كبيرة عرفت بفضيحة المعمل الكيماوي أو فضيحة آسفي. ومفادها أن مشروع بناء ذلك المعمل، تمت دراسته في عهد عبد الرحيم بوعبيد بعد اتباع المسطرة القانونية، ووقع الاختيار على شركة أمريكية لإنجازه بإثني عشر مليار سنتيم. لكن محمد الدويري ألغى ذلك الاتفاق، ووقع عقدا جديدا مع ثلاث شركات لإنجاز المشروع بستة عشر مليار سنتيم، دون استشارة المجلس الإداري لمكتب الأبحاث والمساهمات المعدنية، ودون اتباع مسطرة المناقصة الجاري بها العمل في كل الإدارات. وكانت جريدتا التحرير والطليعة وجهتا اتهامها للوزير شخصيا في موضوع الرشوة. وطلبت منه جريدة التحرير تقديمها للمحاكمة لتدلي بما لديها من الحجج والبراهين على ذلك. وخلال اجتماع مجلس وزاري برئاسة الحسن الثاني يوم ١٨ ماي/أيار ١٩٦١ أسست لجنة للبحث والتقصي في الموضوع، لكن تحرياتها ظلت سرية ولم يطلع عليها الشعب المغربي[٢٤].

٥/٣-دستور ١٩٦٢

قررت اللجنة الإدارية للاتحاد الوطني للقوات الشعبية يوم ١٤ نونبر/تشرين الثاني ١٩٦٢ مقاطعة الاستفتاء على الدستور، وانخرطت التحرير بقوة في الدعاية إلى مقاطعة الاستفتاء على الدستور، وتغطية المهرجانات الخطابية والحملات الإعلامية التي قام بها قادة الحزب مستعملة خطابا حادا وعنيفا تجاه الملك الحسن الثاني، وأجهزة الدولة، وانتقدت طريقة إعداد الدستور ومضامينه، واصفة إياه بـ «الدستور المصنوع والممنوح، ودستور الحكم الإقطاعي، ودستور الصدقة». وبعد المصادقة على الدستور يوم ٧ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٢، اتهمت أجهزة الدولة بتزوير نتائج الاستفتاء، وواصلت انتقاداتها لأساليب التزوير التي استعملها النظام لإنجاح الاستفتاء على الدستور والأجواء التي مر فيها ذلك الاستفتاء، والتضييق على حملة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية[٢٥].

٦/٣-مسألة التعليم

اهتمت جريدة التحرير بقضية التعليم واتهمت وزارة التهذيب الوطني (وزارة التعليم) بالتقصير والعجز عن توفير الأساتذة وبناء المدارس، والاستجابة لتطلعات وحاجيات المغاربة في مجال التعليم[٢٦]، وضعف التكوين[٢٧]، وارتفاع معدلات الهدر المدرسي[٢٨]. كما قامت بتغطية إضرابات التلاميذ والطلبة والأساتذة المغاربة، وتتبعت أنشطة المجلس الأعلى للتعليم والاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والطلبة المغاربة في الخارج، ونشرت بلاغات الجامعة الوطنية للتعليم. وتطرقت كذلك لمشاكل التعليم الحر بالمغرب[٢٩].

٧/٣-الانتخابات التشريعية ماي/أيار ١٩٦٣

واكبت التحرير استعدادات إجراء أول انتخابات تشريعية في تاريخ المغرب المستقل التي جرت ماي/أيار ١٩٦٣. وانتقدت الأجواء التي مرت فيها الحملة الانتخابية، وتضييق السلطات الإدارية والأمنية على مرشحي ومناضلي وأنصار الاتحاد الوطني للقوات الشعبية واعتقال بعضهم، وترهيب المواطنين للتصويت لصالح حزب جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية[٣٠]. وهاجمت الحسن الثاني بعنف، واتهمته بتأسيس الفديك ودعمها ماليا وسياسيا وإداريا وإعلاميا وتسخير كل أجهزة الدولة لمساندتها بهدف الحصول على الأغلبية البرلمانية وتشكيل حكومة موالية له[٣١]. ووصفت الفديك بحزب الملك وجبهة الحسن الثاني[٣٢]، وأعضاءها بالخونة والإقطاعيين وسماسرة الاستعمار[٣٣]. كما قامت الجريدة بتغطية المهرجانات الخطابية لقادة ومرشحي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في مختلف ربوع البلاد، ونشرت خطاباتهم الحادة وانتقاداتهم اللاذعة للفديك والحسن الثاني[٣٤]. وبعد الإعلان عن تصدر جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية نتائج الانتخابات بـ ٦٩ مقعدا ثم حزب الاستقلال بـ ٤١ مقعدا متبوعا بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية بـ ٢٨ مقعدا وأخيرا المستقلين بـ ٦ مقاعد، اتهمت التحرير النظام بتزوير الانتخابات وإرشاء الناخبين، وأشادت بصمود الاتحاديين في مواجهة كل أنواع القمع والإرهاب الذي مارسته أجهزة الدولة[٣٥].

٤-المضايقات التي تعرضت لها الجريدة

تعرضت التحرير للحجز مرات عديدة مثل حجز عددي ٤ و٥ دجنبر/ كانون الأول ١٩٠٩[٣٦]، وأربعة أعداد متتالية مع بداية فبراير/شباط ١٩٦١ دون تقديم مبرر[٣٧]. وأرجعت الجريدة ذلك إلى تناولها مواضيع قضية الجلاء، وضريبة الترتيب[٣٨].

وكتبت الجريدة أن عددا من باعة التحرير في الدار البيضاء توصلوا برسائل تهديد بالموت أو إحراق دكاكينهم إن هم استمروا في بيع التحرير[٣٩]. وذكر محمد عابد الجابري، سكرتير تحرير الجريدة ما بين سنتي ١٩٥٩ و١٩٦١، أن السلطات الأمنية ضايقت المحررين والعاملين بالجريدة، وقامت بمطاردة وتخويف باعة الجريدة المتجولين زيادة على التنصت على مكالمات التحرير. وأضاف أن رجال الشرطة السرية كانوا يرابطون أمام باب مطبعة الجريدة لمراقبة الداخل والخارج، ويتعقبون تحركاته بين مقر الجريدة ومقر سكنه، وأن الرقابة كانت شديدة على الفقيه البصري إلى درجة الإزعاج المتعمد[٤٠].

٥-محاكمات التحرير ١٩٥٩-١٩٦٣

تجدر الإشارة إلى أن قانون الحريات العامة الصادر بتاريخ ١٥ نونبر/تشرين الثاني ١٩٥٨ يعد المنظم الأساسي لحرية الرأي وحرية الصحافة. ويوم ١٨ شتنبر/أيلول ١٩٥٩ أصدرت السلطات تعديلات على قانون الصحافة تضمنت فرض رقابة علنية على الصحف، وجاء في تعديل الظهير المتعلق بالصحافة في الفصل ٧٧ على الشكل الآتي: «في مستطاع وزير الداخلية أن يأمر بالحجز الإداري في حق كل جريدة أو صحيفة دورية من شأن صدورها أن يخل بالأمن العام، وحينما تنشر صحيفة ما يعتبر مساسا بالمؤسسات السياسية والدينية للمملكة، في إمكان وزير الداخلية وبغض النظر عن العقوبات الجنائية التي تنص عليها القوانين الجارية، أن يأمر بإيقاف الجريدة. كما أن منع صدور هذه الأخيرة، يمكن أن يتخذ من جهة أخرى من طرف رئيس مجلس الوزراء، وكل من خالف الفصل المذكور يعاقب بالسجن لمدة تتراوح ما بين ستة أشهر وخمس سنوات وذعيرة مالية تتراوح ما بين ١٢٠٠ درهم و١٢٠٠٠ درهم».

واحتجاجًا على هذا التعديل، قررت الصحف الوطنية إيقاف صدورها يوم ٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩. وقد اضطرت السلطات إلى التراجع وإلغاء هذا التعديل يوم ١٦ دجنبر/كانون الأول من السنة نفسها[٤١].

تعرض محمد البصري بصفته مدير الجريدة إلى عشر متابعات قضائية ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٣ من طرف أجهزة الدولة بسبب المقالات التي كانت تنشر في الجريدة، وهي:

- الدعويان اللتان أقامهما محمد عواد، وزير الدفاع الوطني، وإدريس المحمدي، وزير الداخلية، بتهمة القذف والمس بكرامة الجيش[٤٢] بعد نشر الجريدة ملتمسات المؤتمر الوطني الرابع للاتحاد الوطني لطلبة المغرب المنعقد بأكادير ما بين ٢٢ و٢٧ غشت/آب ١٩٥٩، والتي تطالب بتطهير جميع المرافق الإدارية، وضرورة إبعاد الخونة عن المناصب التي يشغلونها بعد الاستقلال[٤٣].

وعلى إثر ذلك أصدر الديوان الملكي بلاغين يوم ٢٩ غشت/آب. يتضمن البلاغ الأول طلب محمد المذبوح، وزير البريد، الاستقالة من حكومة عبد الله إبراهيم، والعودة إلى القوات المسلحة تحت رئاسة ولي العهد ورئيس أركان القوات المسلحة الملكية؛ حيث عبر المذبوح للقائد الأعلى للجيش عن تأثره العميق إثر التهجمات على الجيش الملكي خلال مؤتمر الطلبة بأكادير والمنشورة بجريدة يومية. أما البلاغ الثاني، فقد أشاد فيه محمد الخامس بنزاهة الجيش الملكي، وعبر عن تقديره لجهود عناصره كما أكد أنه اتخذ الإجراءات القانونية لمعاقبة القائمين بالتهجمات على القوات الملكية المسلحة[٤٤].

وقد أقر محمد البصري في مذكراته أنه وقع الاتصال بين المؤتمرين وبعض العناصر القيادية من جيش التحرير، وأن الهدف من عقد المؤتمر بأكادير كان هو التعبئة لصالح جيش التحرير بالجنوب[٤٥]. وعُقدت جلسة محاكمة الجريدة في شخص مديرها يوم ٢٨ شتنبر/أيلول ١٩٥٩ بالدار البيضاء، انتهت بتأجيل المحاكمة وتكليف القاضي محمد الفاسي بدراسة الملف من جديد[٤٦].

- دعوى عبد الكريم بن جلون، وزير التهذيب الوطني، بتهمة القذف، بعد نشر الجريدة في عددها ١٨٢ فاتح أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩ مقالا عن أوضاع التعليم مرفقا بصور تُظهر ازدحام آباء التلاميذ وأبنائهم أمام إحدى الابتدائيات من أجل تسجيلهم. فصدر الحكم على البصري بأداء غرامة مالية قدرها خمسون ألف فرنك يوم ٢١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩[٤٧].
- دعوى القصر الملكي ضد محمد البصري وعبد الرحيم اليوسفي منتصف دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ على إثر مقال إثر مقال نشر في ركن **«في الصميم»**، عدد ١٣ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ سيتناول المحور القادم تفاصيلها.
- دعوى المدير العام للأمن العام الوطني بتهمة القذف يوم ٢٠ يناير/كانون الثاني ١٩٦٠ دون تحديد عدد التحرير الذي تضمن مقال القذف[٤٨].

- دعوى النيابة العامة بسبب نشر التحرير في عدديها ٢٦٤ و٢٦٥ الصادرين يومي ٧ و٨ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠ تفاصيل محاكمة جريدة لافانكارد، لسان الاتحاد المغربي للشغل، بالمحكمة العصرية بالدار البيضاء يوم ٦ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠ للنظر في الشكاتين بالقذف التي تقدم بها محمد الديوري، وزير الاقتصاد الوطني ومحمد الغزاوي، مدير الأمن الوطني، ضدها بتهمة القذف[٤٩]. وقضت المحكمة الإقليمية بالرباط بعدم الاختصاص يوم ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٦١[٥٠].

- دعوى الحكومة ووزارة الاقتصاد منتصف يناير/كانون الثاني ١٩٦٢ بعد نشر الجريدة مقالات عن اختلالات مالية بمركب آسفي الكيماوي تورط فيها وزير الاقتصاد محمد الدويري[٥١].

- دعوى محمد أوفقير، المدير العام للأمن الوطني، يوم ٢٣ نونبر/تشرين الثاني ١٩٦٢ ضد الجريدة بتهمة القذف في حقه في افتتاحية عددها رقم ٨٧٤ التي اتهمت الشرطة السرية المغربية بمحاولة اغتيال المهدي بن بركة بعد اصطدام سيارة بسيارته قرب بوزنيقة الواقعة بين الرباط والدار البيضاء[٥٢]. واعتبرت الجريدة أن السلطة السياسية تريد محاكمة التحرير في أقرب وقت ممكن حتى تتخلص منها في تلك المرحلة الدقيقة من حملة الاستفتاء على الدستور[٥٣].

وقضت المحكمة الإقليمية بالرباط يوم فاتح فبراير/شباط ١٩٦٣ بأداء الجريدة غرامة مليون فرنك، وأربعة ملايين فرنك تعويضا للأمن الوطني بالإضافة إلى صوائر الدعوى[٥٤]. وأبلغت الشرطة مدير التحرير ومدير مطبعة إمبريجما Imprigéma يوم ٤ أبريل/نيسان ١٩٦٣ بتوقيف الجريدة ما لم تدفع إدارتها مبلغ الذعيرة؛ حيث لم يصدر عدد يوم ٦ أبريل/نيسان[٥٥] ثم عادت الجريدة للصدور يوم ٧ أبريل/نيسان ١٩٦٣ بعد اتصال محامي الجريدة، محمد التبر، بالمحكمة الإقليمية في الرباط والنيابة العامة وطالب بتدخلها لدى الشرطة لرفع قرار التوقيف بحجة أن القضية لازلت في الاستئناف ولم يصدر بشأنها حكم نهائي[٥٦].

- دعوى أحمد رضا اكديرة، وزير الداخلية، وأحمد بنسودة، عامل القنيطرة أواخر يناير/كانون الثاني ١٩٦٣[٥٧]، بسبب نشر الجريدة تقريرا صحفيا عن فيضانات نهر سبو يناير/كانون الثاني ١٩٦٣ ومعاناة ساكنة منطقة الغرب[٥٨].

- دعوى وزير العدل ضد التحرير بتهمة الإشادة بالإجرام على خلفية مقال نشر بالجريدة قبل سنة حول إعدام المقاوم محمد بن حمو وثلاثة من رفاقه. عقدت الجلسة الأولى يوم ١٢ مارس/آذار ١٩٦٣ بالمحكمة الإقليمية بالرباط، وأجل النطق بالحكم إلى يوم ١٢ أبريل/نيسان من السنة نفسها[٥٩]. وقضت المحكمة بأداء الجريدة غرامة ١٠٠٠ درهم وصوائر الدعوى[٦٠].

٦- اعتقال مدير الجريدة، ورئيس تحريرها يوم ١٥ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩

تشنجت العلاقة كثيرا بين القصر وجريدة التحرير على إثر التغطية الإعلامية لقضية معطوبي وأرامل وشهداء المقاومة، التي بدأت منتصف نونبر/تشرين الثاني ١٩٥٩ بعنوان **«مأساة المقاومة»**؛ حيث تحدثت التحرير عن حالة البؤس والفقر التي تعيشها عائلات شهداء المقاومة، وعدم تجاوب الإدارات العمومية مع مطالبهم[٦١]، مما دفع وفدا منهم إلى التوجه إلى القصر، وطلب مقابلة محمد الخامس. ونشرت الجريدة في عدد يوم ٤ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ مقالا عن المقاومة بلغة شديدة اللهجة تحت عنوان **«طردوا الاستعمار بالأمس فأصبحوا اليوم مطاردين!»** صادرته السلطات.

ورد في المقال أن مدير التشريفات بالقصر الملكي لم يتجاوب مع طلب وفد المعطوبين وأرامل شهداء المقاومة الذي ضم ٤٨ فردا لمقابلة الملك فاتح دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، وطلب منهم العودة بعد يومين. عاد أعضاء الوفد يوم ٣ دجنبر/كانون الأول إلى القصر الملكي، وأصروا على مقابلة الملك لكن قوات الحرس الملكي والشرطة طردتهم، وأبعدتهم عشرين كيلومترا عن الرباط في اتجاه الدار البيضاء[٦٢].

أصدر الديوان الملكي يوم ٥ دجنبر/كانون الأول بلاغا أذيع في النشرة المسائية للإذاعة الوطنية رد فيه على مقال التحرير، واتهمها بنشر أخبار كاذبة. وأوضح أن مدير التشريفات استقبل فاتح دجنبر/كانون الأول وفد المقاومة وطلب منهم اختيار ثلاثة أو أربعة عناصر لمقابلة الملك يوم الأربعاء ٣ دجنبر/كانون الأول. لكن عناصر الوفد لم تختر ممثليها يوم الموعد، وأرادت الدخول عنوة إلى التشريفات الملكية مما اضطر قوات الحرس الملكي لصدها وإبعادها[٦٣]. وأعادت التحرير نشر مضمون المقال السابق في عدد ٦ دجنبر/كانون الأول، واستنكرت مصادرة وحجز عدد يوم ٤ دجنبر/ كانون الأول معتبرة ذلك خرقا صريحا ومكشوفا لقانون الحريات العامة[٦٤]. وفي الرابع عشر من دجنبر/ كانون الأول انعقد مجلس الوزراء، وأصدر بيانا انتقد تهجمات التحرير التي تمس المؤسسات الوطنية[٦٥].

اعتقل رجال الشرطة محمد البصري من منزله، وعبد الرحمان اليوسفي من مقر الجريدة[]يوم ١٥ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ بالدار البيضاء ثم نقلا إلى سجن لعلو بالرباط على إثر مقال نشر في ركن **«في الصميم»**، عدد ١٣ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩.

وأخبرت الشرطة العاملين بالتحرير بمنع إصدار الجريدة إلى حين صدور أمر جديد[٦٦].

كتب صاحب الافتتاحية أن الجماهير تندد بتناقض أعمال المسؤولين، والتناقض بين الحكومة صاحبة السلطة والإدارة التي لا تخضع لها، وتناول أيضا مسألة الحكم في المغرب، ووضعية الفساد وتحيز الإدارة. ومما ورد فيه: **«ويضرب قرار المجلس الوطني للاتحاد الوطني مثلا لذلك التناقض المشين البارز في نظام الحكم القائم الآن بالبلاد بتصرفات قوات الأمن، وعدم خضوع المسؤولين فيها للأنظمة الإدارية المتبعة باتخاذهم قرارات تتناقض ومقتضيات القانون بدون الرجوع إلى المسؤولين في الحكومة والمفروض فيهم مباشرة المسؤولية في هذه البلاد... ونحن بدورنا نظن أننا لسنا بحاجة إلى ترجمة هذا التناقض إلى واقع الحياة اليومية حيث إن الجميع يعرف ما يكابده الشعب ومنظماته النقابية وغيرها وصحافته من إجراءات تعسفية واستفزازات لا تعلم الحكومة بها إلا بعد وقوعها بناء على أوامر تأتي من جهات لا يخولها القانون السليم أي حق للتدخل فيما هو راجع أولا وبالذات لاختصاص السلطة التنفيذية التي هي الحكومة المسؤولة مباشرة أمام الرأي العام المغربي»**[٦٧].

ويوم ١٧ دجنبر/ كانون الأول ١٩٥٩، نشرت وكالة المغرب العربي للأنباء خبرا ورد فيه أن التهم الموجهة للبصري واليوسفي هي كالتالي:

١. تهجمات على مقام صاحب الجلالة، المعاقب عليها طبقا للفصل ٤١ من قانون الصحافة.
٢. التحريض على ارتكاب الجرائم ضد أمن الدولة، المعاقب عليها طبقا للمادة ٣٩ من القانون نفسه.
٣. القيام بأفعال من شأنها أن تخل بالأمن العام.
٤. المس بسلامة الدولة[٦٨].

وقد أثار هذا الاعتقال حسب أعداد الرأي العام والطليعة ابتداء من ١٦ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ إضرابا عاما بمراكش صبيحة يوم ١٧ دجنبر/كانون الأول لمدة ساعة، ومظاهرة بدمنات، وسخطا لدى السكان، وإغلاق التجار محلاتهم في المدن الكبرى بالرباط، والدار البيضاء، ومراكش. وأصدرت عدة جهات في الداخل مثل مكاتب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ومراكز الاتحاد المغربي للشغل، وجمعية المقاومة وجيش التحرير، وأخرى في الخارج مثل المنظمات الطلابية المغربية، ولجان الجالية المغربية، بلاغات ورسائل تنديد واحتجاج على هذا الاعتقال. كما قامت الصحافة الدولية بحملة تضامنية واسعة في العالم العربي وفرنسا مع رئيس التحرير الذي أطلق سراحه مؤقتا يوم ٣٠ دجنبر/كانون الأول لتدهور وضعه الصحي[٦٩] بينما بقي البصري رهن الاعتقال في سجن ولعو بالرباط.

وتكلف بالدفاع عن الفقيه واليوسفي عدة محامين من المغرب وفرنسا، وتطوع محامون من دول أوروبية أخرى للترافع عنهما[٧٠]. وانضاف إليهم محامون من لبنان، والأردن، والعراق، والجمهورية العربية المتحدة[٧١]. وأرجع البصري سبب اعتقاله إلى رغبة القصر في حل جيش التحرير. وذكر أن المحققين أخبروه أن عبارة الحكومة مسؤولة أمام الشعب تعد تهجما على صاحب الجلالة[٧٢].

وفي منتصف فبراير/شباط ١٩٦٠، توبع الفقيه بتهمة إضافية هي التآمر لاغتيال ولي العهد مولاي الحسن رفقة عدد من قادة المقاومة وجيش التحرير ومسؤولين في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالدار البيضاء الذين بلغ عددهم ٢١٨ شخصا[٧٣].

قررت المحكمة عدم المتابعة في حق عبد الرحمان اليوسفي بتاريخ ٣٠ ماي/أيار من السنة نفسها[٧٤]. أما الفقيه فقضى ستة أشهر ونصف معتقلا. ويوم ٣ يونيو/حزيران ١٩٦٠ أصدر محمد الخامس بمناسبة عيد الأضحى عفوا على جل المقاومين الذين اتهموا بتدبير «مؤامرة اغتيال ولي العهد» دون محاكمة ومنهم محمد البصري الذي لم يصدر في حقه أي حكم سواء في قضية التهم الأربعة المتعلقة بجريدة التحرير أو تهمة التآمر لاغتيال ولي العهد[٧٥].

٧- الرأي العام تعوض التحرير ما بين دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ ونونبر/تشرين الثاني ١٩٦٠

بعد منع جريدة التحرير واعتقال مديرها ورئيس تحريرها، طلب المهدي بن بركة من أحمد بن سودة، أحد قدماء حزب الشورى والاستقلال، الذي التحق بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وانتخب عضوا في الكتابة الوطنية للحزب في المؤتمر التأسيسي للحزب يوم ٦ شتنبر/أيلول ١٩٥٩ إعادة إصدار جريدته الرأي العام[٧٦] لتحل محل التحرير[٧٧].

حافظت جريدة الرأي العام على أسلوب ونهج جريدة التحرير؛ إذ لم يتغير إلا اسم الجريدة واسم المدير فقط، وبقي نفس طاقم هيئة التحرير مشرفا على إخراج أعدادها. وتعرضت الرأي العام للحجز أربع مرات في أسبوع واحد، وتسع مرات منذ

أن عوضت التحرير في أقل من سنة واحدة[٧٨]. وأرجعت الجريدة سبب منع أربعة أعداد متتالية إلى انتقاداتها لتوقيع الحكومة المغربية مع الحكومة الفرنسية اتفاقية تسمح لها باستمرار القوات الفرنسية في البلاد مدة ثلاث سنوات واستعمالها لضرب الثورة الجزائرية[٧٩].

ويوم ٢٣ نونبر/تشرين الثاني ١٩٦٠ وجه أحمد بن سودة - بصفته مدير الرأي العام- رسالة إلى الكتابة العامة للاتحاد الوطني للقوات الشعبية طلب فيها توقيف جريدة الرأي العام. وفي عدد اليوم الموالي، أعلنت الجريدة احتجاب الرأي العام، وقرب صدور التحرير[٨٠]. وحري بالذكر أن بن سودة تعرض لضغوط قوية من النظام للانسحاب من الاتحاد الوطني كما أن علاقاته لم تكن جيدة مع الزعيم النقابي المحجوب بن الصديق. وفي أواخر سنة ١٩٦١ قدم بن سودة استقالته من الحزب ثم عُين عاملا على الرباط أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢[٨١].

استأنفت جريدة التحرير صدورها ثاني دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠[٨٢]؛ أي بعد توقف دام حوالي سنة في وقت اشتدت فيه معارضة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية للنظام.

٨- تفجير مطبعة الجريدة ليلة ٧ شتنبر/أيلول ١٩٦٢

انفجرت قنبلتان ليلة ٧ شتنبر/أيلول ١٩٦٢ في مطبعة إمبريجيما التي كانت تُصدر جريدة التحرير، والطليعة، ولافانكارد، والمكافح، والطالب المغربي[٨٣]. ذكر محمد الصديقي، سكرتير تحرير الجريدة ما بين ١٩٦١ و١٩٦٢، أن العناصر الأمنية المكلفة بتنفيذ تلك العملية وضعت ثلاث قنابل أمريكية الصنع تستعمل في تدمير القناطر، ووزعتها بشكل يترتب عنه في حالة انفجارها كلها التدمير التام لمقر المطبعة. وأضاف أن القنبلة التي وضعت في الطابق الأول لم تنفجر بينما تسببت القنبلتان الثانية والثالثة في تحطيم شبه تام لآلتي السحب، والمكاتب الإدارية، وأطنان الورق الخاص بالطباعة في الطابق الأرضي[٨٤]. وعقب ذلك الحادث انتقل العاملون بمقر المطبعة إلى مطبعة صغيرة بزنقة مصطفى المعاني في الدار البيضاء، وأصدروا عددا استثنائيا من صفحتين خصص للاعتداء الذي تعرضت له مطبعة الجريدة[٨٥].

أصدرت الكتابة العامة للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بلاغا يوم ٧ شتنبر/أيلول ١٩٥٩ اتهمت فيه السلطات بالتواطؤ مع العصابة الإجرامية التي فجرت المطبعة والتستر عليها، وأن التفجير استهدف إسكات صوت الحزب وأصوات المنظمات الديمقراطية التي تقاوم الحكم المطلق الرجعي العتيق، وخنق المعارضة[٨٦]. كما اتهمت الجريدة الشرطة باعتقال العاملين بالتحرير من الفنيين والطابعين والمصففين وسائقين مكلفين بالتوزيع، في إطار التحقيق حول التفجير، والاحتفاظ بهم في الزنازين، والضغط عليهم لعرقلة إصدار الجريدة[٨٧]. وقالت التحرير إن الغرض من ذلك تقوية الجهاز الدعائي الرسمي والشبه الرسمي وإسكات الصحافة الشعبية التقدمية، وتمرير الاستفتاء على الدستور الذي تم في دجنبر/كانون الأول من السنة نفسها بدون صوت معارض[٨٨].

وأفادني عبد اللطيف جبرو، أحد الصحفيين في الجريدة آنذاك، أن الكولونيل أحمد الدليمي هو من وضع القنابل الثلاثة في المطبعة بمعية مساعد له[٨٩]. وذكر أيضا أن أجهزة المخابرات المغربية أشاعت أن تفجير مطبعة الجريدة دبرته دوائر جزائرية غير راضية عن الخط التحريري لجريدة التحرير المساند لحكومة أحمد بن بلة. كما تم اعتقال موظف من أصل جزائري يدعى اللامودي كان مكلفا بإدارة توزيع التحرير الذي تعرض للتعذيب من أجل انتزاع اعترافه بدوره كجزائري في تفجير المطبعة[٩٠].

٩- توقف إصدار التحرير نهائيا أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣

بعد حملة الاعتقالات التي طالت بعض قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يوم ١٦ يوليوز/تموز ١٩٦٣، وضمنهم محمد البصري، وعبد الرحمان اليوسفي، وكذا عددا من المشرفين على التحرير مثل محمد الجابري، وعبد الحي الشامي بتهمة التآمر لاغتيال الملك الحسن الثاني[٩١]، أشرف عبد الكبير الجواهري على تسيير الجريدة، وتولى مهمة سكرتير التحرير[٩٢]. لم تعد التحرير تصدر بشكل منتظم بسبب تكرار الحجز ثم توقفت بعد أسبوعين أو ثلاثة من اجتماع ١٦ يوليوز/تموز ١٩٦٣. ومع بداية التوتر على الحدود المغربية الجزائرية واندلاع حرب الرمال أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣ قرر عبد الرحيم بوعبيد توقيف الجريدة نهائيا[٩٣].

بعد صدور حكم الإعدام على البصري ١٤ مارس/آذار ١٩٦٤ في مؤامرة ١٦ يوليوز/تموز ١٩٦٣ وتأكيده من طرف المجلس الأعلى، قدمت شركة إمبريجيما[٩٤] دعوى ضده تطالب بالحجز على المبالغ المالية التي كانت بالحساب البريدي لجريدة التحرير، وتم تبليغ الفقيه بالقرار القضائي في السجن[٩٥].

ويوم الخميس ١٨ يونيو/حزيران ١٩٦٤ صدر أول عدد من أسبوعية المحرر كجريدة مؤقتة ناطقة بلسان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية لتخلف التحرير تحت إدارة إبراهيم الباعمراني[٩٦]. وعقب الانفراج الذي تلا أحداث ٢٣ مارس/آذار ١٩٦٥ تحولت المحرر إلى يومية ابتداء من ١٠ شتنبر/أيلول ١٩٦٥.

خَاتِمَةٌ

أشادت التحرير بإنجازات عبد الله إبراهيم، والوزراء المحسوبين على الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في حكومته، لكنها تعرضت للمتابعة القضائية من طرف وزراء الدفاع، والتهذيب الوطني، والبريد في حكومته فضلاً عن المدير العام للأمن الوطني مما يدل أن رئيس الحكومة لم تكن له سلطة على أولئك الوزراء التابعين للقصر. وتدريجيًا أصبحت الجريدة أداة اصطدام بين الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والنظام. واتسم خطابها بعد إقالة حكومة عبد الله إبراهيم بالعنف الحاد والديماغوجية والتصعيد والتحريض على المواجهة، وركز خط تحريرها على تلميع صورة قادة الحزب، ومهاجمة سياسة الدولة وانتقاد توجهاتها. وارتفعت نبرة خطابها بعد تولي الحسن الثاني الحكم فبراير/شباط ١٩٦١؛ إذ هاجمت بعنف شديد اختياراته وتوجهاته في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والدبلوماسية، واتهمته بتبني الحكم الفردي، واصفة نظامه بالحكم المطلق والإقطاعي والرجعي، وهو ما أزعج الحسن الثاني كثيرا. ونشرت التحرير على صفحاتها الأولى بلاغات الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وتصريحات قادته، وشعارات قوية وصدامية ضد نظام الحسن الثاني من قبيل أنه لا سبيل لإصلاح النظام القائم إلا بزواله.

وفي المقابل، كانت الجريدة تشيد بالأنظمة العربية التقدمية في مصر وسوريا والعراق والجزائر، وتنوه بإنجازاتها، وتعبر عن تأييد قيادة الحزب لتوجهاتها الاشتراكية وسياساتها الخارجية. وكان رد فعل النظام قويا وعنيفا؛ حيث تعرضت الجريدة للحجز والمنع والمصادرة عدة مرات مما تسبب لها في خسائر مالية كبيرة بالإضافة إلى عشر متابعات قضائية، وأداء غرامات مالية باهظة، واعتقال مديرها ورئيس تحريرها منتصف دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ زيادة على مضايقة العاملين بها وباعتها في مختلف مناطق المغرب، ومحاولة إسكاتها نهائيا بتفجير مقر مطبعة إمبريجيما شتنبر/أيلول ١٩٦٢ التي كانت تصدر منها.

وكانت قيادة الحزب تروم من وراء ترويج خطاب الأزمة والفساد والانتكاسة في كافة المجالات وحملة التشنيع بالنظام إبراز فشله وعجزه عن تحقيق حاجيات المغاربة، واستكمال مسيرة التحرير وبناء المغرب المستقل، وتقديم نفسها بديلا قادرا على ترجمة آمال الشعب على أرض الواقع، وبناء دولة اشتراكية قادرة على التخلص من التبعية للاستعمار، والمساهمة في بناء الوحدة العربية بمعية الأنظمة التقدمية العربية.

وشكلت اعتقالات ومحاكمة المتهمين في مؤامرة ١٦ يوليوز/تموز ١٩٦٣ ضربة موجعة كسرت شوكة الحزب الذي لانت مواقفه تجاه الملكية خشية حظره، وأدت إلى إيقاف جريدة التحرير نهائيا أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣؛ إذ كان هم عبد الرحيم بوعبيد، ربان الحزب في تلك المرحلة، الدفاع عن المعتقلين، وتجنب تنفيذ أحكام الإعدام وتخفيف أحكام أخرى صدرت في حق بعض قادة وقواعد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

الإحالات المرجعية:

(١) قاسم الزهيري، **أزمة بعد أخرى**، ط ١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص ٦٠.

(٢) حفيظة بلمقدم، **حزب الاستقلال وتدبير الانتقال: بين الانسجام والتصدع، دجنبر/كانون الأول ١٩٥٥-يناير/كانون الثاني ١٩٦٣**، ط ١، منشورات فكر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص ٩٤-٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٣-١١٤.

(٤) تشبثت اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال بحقها في تعيين مائة مؤتمر من شخصيات الحزب دون المرور بالانتخابات في فروع الحزب. نشر عبد الله إبراهيم في جريدة الاستقلال مقالا انتقد فيه من سماهم البرجوازيين المنتفعين، فأوقفت اللجنة التنفيذية الجريدة بسبب هذا المقال، واستقال المهدي بن بركة من اللجنة التنفيذية. كما قدم عبد الرحيم بوعبيد استقالته من حكومة بلافريج نونبر/تشرين الثاني ١٩٥٨ مما عجل بسقوطها. انظر محمد عابد الجابري، **البيان المطرب لنظام حكومة المغرب: المفهوم القديم للسلطة والصراع حول الاختيارات**، ط ١، ديما النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٥١-٥٢.

(٥) محمد عابد الجابري، **الاتحاد الوطني للقوات الشعبية: هل كانت انتفاضة ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٥٩ خطأ...؟** ط ٢، ديما النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٥٨-٥٩.

(٦) عبد الرحمان اليوسفي، **أحاديث فيما جرى، شذرات من سيرتي كما رويتها لبودرقة**، إعداد امبارك بودرقة، ج ١، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠١٥، ص ٧٨.

(٧) محمد البصري، **الفقيه: كتاب العبرة والوفاء**، حوار سيرة ذاتية مع حسن نجمي، منشورات مؤسسة محمد الزرقطوني للثقافة والأبحاث، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٩٨.

(٨) أصدر حزب الاستقلال أسبوعية الأيام خصيصا لمعارضة حكومة عبد الله إبراهيم وكرد فعل على حركة الانفصال عن الحزب يوم ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٥٩، وقد توقفت عن الصدور بمجرد إقالة تلك الحكومة. انظر إبراهيم رشيدي، **الاتحاد: التغيير أو الانقراض، مسيرة مناضل اتحادي**، ط ١، مطبعة عكاظ الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٥، ص٣٥.

(9) 558/PO1 Numéro 32. Ministère des Affaires Etrangères, Rabat Ambassade. Centre des Archives Diplomatiques de Nantes .M C 1.8. Crise et Scission de l'Istiqlal, Parution du nouveau quotidien de langue arabe « AL Tahrir » 02/4/1959, p 1.

(١٠) الجابري، **الاتحاد الوطني للقوات الشعبية**، ص٥٧-٥٨.

(١١) تقديم، **التحرير**، العدد ١، ٢ أبريل/نيسان ١٩٥٩، ص ١.

(١٢) صباح الخير، المصدر نفسه، ص ١.

(١٣) دون توقيع، الصحافة بين البناء والهدم، نفسه، ص ٢.

(١٤) عبد الرزاق السنوسي معنى، **نصف قرن من مصارعة النمرة (مواجهة ساخنة بين السلطة والصحافة الاتحادية)**، ط ١، مطبعة لموريا، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص ٥٥-٥٦.

(١٥) عبد الله رشد، **كفاح المغاربة في سبيل الاستقلال والديمقراطية ١٩٥٣-١٩٧٣**، ط ١، الشركة الجديدة للمطابع المتحدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص ٣٩٦-٣٩٤.

(١٦) السنوسي، **نصف قرن من مصارعة النمرة**، ص ٦٣-٦٤.

(١٧) تعذر عليّ الاطلاع على بعض أعداد التحرير لاسيما ما بين يوليوز/تموز وأكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣ لأنها غير موجودة لا في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ولا في مقر جريدة الاتحاد الاشتراكي بالدار البيضاء مما تطلب الاعتماد على مصادر ومراجع أخرى.

(١٨) أعداد التحرير ما بين أبريل/نيسان ومنتصف دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩.

(١٩) مروان بوزكري، الدعم الإعلامي المغربي للثورة الجزائرية من خلال جريدة التحرير، **الحكمة للدراسات التاريخية**، المجلد ٦، العدد ١٣، مارس/آذار ٢٠١٨، ص ١٩٧-٢١٧.

(٢٠) مصطفى العيدي، **المعارضة السياسية بالمغرب ١٩٦١-١٩٧٥، دراسة تحليلية من خلال جريدتي التحرير والمحرر والأرشيف الفرنسي**، ط ١، القرويين للنشر والتوزيع، مطبعة وراقة بلال، فاس، ٢٠٢٢، ص ٣٣٧.

(٢١) أعداد التحرير ما بين أبريل/نيسان ومنتصف دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩.

(٢٢) سلسلة مقالات محمد باهي، هكذا ضاعت موريتانيا، أعداد التحرير ما بين ١٩- ٢٢ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٢، ص ١-٣.

(٢٣) العيدي، **المعارضة السياسية بالمغرب**، ص ٢٥٣-٢٥٨.

(٢٤) بلمقدم، **حزب الاستقلال وتدبير الانتقال**، ص ١٨٧-١٨٨. أعداد التحرير ماي/أيار ١٩٦١ وأواخر نونبر/تشرين الثاني ١٩٦١.

(٢٥) أعداد التحرير نونبر/تشرين الثاني ودجنبر/كانون الأول ١٩٦٢ ويناير/كانون الثاني ١٩٦٣.

(٢٦) عصام، صباح النور، **التحرير**، العدد ١٨٢، ١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩، ص ١-٢.

(٢٧) على عتبة أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢، طغيان الفساد في التعليم، **التحرير**، العدد ٨٣٢، ٢٩ شتنبر/أيلول ١٩٦٢، ص ١-٤.

(٢٨) الحل الناجع لمشاكل التعليم عند وزارة التربية هو طرد آلاف التلاميذ من مدارسهم، **التحرير**، العدد ٨٤٤، ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢، ص ٣.

(٢٩) معلمو المدارس الحرة بمراكش يقومون بإضراب عام، **التحرير**، العدد ٢٠٦، ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩، ص ٢. الهاشمي بناني، التعليم الحر ومشاكله، **التحرير**، العدد ٦٣٦، ٩ فبراير/شباط ١٩٦٢، ص ٣.

(٣٠) تأسست جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية (Front pour la défense des institutions constitutionnelles) المعروفة اختصارا بالفديك FDIC يوم ٢٠ مارس/آذار ١٩٦٣ في فندق المنصور بالدار البيضاء. ترأسها أحمد رضا اكديرة، مدير الديوان الملكي ووزير الداخلية والفلاحة، وانخرط فيها عدد من الوزراء. وتشكلت هذه الجبهة من ثلاثة أحزاب هي: الحركة الشعبية، الأحرار المستقلون، الدستور الديمقراطي إلى جانب شخصيات سياسية مستقلة يوحدها تأييد العرش. وكانت الغاية من تأسيس هذه الجبهة تجنب انتصار حزب الاستقلال في الانتخابات التشريعية ماي/أيار ١٩٦٣. وأوضح اكديرة أن الغاية من تأسيس الجبهة هي تجنيد جميع القوى في البلاد وزراء الملك، وصيانة الدستور، وإحداث ديمقراطية حقيقية. انظر جون واتر بوري، **أمير المؤمنين،**

الملكية والنخبة السياسية المغربية، ترجمة عبد الغني أبو العزم، عبد الأحد السبتي، عبد اللطيف الفلق، مؤسسة الغني للنشر، مطبعة فضالة، المحمدية، ٢٠٠٤، ص ٣٢٨-٣٢٩-٣٤٦.

(٣١) ما يسمى بالجبهة.. إنما هو حزب الملك يسخر له وسائل الدولة وأموال الشعب لتركيز المتسلطين على الحكم وضمان استمرار المصالح الاستعمارية، **التحرير**، العدد ٣٠١، ١٨ أبريل/نيسان ١٩٦٣، ص ١.

(٣٢) أعوان السلطة وجهازها البوليسي والإداري يسخر لفائدة الحزب الملكي، **التحرير**، العدد ٦٠١، ٢١- ٢٢ أبريل/نيسان/نيسان ١٩٦٣، ص ١-٢.

(٣٣) الحكم الإقطاعي يستعد لفرض نواب من الإقطاعيين والخونة وعملاء الاستعمار وسماسرته، **التحرير**، العدد ٧٠١، ٢٣ أبريل/نيسان/نيسان ١٩٦٣، ص ١-٢.

(٣٤) أعداد التحرير ما بين ١ و١٦ ماي/أيار ١٩٦٣.

(٣٥) أعداد التحرير أواخر ماي/أيار وبداية يونيو/حزيران ١٩٦٣.

(٣٦) عصام، صباح النور، **التحرير**، العدد ٢٥٠، ٨ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١-٣.

(٣٧) للمرة الرابعة تحجز التحرير، التحرير، العدد ٣٢٠، ٩ فبراير/شباط ١٩٦١، ص ١.

(٣٨) المعنى الحقيقي لحجز هذه الجريدة، **التحرير**، العدد ٣٢٥، ١٥ فبراير/شباط ١٩٦١، ص ١-٣. انظر أعداد التحرير ما بين ١ و١٠ فبراير/شباط ١٩٦١.

(٣٩) حرية الصحافة كما يفهمها أعداء التحرير، بائعو التحرير يتوصلون برسائل تهديد، **التحرير**، العدد ١٨٩، ٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩، ص١.

(٤٠) محمد عابد الجابري، **من الضغوط على محمد الخامس إلى الحكم الفردي المطلق، قمع المقاومين ومؤامرة تصفية الاتحاد ١٦ يوليوز/تموز ١٩٦٣**، مواقف سلسلة ٢، ط ١، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ١٣-١٥.

(٤١) السنوسي، **نصف قرن من مصارعة النمرة**، ص ٦٠.

(٤٢) وزير الدفاع ووزير الداخلية يقيمان دعوى ضد التحرير، **التحرير**، العدد ١٦٢، ١١ شتنبر/أيلول ١٩٥٩، ص ١.

(٤٣) الطلبة يدخلون ميدان النضال الشعبي، **التحرير**، العدد ١٤٨، ٢٨ غشت/آب ١٩٥٩، ص ١-٢.

(٤٤) بلاغان من الديوان الملكي، **التحرير**، ٣١ غشت/آب ١٩٥٩، ص ١-٢.

(٤٥) محمد البصري، تجربة الحركة الوطنية مع القصر، الجزء ٢، **الاختيار الثوري**، العدد ٥٤، خريف ١٩٨١، ص ٨٥-٨٦.

(٤٦) السنوسي، **نصف قرن من مصارعة النمرة**، ص ٥٩.

(٤٧) المحكمة الإقليمية بالبيضاء تصدر حكمها في الدعوى التي أقامها السيد عبد الكريم بن جلون على التحرير، **التحرير**، العدد ٢٠٢، ٢١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٩، ص ١.

(٤٨) مدير الأمن الوطني يقيم دعوى على التحرير، **الرأي العام**، العدد ٧٨٠، ٢١ يناير/كانون الثاني ١٩٦٠، ص ١.

(٤٩) التحرير تحاكم للمرة الخامسة، **التحرير**، العدد ٢٨١، ٢٦ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠، ص ١-٤.

(٥٠) المحكمة الإقليمية بالرباط تحكم بعد الاختصاص في قضية التحرير والطليعة، **التحرير**، العدد ٢٩٦، ١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٦١، ص ٤.

(٥١) بلاغ من هيئة تحرير جريدة التحرير حول الدعوى التي أقيمت ضدها من طرف الحكومة، **التحرير**، العدد ٦١٦، ١٧ يناير/كانون الثاني ١٩٦٢، ص ١-٤.

(٥٢) افتتاحية: أعمالهم الدنيئة تدل عليهم، **التحرير**، العدد ٨٧٤، ١٧ نونبر/تشرين الثاني ١٩٦٢، ص ١.

(٥٣) استدعاء مدير الجريدة للمثول بين يدي المحكمة أربعة أيام بعد توصله بالاستدعاء، **التحرير**، العدد ٨٨٥، ٢٩ نونبر/تشرين الثاني ١٩٦٢، ص ١.

(٥٤) المحكمة الإقليمية بالرباط تحكم على التحرير بأداء الجريدة مليون فرنك غرامة، وأربعة ملايين فرنك تعويضا للأمن الوطني بالإضافة إلى صوائر الدعوى، **التحرير**، العدد ٩٤١، ٢ فبراير/شباط ١٩٦٣، ص ١.

(٥٥) السلطات تقرر إيقاف التحرير، **التحرير**، العدد ٩٩٣، ٥ أبريل/نيسان ١٩٦٣، ص ١.

(٥٦) قرار توقيف التحرير ورفعه مظهران لتلاعب المسؤولين بالقانون، التحرير تعود إلى الصدور، **التحرير**، العدد ٩٩٤، ٧-٨ أبريل/نيسان ١٩٦٣، ص ١-٤.

(٥٧) عبد اللطيف جبرو، **١٦ يوليوز/تموز ١٩٦٣**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٠، ص ٥٦.

(٥٨) بعد الفيضانات المفجعة بالغرب: على المسؤولين أن يكونوا في مستوى النكبة، **التحرير**، العدد ٩٢٨، ١٨ يناير/كانون الثاني ١٩٦٣، ص ٤.

(٥٩) التحرير تحاكم مرتين من أجل المقاومين الذين نفذ فيهم حكم الإعدام، **التحرير**، العدد ٩٧٤، ١٤ مارس/آذار ١٩٦٣، ص ١-٤.

(٦٠) المحكمة الإقليمية الرباطية تحكم على التحرير بـ ١٠٠٠ درهم غرامة وصوائر للدعوى، **التحرير**، العدد ٩٩٩، ١٣ أبريل/نيسان ١٩٦٣، ص ١.

(٦١) مأساة المقاومة، **التحرير**، العدد ٢٢٥، ١٣ نونبر/تشرين الثاني ١٩٥٩، ص ١-٣.

(٦٢) طردوا الاستعمار بالأمس فأصبحوا اليوم مطاردين!، **التحرير**، العدد ٢٤٦، ٤ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩ ص ١-٣.

(٦٣) بلاغ من الديوان الملكي، **التحرير**، العدد ٢٤٨، ٦ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١-٣.

(٦٤) البوليس يحجز أمس جريدة التحرير في مجموع المغرب، تفاصيل جديدة عن قصة المعطوبين وأرامل الشهداء، **التحرير**، العدد ٢٤٧، ٥ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١-٣.

(٦٥) الموساوي العجلاوي، **من الاتحاد الوطني إلى الاتحاد الاشتراكي ١٩٥٩-١٩٨٣، ط ١**، مطبعة اليديني، الرباط، ٢٠٠٢، ص ٥٤.

(٦٦) اعتقال الأخوين البصري واليوسفي ومصادرة التحرير إلى صدور أمر جديد، **الرأي العام**، العدد ٧٤٤، ١٦ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١.

(٦٧) أبو نوفل، في الصميم: الجماهير تندد بتناقض أعمال المسؤولين، **التحرير**، العدد ٢٥٥، ١٣ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ٣.

(٦٨) قضية جريدة التحرير ومتابعة مديرها ورئيس تحريرها، **الرأي العام**، العدد ٧٤٦، ١٨ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١.

(٦٩) اليوسفي، **أحاديث فيما جرى**، ج ١، م س، ص ٨٣.

(٧٠) عدة محامين من الشرق والغرب يلتحقون بهيأة الدفاع، **الرأي العام**، العدد ٧٤٩، ٢١ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١-٤.

(٧١) محامون من لبنان والجمهورية العربية والعراق والأردن يتطوعون للدفاع عن البصري واليوسفي، **الرأي العام**، العدد ٧٥٨، ٣٠ دجنبر/كانون الأول ١٩٥٩، ص ١.

(٧٢) البصري، تجربة الحركة الوطنية مع القصر، **الاختيار الثوري**، العدد ٥٤، ص ٨٨.

(73) Note Les responsabilités de l'ALM et du mouvement de la Résistance et du Libération dans l'affaire du « Complot ». Quatre mois de crise au Maroc (décembre 1959- avril 1960), 2/5/1960, p 4-5. Ministère des Affaires Etrangères, CADN, Rabat Ambassade, 558/PO1 N° 52, 1958-1961.

(٧٤) الجابري، **من الضغوط على محمد الخامس إلى الحكم الفردي**، ص ٨٩.

(٧٥) الوفود والبرقيات تتوارد على الكتابة العامة للاتحاد الوطني للتهنئة بإطلاق سراح المقاومين، **الرأي العام**، العدد ٩١٥، ٤ يونيو/حزيران ١٩٦٠، ص ١.

(٧٦) أصدر أحمد بن سودة جريدة الرأي العام سنة ١٩٤٧ لتكون ناطقة باسم حزب الشورى والاستقلال.

(٧٧) السنوسي، **نصف قرن من مصارعة النمرة**، ص ٦٦.

(٧٨) أمام محكمة التاريخ، هذا موقفنا نحن والمسؤولون أحرار في تحديد موقفهم كما يريدون، **الرأي العام**، العدد ١٠٦٣، ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٠، ص ١.

(٧٩) المصدر نفسه.

(٨٠) احتجاب الرأي العام، وقرب صدور التحرير، **الرأي العام**، العدد ١٠٨٢، ٢٤ نونبر/تشرين الثاني ١٩٦٠، ص ١.

(٨١) الجابري، **من الضغوط على محمد الخامس إلى الحكم الفردي**، ص٤٦-٤٨.

(٨٢) **التحرير**، العدد ٢٠،٢٦ دجنبر/كانون الأول ١٩٦٠.

(٨٣) بعد سلسلة من الاعتداءات والجرائم، عصابة إجرامية تقنبل المطبعة التي ينبعث منها صوت القوات الشعبية، **التحرير**، العدد ٨١٦، ٨-٩-١٠ شتنبر/أيلول ١٩٦٢، ص ١.

(٨٤) محمد الصديقي، جريدة التحرير ومحاكمة الستينيات، **المشروع**، العدد ١٤، خريف ٢٠٢٠، ص ١٧٧.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(٨٦) بلاغ من الكتابة العامة للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، **التحرير**، العدد ٨١٦، ص ١.

(٨٧) إلى متى سيستمر هذا الاعتداء المتواصل على الحريات العامة؟ **التحرير**، العدد ٨٢١، ١٦-١٧ شتنبر/أيلول ١٩٦٢، ص ١.

(٨٨) بعد عملية تخريب مطابع الصحف التقدمية بالقنابل المتفجرة: المعنى الحقيقي للجريمة في هذا الوقت بالذات، **التحرير**، العدد ٨٢٠، ١٥ شتنبر/أيلول ١٩٦٢، ص ١.

(٨٩) حوار شخصي مع عبد اللطيف جبرو في الرباط يوم ٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٢.

(٩٠) عبد اللطيف جبرو، **عبد الرحمان اليوسفي**، ٢٠٢٠، ص ٩٣.

(٩١) جبرو، ١٦، **يوليوز/تموز ١٩٦٣**، ص ١٢.

(٩٢) الجابري، **من الضغوط على محمد الخامس إلى الحكم الفردي**، ص ٢٧.

(٩٣) السنوسي، **نصف قرن من مصارعة النمرة**، ص ٨٧.

(٩٤) كانت هذه المطبعة الواقعة في زنقة لاكارون رقم ٤٦ بالدار البيضاء في الأصل في ملك إحدى النقابات الفرنسية كشركة مساهمة. وقد أهدتها للنقابيين المغاربة، وكان لعبد الرحمان اليوسفي أسهما فيها، بوصفه من العاملين في الحقل النقابي، إلى جانب آخرين من قادة الحركة العمالية المغربية. وسلم عبد الرحمان اليوسفي والمساهمون الآخرون أسهمهم في المطبعة إلى الاتحاد المغربي للشغل فأصبحت ملكا لهذه النقابة التي تزعمها المحجوب بن الصديق. انظر محمد عابد الجابري، **من الضغوط على محمد الخامس إلى الحكم الفردي**، ص ٦.

(٩٥) محمد لومة، **ثورة شعبية؟ أم مناورة للتحريك؟ محاكمة مراكش الكبرى ١٩٧١**، تقديم عبد الرحمان بن عمرو ومحمد الحبيب الفرقاني، ط ٣ مزيدة ومنقحة، المطبعة السريعة، القنيطرة، ٢٠٠٨، ص ٥٧.

(٩٦) السنوسي، **نصف قرن من مصارعة النمرة**، ص ٨٩.



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

أقطاب التصوف بسجلماسة وإقليمها ودورهم التربوي والاجتماعي
نماذج من العصرين الوسيط وبداية الحديث



د. نور الدين أمعيط
أستاذ التعليم العالي مؤهل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة
جامعة شعيب الدكالي – المملكة المغربية

مُلَخّصْ
تميزت سجلماسة وإقليمها بنهضة روحية وعلمية وعمرانية، منذ فترة مبكرة من العصر الوسيط، فاحتضنت الزوايا والمدارس القرآنية، وسجلت حضورًا لافتًا خلال الحقبة الوسيطية على مستوى العلم والتصوف والتجارة القافلية طوال العصر الوسيط، وتعززت مكانتها على مستوى النشاط الصوفي أكثر مع بداية العصر الحديث. وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز المكانة المتميزة التي حظيت بها سجلماسة وإقليمها ضمن خريطة التصوف بالمغرب الأقصى، ورصد استمرارية مظاهر الزهد والصلاح بهذه المنطقة خلال العصرين الوسيط وبداية الحديث، والوقوف على نماذج محلية من أقطاب الزهد والصلاح ممن لعبوا أدوارًا طلائعية على المستويين التربوي والاجتماعي، وذلك بالاعتماد على مجموعة من المصادر التاريخية المصنفة خلال العصرين الوسيط وبداية الحديث. وقد توصلت الدراسة إلى أن التصوف في سجلماسة وعموم المغرب، خاصةً أواخر العصر الوسيط وبداية الحديث، قوة جذب اجتماعية مؤثرة، نظرًا لما توفر لأقطابه وشيوخه من حضور اجتماعي ومصداقية روحية وأخلاقية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٥	أكتوبر	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٨	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:
التصوف؛ سجلماسة؛ تافيلالت؛ العصر الوسيط؛ العصر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.311631 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
نور الدين أمعيط، "أقطاب التصوف بسجلماسة وإقليمها ودورهم التربوي والاجتماعي: نماذج من العصرين الوسيط وبداية الحديث".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٣٩ – ١٤٩.

Corresponding author: nour7404@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَورية كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةُ

إذا كان التصوف من أبرز ثوابت الهوية الدينية للمغرب والمغاربة، إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية وإمارة المؤمنين، فإن هذه الثوابت تبدو أكثر جلاء ورسوخا بمنطقة سجلماسة وإقليمها، وذلك بالنظر لمكانة المنطقة تاريخيا، وموقعها جغرافيًا، ليس كمحطة عبور للتجارة القافلية منذ عدة قرون فحسب، ولكن باعتبارها أيضًا مركزًا للإشعاع العلمي والروحي، فقد أنجبت عدة رجالات في العلم والصلاح، كما استقطبت عددًا من العلماء والزهاد ممن اهتموا بالجانب العملي في التصوف وتدرجوا في مقامات السلوك.

لقد تميزت سجلماسة وإقليمها بنهضة روحية وعلمية وعمرانية، منذ فترة مبكرة من العصر الوسيط، فاحتضنت الزوايا والمدارس القرآنية، ولا غرو فقد كانت "مدينة متحضرة جدا، دورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع السودان، وكان فيها مساجد جميلة ومدارس ذات سقايات" على حد وصف الوزان[1]، مما بوأها مكانة متميزة على أكثر من صعيد، لتصبح مضرب الأمثال في العلم والزهد معا، فلا تجد "قصرا من قصورها(...) ولا قرية من قراها، إلا وفيه من العلماء والصلحاء وأهل الفضل وطلبة العلم والقراء ما لا يحصى"[2]. ولعل المتأمل في بعض كتب التصوف والمناقب والتراجم والطبقات المصنفة خلال العصر الوسيط وبداية الحديث، ليقف على المكانة المرموقة التي حازتها سجلماسة وأحوازها على مستوى الزهد والعلم والصلاح.

ولئن كانت حاضرة سجلماسة، قد سجلت حضورا لافتا خلال الحقبة الوسيطية على مستوى العلم والتصوف والتجارة القافلية طوال العصر الوسيط، فإن مكانتها على مستوى النشاط الصوفي، تعززت أكثر مع بداية العصر الحديث، فغدت تافيلالت الكبرى، وريثة سجلماسة، تشهد إشعاعًا كبيرًا على المستوى الروحي والديني والعلمي والمكانة السياسية، خاصة بعد أن اتخذ الأشراف العلويون من المنطقة مقرا لإمارتهم. وغني عن البيان أن الازدهار التجاري، لم يكن بمنأى عن الازدهار الروحي والثقافي، حيث شهدت سجلماسة ونواحيها نشأة مجموعة من الزهاد وأهل العلم والصلاح، واستقطبت أرضها رجالا اشتهروا بالعلم والتصوف، لتتعزز المكانة الروحية والسياسية للمنطقة مع مطلع العصر الحديث، حين صارت تافيلالت مقرا لانطلاق حركة الأشراف العلويين.

وهكذا حلت تسمية تافيلالت[3] منذ مطلع العصر الحديث محل سجلماسة لتدل على جميع الواحات الواقعة على ضفتي وادي زيز ابتداء من الخنك بالمضيق القريب من مدينة غارسلوان عند (غار زعبل)، ونزولاً نحو الجنوب على مسافة ١٢٠ ميلا"[4] بحسب تقدير الوزان. وعليه، فإن مجال البحث في هذه الدراسة سينتقل من سجلماسة المدينة والمركز خلال العصر الوسيط، إلى تافيلالت الإقليم الشاسع الذي يشمل سجلماسة وكافة المنبسطات الواحية الواقعة بين الأطلس الكبير شمالاً والصحراء جنوبًا خلال العصر الحديث.

وبهدف إبراز مكانة سجلماسة ضمن خريطة التصوف بالمغرب، ورصد استمرارية مظاهر الزهد والصلاح بهذه المنطقة، والوقوف على نماذج من أقطاب الزهد والصلاح ممن لعبوا أدورا طلائعية على المستوى التربوي والروحي والاجتماعي، فقد اعتمدنا في هذه الدراسة على جملة من المصادر التاريخية المصنفة خلال العصرين الوسيط وبداية الحديث، نظير تشوف ابن الزيات (ت٦٢٧هـ/1230م)، ومستفاد التميمي (ت٦٠٣هـ/1206م أو ٦٠٤هـ/1207م) ودوحة الشفشاوني (ت٩٨٦هـ/١٥٧٨م)، ودرة ابن القاضي (ت1025هـ/١٦١٧م)، ومثاني القادري (ت١١٨٧هـ/١٧٧٩م)، وطبقات الحضيكي (ت١١٨٩هـ/١٧٨١م)، فضلاً عن دراسات سابقة ذات صلة بالموضوع.

أولاً: سجلماسة أرض الصلحاء وملتقى الأولياء خلال العصر الوسيط

١/١-صلحاء سجلماسيو المنشأ، الوظائف والأوصاف

إذا كانت كتب المناقب، قد أجمعت أن المغرب أرض "تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ"[5]، وأنه بلد "صلحاء وفقهاء وعلماء"[6]، وأنه "دار جهاد وموطن رباط"[7]، فإن منطقة سجلماسة ونواحيها، كان لها نصيبها الوافر من رجالات الزهد والصلاح، حتى إنها كانت سباقة إلى إنجاب العديد منهم، منذ فترة مبكرة من العصر الوسيط، فقد نشأ بها عددًا مهمًا من الصلحاء ممَنْ بصموا بأعمالهم المجتمع المغربي عامة، والمجتمع السجلماسي على وجه التحديد. وفيما يلي رصد لنماذج من هؤلاء، مع إبراز وظائفهم وأوصافهم، بحسب الإفادات الواردة ضمن كتابي التشوف والمستفاد.

اسم الولي	تاريخ وفاته	مصدر ترجمته	وظائفه وأوصافه
أبو عبد الله محمد الدقاق السجلماسي	ت أواخر ق ٦هـ وبداية ٧هـ دفن بفاس.	المستفاد، ج٢، ص.١٨٦-١٨٧.	"كان من أهل الورع والتواضع، له طريق يختص بها في التصوف من الصدق وترك التصنع".
أبو يحي أبو بكر التوجي السجلماسي	----	التشوف، ص.١٨٢.	"كان من أكابر الأولياء".
أبو عبد الله محمد ابن عمر الأصم السجلماسي	ت ٥٤٢هـ	التشوف، ص.١٥٥.	كان من "أكابر الصوفية".
أبو محمد عبد الله بن موسى الجزولي	ت 580هـ	التشوف، ص.٢٧٧-٢٧٨.	-توفي بمكة. -له عدة كرامات.
أبو عبد الله محمد ابن الحسن اليصلتي السجلماسي	ت٥٩٥هـ	التشوف، ص.٤٥	كان من تجار الصحراء، - "استقر به المقام أخيرا بمدينة فاس فأقام بها سبعة عشر عامًا، صائما لا يفطر إلا في الأيام المنهي عن صيامها ".
أبو القاسم بن أبي الفضل	ت.٦٠١هـ.	التشوف، ص.٣٧٨.	-كان من أهل الورع والصلاح واشتهر بفعل الخير.
أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان المعروف بابن حمودة	ت ٦١٢هـ	التشوف، ص.٤١٧.	- "من أهل البيت وسلفه أهل خير وصلاح وعلم".
أبو سعيد عثمان ابن منغفاذ الوريوي	ت ٦١٥هـ دفن بسجلماسة	التشوف، ص.٤٤٠-٤٤١.	- عاش طول حياته دون زواج. "وكان يواصل خمسة عشر عاما حتى أنحلته العبادة". -"دخل الصحراء بالتسبيح والتقديس".

لعل أولى الملاحظات التي يمكن استنباطها من خلال رصد أسماء الصلحاء الذين نشأوا بسجلماسة ضمن كتابي التشوف والمستفاد، هي محدودية عددهم خلال القرن السادس الهجري، مقارنة بحواضر أخرى كفاس ومراكش وتادلا، غير أن ذلك لا يعني البتة افتقار المنطقة لرجالات الزهد والصلاح أو ندرتهم بها، بقدرما يعزى، في تقديرنا، إلى تركيز كتاب المناقب على أولياء الحواضر الكبرى، وعنايتهم بأولياء المنطقة التي نشأوا بأرضها أو التقوا بصلحائها، في حين أغفلوا ذكر البعض الآخر ممن لم يكتب لهم به اللقاء.

ومما يؤكد تركيز كتب المناقب على صلحاء مناطق انتمائهم دون أخرى، ما خص به ابن الزيات التادلي[٨] صلحاء تادلا من عناية وتمييز، وما أفرد به عبد الحق البادسي[٩] صلحاء الريف من اهتمام، ثم ما أولاه صاحب بهجة الناظرين[١٠] لأولياء دكالة من تقدير، فضلا عما أولاه صاحب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"[١١] من عناية لصلحاء تلمسان وعبادها دون غيرهم.

والواقع أن أرض سجلماسة تميزت بقصب السبق على مستوى احتضانها لأهل الزهد والصلاح، ولا غرو فقد تخرج منها العديد من أهل الزهد والعلم والتصوف، خاصة وأن مكانتها التجارية، وموقعها الاستراتيجي كمحطة رئيسية في الطريق القافلية صوب إفريقيا جنوب الصحراء، قد بوأها مكانة مرموقة جعلت أهلها يستفيدون من اندماج ثقافي فريد، لذلك فلا غرابة إن كان السجلماسيون من السباقين للتواصل مع الفقيه الزاهد عبد الله بن ياسين داعية المرابطين وذلك قبل وصول هؤلاء إلى سجلماسة، فقد ذكر الناصري أنه في "سنة سبع وأربعين وأربع مائة، اجتمع فقهاء سجلماسة (...) وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين، كتابا يرغبون إليهم في الوصول إلى بلادهم"[١٢]. ولئن كانت هذه الرسالة تدل على تمسك أهل سجلماسة بمقتضيات الكتاب والسنة، ونبذهم لتعسفات أمراء مغراوة التي طالها شطط في الحكم، وبعد عن الشرع، فإنها تفصح أيضا، عن أهمية النخبة العالمة المتمثلة في الفقهاء ودورهم الفاعل، داخل المجتمع السجلماسي منذ فترة مبكرة من العصر الوسيط.

ولعل أهم ما تميز به صلحاء سجلماسة، اجتهادهم في الزهد لإدراك أعلى مراتب الصلاح، وبالفعل، فقد وصف معظمهم ابن الزيات "بأكابر الأولياء"[١٣] أو "أكابر الصوفية"[١٤]، كما وصف بعضهم بأنه كان دائم "الصيام لا يفطر إلا في الأيام المنهي عن صيامها"[١٥]، ومنهم من عاش وحيدا عازفا عن الزواج طوال حياته مخافة أن يشغله زواجه عن العبادة كشأن أبي سعيد عثمان ابن منغفاذ الوريوي (ت. سنة ٦١٥هـ)[١٦]، بل وصف بعضهم، إلى جانب الولاية والصلاح، بالنسب الشريف نظير أبي القاسم بن أبي الفضل الذي كان "من أهل البيت، وسلفه أهل خير وصلاح وعلم"[١٧].

وممَنْ داع صيته من أبناء سجلماسة، علمًا وعملاً، وزهدًا وطاعة، ذكر كل من ابن الزيات والتميمي الولي الصالح أبو عبد الله محمد الدقاق السجلماسي[١٨] الذي وصف بأنه كان "من أهل الورع والتواضع، له طريق يختص بها في التصوف من الصدق وترك التصنع"[١٩]، كما اشتهر إلى جانب زهده، بشدة كرمه، فهو من وفدت عليه ذات ليلة بعد العشاء الآخرة، جماعة من المريدين، فقضوا ليلتهم، وأحسن ضيافتهم، "فلما أصبح صنع لهم ما أكلوا، ثم انصرفوا"[٢٠].

والواقع أن الولي أبا عبد الله الدقاق، قد عرف بإشعاعه الروحي والتربوي والاجتماعي الكبير، ليس في موطنه سجلماسة فحسب، بل في كافة ربوع أقطار الغرب الإسلامي، فقد ذكر صاحب التشوف أنه كان محدثا، كثير التردد على مدينة فاس، بل كان من كبار مشايخ الصوفية وأحد شيوخ أبي مدين[٢١]، ومن أصحاب أبي عبد الله الأصم وأبي عمرو التلمساني، كما حظي بتقدير العامة والخاصة من الناس حيث اعترف له غير واحد من أصحابه بالصلاح والولاية أمثال ابن العريف وأبي الحكم ابن برجان اللذان كان يقولان، بعد أن أخبرا ببعض أحواله، "لا تنكروا عليه شيئا"[٢٢].

وقد اعتاد صلحاء سجلماسة، على غرار غيرهم، شد الرحال إلى بلاد الحجاز، قصد أداء فريضة الحج وحيازة العلم أو الحج والمجاورة هناك، وهو ما قام به العديد من الصلحاء السجلماسيين، وعلى رأسهم الولي أبي محمد عبد الله بن موسى الجزولي الذي حج من سجلماسة ووافته المنية بمكة المكرمة سنة 580هـ[٢٣]، كما دأبوا على نشر الدين الاسلامي ومبادئ التصوف السني في الصحراء، فقد تبث عن الولي ابي سعيد عثمان ابن منغفاد الوريوي، أنه "دخل الصحراء بالتسبيح والتقديس"[٢٤].

٢/١-صلحاء وفدوا على سجلماسة، الوظائف والأوصاف

شكلت سجلماسة محطة لتوافد العديد من الصلحاء والزهاد ممَنْ شدوا الرحال إليها فمروا بواحاتها أو استقر بهم المقام مدة من الزمن بأرضها، مما شكل فرصة سانحة لأهل سجلماسة من أجل التلقي والتلمذة، حيث أخذ بعضهم عن بعض مبادئ التصوف وجملة من العلوم، خاصةً أن معظم هؤلاء الأولياء، كانوا على اطلاع بعلوم الشرع وقواعد اللغة، وهو ما اتضح جليًا من خلال مضامين تراجمهم، وفيما يلي نماذج لأهم الصلحاء الوافدين على سجلماسة مع رصد لمواطنهم الأصلية، وما تميزوا به من وظائف وأوصاف.

اسم الولي وتاريخ وفاته	موطنه الأصلي	مصدر ترجمته	وظائفه وأوصافه
أبو الفضل يوسف المعروف بابن النحوي (ت513هـ/1119م)	توزر(إفريقية)	التشوف، ص.٩٨.	-"نزل (سجلماسة) بمسجد ابن عبد الله ليدرس أصول الدين وأصول الفقه".
الولي أبو العباس التوزري(ت ٦١٠هـ/١٢١٦م)	توزر(افريقية)	التشوف، ص.٤١٢.	-"كان عبدا صالحا".
أبو عمرو عثمان ابن علي بن الحسن (ت.٥٤٢هـ)	تلمسان	التشوف، ص.١٤٠.	-حج "عن طريق الصحراء(...) وكان يختم القرآن في كل ليلة".
أبو اسحاق باران ابن يحي المسوفي(ت٥٧٠هـ)	مسوفة	التشوف، ص٢٥٤.	-"من أصحاب أبي عبد الله الدقاق، (...) توفي بسجلماسة".
أبو زكرياء يحى الدكالي(ت٥٧٠هـ)	دكالة	التشوف، ص.٢٥٧.	-"كان عبدا صالحا".
أبو علي سالم بن سلامة السوسي الروداني (ت٥٨٩هـ أو590هـ)	تارودانت	التشوف، ٢٨٤-٢٨٥.	-"من تارودانت ودرس الفقه بفاس(...) وأغمات (...)، واستقر بسجلماسة وبها مات عام تسعة وثمانين أو تسعين وخمسمائة، وكان عبدا صالحا فاضلا".
الحسن بن القاسم (الداخل) (ت٦٧٨هـ)	الحجاز (ينبع)	الدرر البهية، ج١، ص.٩٦-٩٧. الناصري، ج٧، ص٤-٥	-"كان متخصصا في تدريس العلوم بمسجدها (سجلماسة) الأعظم، خاصة علمي البيان والأصول".

ويبدو من خلال رصد أهم الصلحاء الذين وفدوا على سجلماسة، تعدد روافد الهجرة، فقد استقطبت واحاتها مجموعة من أهل الصلاح والتصوف الذين حلوا بأرضها من مختلف مناطق الغرب الإسلامي، ففضلاً عن روافد الهجرة الداخلية كدكالة التي قدم منها الولي أبو زكرياء يحيى المتوفى سنة (٥٧٠هـ/١١٧٦م)، وتارودانت التي أقبل منها الولي أبو علي سالم بن سلامة السوسي المتوفى سنة (٥٨٩هـ/١١٩٥م) أو (590ه/١١٩٦م)، فقد توافد على أرض سجلماسة صلحاء من خارج المغرب الأقصى، وخاصة من إفريقية كحال الولي أبي الفضل ابن النحوي المتوفى سنة (513هـ/١١١٩م)، وأصله من توزر بإفريقية، وكذا الولي أبو العباس التوزري المتوفى سنة (٦١٠ه/١٢١٦م)، والولي الشريف النسب الحسن الداخل الجد الذي حل بسجلماسة من أرض الحجاز حوالي سنة (٦٦٤هـ/١٢٧٠م) بطلب من بعض السجلماسيين أثناء وصول ركب الحاج إلى الديار المقدسة[٢٥].

وقد تميز أغلب الصلحاء والزهاد الوافدين على سجلماسة، بسعة اطلاعهم وتبحرهم في مجموعة من العلوم، بل إن بعضهم اعتكف على العبادة والعلم والتدريس، حتى حاز أشرف المراتب علما وعملا، وصار من العلماء الأعلام المشهود لهم بالثقة والكفاءة، نظير أبي الفضل يوسف المعروف بابن النحوي الذي "نزل بسجلماسة بمسجد ابن عبد الله ليدرس أصول الدين وأصول الفقه"[٢٦] و أبو علي سالم بن سلامة الروداني المتوفى سنة ٥٨٩ه/١١٩٥م أو590هـ/١١٩٦م الذي "درس الفقه بفاس وأغمات واستقر بسجلماسة "[٢٧]، و الولي أبو عمرو عثمان بن علي بن الحسن التلمساني الأصل الذي كان " كبير الشأن من أهل العلم والعمل، وحج من سجلماسة عن طريق الصحراء(...) فكان يختم القرآن في كل ليلة"، فضلاً عن الولي الشريف الحسن الداخل الذي "كان متخصصا في تدريس العلوم بمسجدها الأعظم، خاصة علمي البيان والأصول"[٢٨].

وبالنظر لما اشتهر به صلحاء سجلماسة الوافدين، من علم وصلاح، وفعل للخير، وشرف في النسب[٢٩]، فقد نال معظمهم مكانة مرموقة في نفوس السجلماسيين، وتقلدوا عدة وظائف وأدوار، خاصة التعليم والتربية ونشر مبادئ الدين والتصوف السني، وهو ما انعكس إيجابا على النشاط الصوفي بسجلماسة ونواحيها خلال الفترات اللاحقة عن العصر الوسيط.

ثانيًا: تافيلالت وريثة سجلماسة في الزهد والصلاح والعلم خلال العصر الحديث

١/٢-تافيلالت أرض الزهد والصلاح

لم تنقطع سمات الصلاح ومظاهر التصوف بأرض سجلماسة بعد الخراب الذي تعرضت له هذه الحاضرة أواخر العصر الوسيط[٣٠]، بل اتسع نطاقه وامتد إشعاعه ليشمل واحات زيز واغريس فيما أصبح يعرف بأرض تافيلالت الكبرى، حيث ظهر العديد من الصلحاء والأولياء ممَنْ اضطلعوا بأدوار ووظائف اجتماعية مختلفة، ابتداء من نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين، وهي الفترة التي صار فيها للصلاح والنسب الشريف، مكانتهما الخاصة في تعزيز النفوذ، وحسم الصراعات السياسية التي أعقبت سقوط دولة بني مرين. فبالرغم من إحكام السعديين سيطرتهم على المغرب الأقصى، فإن الأزمة السياسية، سرعان ما استفحلت به منذ أواخر القرن (10هـ/16م)، حيث جسدت وفاة المنصور السعدي سنة (١٠١٣ه/1603م)، إيذانًا باستئناف مرحلة من الصراعات الدامية بين الإمارات المستقلة، وهو الصراع الذي حسمته إمارة الأشراف العلويين بمنطقة تافيلالت[٣١] بتوحيدها للمغرب بزعامة المولى الرشيد العلوي (ت.1082ه/١٦٧٢م)، مما زاد من أهمية المنطقة ونشاطها السياسي وإشعاعها الروحي.

وفيما يلي رصد لنماذج من صلحاء منطقة تافيلالت خلال مطلع العصر الحديث، مع الإشارة إلى ما اختصوا به من وظائف وأوصاف.

اسم الولي	تاريخ وفاته	مصدر ترجمته	وظائفه وأوصافه
أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي السجلماسي	(ت٩٠٣هـ/١٤٩٥م)	دوحة الناشر، ص.٨٩-٩٠	-زاول التدريس. -كان " من العلماء الأعلام وأكابر مشايخ الإسلام".
عبد الله المضغري	(ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) بدرعة.	طبقات الحضيكي، ج٢، ص.٤٥٤.	-"فقيه درعة وحافظها، أخذ عن الإمام القوري والونشريسي، وأخذ عنه علي بن هارون".
عبد الله بن عمر المضغري	(ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)	-طبقات الحضيكي، ج٢، ٤١٦.	-"فقيه درعة وحافظها، أخذ عن الإمام القوري والونشريسي، وأخذ عنه علي بن هارون".
علي بن عبد الله السجلماسي	(ت940هـ/1533م)	طبقات الحضيكي، ج٢، ص.٤٦٥.	-"الولي الصالح القطب المشهور، الغوث الغياث في البر والبحر حجة الله وآياته، جبار التلائف والقلوب المنكسرة، شيخ المشايخ أستاذ القطب الشهير سيدي الغازي".
علي ابن هارون المطغري	(ت ٩٥١هـ/١٥٤٤م) بفاس	دوحة الناشر، ص.٥١. طبقات الحضيكي، ج٢، ص.٥٥٤. درة الحجال، ج3، ص.٢٥٤.	-"كان (...) من فحول العلماء وأكابر الفضلاء، (...) وتولى الفتيا والتدريس بفاس، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته". -"احتفل الناس بجنازته ونهبوا أعواد نعشه تبركا به، وكان شيخ الجماعة في وقته تشد إليه الرحال رحمه الله"(٣٢).
عبد الرحمن بن عبد الله ابن عمر المضغري	(ت٩٧١هـ/١٥٦٥م)	دوحة الناشر، ص.٨٩.	-"وعلى الجملة فهو من العلماء الأعلام".
محمد بن عبد الله ابن عمر المضغري	(ت.980 هـ/١٥٧٣م)	دوحة الناشر، ص.٨٨-٨٩.	-"كان من عباد الله الصالحين، (...) وهو من أحسن الناس خلقا وأفضلهم عملا ودينا، وقد وفد على السلطان الغالب أبي محمد عبد الله بن محمد الشيخ الشريف سنة سبعين، فوعظه وحرضه على العدل والرفق بالرعية".
محمد بن بلقاسم الفلالي	(ت٩٨٨هـ/١٥٨١م)	طبقات الحضيكي، ج٢، ص.316.	-"الفقيه الخطيب الشريف المدرس، كان شريف النسب والقدر، عالما عاملا، ولي الخطبة بجامع الأشراف بمراكش".
علي بن عبد العزيز السجلماسي	(ت988هـ/١٥٨١م) بسجلماسة.	دوحة الناشر، ص.٩٠-٩١. -طبقات الحضيكي، ج٢، ص.٤٤٧.	-" كان فقيها كثير الخوف والتأهب للآخرة والاستعداد، عارفا بطرق القراءات".
أبو زيد عبد الرحمن بن علي من لا يخاف الفلالي	(ت٩٩٩هـ/١٥٩١م)	دوحة الناشر، ص.90. نشر المثاني، ج١، ص.٤١. طبقات الحضيكي، ج٢، ص.408.	-"كان عبدا صالحا كثير الخشية ورعا زاهدا منزويا عن الدنيا وأهلها، حدث الثقات عنه بأنواع من الكرامات".

اسم الولي	تاريخ وفاته	مصدر ترجمته	وظائفه وأوصافه
ابو القاسم بن محمد بن عمرو بن احمد الغازي الشريف الهرغي السوسي السجلماسي	(ت٩٨٢هـ/١٥٧٥م)، دفين قصر إرارة بالريصاني	طبقات الحضيكي، ج٢، ص.320.	-"عالم صوفي كبير". -"مؤسس الطريقة الغازية الشاذلية في التصوف".
أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الشريف الفلالي	(ت٩٨٨هـ/١٥٨١م)	القادري، نشر المثاني، ج٢، ص. ٥٩.	-"خطيب جامع الشرفاء بمراكش". - "من مشايخ القاضي أبي مهدي عيسى السكتاني(ت1012هـ)".
عبد الواحد بن أحمد الفلالي	(ت1003هـ/١٥٩٦م)	طبقات الحضيكي، ج٢، ص.٥١٨.	-"نزيل مراكش، مفتيها ومدرسها، برع في فنون شتى وشارك في علوم كثيرة".
محمد بن مبارك المغراوي السجلماسي	(ت 1092هـ/١٦٨٥م)	سلوة الأنفاس، ج٢، ص.٩٩.	-"النحوي الفقيه المحقق النبيه شيخ الجماعة في القراءات(...)، أم بضريح مولاي ادريس ودرس به وولي كرسي الوعظ به وبالقرويين".

لقد أسهبت كتب المناقب والتراجم والطبقات المصنفة خلال بداية العصر الحديث، في ذكر أوصاف عدد مهم من رجالات الزهد والصلاح ممن ينتسبون إلى أرض تافيلالت الكبرى، وقد تزداد أعدادهم كلما توغلنا في العصر الحديث، وهو ما ينم عن نشاط صوفي كبير شهدته أرض تافيلالت منذ مطلع القرن العاشر الهجري وما بعده. ويبدو من خلال أوصاف أولياء سجلماسة، أنهم دأبوا على الانخراط في مجتمعهم مجسدين فكرة التضامن والتكافل للتصدي للأزمات، سواء كانت طبيعية كالجفاف والمجاعات، أو بشرية كتسلط أعوان السلطة واللصوص.

وباستثناء الولي أبي زيد من لا يخاف الفلالي (ت. ٩٩٩هـ أو١٦٠٢م)، الذي وصفه صاحب دوحة الناشر بالانزواء مع الورع والزهد، حيث كان "عبدًا (...) زاهدًا منزويًا عن الدنيا وأهلها"[٣٣]، فإن معظم صلحاء تافيلالت وصفوا بتفاعلهم مع محيطهم المجتمعي، فقد نعت الحضيكي الولي علي بن عبد الله السجلماسي (ت. 940هـ)، "بالولي الصالح القطب المشهور الغوث الغياث في البر والبحر (...) جبار التلائف والقلوب المنكسرة"[٣٤]، أما الولي علي ابن هارون المطغري (ت. ٩٠٣هـ)، فمن شدة حرصه على قضاء حوائج الناس، فقد نال محبة أهل تافيلالت حتى "احتفل الناس بجنازته ونهبوا أعواد نعشه تبركا به، وكان (...) في وقته تشد إليه الرحال"[٣٥]، ومثله الولي أبي القاسم بن محمد بن عمرو بن أحمد الغازي الشريف الهرغي السوسي السجلماسي (ت.٩٨٢هـ)، الذي اشتهر بزهده وإحسانه، حتى وصف بالعالم الصوفي الكبير، فهو من أسس "الطريقة الغازية الشاذلية في التصوف"[٣٦]، وزاويته ذائعة الصيت إلى اليوم بأرض تافيلالت، معروفة باسم الزاوية الغازية أو زاوية تابوبكرت[٣٧].

٢/٢-تافيلالت أرض العلم

لا شك أن تافيلالت الكبرى، قد استفادت من التراكم العلمي والثقافي الذي حققته سجلماسة خلال الحقبة الوسيطية، حين كانت منارة للعلم وقبلة للعلماء والصلحاء والتجار، لذلك فلا غرابة إذا صادفنا أن جل الأولياء السجلماسيين ممن ذكرتهم كتب التراجم والمناقب والطبقات خلال العصر الحديث، كانوا من العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين العلم والصلاح، ولا غرو فالولي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي السجلماسي، كان " من العلماء الأعلام وأكابر مشايخ الإسلام"[٣٨]، أما علي ابن هارون المطغري فقد "كان (...) من فحول العلماء وأكابر الفضلاء (...) وانتهت إليه رياسة العلم في وقته"[٣٩]. وذات الأوصاف دونها الحضيكي في حق الولي محمد بن بلقاسم الفلالي الذي كان خطيبا ومدرسا "عالما عاملا، ولي الخطبة بجامع الأشراف بمراكش"[٤٠]. أما محمد بن مبارك المغراوي السجلماسي الذي اشتهر بالعلم والصلاح، فقد شغل منصب الإمامة والوعظ والتدريس، فهو "النحوي الفقيه المحقق النبيه، شيخ الجماعة في القراءات (...)، أم بضريح مولاي إدريس ودرس به، وولي كرسي الوعظ به وبالقرويين"[٤١].

ويبدو أن التكوين العلمي لهؤلاء الأولياء، هو ما عزز مكانتهم الاجتماعية من جهة، وساهم في إنجاح مهمة الربط والزوايا بتافيلالت وعموم المغرب، من جهة ثانية، ليقوم هؤلاء الأولياء بأدوارهم الدينية والاجتماعية المنوطة بهم، خاصةً وأن

المعتاد في تاريخ التصوف السني بالمغرب، "أن الولي لا يكون إلا عالمًا ولا يكون جاهلاً"[٤٢].

ثالثًا: صلحاء تافيلالت الكبرى، الوظائف والأدوار

١/٣-الأدوار التربوية والدينية

بالنظر لما اشتهر به صلحاء تافيلالت، من زهد وصلاح، وفعل للخير، فضلا عن شرف نسب بعضهم[٤٣]، فقد نالوا مكانة مرموقة في نفوس العامة والخاصة، فتولوا عدة وظائف وأدوار، ومنها دور التربية الروحية ومزاولة وظيفة التعليم والتدريس والوعظ والإرشاد داخل المساجد وخارجها، ولاتعوزنا القرائن الدالة عن الدور الفاعل الذي قام به صلحاء منطقة تافيلالت، فالولي عبد الله بن عمر المضغري (930هـ/1523م)، كان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[٤٤]، وكان علي بن هارون المضغري (ت. ٩٥١هـ/١٥٤٤م) "من فحول العلماء وأكابر الفضلاء (...)، تولى الفتيا والتدريس بفاس"[٤٥]، أما علي بن عبد العزيز السجلماسي (ت.٩٨٨هـ/١٥٨١م)، فقد "كان فقيها (...)، عارفا بطرق القراءات"[٤٦]، ومحمد بن بلقاسم الفلالي (ت.٩٨٨هـ/١٥٨١م) الذي كان "فقيهًا وخطيبًا ومدرسًا(...) بجامع الأشراف بمراكش"[٤٧].

لقد أنيطت بالصلحاء بأرض تافيلالت مهمات تربوية ودينية، لعل أهمها ترسيخ تعاليم الإسلام، وتفقيه المريدين وعموم الناس في أمور الدين، وتثبيت دعائم التصوف السني، و لا غرو فقد كانت سجلماسة من أهم المناطق التي احتضنت مؤسسة الرباط، حيث اشتهرت رابطتها أنبدور[٤٨] منذ القرن السادس الهجري، بنشاطها الصوفي وشكلت مجمعًا للزهاد والمتصوفة، يقصدونها بقصد الخلوة والتعبد وتلقين مبادئ الدين والتصوف للمريدين، ليستمر النشاط الصوفي بهذه المنطقة ونواحيها بزعامة العديد من الزوايا التي لاتزال بعضها فاعلة إلى يومنا الحاضر[٤٩].

٢/٣-الأدوار الاجتماعية

لم تكن أدوار صلحاء منطقة تافيلالت لتختلف كثيرا عن وظائف نظرائهم في مختلف بوادي المغرب وحواضره، إذ اشترك المتصوفة في وظائف وأدوار متشابهة، ولعل أهم تلك الوظائف ما أشار إليه روبير مونطاني حين أقر أن مهمة الولي تكمن أساسا في المحافظة على النظام الذي تقره المجموعة، وذلك بتدخله في حل النزاعات، والفصل في الخصومات، وحماية الأسواق والمواسم، ورعاية المحاصيل والمخازن الجماعية[٥٠].

وفيما أكد هذه الحقيقة روبير مونطاني (Robert Montagne) في كتابه صلحاء الأطلس، سار ايرنست كيلنر(Ernest Gellner) في ذات المنحى، مؤكدا أن الدور التحكيمي للولي هو ما يضمن استمرار تلك المجموعات[٥١]، غير أن من الدارسين من تنبه أن هذه التحليلات تظل جميعها غارقة في التنظير إلى أبعد الحدود[٥٢]، وقد أصاب الأستاذ محمد مفتاح حين ربط بين الولي ومجاله، مؤكدا أن دور الصوفي في جماعته مرتبط بمواجهة الشر المتمثل في شطط السلطة وتعسفات القبائل الرحل والنصارى المتاجرين، كما يرتبط بمواجهة الظواهر الطبيعية كالجفاف والمجاعات والأمراض[٥٣]. وهو ما نجد له قرائن تاريخية دالة مرتبطة بمجال تافيلالت وصلحائها.

لعل من بين أهم الوظائف الاجتماعية التي اشترك فيها متصوفة تافيلالت مع عموم المتصوفة بالمغرب، وظيفة إطعام الطعام والتضامن مع المحتاجين، وهي من الوظائف البارزة التي أعطاها المتصوفة أهمية كبرى حتى صارت أصلا للسلوك الصوفي عند بعضهم، ولا غرو، فقد كان أبو محمد عبد الخالق بن ياسين[٥٤] يقول "طلبنا التوفيق زمانا فأخطأناه، فإذا هو في إطعام الطعام"[٥٥]، وممن اشتهر بهذه الصفة من صلحاء سجلماسة، الولي أبو عبد الله محمد الدقاق السجلماسي بحسب ما ذكره صاحب المستفاد[٥٦].

ويبدو أن وظيفة إطعام الطعام، كانت تنسجم مع ظروف المغرب خلال العصرين الوسيط والحديث والذي كان معرضا بصورة دورية للمجاعات وسنوات الجفاف[٥٧]، فضلاً عن غياب الاستقرار السياسي الذي بات المجتمع المغربي يعاني من نتائجه بصفة حادة ومتكررة[٥٨]، مما يجعل الرعية عرضة لتعسفات عمال السلطة وشططهم الضريبي، وهو ما كان المتصوفة يتدخلون لدرئه في الغالب الأعم، فقد تدخل الولي محمد بن عبد الله ابن عمر المضغري (ت. 980 هـ/١٥٧٣م) لدى السلطان السعدي الغالب أبي محمد عبد الله بن محمد الشيخ الشريف (...) فوعظه وحثه على العدل والرفق بالرعية"[٥٩].

وإذا كانت كتب المناقب قلما تفصح مباشرة عن وظائف الولي داخل مجتمعه، فهي تعبر عن وظائفه وأدواره من خلال رصد كراماته والإسهاب في ذكر خصاله، ففي كرامة الاستسقاء أو التنبؤ بالغيب أو الإفلات من عقاب الحاكم، دلالات تبرز من خلالها أدوار الولي ووظائفه داخل مجتمعه، ذلك أن الكرامة تعطي للولي قدرة خاصة تميزه عن سائر الناس، وتمكنه بالتالي من القيام بأدوار معينة لا يتأتى القيام بها لسائر الناس[٦٠]،

فمواجهة الجوع بحصول البركة في الطعام، وتهاطل المطر بعد الاستسقاء، والخروج من السجن، والوقوف في وجه عامل السلطة، كلها كرامات تثبت دور الولي ووظائفه داخل مجتمعه.

وفي هذا السياق عرف الولي أبو علي سالم بن سلامة السوسي الروداني (ت٥٨٩هـ أو590هـ)، الذي استقر بسجلماسة أنه كان مستجاب الدعوة عند الاستسقاء[٦١] كما عرف الولي أبو محمد عبد الله بن موسى الجزولي المتوفى بمكة سنة 580هـ، بظهور البركة والنماء في زرع حصده، حيث لمس المستأجر بركة الولي المذكور في زرعه، "فلم يزل ينمو كل عام ويتضاعف، حتى امتلأت المخازن بالزرع ولم يجد أين يجعله"[٦٢]. أما أبو عبد الله محمد ابن عمر الأصم السجلماسي المتوفى سنة ٥٤٢هـ، فقد ظهرت لديه كرامة الإفلات من العقاب وهو داخل السجن حيث كان "الكبل يسقط من رجليه كلما حانت أوقات الصلاة فيخرج من السجن ولا يراه أحد إلى أن يصلي مع الناس جماعة"[٦٣]، قبل "أن يظهر للسلطان أنه بريء مما نسب إليه وإلى أصحابه، فسرحهم"[٦٤].

ولا يمكن استحضار الأدوار التي قام بها الولي في مجتمعه، دون استحضار طبيعة ذهنيات المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط وبداية الحديث، وما طبعها من هيمنة التفسير الغيبي للظواهر الطبيعية. فقد كان المجتمع يعمد إلى تفسير كل ما يصادفه في حياته من عوائق كالكوارث الطبيعية والأمراض والأزمات بكونها تجليات قوى غيبية صادرة عن إرادة إلهية، ويكون ذلك التفسير منطلقا لعبادات تتخذ دريئة للخوف ومطية لمواجهة الأزمات، وهو ما يرى فيه أحد الباحثين[٦٥] استمرارا لمظاهر تأثير الآلهة الوثنية القديمة في المجتمع المغاربي.

خاتِمَةٌ

ومما سلف تتضح استمرارية الدور الريادي في التصوف لمنطقة سجلماسة، والإشعاع الذي حققته وريثتها تافيلالت ضمن خريطة التصوف بالمغرب خلال العصرين الوسيط وبداية الحديث، حيث أنجبت هذه المنطقة عدة رجالات تميزوا بعلمهم وصلاحهم، وانخرطوا في الدفاع عن الرعية بوسائل شتى، مكرسين مبدأ التكافل والتضامن، واضطلعوا بأدوار رائدة على المستوى الديني والتربوي والاجتماعي. لذا فقد أصبح التصوف في سجلماسة وعموم المغرب، خاصة أواخر العصر الوسيط وبداية الحديث، قوة جذب اجتماعية مؤثرة، نظرًا لما توفر لأقطابه وشيوخه من حضور اجتماعي ومصداقية روحية وأخلاقية.

إن فعالية أدوار المتصوفة وإشعاعهم على المستوى الروحي والاجتماعي بمنطقة تافيلالت، قد جعلت تأثيرهم، يصل إلى مناطق بعيدة بالصحراء والسودان الغربي، حيث صار الرباط هناك يلعب أدوارًا جهادية ضد المستعمر، إلى جانب دوره التربوي والاجتماعي. كما أن أدوارهم الاجتماعية ودفاعهم عن الرعية، جعلهم يحضون بتقدير كبير من طرف العامة والخاصة، وهو ما أثار قلق السلطة وغضبها خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب، وإن كان المتصوفة والسلطة معًا، كثيرًا ما وفقا في تدبير العلاقة بينهما بحنكة وتوافق كبيرين.

الاحالات المرجعية:

(١) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه إلى الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، 1983م، ج٢، ص.١٢٧.

(٢) إدريس الفضيلي، **الدرر البهية والجواهر النبوية**، مراجعة ومقابلة أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن المهدي العلوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج١، ص٩٧.

(٣) **تافيلالت**: لفظ أمازيغي، يعني المنخفض الذي تحيط به الجبال، ويقصد بها الواحة المحيطة بسجلماسة الأثرية ومدينة الريصاني الحالية، تحدها شمالا واحة تيزيمي المحيطة بمدينة أرفود ووادي اغريس غربًا ووداي أمريوج شرقًا وهوامش الكتلة القديمة القاحلة جنوبا، وتشمل تافيلالت مجموعة من المقاطعات مثل السفالات والغرفة ووادي ايفلي وتانيجوت، وفي كل مقاطعة توجد العديد من القصور. والعارف بالمنطقة، يدرك أن الواحة تشكل حوضا يلتقي فيه واديا زيز وغريس مكونين سهلا رسوبيا تحيط به مرتفعات جبلية من الجنوب والغرب، انظر: محمد بوكبوط، تافيلالت، **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١٩، ص.٦٥٥٩-٦٥٦٠.

(٤) **نفسه**، ج١، ص.١٢١.

(٥) ابن قنفد، **أنس الفقير وعز الحقير**، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥م، ص.٦٣.

(٦) عبد الحق بن إسماعيل الباديسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص.٧٣.

(٧) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، ١٩٥٤م، ج٢، ص.٣٣-٢٣٥. ج٣، ص.٣٩-٤٠.

(٨) انظر: نورالدين امعيط، **قراءة في كرامات صلحاء تادلا من خلال كتاب التشوف لابن الزيات التادلي"**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، العدد١٤-١٥، السنة ٢٠١٣/٢٠١٤، ص.٧٥-90.

(٩) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤١٤هـ/1993م.

(١٠) ابن عبد العظيم الأزموري، **بهجة الناظرين وأنس الحاضرين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين**، نسخة تيط، مخطوط خاص.

(١١) ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، طبعه واعتنى بمراجعته محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، ١٣٣٦هـ/١٩٠٨م.

(١٢) الناصري، م س، ج٢، ص.١١.

(١٣) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تحقيق أحمد التوفيق ط٢، الرباط، ١٩٩٧م، ص.١٨٢.

(١٤) **نفسه**، ص.١٥٥.

(١٥) **نفسه**، ص.٤٥.

(١٦) **نفسه**، ص.٤٤-٤٤١.

(١٧) **نفسه**، ص.٤١٧.

(١٨) يبدو أن هذا الولي، قد استمر عقبه معروفا بالصلاح والزهد، ولعل من أقربائه الشيخ الولي **أبو علي الدقاق** أستاذ العزفي (ت633 ه)، انظر: أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، ١٩٨٩م، ص.٧٣-٧٥. وعنه روى الحضرمي بعض أقواله في التصوف، انظر: محمد ابن أبي بكر الحضرمي، **السلسل العذب والمنهل الأحلى**، مجلة المخطوطات العربية، القاهرة، ج١، المجلد ١، السنة ١٩٦٤م، ص.٦٠-٦٢-٦٣. وكذا الشيخ مولاي **عبد الله الدقاق** المعاصر للسلطان المولى إسماعيل دفين سجلماسة، انظر: لحسن تاوشيخت، **"تكامل المدرسة السجلماسية الصوفية مع شقيقتها السوسية"**، ضمن المحاضن الأولى للعلم بالمغرب، سوس وتافيلالت السمات العلمية والصلات الثقافية، تنسيق عبد الواحد الحسيني، الكلية المتعددة التخصصات الرشيدية، جامعة المولى إسماعيل، ط١، ٢٠٢١م، ص.١٩١.

(١٩) التميمي، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ٢٠٠٢م.، ج٢، ص.١٨٦.

(٢٠) **نفسه**، ج٢، ص.١٨٧.

(٢١) هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الملقب بالغوث أصله من إشبيلية وبلغت شهرته كأحد أعلام الزهد والتصوف خلال القرن السادس الهجري، عاش بفاس وبجاية وبها دفن (ت ٥٨٩هـ/١١١٩م)، راجع: **التشوف**، **م س**، ص.١٩-٣٢٦. **المستفاد**، **م س**، ص.٤١-٤٥.

(٢٢) انظر: **التشوف**، **م س**، الهامش رقم ٢٦، ص.١٥٦. **أنس الفقير**، **م س**، ص.٢٧. ابن القاضي، **جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ج١، ص.٢٥٩.

(٢٣) **التشوف**، **م س**، ص.٢٧٧-٢٧٨.

(٢٤) **نفسه**، ص. ٤٤٠-٤٤١.

(٢٥) يقول الناصري عن مقدم الحسن الداخل جد العلويين: "واختلفوا في السبب الداعي إلى دخول هذا السيد إلى المغرب، فذكر صاحب كتاب الأنوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية، أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربي، كان يتوارد على الأشراف هنالك، وكان شيخ الركب في بعض القدمات رجلا من أهل سجلماسة، يظن أنه السيد ابو ابراهيم، فلما حج اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور، وكانت سجلماسة وأعمالها يومئذ شاغرة من سكن الأشراف، فلم يزل أبو إبراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله فأجمع السير مع الركب وقدم به أبو إبراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماسة، وقال حافده أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر فيما قيد عنه، وكان الذين أتوا به من أهل سجلماسة أولاد البشير وأولاد المنزاري وأولاد المعتصم (...) وصاهره منهم أولاد المنزاري"، راجع: **الإستقصا**، م س، ج٧، ص.٥.

(٢٦) **التشوف**، **م س**، ص.٩٨.

(٢٧) **نفسه**، ص.٢٨٤-٢٨٥.

(٢٨) الفضيلي، **م س**، ج١، ص.٩٦-٩٧. محمد الصغير الوفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي**، صحح عباراته السيد هوداس، طبع بمدينة أنجي، ١٨٨٨م، ص.٤١٣.

(٢٩) انظر: نموذج الولي السجلماسي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان المعروف بابن حمودة "من أهل البيت وسلفه أهل خير وصلاح وعلم"، ضمن **التشوف**، م س، ص.٤١٧ وانظر ترجمة الولي الشريف الحسن الداخل، ضمن: **الدرر البهية**، م س، ج١، ص.٩٦-٩٧.

(٣٠) عن خراب سجلماسة على يد السلطان أبي الحسن المريني (٧٣١ - ٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٨م)، الملقب بالسلطان الأكحل، يقول الناصري: أن "أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها، واشتغل بتغوير ماء العين التي تسقى منها"، مما ساهم في خرابها، راجع: الناصري، **الاستقصا**، م س، ج3، ص. ١٢٠.

(٣١) كان توحيد المغرب الأقصى على يد المولى الرشيد بن المولى علي الشريف (1674-1664م)، بعد القضاء على اليهودي ابن مشعل بناحية تازة، وعلى الشبانات بمراكش، والدلائيين بفاس، والسملاليين بسوس. راجع: الناصري، **م س**، ج٧، ص.٢٩ وما بعدها.

(٣٢) حضر لدفنه السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي، انظر: بن عسكر الشفشاوني (ت٩٨٦هـ/١٥٧٨م)، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، م س، ص.٥١. الحضيكي، محمد بن أحمد (ت

١١٨٩هـ/١٧٧٥م)، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص.٥٥٤. ابن القاضي(ت1025هـ/١٦١٧م)، **درة الحجال في غرة أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج3، ص.٢٥٤.

(٣٣) **دوحة الناشر، م س**، ص.90.

(٣٤) الحضيكي، محمد بن أحمد (ت ١١٨٩هـ/١٧٧٥م)، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص.٤٦٥.

(٣٥) **دوحة الناشر، م س**، ص.٥١. طبقات الحضيكي، **م س**، ج٢، ص.٥٥٤.

(٣٦) طبقات الحضيكي، **م س**، ج٢، ص.320.

(٣٧) تعتبر هذه الزاوية من أشهر زوايا تافيلالت بالنظر لكثرة زوارها ومريديها، وتقع جنوب تافيلالت بمشيخة السفالات، وشيدت خلال القرن التاسع الهجري على يد شيخها الشريف الإدريسي أبي القاسم سيدي الغازي السوسي الأصل. انظر: لحسن تاوشيخت، **"تكامل المدرسة السجلماسية الصوفية مع شقيقتها السوسية"**، م س، ص.١٨٤.

(٣٨) **دوحة الناشر**، م س، ص.٨٩-90.

(٣٩) نفسه، ص.٥١.**طبقات الحضيكي**، م س، ج٢، ص.٥٥٤.

(٤٠) **طبقات الحضيكي**، م س، ج٢، ص.316.

(٤١) الكتاني (ت.1345ه)، **سلوة الأنفاس ومحادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، البيضاء، د ت، ج٢، ص.٩٩.

(٤٢) ابن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٧م، ص.209.

(٤٣) انظر: نموذج الولي السجلماسي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان المعروف بابن حمودة وصفه ابن الزيات بأنه "من أهل البيت وسلفه أهل خير وصلاح وعلم"، **التشوف، م س**، ص.٤١٧. وانظر ترجمة محمد بن بلقاسم الفلالي الذي وصفه الحضيكي "بالفقيه الخطيب الشريف المدرس، كان شريف النسب والقدر، عالما عاملا، ولي الخطبة بجامع الأشراف بمراكش". **طبقات الحضيكي**، م س، ج٢، ص.316. وانظر ترجمة الولي الشريف الحسن الداخل، ضمن **الدرر البهية**، م س، ج١، ص.٩٦-٩٧.

(٤٤) **طبقات الحضيكي، م س**، ج٢، ص.٤١٦.

(٤٥) حضر لدفن هذا الولي السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي، انظر: **دوحة الناشر**، م س، ص.٥١.**درةالحجال**، م س، ج3، ص.٢٥٤. **طبقات الحضيكي، م س**، ج٢، ص.٥٥٤.

(٤٦) **دوحة الناشر**، م س، ص.٩٠-٩١. **طبقات الحضيكي**، م س، ج٢، ص.٤٤٧.

(٤٧) **طبقات الحضيكي**، م س، ج٢، ص.316.

(٤٨) **التشوف**، م س، ص.٤١٢. ويبدو أن هذه الرابطة كان لها إشعاع روحي كبير وشهرة واسعة في صفوف المتصوفة والمريدين، بدليل ذكرها بالاسم مرة، **التشوف**، م س، ص.٤١٢، والتلميح لها مرة ثانية، ضمن ترجمة الولي أبي بكر التوجي الذي تواعد مع أحد أصحابه بالخروج إليها قصد التعبد، فقال ابن الزيات على لسان أحد المريدين "وتواعدنا ليلة أن نخرج إلى موضع خارج سجلماسة، عادتنا أن نخرج للصلاة فيه". **التشوف، م س**، ص.١٨٢.

(٤٩) من زوايا تافيلالت نذكر: الزاوية الغازية، وزاوية الماطي، وزاوية سيدي علي بن أبي زينة، وزاوية سيدي أحمد بلمدني، وزاوية عمار، وزاوية سيدي بوبكر، وزاوية من لا يخاف، وزاوية سيدي عبد الله بن علي. راجع: لحسن تاوشيخت، **م س**، ص.١٨٤ وما بعدها.

(٥٠) Robert Montagne; **Les berbères et le Makhzen dans le sud du maroc**; essai sur les transformation politique des berbères sédentaires(groupe chleuh).éd. Alcan. Paris ;1930, p.230.

(51) Ernest Gellner; **saints of atlas**; London; 1969 ;p.70.

(٥٢) عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري**، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل، سلا، ١٩٨٩م، ص.١١١ وما بعدها.

(٥٣) محمد مفتاح، **التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن ٨هـ/١٤م**، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨١/1980م، ج١، ص. ٧٦ وما بعدها. عبد اللطيف الشاذلي، م س، ص.١١١.

(٥٤) هو أبو محمد عبد الخالق ابن ياسين الدغوغي (ت٥٧١هـ)، وقبره مزارة مبنية ومقصودة الى اليوم على وادي نفيس، يبعد بحوالي ٣٠ كلم عن مدينة مراكش على طريق الصويرة، راجع: **التشوف**، ص.٢٢٢. وهامش المحقق رقم: ٥٠٩ من نفس الصفحة.

(٥٥) **ابن الزيات، م س**، ص.223. الكتاني(ت1345ه)، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2004م، ج٢، ص.١٧٤.

(٥٦) التميمي، **المستفاد، م س**، ج٢، ص.١٨٧.

(٥٧) تتابعت سنوات الجفاف والمجاعات بالمغرب خلال القرنين السادس والسابع للهجرة، وكذا خلال القرنين ١٠هـ/١٦م و١١هـ/١٧م، انظر: الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ٢٠٠٢م.ص.٤١ وما بعدها. عبد اللطيف الشاذلي، **م س**، ص.١١٤ وما بعدها.

(٥٨) محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب خلال عصر الموحدين**، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، الرباط، 2001 - ٢٠٠٢، ص.375.(مرقونة).

(٥٩) **دوحة الناشر**، م س، ص.٨٨-٨٩.

(٦٠) عبد اللطيف الشادلي، **م س**، ص.١١٢.

(٦١) **التشوف**، ص.٢٨٥.

(٦٢) **نفسه**، ص.٢٧٨. الحضيكي، ج٢، ص.394.

(٦٣) **نفسه**، ص.١٥٥.

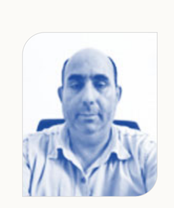
(٦٤) **نفسه**، ص.١٥٥.

(65) Jacques Berque; **études d'histoire rurale maghrébine**, éd.internationales; Tanger Fès ;1938, p.59.



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مدينة سبتة المحتلة
وقضية ماء قرية بليونش



د. فريد المساوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

كانت مدينة سبتة المغربية خلال العصور الوسطى مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بقرية بليونش التي توجد غرب المدينة على سفح جبل موسى المقابل لجبل طارق. وكانت هذه القرية بمثابة مزارع للمدينة، ومصدرا لحاجاتها من المنتجات الفلاحية. ومنذ احتلال سبتة من طرف البرتغال سنة ١٤١٥م، ثم بعدهم الإسبان سنة ١٥٨٠م، شكلت قضية الماء أكثر القضايا أهمية بالنسبة لمستقبل المدينة، بالإضافة إلى مسألة حماية الحدود من هجمات المغاربة وحصارهم للمدينة من حين لآخر. فتأمين وفرة الماء لم يكن ممكنا على الدوام، لأن مخزوناتها وعيونها وآبارها التي كانت تكفي المدينة قديما لم تعد كذلك مع مرور الزمن. لذلك كان على المستعمر أن يضمن تزويد المدينة بالماء من بعض المناطق المغربية المجاورة، خاصة من قرية بليونش الغنية بالينابيع والأنهار. هذا ما كانت إسبانيا تسعى إليه بشتى الوسائل طوال تاريخ احتلالها للمدينة، وقد حاولت غير ما مرة انتزاع موافقة المغرب على هذا المطلب دون جدوى، ولم تتمكن من ذلك إلا حين احتلت كل منطقة شمال المغرب في القرن العشرين، حيث حفرت الأنفاق ومدت الأنابيب، ولا زالت المدينة المحتلة تتزود بالمياه من قرية بليونش إلى يومنا هذا، ومع اتساع المدينة صارت تستنزف المؤهلات المائية للقرية دون مراعاة لاحتياجات سكانها ومصالحهم.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٩ أكتوبر ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ٠١ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

المدن المغربية؛ مدينة سبتة؛ قرية بليونش؛ العيون؛ الماء؛ إسبانيا

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312095 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فريد المساوي. "مدينة سبتة المحتلة وقضية ماء قرية بليونش".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٥٠ – ١٥٩.

Corresponding author: faride87@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَورِيةُ كان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

يعتبر الماء من الاحتياجات الضرورية للإنسان، وعاملاً أساسيًا ينبغي توفره في أي مكان للاستقرار البشري فيه. إذ من المعلوم أن المناطق التي تعرف نسبة من الرطوبة، أو توجد على ضفاف الأنهار، أو بها فرشاة مائية باطنية غنية -في العالم بأسره -، هي المناطق نفسها التي تعرف كثافة سكانية مرتفعة ومكتظة. بينما المناطق الصحراوية الجافة أو الشبه جافة، تكون ساكنتها قليلة وضعيفة. بل وحتى في المناطق ذات النطاقات المناخية نفسها، نجد تفاوتًا في الكثافة السكانية بين الجهات حسب الإمكانيات المائية التي تتوفر عليها كل جهة على حدة.

من هذا المنطلق كانت فكرة دراسة قضية الماء بإحدى المدن المغربية المحتلة، وهي مدينة سبتة التي مرت خلال تاريخها بمجموعة من المراحل منذ الفترة ما قبل الإسلامية، فالفترة الإسلامية الوسيطية، ثم الاحتلال البرتغالي، وبعده الاحتلال الإسباني الذي لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا. فمدينة سبتة توجد على لسان بري محاط بالمياه البحرية من ثلاث جهات، إلا من الجهة الجنوبية حيث ترتبط بالبر. وقد عرفت المدينة عبر تاريخها نموًا حضريًا واتساعًا عمرانيًا بشكل تدريجي، ومع فترة الاحتلال، وعزلتها عن محيطها الخارجي، طرحت فيها مشكلة الماء بحدة، وصارت حاجتها إلى التزود بالمياه من المناطق المجاورة تتزايد يوما بعد يوم. وقد مرت هذه المسألة بثلاث مراحل أساسية: من التزود الذاتي من العيون والآبار والصهاريج المقامة داخل المدينة، ثم جلب الماء من بعض المناطق القريبة كواد أويات، ثم بعد ذلك التزود من قرية بليونش الغنية بمياهها العذبة كما هو عليه الحال إلى يومنا هذا.

هذا المسار هو الذي سنحاول توضيحه في هذا المقال حسب ما ورد من معطيات في المصادر والوثائق التاريخية المغربية المتاحة في هذا المجال.

أولاً: مسألة الماء بمدينة سبتة

كتب الكثير من الباحثين عن مشكلة الماء بمدينة سبتة، خاصة خلال فترة الاحتلال البرتغالي، ثم بعده الإسباني. والمثير في هذه المسألة هو الحديث عن أزمة الماء في المدينة، رغم أنها توجد في نطاق مناخي يعتبر رطبا وماطرا، وفي منطقة غنية بالثروات المائية الباطنية. فهي توجد بالقسم الشرقي من شبه جزيرة طنجة، وهي منطقة كثيرة التساقطات، وغنية من حيث الثروة المائية.

نجد في الإشارات التي أوردتها كتب الجغرافيا القديمة عن مدينة سبتة الإسلامية تناقضا بين ما يدل منها على وجود أزمة وندرة الماء، وبين ما يعبر عن غنى المدينة في هذا المجال. فهذا أبو عبيد البكري قد أشار إلى ما يفيد وجود مشكلة قلة الماء، إلى درجة أن الحمامات كانت تستعمل مياه البحر، كما أن سكان المدينة كانوا يعملون على جلب الماء إليها من مناطق قريبة مثل واد أويات في قنوات إلى الكنيسة التي أصبحت فيما بعد جامعا[١]، كما أشار إلى ذلك غيره.

هذا وأشارت مختلف المصادر التي تحدثت عن بناء سور سبتة من طرف المنصور بن أبي عامر إلى أن أغرب ما فيه "شقة مستطيلة بأبراجها مبنية بالزيت عوضا من الماء، وكان غرضه إتمام عمله على هذا لولا الإنفاق الكبير"[٢]، ورغم إشارة تلك المصادر إلى أن البناء بالزيت أصلب وأبقى على مرور الدهور، باعتبار ذلك هو السبب وراء بناءه بالزيت، إلا أننا يمكن أن نفسر هذه المسألة باعتبارها دلالة ضمنية على ندرة الماء بالمدينة. وأشارت مختلف المصادر إلى محاولة السلطان الموحدي يوسف بن عبد الملك حفر قنوات لجلب الماء من بليونش إلى مدينة سبتة، ولكن الصعوبات والعوائق حالت دون تحقيق هذا المشروع فتركه[٣].

ولكن على العكس من ذلك، تطرقت الكثير من المصادر إلى وفرة الماء بالمدينة لدرجة أن ماء المدينة يفي بحاجياتها دون نقص أو ندرة، ولا تشير تلك المصادر إلى نقص في المواد الفلاحية التي يحتاج إنتاجها إلى الماء كذلك. ذلك أن مدينة سبتة كانت لا تزال صغيرة المساحة وقليلة العمران، وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بمحيطها الجغرافي القريب. فهذا ابن حوقل يشير إلى أن المدينة كانت "بها بساتين وأجنة تقوم بأهلها، وماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين، ومن خارجها أيضا من الآبار شيء كثير عذب[٤]"، كما أشار الشريف الإدريسي إلى أنه "في وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة[٥]".

وأما الأنصاري، فبحكم انتمائه إلى المدينة ومعرفته الدقيقة بها، فإنه يفيدنا بتفاصيل مهمة حول التجهيزات المائية بالمدينة، أو تلك التي تحتاج إقامتها بالضرورة إلى وفرة المياه. فهو إذ يتحدث عن مساجد سبتة عددها في ألف مسجد تربط بينها "القنوات الفاصلة بين البلاطات ومجاري القسائم والميازيب من الرصاص[٦]"، أما الحمامات فكان يوجد منها بالمدينة اثنا وعشرين حماما بالإضافة إلى عشر حمامات توجد

بالقصبة، ويضيف أنه بكل منزل من منازل سبتة يوجد حمام ومسجد[٧].

وتحدث عن السقايات بالمدينة وعددها خمسة وعشرين سقاية، بعضها في منتهى الإتقان والإبداع، مزودة بأنابيب نحاسية وألواح رخامية، وذات زخرفة وتنميق، خاصة تلك التي كانت توجد "بطرف العطارين وأول سماط العدول وبإزاء باب الشواشين من أبواب الجامع[٨]"، وكانت توجد بالمدينة - عدا ما ذكر- سقايات أخرى معدة لتوريد المواشي والخيل وغيرها من الدواب، وصف إحداها وهي متصلة بصهريجين مشتركين يمد أحدهما الآخر، وكذلك سقاية القبة التي توجد بالربض البراني، وهي ذات "صهريج مستطيل متصل ببئر قريبة التناول طيبة الماء (...) وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل وربما تبلغ الثمانين[٩]".

وتطرق الأنصاري كذلك أثناء حديثة عن المدينة إلى الأرحى والطواحين الكثيرة والمتعددة بها، والمعلوم أن الطواحين يحتاج عملها إلى صبيب مائي قوي. فقد كانت هذه الطواحين الكثيرة "بمياهها فيها لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء ولا من غيره أصلا، وكذلك جميع مساكن سبتة حيثما كانت بأقطار المدينة...[١٠]".

يمكن تفسير هذا التناقض القائم بين الرأيين القائلين بأزمة وبوفرة الماء بمدينة سبتة بمسألتين: ترتبط المسألة الأولى بالفترة التاريخية المتحدث عنها، فمدينة سبتة حين كانت مدينة صغيرة قليلة السكان لم تكن تعاني من مشكل ندرة الماء، ولكن حين اتسع عمرانها وكثر سكانها بدأت مشكلة الماء تطرح نفسها تدريجيا. أما المسألة الثانية فهي مرتبطة بطبيعة الأرض التي توجد عليها مدينة سبتة ونواحيها فهي تربة فقيرة كثيرة الصخور وكثيفة الغابات والأحراش، قد تصلح لبعض الأشجار المثمرة أو زراعة بعض الخضروات في مساحات صغيرة مسقية، ولكنها لا تصلح لإنتاج الحبوب، فهذه المادة الأساسية في التغذية حسب ثقافة المغاربة تحتاج إلى مساحات شاسعة من التربة الخصبة. قد يكون هذا قصد ابن الخطيب حين قال في سبتة: "فاغرة أفواه الجيوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب... فأحوال أهلها دقيقة، وتكلفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم[١١]".

يتبين من أغلب المصادر الوسيطية التي تطرقت لأحوال مدينة سبتة الإسلامية - كما رأينا - أن المدينة لم تكن تعاني من مشكل ندرة الماء، ولا لغيره من حاجياتها الأساسية. ولكن الحال لن يستمر على هذا النحو على ما يبدو، ففي الفترات اللاحقة ستعرف المدينة توسعا عمرانيا وازديادا في عدد السكان وازدحام المباني، وكان ذلك خلال القرن الثامن الهجري (١٤م). وهنا ستزداد أهمية الضواحي المجاورة للمدينة في مسألة تزويدها بالماء وبعض المنتجات الفلاحية الأساسية، وهنا تأتي على رأس قائمة هذه الضواحي قرية بليونش، التي ستصبح تدريجيا جزءا لا يتجزأ من النسيج الحضري للمدينة[١٢]، ولا يمكننا الحديث عن مدينة سبتة دون ذكرها، هذا بالرغم مما أشار إليه الفرنسي أوجست موليراس بأنه إلى حدود أواخر القرن ١٩ كانت مدينة سبتة تتوفر على مياه كثيرة، وكانت منابعها وخزاناتها تسمح لها بالتوفر على الماء على الدوام بالمقارنة مع بقية المستعمرات الإسبانية بالساحل الريفي[١٣]، لأن هذا تفنده ما جاءت به الوثائق التي تعود لنفس الفترة، والتي سنتطرق لها هنا.

استمر هذا الوضع في التفاقم بشكل تدريجي طوال مرحلتي الاستعمارين البرتغالي ثم الإسباني للمدينة، إلى أن أصبح الماء العذب الذي لا يخوله البحر، حسب تعبير جرمان عياش، "منعدم البتة بجوار سبتة الأقرب"، وصار لا بد من جلبه من مكان بعيد عن المدينة وبالكمية التي تكفيها، ولن يكون هذا المكان إلا قرية بليونش الغنية بالماء[١٤]، ولكن قبل بليونش كان يتم جلب الماء إلى مدينة سبتة من قرية واد أويات القريبة.

ثانيًا: جلب ماء واد أويات

تقع قرية واد أويات التي لا تزال إلى يومنا هذا تسمى بنفس الاسم، قريبًا من مدينة سبتة على الجهة الجنوبية، أي بالقرب من ضفة البحر الأبيض المتوسط الذي كان يعرف قديما ببحر بسول أو البحر القبلي، وهي حاليا ضمن المجال الفاصل بين مدينة سبتة المحتلة ومدينة الفنيدق. أشار إليها البكري باعتبارها أول ما يمر به المسافر من سبتة إلى (تطاون)، وحدد المسافة بينها وبين مدينة سبتة في ميلين[١٥]، ويرتبط هذا الاسم حاليًا بالقرية دون بقية الوادي.

تكمن أهمية هذه القرية بالنسبة لمدينة سبتة منذ الفترة ما قبل الإسلامية، في جلب الماء منها في قنوات إلى كنيسة المدينة التي أصبحت فيما بعد جامعًا[١٦]، وإن كنا لا نعرف بالضبط التاريخ الذي بدأ فيه عملية جلب هذا الماء، إلا أننا نجد إشارة عند البكري تفيد بأن ذلك تم على يد حاكم سبتة يوليان،

حيث قال: "ومنه جلب أليان الماء إلى سبتة على أزاج وبعضها قايم في تلك الخنادق إلى اليوم..."[١٧].

ومما يثبت أهمية كمية الماء التي كانت تشكل صبيب واد أويات ما أورده الأنصاري عن عدد المطاحن بالقرية، إذ قال "توجد بواد أويات إثنتا وعشرون رحا طاحنة"[١٨]، هذا بالرغم من كون الوادي لا يحمل من مسافة بعيدة، بل يشكل مجرد تجمع لمياه سفح جبل ترسيف الذي يجاور السفح الجنوبي لجبل موسى، وتضاف إليه روافد من مساحات صغيرة على شكل حوض محاذ لحدود سبتة ما بين (واد الخلوط[١٩]) والسفوح الشمالية للجبل المسمى بـ (كدية الخوافين[٢٠]).

وقد استمر انتفاع مدينة سبتة من مياه قرية واد أويات إلى الفترة الاستعمارية حين تم التعويض عن ذلك بمياه قرية بليونش، ذلك أننا نجد تجديد تكريس هذه المسألة في محضر للجنة المعينة من قبل السلطتين المغربية والإسبانية لترسيم حدود مدينة سبتة بعد معاهدة وادراس (١٨٦٠م)، وقد جاء فيه ما يلي: "المعينين من الجانبين اتفقوا مع بعضهم بعضا أن مياه واد أويات ووادي دار المزيانة[٢١] ينتفعان بهما إسبانيا ومراكش[٢٢]".

ومع مرور الزمن ازداد التوسع العمراني لمدينة سبتة، وكذلك كثافتها السكانية، بينما انخفضت كمية المياه المجلوبة من واد أويات بحيث لم تعد تكفي حاجيات المدينة، وأصبحت في حاجة إلى بديل عنه. ولن يكون البديل المناسب إلا قرية بليونش الغنية بالمياه، والتي تربطها بمدينة سبتة صلات تاريخية عريقة، ولذلك سعت سلطات المدينة لمدة طويلة لتحقيق هذا المبتغى، ولكنه لم يتحقق إلا في القرن العشرين. فما هي هذه القرية؟ وما قيمة الثروة المائية التي تتوفر عليها؟

ثالثًا: جلب ماء قرية بليونش

تقع قرية بليونش على بعد ثمان كيلومترات غرب مدينة سبتة، وهي قرية ساحلية على شاطئ بحر البوغاز أو بحر الزقاق كما كان يسمى قديما، وعلى السفح الشمالي لجبل موسى المقابل لجبل طارق الذي يوجد في الضفة الأخرى. ونظرا لموقعها الاستراتيجي والمتميز، فقد حظيت بليونش بالكثير من الاهتمام مند أقدم العصور. فجبل موسى هو الذي كان يعرف عند الإغريق والرومان باسم جبل أبيلا[٢٣] Abilla، والذي كان يشكل مع جبل طارق أو كالبي Kalpé، ما عرف في التاريخ القديم باسم أعمدة هرقلColonnes d'Hercule[٢٤]، وارتبطت بهذا الموقع الكثير من الأساطير القديمة، أبرزها ما أشار إليه الباحث الهليني V. Bernard من كون قرية بليونش وجزيرة تورة الواقعة قريبا منها، قد شكلت مسرحا لأحداث فصل من فصول ملحمة الأوديسا الشهيرة، خاصة ما يتعلق منها بلقاء كليبسو calypso ابنة الإله (أطلس) إله المضيق وحارسه، وأسيرها البطل الإغريقي أوليس Olysse الشخصية المحورية في الأوديسا[٢٥].

هذا وقد عرفت قرية بليونش التواجد الفعلي للرومان، حيث تشهد على ذلك آثارهم التي تركوها بالقرية، خاصة القلعة المعروفة باسم exilisa والتي وصفها جرمان عياش بأنها قرية غارقة في البساتين وهي القرية نفسها التي استعربت لتصبح بليونش[٢٦].ولا غرابة في ذلك ما دامت القرية توجد في أقرب موقع جغرافي مغربي إلى أوربا، وفي قلب المضيق الرابط بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، مما يجعلة في مرآى للرحالة والملاحين العابرين للمضيق منذ أقدم العصور.

تتمتع قرية بليونش بمناخ متميز بحكم موقعها الجغرافي على ساحل بحر البوغاز حيث تعبر التيارات الهوائية الأطلسية والمتوسطية معا، كما أن موقعها مفتوحا في اتجاه الشمال، بينما تحيط بها من الجهة الجنوبية جبالاً عالية تحميها من التيارات القارية الجافة. هذا ما أشار إليه الأنصاري بقوله: "والقرية مرتفعة محجوبة من جانب الجنوب بالجبال مفتوحة للبحر تهب عليها منه ريح الشمال، قد وافقت قول الأطباء في طيب الهواء والماء والاعتدال[٢٧]". ولهذا تكثر فيها الرطوبة والتساقطات المطرية خلال فصل الشتاء، ويعتبر جبل موسى والقمم المجاورة له خزانا مهما للمياه الباطنية، بحيث تنفجر منه بالمناطق القريبة، وخاصة ببليونش، الكثير من العيون المائية، مما جعل المنطقة غنية ببساتينها وأشجارها المتنوعة، فقد عدد الأنصاري عيون وأنهار بليونش في ستة وثمانين عينا "أرفعها قدرا وأشهرها في النفع ذكرا أمزار[٢٨]"، ويضيف ما يؤكد كثرة ووفرة الماء بالقرية بالإشارة إلى عدد الحمامات بها، والتي تبلغ مائة وستة وعشرون حماما، منها خمسة وعشرون بخندق رحمة[٢٩]، وكذلك عدد المطاحن وهو خمسون مطحنة[٣٠].

وصفت المصادر الجغرافية جمال قرية بليونش بسبب ما بها من عيون ماء وأودية، وما بها من بساتين ومزروعات مختلفة ومتنوعة، وما تنتجه من الخيرات التي كانت تصدر منها إلى مدينة سبتة وغيرها من المدن، فهذا الشريف الإدريسي قال في معرض حديثه عن جبل موسى: "وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ويسمى هذا المكان الذي جمع هذا كله بليونش وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب

زائد[٣١]". كما نجد النص نفسه عند الحميري[٣٢]. وأشار صاحب الاستبصار إلى أنه تحت جبل موسى توجد "أرض خصيبة فيها مياه عذبة[٣٣]". أما البكري فإنه أشار إلى أن "بليونش قرية كبيرة آهلة كثيرة الفواكه وبغربيها نهر ينيف في البحر عليه الأرحاء وبينه وبين مرسى جزيرة تورة في البر خمسة أميال[٣٤]"، والواضح أنه كان يقصد نهر أمزار رغم إشارته إلى وجوده غرب البلدة، وهذا لأنه لم يكن يعرف بليونش بل اطلع على كتابات غيره فتكونت لديه صوره غير دقيقة عنها.

لم تقتصر فائدة هذه الأودية على ما ترويه من مزارع، وما تديره من مطاحن وما يستغل منها في الحمامات والدور، بل أيضا فيما حفرته من خنادق عند مصباتها على شكل خلجان، استخدمت كمراسي طبيعية، أهمها اثنتان: مرسى بليونش؛ ومرسى موسى،واللتان اعتبرتا من أهم المرافئ بالمنطقة لوجودهما في مأمن من الرياح طول السنة[٣٥]. كما أقيمت بالقرية مجموعة من المرافق الترفيهية والمنتزهات التي استغلت فيها وفرة المياه وقوة صبيبها، مثل المونيا المرينية المعروفة بالبلد، والتي بقيت آثارها بادية إلى يومنا هذا، وقد أورد الأنصاري في هذه المسألة قوله: "وبالقرية مصانع ملوكية وأبراج هائلة أبوابها مصفحة بالحديد، بها قباب وطيافير رخامية ومحنشات وصهاريج ومياه خلال ذلك تطرد، ومن أعظم ذلك وأهوله برج السويحلة المشهور الغريب الشكل والنظير، في أعلاه قصر يصعد الماء إليه بالحيل الهندسية حتى يعمه...[٣٦]". فقد اشتهرت القرية خلال العصور الوسطى كمنتزه لأمراء الأندلس والمغرب، بل وكان الكثير من أغنياء مدينة سبتة يملكون بساتين وجنان ببليونش يقضون فيها أوقات فراغهم والمخصصة للراحة والاستجمام، خاصة في الفترات المعروفة لديهم بأوقات العصير وهي أوقات نضج التين والعنب وغيرها من الفواكه[٣٧].

ولم يكن لهذه المياه الوفيرة بقرية بليونش أن تستغل في شتى المجالات دون أن تحدث حولها خلافات ونزاعات من حين لآخر، ومن بين الأمثلة عن النزاعات المتعلقة بالمياه ببليونش في العصر الوسيط، ما ورد في نوازل القاضي عياض المعروفة بـ(مذاهب الحكام) من أن نازلة عرضت على قاضي سبتة عبود بن سعيد من قبل أحد المحتسبين بأن رجل من بليونش يدعى عبد السلام أجرى الماء المعروف هناك بماء السياج بإحدى الطرق وحفرها وأضر بالمارة بها، وأظهر له عقدا بمثابة شهادة جماعية موقعة من طرف بعض أهل البلد، يشهدون بمعرفتهم لتلك الطريق وهي تؤدي إلى بعض المطاحن، وأنها كانت معبدة يسير عليها المارة ولم تكن يومًا مغمورة بالمياه حتى أحدث فيها عبد السلام المذكور ما أحدث وأفسدها وأضر بها. وبعد أن حكم عليه بالحفر للماء وتغطيته تضررت من جراء ذلك بعض المزارع التي كانت تسقي منه إلى آخر النازلة، فصدرت في ذلك مجموعة من الفتاوى أوردها المصدر المذكور بالتفصيل[٣٨].

كان الغرض من هذا السرد هو توضيح قدم غنى قرية بليونش بالثروة المائية وما يرتبط بذلك من خصوبة الأرض وغنى البساتين ووفرة المنتجات الزراعية المختلفة، هذه الوفرة التي ظلت قائمة في مقابل النقص التدريجي الذي صارت تعاني منه مدينة سبتة، خاصة في العصور الحديثة مع التوسع العمراني وارتفاع الكثافة السكانية، بحيث صارت مدينة سبتة مع مرور الزمن في حاجة ماسة إلى جلب ماء بليونش، بل صار ذلك ضرورة لا محيد عنها، لأن كل البدائل الممكنة لذلك ستكون أصعب وأكثر كلفة. ولذلك صارت أطماع إسبانيا تتزايد باستمرار في ضم بليونش وما وراءها إلى جزيرة تورة إلى نفوذ مدينة سبتة المحتلة[٣٩]، ولما لم تستطع ذلك حتى في أوج الضعف الذي عرفه المغرب في النصف الثاني من القرن ١٩م، لأسباب كثيرة ومتداخلة منها ما يرتبط بحساسية المنطقة بسبب التواجد البريطاني بجبل طارق المقابل لبليونش، فصارت إسبانيا تسعى بشتى الوسائل لإقناع سلاطين المغرب بالترخيص لها بشراء الماء من مالكيه بالقرية، وهذا ما يتبين من مجموعة من الوثائق المخزنية، والتي سنطرق لمضمونها في الفقرة الموالية.

رابعًا: قضية ماء بليونش في الفترة المعاصرة

بذلت إسبانيا في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر جهودًا كبرى لإقناع السلطان الحسن الأول، ثم بعده المولى عبد العزيز بتحقيق مطلب تزويد مدينة سبتة المحتلة بمياه قرية بليونش، ولكن السلطات المخزنية المغربية كانت تعمل جاهدة لتفادي هذه المسألة والتهرب من تلبية المطلب. هذا ما نستشفه في مجموعة من الرسائل المخزنية، خاصة تلك التي كانت بين المخزن المركزي وبين النائب محمد العربي الطريس بطنجة، والذي كان يتولى في الغالب مهمة التفاوض مع الإسبان في مختلف القضايا المطروحة في العلاقات بين البلدين. وسنستعرض فيما يلي بعضا من مضمون تلك الرسائل فيما يتعلق بقضية ماء بليونش.

جاء في رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٠٤ أكتوبر ١٨٩٣، أن حاكم مدينة سبتة طلب من نائب دولتهم بطنجة أن يتدخل لدى سلطان المغرب

حول مطلبين هما: توسيع الحدود إلى أن تجعل (الديوانة) بواد أويات؛ وجلب ماء بليونش إلى سبتة. وكان جواب السلطان فيما يتعلق بأويات هو طلب المعلومات من النائب الطريس عن الموقع لعدم معرفته الدقيقة به، ويسأله كذلك عن ماء بليونش إن كان داخل حدودهم أم خارجها، وهذا يعني أن هذه المطالب كانت جديدة بالنسبة للسلطان، فلولا ذلك لكانت له سابق معرفة بالقضية[٤٠].

وفي رسالة منه أيضًا إلى نفس النائب بتاريخ ١٠ فبراير ١٨٩٤ نجد حديثا مفاده أنه من بين المطالب التي أدرجتها إسبانيا في ملفها المتوفر لدى سفيرها بطنجة، المطالبة بماء بليونش بقبيلة أنجرة، وجعل الديوانة داخل سبتة، مما أثار حفيظة النائب الطريس حيث اعتبر أن "المساعدة على ذلك غير مأمونة من وجوه"[٤١]، وكان يقصد بكلامه هذا ما عرفته المرحلة من محاولات الاختراق والتغلغل الأوربي بمختلف الوسائل.

في شهر ماي ١٨٩٧ وفد على السلطان المولى عبد العزيز جنرال إسباني رفقة سفيرهم بطنجة طالبين بإلحاح الحصول على الماء المملوك لأصحابه ببليونش "زاعمين أنه ضال لا ملك عليه لأحد"، ولما دافع السلطان بلطف على رفضه تلبية هذا المطلب، مذكرا إياهم بأن إسبانيا سبق لها أن طالبت بهذا الماء من سلفه المولى محمد الرابع إلا أنه لم يجبهم لذلك لأن الماء مملوك لأصحابه، فكان جوابهم بأن "أرباب ذلك الماء أرادوا بيعه لهم". ولذلك طلب السلطان هوية أصحاب الماء وألح على تحصينه من مد يد الأجانب، حيث طلب من الطريس التحقق إن كانوا راغبين في البيع، فإن كانوا كذلك فسيعمل المخزن على شرائه منهم، بعد إحضارهم والتحقق من وثائق إثبات ملكيتهم له شريطة أن يكون البيع بثمن معقول، وأضاف: "وإن علقوا إمضاء البيع على ثمن جاف ولم يتزحزحوا عنه فلتطير الإعلام لتجاب بالمتعين بحول الله"[٤٢].

وفي رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس في فاتح يناير 1898 حول تجديد هذا الأخير التنبيه في موضوع ماء بليونش الذي يحاول الإسبان نقله لمدينة سبتة، خشية أن يتوجه السفير الإسباني إلى السلطان ويمارس تدليسا للحصول على الموافقة، كان الجواب السلطاني هو تأكيد ما أجاب به النائب المذكور سابقا في هذا الشأن، حيث أكد له مجددا:"إن أراد أرباب هذا الماء بيعه على مقتضى ما أخبرك به نائب الصبنيول ورفيقه فلا بد من جعل تاويل لتحصين ذلك الماء من مد يد الأجانب فيه بتولي جانب المخزن شراءه وأمرك أعزه الله بإحضار ملاك ذلك الماء لديك بمواجبهم المتضمنة لملكيته وتصفحك لها وإن أرادوا بيعه بثمن قريب مناسب فلتمض معهم الشراء والإشهاد عليهم به"، على أن يبدي بأن ذلك من تصرفه هو وليس أمرا مخزنيا[٤٣].

في 18 أبريل 1900 بعث الحاجب أحمد بن موسى رسالة أخرى إلى النائب محمد العربي الطريس، حول محاولة الإسبان استغلال فرصة التفاوض عن الكيفية التي تتم عليها إعادة تجارة التموين التي كانت قديما بين قبائل الريف الأوسط وجزيرتي بادس والنكور[٤٤] لإعادة طرح مسألة ماء بليونش من جديد، حيث تخبر الرسالة بالجواب السلطاني "عن تسريح تسوق القوت للحجرتين وسلامة الصدور بأن المطلوب هو إعطاء الحق الذي له موجب وسد أبواب الخرق التي لا موجب لها (...) وأما ما نبهت به في شأن الماء المشار إليه فقد استحسنه سيدنا أيده الله قائلا أعزه الله قد أشرت بالرأي الأسد ودعا لك بخير[٤٥]".

يبدو أن السفير الإسباني قد طرح مسألة ماء بليونش بالفعل خلال المفاوضات التي أجراها مع المخزن العزيزي في أكتوبر 1900 حول النقط الثلاث: تحديد أرض محرمة على حدود مليلية؛ استغلال الغابات؛ وتبادل القناصل. حيث ربط بين التوصل إلى حل يرضي الجانبين في النقط المذكورة، وبين تشوف الإسبان إلى تساهل المخزن في قضية جلب ماء بليونش إلى سبتة، وحيث لم يكن مناسبا إجابته بالرفض في حينه، فقد أجابه السلطان بإصدار الأوامر بالبحث في القضية، ولم يكن ذلك إلا لربح الوقت ريثما يجد وسيلة لصرفه عن المطالبة بهذه المسألة[٤٦].

جاء في رسالة جوابية من الوزير عبد الكريم بن سليمان إلى النائب محمد العربي الطريس في ١٠ نونبر ١٩٠٠، أنه "وصلنا جوابك عما قدمناه لك في شأن ماء بليونش ذاكرا أن مساعدة المتكلم على ذلك متعذرة لكون الماء ملكا لأربابه ولا يساعدون على بيعه زيادة على ما يترتب على ذلك من الخوض في رقبة الأرض الخ ما شرحته وصار بالبال وقد تقرر جميع ما شرحته لدى العلم الشريف أسماه الله لكن ليس المقصود من الكتاب الصادر لك في هذا الموضوع العزم على الإعطاء أو البيع بالفعل وإنما أجيب المتكلم بالمجاراة لكلامه حيث ذكر أن الفاضل إنما ينصب في البحر بلا فائدة وأنه إنما يطلب ذلك على الوجه الذي لا شائبة مضرة فيه على أهل الأرض في أرضهم ولا مائهم ولا على المخزن إن أمكن وإلا فلا وجعل تسهيله في نصب القناصل وفي قطع الخشب من الغابات وفي تحديد الأرض المحرمة بمليلية في مقابلة ذلك فلم يمكن أن يجاب في تلك الحالة الراهنة إلا بجعل البحث على يدك عن حقيقة هذا الماء على

مقتضى ما تقدم شرحه والمخزن عالم بأن المآل هو عدم المساعدة على ذلك لكن أحب أن تكون المرافعة بعذر مقبول في الجملة مما يقرره المهندس الذي توجه لذلك ويظهر أثر الاعتناء به في الطلب ظاهرا وينتفي ما يشتكون به من إظهار المخزن لهم في المعاملة الجفاوة التي لا يعامل بها غيرهم من الأجناس وهذا هو المقصود الذي لم يصرح لك به خشية تنفس الخبر(٤٧)".

من الواضح أن محاولات إسبانيا لإقناع المخزن المغربي بالموافقة على جلبها ماء بليونش إلى سبتة قد باءت بالفشل، ولهذا استمر الوضع على ما كان عليه إلى فترة الحماية، حيث أصبحت المنطقة كلها تحت الإسبان، وصارت الفرصة سانحة بيدهم، فسارعوا إلى شق قنوات فولاذية أوصلوا عن طريقها الماء إلى سبتة، بعد أن انتزعوا – بطرقهم الخاصة – حق ملكية عيون القرية من أصحابها. ولما حصل المغرب على الاستقلال وعاد الإسبان إلى الحدود المعترف بها بعد حرب ١٨٦٠، وجد الأهالي أنفسهم فوق أرض تكاد تكون جدباء، غير قادرين على إحياء قريتهم بعد أن فقدوا ملكية عيونها المائية التي كانت مصدر جمالها وازدهارها وشهرتها(٤٨).

خاتِمَةٌ

تتضح لنا من خلال هذا المقال المتواضع بعض أهم النقط في مسألة الماء بمدينة سبتة عبر مختلف مراحل تاريخها، هذه المسألة التي انتهت في الأخير بالحصول على امتياز استغلال مياه قرية بليونش وجلبها إلى المدينة. أما بليونش التي كانت قيمتها عبر التاريخ مرتبطة بالماء الوفير الذي تتوفر عليه، فقد صارت مهددة بالعطش وندرة الماء، خاصة في فصل الصيف. كما أن هذه القرية التي صارت في اتساع متزايد بشكل تدريجي، مع ما يتطلب ذلك من تزويد المنازل بالماء، صارت تسن سياسات لتزويدها من مياه السدود المتواجدة بمناطق بعيدة رغم توفر القرية على أجود المياه، نظرًا لحساسية موضوع مياه القرية التي تستفيد منها مدينة سبتة.

فرغم أن الكثير من الأسر بالبلدة لا تزال تستفيد من العيون المحلية، بإقامة شبكات ربط ذاتية مستقلة يتم بواسطتها نقل الماء من العيون إلى المنازل، وأغلبها لا ترغب لحد الآن في الارتباط بشبكة الربط التابعة لشركة التوزيع، ولكن هذا لن يدوم لمدة طويلة، ذلك أن المسألة ترتبط بالكثافة السكانية في علاقتها بكمية الماء المستهلكة، فحين تكتظ القرية أكثر، لا شك أن الدولة ستعمل على تعميم شبكة الشركة الموزعة، لأن العيون لن تظل كافية لكل الساكنة، مع العلم أن هذه الشركة رفضت مقترح إقامة شبكة موحدة مع استغلال المياه المحلية، بل تصر على جلب الماء من أحد السدود رغم أنها بعيدة عن القرية وأكثر كلفة.

الملاحق:

(١) الصور



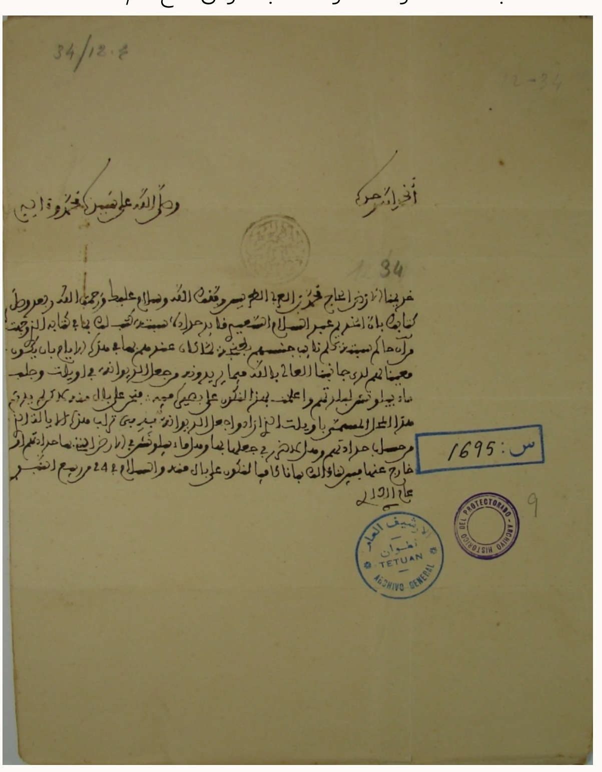
صورتان جويتان لمدينة سبتة وموقع قرية بليونش



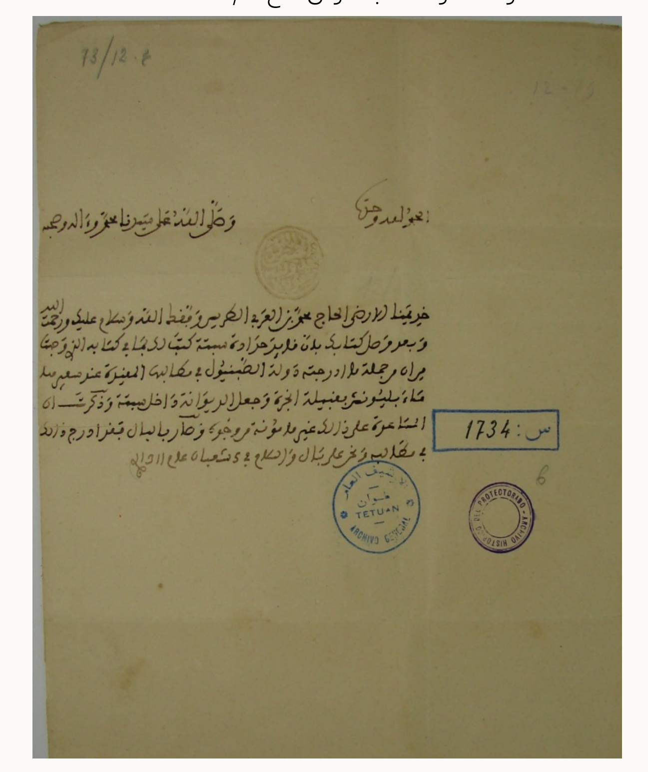
صورتان حديثتان لقرية بليونش

(٢) الوثائق المعتمدة

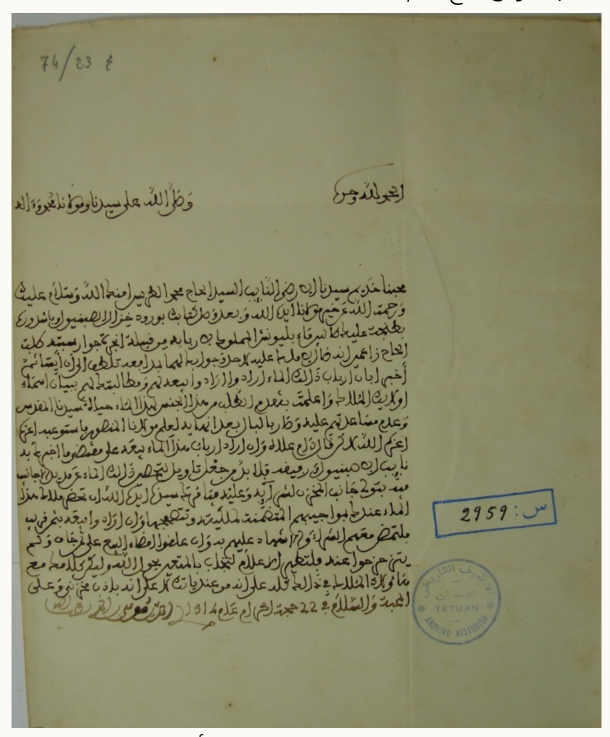
الملحق الأول: رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٠٤ أكتوبر ١٨٩٣، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٣٤/١٢.



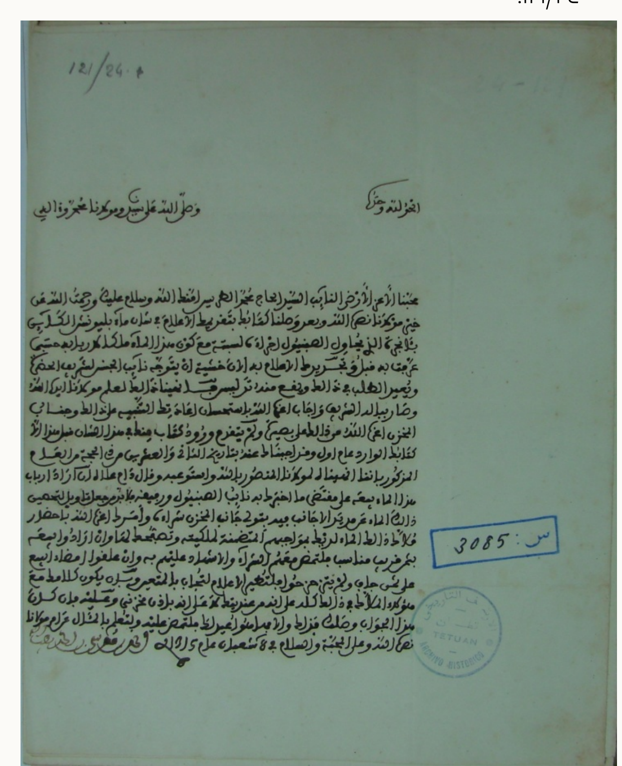
الملحق الثاني: رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ١٠ فبراير ١٨٩٤، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٧٣/١٢



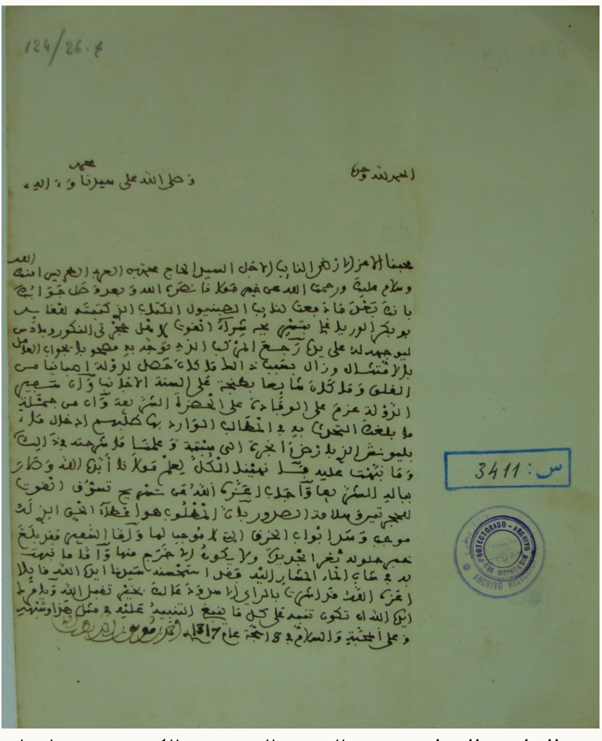
الملحق الثالث: رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس بتاريخ ٢٢ ذي الحجة ١٣١٤ هـ موافق ٢٣ ماي ١٨٩٧م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٧٤/٢٣



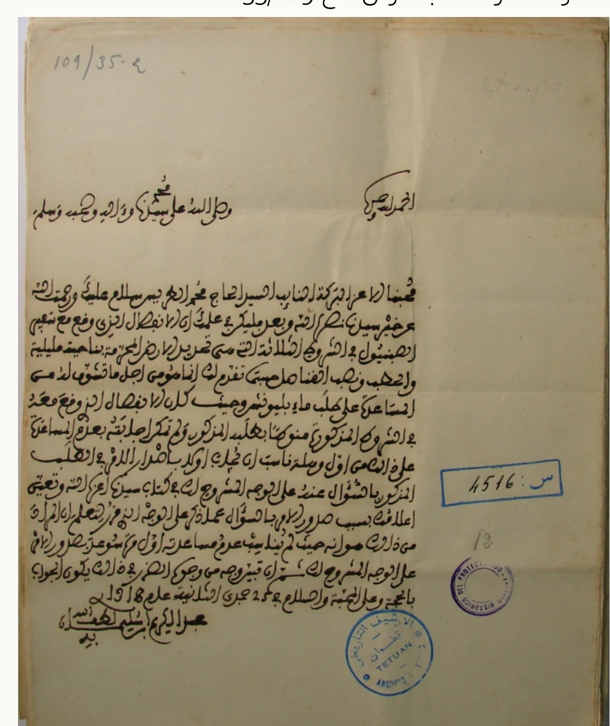
الملحق الرابع: رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس في8 شعبان 1315 هـ موافق فاتح يناير 1898، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٢١/٢٤.



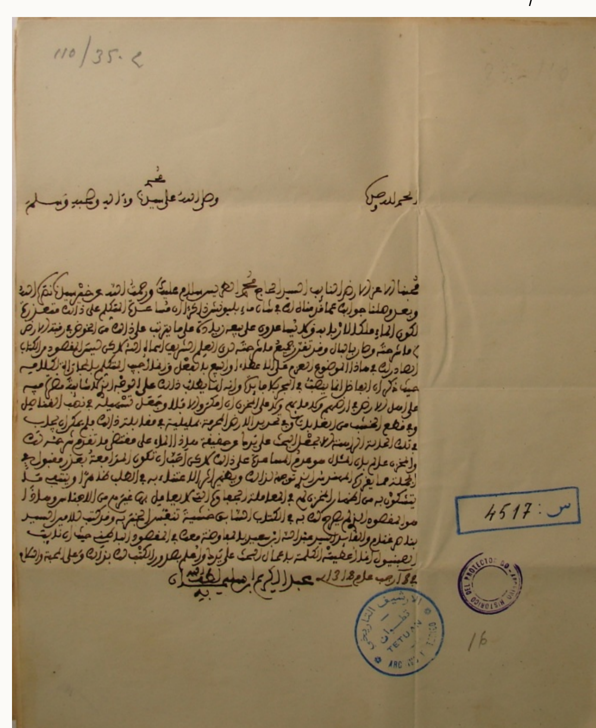
الملحق الخامس: رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس في 18 ذي الحجة 1317 موافق 18 أبريل 1900، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح 26/124



الملحق السادس: رسالة من الوزير عبد الكريم بن سليمان إلى النائب محمد العربي الطريس في 25 جمادى الثانية 1318 هـ موافق 18 أكتوبر 1900م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح 35/109.



الملحق السابع: رسالة من الوزير عبد الكريم بن سليمان إلى النائب محمد العربي الطريس في ١٨ رجب ١٣١٨هـ موافق ١٠ نونبر ١٩٠٠، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١١٠/٣٥.



الاحالات المرجعية:

(١) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** (جزء من كتاب المسالك والممالك)، مكتبة المثنى، بغداد، (د.س)، ص ١٠٣ – ١٠٤.
(٢) مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدر البيضاء، ١٩٨٥، ص ١٣٧.
(٣) انظر على سبيل المثال: ابن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**(معجم جغرافي مع فهارس شاملة)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص ٣٠١، وكذلك: الاستبصار في عجائب الأمصار، م.س، ص ١٣٧ – ١٣٨.
(٤) أبي القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٥، ص ٧٩.
(٥) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٢٨.
(٦) محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، الرباط، ١٩٨٣، ص ٢٨.
(٧) نفسه، ص٣٤ -٣٥.
(٨) نفسه، ص ٣٩ – ٤٠.
(٩) نفسه، ص ٤٠.
(١٠) نفسه، ص ٤٣.
(١١) لسان الدين ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٤٦ – ١٤٧.
(١٢) **معلمة المغرب**، الجزء الرابع، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، ١٩٩١، ص ١٣٧٩.
(١٣) أوجست موليراس، **المغرب المجهول** (الجزء الثاني: اكتشاف جبالة)، ترجمة وتقديم د. عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز الريف ١١، ص ٦٣٣
(١٤) جرمان عياش، "بليونش ومصير سبتة"، ضمن كتاب **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦، ص ص ٢٩٨ – ٢٩٩.
(١٥) أبو عبيد البكري، م.س، صص ١٠٣ – ١٠٤.
(١٦) أشار إلى ذلك كل من البكري، صص ١٠٣ – ١٠٤، وكذلك في ص ١١٥، وصاحب الاستبصار، صص ١٣٧ – ١٣٨، والحميري في **الروض المعطار**، ص ٣٠٣، وغيرهم.
(١٧) أبو عبيد البكري، م.س، ص ١١٥.
(١٨) محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، م.س، ص ٥٦.
(١٩) قرية توجد أعلى قرية واد أويات بمسافة قليلة والقريتان تقعان على نفس النهر.
(٢٠) ربوة توجد في الجهة الجنوبية لمدينة سبتة وفي الجهة الغربية لمدينة الفنيدق على الطريق المتجهة صوب مدينة طنجة عبر القصر الصغير.
(٢١) موقع يوجد بالقرب من بليونش.
(٢٢) محضر ترسيم الحدود بين أرض سبتة وبقية بلاد المغرب الموقع من طرف اللجنة المشتركة المعينة لذلك، أورده الأنصاري اختصار الأخبار، ص ١٠٣.
(٢٣) حتى تسمية أبيلا القديمة يرجح أنها أطلقت من طرف الأجانب، خاصة الإغريق والرومان، أما التسمية المحلية فهي أشول، أنظر أوجست موليراس، م.س، ص ٦٣٦.
(٢٤) **معلمة المغرب**، م.س، ص ١٣٧٨.
(٢٥) نفسه، ص ص ١٣٧٨ - ١٣٧٩.
(٢٦) جرمان عياش، م.س، ص ٢٩٩.
(٢٧) محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، م.س، ص ٥٥.
(٢٨) نفسه، ص ٥٢. وأمزار (بزاي مفخمة) كلمة أمازيغية معناها المنظور أو المرئي، لأن هذا الوادي هو الأبرز في القرية والذي يرى من المناطق البعيدة.
(٢٩) وادي صغير بالجهة الشرقية للقرية وكانت قديما توجد به قرية صغيرة ملحقة ببلدة بليونش، يعرف حاليا بالديوانة لأن الوادي أصبح منذ سنة ١٨٦٠تمر به الحدود بين سبتة والأراضي المغربية بعد اتفاقية توسيع الحدود.
(٣٠) محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، م.س، ص ٥٢.
(٣١) الشريف الإدريسي، م.س، ص ٥٢٨
(٣٢) ابن عبد المنعم الحميري، م.س، ص ٣٠٣
(٣٣) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، م.س، ص ١٣٨.
(٣٤) أبو عبيد البكري، م.س، ص ١٠٤
(٣٥) **معلمة المغرب**، م.س، ص ١٣٧٨.
(٣٦) محمد بن القاسم الأنصاري، م.س، ص ٥٣.
(٣٧) القاضي عياض وولده محمد، **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور محمد بن شريفة، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧، هامش ٣، ص ٢٥٤.
(٣٨) نفسه، ص ١٠٩.
(٣٩) **معلمة المغرب**، م.س، ص ١٣٨٠.
(٤٠) **رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس** بتاريخ ٢٤ ربيع الأول ١٣١١ ه موافق ٤ أكتوبر ١٨٩٣، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٣٤/١٢.
(٤١) **رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس** بتاريخ ٥ شعبان ١٣١١هـ، موافق ١٠ فبراير ١٨٩٤، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ٧٣/١٢.
(٤٢) **رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد العربي الطريس** بتاريخ ٢٢ ذي الحجة ١٣١٤ هـ، موافق ٢٣ ماي ١٨٩٧م، مح ٧٤/٢٣.
(٤٣) **رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس** في٨ شعبان ١٣١٥ هـ موافق فاتح يناير ١٨٩٨، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٢١/٢٤.
(٤٤) جزيرتان محتلتان من طرف إسبانيا بالريف الأوسط قرب مدينة الحسيمة الحالية.
(٤٥) **رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب محمد العربي الطريس** في ١٨ ذي الحجة ١٣١٧ موافق ١٨ أبريل ١٩٠٠، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٢٤/٢٦.
(٤٦) **رسالة من الوزير عبد الكريم بن سليمان إلى النائب محمد العربي الطريس** في ٢٥ جمادى الثانية ١٣١٨ هـ موافق ١٨ أكتوبر ١٩٠٠م، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١٠٩/٣٥.
(٤٧) **رسالة من الوزير عبد الكريم بن سليمان إلى النائب محمد العربي الطريس** في ١٨ رجب ١٣١٨هـ موافق ١٠ نونبر ١٩٠٠، المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، مح ١١٠/٣٥.
(٤٨) **معلمة المغرب**، م.س، ص ١٣٨٠.



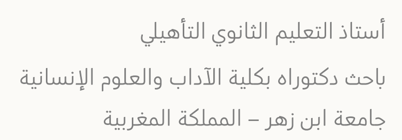
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مواقف واهتمامات عبد السلام بنونة
أب الحركة الوطنية المغربية



مراد المعاشي



أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

مُلَخَّص

يعتبر "الحاج عبد السلام بنونة" واحدًا من أبرز رجال الإصلاح الذين كان لهم الفضل في ظهور الحركة الوطنية المغربية، حتى أنه لقب بأب الحركة الوطنية المغربية، عاش ما بين سنتي (١٨٨٨-١٩٣٥م)، إضافة إلى كونه أحد أبرز المهتمين بالقضية الوطنية، كانت للرجل عدة مواقف واهتمامات أخرى، منها موقفه من تخلي إسبانيا عن المغرب، واهتمامه بالقضايا العربية والإسلامية، كالقضية السورية والعراقية والليبية والأفغانية. وانخرط في العديد من المنظمات على رأسها المنظمة الماسونية. تعود أهمية هذا المقال إلى تطرقه لموضوع لم يسبق التطرق إليه من حياة عبد السلام بنونة، مما يشكل إضافة للتراكم المعرفي حول شخصية مهمة في مغرب الحماية. حيث تناول المقال موقف عبد السلام بنونة من تخلي إسبانيا عن المنطقة الخليفية، واهتمام عبد السلام بنونة بالقضايا العربية والإسلامية، وعبد السلام بنونة والحركة الماسونية، وعبد السلام بنونة سفيرًا للقضية المغربية. وقد توصل الباحث إلى أن المواقف والاهتمامات المتعددة لعبد السلام بنونة اثبتت مدى اطلاعه على أحوال عصره، وكذلك عن ثقافته الواسعة ووعيه الكبير بالقضايا السياسية والفكرية التي كانت تشغل العالم العربي والإسلامي ككل، مما عاد بفوائد جمة على القضية المغربية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٣	أكتوبر	٢٠٢٢
تـاريخ قبـــول النشـــر:	٢١	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

تاريخ المغرب المعاصر؛ الحركة الوطنية؛ الحماية الإسبانية؛ المنطقة الخليفية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312209 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مراد المعاشي، "مواقف واهتمامات عبد السلام بنونة: أب الحركة الوطنية المغربية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٦٠ – ١٦٦.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: fmorad.elmaachi@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

نُشر هذا المقال في دَورِيةُ كان التَّارِيخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةُ

كان لعبد السلام بنونة[1] مواقف واهتمامات بمجموعة من القضايا التي كان يعرفها العالم وقتئذ، فهو لم يكن منحصرًا داخل حدود المغرب أو المنطقة الشمالية منه، بل نجده مشدودًا إلى قضايا إقليمية ودولية، ومساهما فيها، كما كانت له مواقفه الخاصة من مجموعة من القضايا والتطورات التي عرفتها إسبانيا على المستوى الداخلي، وسنحاول في هذا المقال معرفة مواقف عبد السلام بنونة حول بعض القضايا التي أثيرت خلال تلك الفترة، ولعل أبرزها مسألة تخلي إسبانيا عن المنطقة الشمالية، ثم بعد ذلك سنرى اهتمامه بالقضايا العربية والإسلامية والحركات التحررية بها، وكذلك اهتمامه بالحلف العربي، وأكيد أن هذه المواقف والاهتمامات تنم عن دراية واطلاع كبير من عبد السلام بنونة على قضايا عصره. هذا الاطلاع الواسع أسهم في ربطه لشبكة من العلاقات الدولية مع رجال الحركات الوطنية في العالم العربي والإسلامي، وحتى مع بعض الساسة الأوربيين خاصةً من الاشتراكيين والجمهوريين الإسبان، مما سيسهم في التعريف بالقضية الوطنية على الصعيد الدولي، كما انعكست هذه العلاقات بشكل إيجابي على الحركة الوطنية بشكل عام.

أولاً: موقف عبد السلام بنونة من تخلي إسبانيا عن المنطقة الخليفية[2]

وقت الإعلان عن الجمهورية بإسبانيا بتاريخ ١٣ أبريل ١٩٣١م، انتشرت أخبار حول تخلي هؤلاء عن منطقة حمايتهم في المغرب، مما جعل وزير الخارجية الإسباني يصرح لإحدى الصحف بأن إسبانيا لن تتخل عن المغرب[3]، تفنيدًا للشائعات التي انتشرت بشكل كبير جدًا. لا نعلم من خلال مصادر هذه المرحلة من كان وراء هذه الأخبار، لكن الغالب على الظن أن الفرنسيين كانوا من وراء ذلك، حتى يتسنى لهم جس نبض الجمهوريين ومعرفة رأيهم حول المنطقة، خاصةً إن كان أغلب الجمهوريين قد عبروا فيما سبق عن رغبتهم في تخلي إسبانيا عن المنطقة الشمالية.

تجدر الإشارة إلى أن فكرة تخلي الإسبان عن المنطقة ليست بجديدة، فقد راودت الإسبان حتى قبل فرض الحماية الفرنسية على المغرب، وذلك منذ سنة ١٩٠٩م، حينما فشل الإسبان في القضاء على مقاومة الشريف أمزيان[4]، وبعد فرض الحماية على المغرب وتوقيع الاتفاقية الفرنسية الإسبانية حول المغرب بتاريخ ٢٧ نونبر ١٩١٢م، والتي بموجبها تم منح المنطقة الشمالية لإسبانيا، ظهرت مجموعة من العراقيل في وجه الإسبان، منها المقاومة المسلحة وجهل الإسبان بالمنطقة وصغر مساحتها وافتقارها للموارد الطبيعية، كل هذه الأشياء جعلت بعض الإسبان يدعون إلى التخلي عن المنطقة[5]، ليس تعاطفًا مع الشعب المغربي، وإنما اقتناعًا منهم أن الميزانية المخصصة للمنطقة تحتاجها إسبانيا لإصلاح أوضاعها الداخلية[6].

أمام هذه الأخبار التي انتشرت بشكل كبير نجد شكيب أرسلان في رسالة منه إلى عبد السلام بنونة، يعبر فيها عن خوفه من تخلي إسبانيا عن المنطقة، لأن هذا الأمر سيجعلها لقمة سائغة في يد الفرنسيين[7]، وكحل وسط طلب شكيب أرسلان من رجال الحركة الوطنية بالعمل على محاولة الحصول على الاستقلال الذاتي الحكم الذاتي على غرار إقليم كاطالونيا[8].

كان عبد السلام بنونة من المهتمين بشكل كبير بتطورات الشأن الداخلي بإسبانيا، ومنها قضية الكطلان مع الجمهورية الإسبانية[9]، وهو ما حدا به إلى الظن على أن الجمهوريين سينحون نفس المنحى مع المنطقة الشمالية المغربية، بمنحها الاستقلال الذاتي. ولم يكن عبد السلام بنونة من المؤيدين لمسألة تخلي إسبانيا عن منطقة حمايتها، بل الأكثر من ذلك لم يكن من المؤيدين لمسألة منح المنطقة الاستقلال الذاتي، لأن شروطه غير متوفرة بعد، وهذا ما يعبر عنه في رسالة منه إلى شكيب أرسلان يقول فيها: "إني يا مولاي لا أتفاءل كثيرًا بمنحنا الاستقلال الداخلي قريبا ولكن أعتقد أننا إذا ثابرنا على العمل بنظام وعرفنا كيف نطالب بحقوقنا ولم نترك هذه الفرصة تضيع، نفوز بعدة رغبات تكون حجر الأساس للاستقلال الداخلي وحبلاً متينًا متصلاً طرفه النهائي بالاستقلال التام إن شاء الله تعالى"[10]. ويتضح من خلال هذه الرسالة أن عبد السلام بنونة لم يكن يرغب في منح المنطقة الاستقلال الذاتي لأنه يرى أنها غير مستعدة بعد لذلك، وكان يسعى إلى تطوير المنطقة بمساعدة الإسبان ثم بعد ذلك يأتي الاستقلال التام، ويكون المغرب قادر على ألا يقع في أخطاء الماضي، هذا هو الفكر الإصلاحي لبنونة، والخط الذي رسمه لنفسه وللحركة الوطنية في الشمال. بالإضافة إلى ذلك كان الوطنيون المغاربة يرون أن الحماية الإسبانية هي أرحم بكثير وأخف ضررًا من نظيرتها الفرنسية، وكانوا يخشون بشكل كبير تحكم الفرنسيين في المنطقة وضمها إلى المنطقة السلطانية. هذه الأمور هي التي تفسر وإلى حد بعيد الخطاب اللين الذي كانت تخاطب به الحركة الوطنية بالشمال الحكومة الإسبانية.

من جهة أخرى هناك مَنْ يرى أن هذه الأخبار كانت جدية، وأن إسبانيا لم تتراجع عن فكرة التخلي عن إسبانيا إلا بضغط إنجليزي، هذه الأخيرة التي كانت تخشى على مصالحها بالبحر الأبيض المتوسط، وخاصة مضيق جبل الطارق[١١]، كما أن الجالية الإسبانية الموجودة بالمنطقة ستعارض هذه الفكرة تماما خوفا على مصالحها[١٢]، وبالتالي إثارة مجموعة من المشاكل والقلاقل داخل إسبانيا نفسها، وهناك من يرى أن إسبانيا لم تكن مؤهلة لبسط حمايتها على المنطقة الشمالية من الأساس[١٣].

بعد كل القيل والقال، وتكذيب المسؤولين الإسبان لهذه الأخبار، عادت للظهور مرة أخرى فكرة تخليهم عن المنطقة في يونيو من سنة ١٩٣١م، وكان مصدر هذه الأخبار من جديد هو الصحف الفرنسية[١٤]، وليس من المستبعد أن تكون هذه الأخبار بإيعاز من الحكومة الفرنسية قصد تنبيه الإسبان إلى ما يدور في منطقتهم من تحركات لرجال الحركة الوطنية، وتنبيههم إلى أن الدولة الحامية الأصلية للمغرب هي فرنسا، وقد تطلب من عصبة الأمم استعادة المنطقة الشمالية -ان استمرت إسبانيا في سياستها اللينة مع رجال الحركة الوطنية- بحكم عدم قدرتهم على تسييرها، وأصدرت الإقامة العامة الفرنسية بالرباط بلاغا يفيد على أن فرنسا هي التي لها الأحقية في المغرب باعتبارها الدولة التي وقع معها سلطان المغرب معاهدة الحماية[١٥]. كما أن فرنسا حاولت ومنذ وقت مبكر الضغط على إسبانيا بغية التخلي لهم عن المنطقة، وشنت بذلك الصحف الفرنسية حملة واسعة في هذا السياق[١٦].

راسل شكيب أرسلان صديقه عبد السلام بنونة في هذا الشأن، وأبدى له تخوفه من انسحاب إسبانيا وتحكم فرنسا في المنطقة، وأخبره بضرورة إقناع وفد مطالب الأمة[١٧] لإسبانيا بعدم الانسحاب الكلي من المنطقة وإعطائهم الاستقلال الداخلي فقط تحت راية الحماية الإسبانية[١٨]. وهو ما يفسر ما جاء في ديباجة عريضة وفد المطالب التي كان بها تعبير عن تشبث الوطنيين بالإسبان ورغبتهم في الإصلاح لا أقل ولا أكثر.

انبرى المسؤولون الإسبان إلى تكذيب هذا الخبر، ومن غير المستبعد أيضًا أن يكون إثارة هذا الموضوع للمرة الثانية في تلك الظروف محاولة من المسؤولين الإسبان - بعد علمهم موقف الوطنيين من تخليهم عن المنطقة في المرة السابقة - الضغط على رجالات الحركة الوطنية الذين كانوا يعملون على جمع توقيعات عريضة وفد المطالب حتى تكون فيه مطالب معتدلة وبعيدة عن فكرة الاستقلال، ولعل ما صرح به الاشتراكي الإسباني "فرناندو دي لوس ريوس Fernando de los Rios" عن أنه سيقوم بتنظيم إضراب شامل لمنع الحكومة الجديدة من إرسال أي قوات للمغرب في حالة حدوث اضطرابات تنادي بالاستقلال عن إسبانيا[١٩]، قد أرعب الوطنيين المغاربة من أي تحرك عنيف اتجاه الحكومة الجديدة، وهو ما جعل عبد السلام بنونة في إحدى تصريحاته الصحفية يقول "تفتح الجمهورية آفاقا جديدة وغير محدودة أمام إسبانيا، فالعالم الإسلامي ينتظر الكثير من النظام الجديد، نحن المغاربة قد استبشرنا خيرًا به... فالمشكل المغربي كان مصطنعًا ومختلقًا من طرف الملكية. أما الآن فالشعب (الإسباني) بدأ يدرك تطلعاتنا وآمالنا بعيدًا عن القصور، فنحن ننتظر من الجمهورية تفهمًا عميقًا وكريمًا."[٢٠]

ثانيًا: اهتمام عبد السلام بنونة بالقضايا العربية والإسلامية

اهتم عبد السلام بنونة بالقضايا العربية والإسلامية التي كانت تشغل الرأي العام وقتذاك، بحيث نجده من المهتمين بالقضية الفلسطينية التي كانت تشغل بال العالم العربي، ولم يكتف عبد السلام بنونة بمجرد التعاطف مع القضية الفلسطينية، وإنما كان يعمل على دعم الفلسطينيين، من خلال العمل على جمع تبرعات لمساعدتهم[٢١]. وقد كان من المتتبعين للقضية من خلال الجرائد المشرقية والأوربية[٢٢]، وربط اتصالات ببعض الكتاب المشارقة الذين كانوا يزودونه بتطورات القضية كأديب أفندي وبعض المغاربة الموجودين بفلسطين كإبراهيم عثمان المراكشي[٢٣].

إضافة إلى القضية الفلسطينية، انصب اهتمام عبد السلام بنونة على القضية الليبية أو الطرابلسية نسبة إلى العاصمة طرابلس، خاصةً في ظل الحرب التي شنتها إيطاليا بقيادة "بينيتو موسوليني Benito Mussolini" على الليبيين، بحيث نجده يكاتب شكيب أرسلان في الموضوع بتاريخ ١٠ دجنبر ١٩٣٠م، يقول له "قرأت في جريدة الشعب التونسية أخبارًا مهمة عن الحرب الطرابلسية فأحببت أن تطلع عليها عطوفتكم وها هي توافيكم درج هذا..."[٢٤].

يبدو أن بنونة لم يكتف أيضًا بمتابعة القضية والاطلاع على أخبارها، وإنما طلب من شكيب أرسلان إثارة الموضوع في الجرائد العربية قصد التشهير بالإيطاليين وجرائمهم في ليبيا، وقد استجاب شكيب أرسلان لطلبه، وهذا ما نستشفه في رسالة منه إلى عبد السلام بنونة يخبره فيها على أنه كتب حول القضية الليبية في العدد العاشر وسيكتب عنه في العدد المقبل

أيضًا[٢٥]، وعمل بنونة على توزيع ما كتبه شكيب أرسلان وغيره حول القضية الليبية في المغرب[٢٦]. وعن القضية الليبية دارت مجموعة من المراسلات بين عبد السلام بنونة وشكيب أرسلان[٢٧]، تبرز مدى اهتمامهما بالقضية وتطوراتها.

من ضمن الاهتمامات العديدة لعبد السلان بنونة بالقضايا العربية والإسلامية، نجد القضية السورية، ونسجل أيضًا أن بنونة لم يكن من المتعاطفين والمتتبعين، وإنما شارك فيها من خلال مساهمته بمبلغ مالي إلى شكري قوتلي كمساهمة منه في تأسيس شركة وطنية سورية[٢٨]. كما نجد القضية العراقية حاضرة عند عبد السلام بنونة، بحيث عمد وبتوجيه من شكيب أرسلان إلى توجيه رسالة باسم الهيأة الوطنية إلى ملك العراق فيصل بمناسبة الحصول على الاستقلال[٢٩].

لم يقتصر عبد السلام بنونة على الأقطار العربية وحسب، بل نجده من المتتبعين للقضايا الإسلامية أيضًا، وذلك من خلال إلماعه إلى موقفه الخاص حيال الوضع في أفغانستان حول عودة أمان الله إلى عرشه، حيث جاء في رسالة منه إلى شكيب أرسلان: "أما رجوع أمان الله إلى عرش أفغانستان فأظنه من البعد بمكان لما هو عليه الملك الحالي من الاعتدال مع الوطن والرسوخ في الدين أعانه الله"[٣٠]. بالإضافة إلى هذه الاهتمامات المتفرقة بالقضايا العربية والإسلامية، نجد أن عبد السلام بنونة كان من المهتمين بشكل كبير بقضية التحالف العربي التي كان يعمل عليها شكيب أرسلان مع بعض الملوك العرب، بحيث نجده حريصا كل الحرص على معرفة تطورات القضية ومستجداتها، وما فتئ يوجه الأسئلة إلى شكيب أرسلان حول الموضوع، ومن ضمنها رسالة مؤرخة بـ ٢٢ فبراير ١٩٣١م جاء فيها: "لم أتذكر هذه الساعة في أي الجرائد قرأت أن الملك فيصل عين سفيرًا مفوضًا للحجاز بقصد عقد محالفة الملك ابن سعود والتوقيع عليها. أصحيح هذا يا مولاي...؟ وهل أسفرت أعمالكم المتتابعة القيمة عن هذه النتيجة العظمى...بشرني بالحقيقة ولكم الفضل"[٣١].

ثالثًا: عبد السلام بنونة والحركة الماسونية

الماسونية مشتقة من أصلها اللغوي "Maçon" التي تعني البناء، ويقال بالإنجليزية "Free Maçon" أي البناؤون الأحرار[٣٢]. وقد شكلت هذه المحافل الماسونية "مؤسسات دستورية وقانونية وتشريعية في الظل"[٣٣]، مما جعلها تحظى باهتمام رجالات الحركة الوطنية بالمغرب، والغالب على الظن أن الهدف من وراء انتسابهم إليها كان هو التعريف بالقضية الوطنية وإيجاد الدعم اللازم من أعضائها. كانت الحركة الماسونية نشيطة بالمغرب، خاصة مع وصول الجمهوريين إلى الحكم سنة ١٩٣١م، حيث كان معظم القياديين بالحزب الجمهوري ينتمون إلى المحافل الماسونية[٣٤]، وقد انضم إليها أيضًا العديد من موظفي المخزن الخليفي[٣٥].

أغرت المحافل الماسونية رجال الحركة الوطنية المغربية، رغبة منهم في التقرب من صناع القرار الإسبان وأخذ دعمهم للقضية المغربية على المستوى الدولي، وقد كان أول من بادر إلى الانتماء إلى المحفل الماسوني بتطوان عبد السلام بنونة بتاريخ ٢٢ يونيو ١٩٣١م، حيث أضحى لقبه الماسوني الحسن[٣٦]. ثم انضم إليها فيما بعد العديد من الوطنيين كعبد الخالق الطريس وامحمد بنونة والتهامي الوزاني...[٣٧]. وفي تقرير أعده أحد أفراد المحفل الماسوني حول عبد السلام بنونة، جاء فيه "...رجل ذو ثقافة عالية وأفكار عصرية وليبرالية. وكمسلم فهو وطني...يمكن أن يكون ذو فائدة لنا. لكن يجب بعد عمله بالمحفل إخضاعه للامتحان ليكون عندنا اليقين بأنه يعمل لأجل الغاية العليا...أراه يستحق الانتساب لمحفلنا"[٣٨].

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان، ما نوعية هذا الامتحان؟ وما غايتهم العظمى؟

يبدو أن عبد السلام بنونة لم يعمر طويلا داخل المحفل الماسوني، إذ أرسل بطلب إعفائه منه يوم ٨ يوليوز ١٩٣٣م[٣٩]. ولعل السبب في ذلك هو وعيه بأن الحركة لم ولن تقدم أي خدمة للوطنيين المغاربة. مهما كانت المآخذات التي سجلت على رجال الحركة الوطنية حول انتسابهم إلى المحافل الماسونية، فإن الهدف المرجو منها كان فوق كل اعتبار، والغاية تبرر الوسيلة، فقد كانوا بحاجة إلى كل الوسائل الممكنة لمواجهة المستعمر الذي يحتكر كل الأسلحة من حرية الصحافة إلى حرية تأسيس الأحزاب والجمعيات.

رابعًا: عبد السلام بنونة سفيرًا للقضية المغربية

عملت معاهدة الحماية التي وقعها السلطان المغربي مولاي عبد الحفيظ مع السفير الفرنسي رينيو Regnault على انتزاع حق تمثيلية المغرب الخارجية وإسنادها إلى الدولة الحامية. أمام هذا السياج الذي وضعته سلطات الحماية، بهدف كتم أصوات المغاربة على المستوى الخارجي، الأمر الذي تفطن إليه رجال الحركة الوطنية، وأخذوا على عاتقهم مهمة كسر سياج الحماية، والتعريف بالقضية المغربية في المحافل الإقليمية والدولية[٤٠]. وكان من بين هؤلاء خاصة في المرحلة الأولى لتبلور الفكر

الوطني ونشوئه عبد السلام بنونة، الذي سيعمل على الانخراط وبشكل كبير في مجموعة من المنظمات والجمعيات وحتى من خلال ربطه لعلاقات مع بعض الشخصيات المعروفة سواء في العالم العربي الإسلامي أو الأوربي.

حينما فكر بعض الزعماء العرب في إقامة مؤتمر للجامعة العربية بمدينة فرانكفورت الألمانية، راسلوا عبد السلام بنونة عن طريق السوري فريد زين الدين بغية الحضور إلى أشغال المؤتمر[٤١]، وقد كانت هذه الدعوة موجهة إليه بالاتفاق مع عصبة مقاومة الاستعمار[٤٢]. ولم تكن مراسلة فريد زين الدين لعبد السلام بنونة صدفة، وإنما كانت عن معرفة مسبقة بين الرجلين تعود إلى سنة ١٩٢٧م، حينما تم تأسيس جمعية الثقافة العربية وقاموا ببعث قانونها إلى عبد السلام بنونة بصفته من المؤازرين لها[٤٣]. في السياق نفسه راسل الطلبة المغاربة عبد السلام بنونة بعد تلقيهم رسالة من أجل تمثيل المغرب في المؤتمر، راجين منه تمثيل المغرب في هذا المحفل العربي[٤٤]. وهذا ما يعبر عن المكانة التي حظي بها الرجل عند هؤلاء الطلبة. وقد تعذر عليه الحضور للمؤتمر، لأن زمن وصول الرسالتين كان موجودا بمدينة برشلونة[٤٥].

كان عبد السلام بنونة عضوًا في عصبة مقاومة الاستعمار[٤٦]، لهذا نجدها تراسله بشأن شخص يدعى أحمد حسن مطر، يدعي أنه سكرتير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وتطلب منه تأكيد أو نفي ذلك[٤٧]، كما توصل من نفس العصبة بتقرير المؤتمر العربي[٤٨] الذي تخلف عن حضوره للسبب المذكور أعلاه. وحينما قامت العصبة المذكورة بتأسيس لجنة الدفاع عن المسلمين راسلت عبد السلام بنونة بغية اختيار العناصر التي يراها مناسبة من المغرب[٤٩]. باقتراح من شكيب أرسلان، توصل عبد السلام بنونة بدعوة من مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني لحضور المؤتمر الإسلامي بالقدس، وكان بنونة هو المغربي الوحيد الذي تلقى الدعوة مباشرة من المفتي، كما توصل بالدعوات الموجهة إلى رجال الحركة الوطنية كمحمد داود وأحمد مكوار وعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وعمر التازي وشعيب الدكالي والمهدي المنبهي وعبد الرحمان بن زيدان"[٥٠]، وتكلف بإرسالها إلى أصحابها.

مثّل المغرب في هذا المؤتمر امحمد بنونة بناء على طلب أخيه عبد السلام بنونة، الذي تعذر عليه الحضور نظير اشتغاله بالمجلس البلدي الذي عين فيه نائبا عن الرئيس، وعن المنطقة السلطانية مثل المغرب المكي الناصري بعدما تم إخبار عبد السلام بنونة بذلك[٥١]. كتب رجال الحركة الوطنية بالمنطقة السلطانية رسالة إلى المؤتمر تم توجيهها إلى عبد السلام بنونة قصد إرسالها إلى رئيس المؤتمر محمد أمين الحسيني[٥٢]. عند نهاية أشغال المؤتمر تلقى عبد السلام بنونة رسالة شكر من محمد أمين الحسيني، على مساهمة المغاربة في أشغاله[٥٣]. وكان من نتائج هذا المؤتمر على المغرب، توجيه رسالة إلى عصبة الأمم بخصوص القضية المغربية[٥٤]. وحينما قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر تأسيس لجان محلية في الأقطار الإسلامية، راسلت عبد السلام بنونة فيما يخص الدولة المغربية[٥٥].

في سنة ١٩٣٣م أنشأ عبد السلام بنونة بمعية عبد الخالق الطريس فرعا لعصبة الدفاع عن حقوق الإنسان[٥٦]، وهو خطوة تنم عن كثير من الدهاء، تحسبًا لأي تدخلي قمعي في حق رجالات الحركة الوطنية بالمنطقة. بالإضافة إلى انخراط عبد السلام بنونة في الجمعيات والمنظمات، ربطته علاقات صداقة بعدة شخصيات عربية[٥٧] وأوربية، ساهمت بشكل أو بآخر في التعريف بالقضية الوطنية، ولعل أبرز هذه الشخصيات شكيب أرسلان الذي استفادت منه الحركة الوطنية المغربية بشكل كبير، وكان رجلاً مؤثرًا فيها وفي تحركاتها، بالإضافة إلى طه الهاشمي، شكري القوتلي، عبد العزيز الثعالبي، محمد رشيد رضا، أكرم زعيتر، وغيرهم من الشخصيات العربية، ونفس الشيء ينطبق على مجموعة من الشخصيات السياسية الإسبانية والفرنسية، خاصة من الاشتراكيين الداعمين للقضية الوطنية.

خَاتمَةٌ

إن الاهتمامات التي كانت لعبد السلام بنونة بالقضايا العربية والإسلامية، تنم عن مدى الاطلاع الواسع الذي كان يحظى به الرجل، ولم يكن من المكتفين بالمتابعة أو التعاطف، بل كان من العاملين حسب الاستطاعة على تقديم المساعدة لكل الحركات التحررية العربية والإسلامية، وهذا ما أكسبه احترامًا كبيرًا عند كثير من رجال الحركات التحررية في العالم، كما ساهم بطريقة غير مباشرة في التعريف بالمغرب وقضيتهم لدى هذه الدول.

لم يدخر عبد السلام بنونة أي جهد في خدمة القضية الوطنية، وطرق جميع الأبواب الممكنة، لهذا نجده عضوًا في الحركات الماسونية، كما قام بترشيح عبد الخالق الطريس لعضويتها، مما يعني أن الرجل لم يكن يجد أي حرج في ذلك، لأن الهدف الأسمى كان هو نصرة القضية الوطنية، ومجابهة العدو الأول وهو الدولة الفرنسية الممثلة بجهاز الحماية في المغرب.

إن العلاقات التي ربطها عبد السلام بنونة مع الشخصيات العربية والإسلامية والأوربية، كانت لها فوائد جمة على القضية المغربية، وانعكست بشكل إيجابي على الحركة الوطنية، كما كانت اللسان الناطق للمغرب خارجيا، ويمكن القول إن عبد السلام بنونة بعلاقاته هذه، قد كسر طوق سياج الحماية المفروض على المغرب، وتمكن من إسماع صوته في المحافل الوطنية والدولية.

اثبتت المواقف والاهتمامات المتعددة لعبد السلام بنونة مدى اطلاعه على أحوال عصره، وكذلك عن ثقافته الواسعة ووعيه الكبير بالقضايا السياسية والفكرية التي كانت تشغل العالم العربي والإسلامي ككل، مما عاد فوائد جمة على القضية المغربية.

الاحالات المرجعية:

(١) يعتبر عبد السلام بنونة (١٨٨٨-١٩٣٥) من أبرز رجال الإصلاح بالمغرب على عهد الحماية، ومن المساهمين الأساسيين في ميلاد الحركة الوطنية المغربية، حتى أنه يلقب بأب الحركة الوطنية المغربية. انظر: مراد المعاشي، "**برنامج عبد السلام بنونة في التمهيد لنشأة الحركة الوطنية بشمال المغرب ١٩١٦-١٩٣٠م**"، ضمن ندوة بداية عهد الاستقلال بالشمال المغربي: بين رهان الوحدة وتحدي التنمية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، ٢٠٢١، ص ١٠٧-١٢٦.

(٢) المنطقة الواقعة تحت نفوذ الحماية الإسبانية، وبها كان يوجد خليفة السلطان المغربي، عاصمتها تطوان.

(٣) ابن عزوز حكيم محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة حاته ونضاله**، ج٢، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٨٧، ص ٢٦٦.

(٤) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية ١٩٣١ – ١٩٥٦**، ج١، إفريقيا الشرق-المغرب، ٢٠٠٧، ص ١٦١.

(٥) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية ١٩٣١ – ١٩٥٦**، ص ١٦٣.

(٦) مصطفى عديلة، "**الجمهورية الإسبانية ومواقفها من انسحاب الحماية من المغرب، ضمن ندوة المنطقة الشمالية واستقلال المغرب ١٩٠٩ – ١٩٥٦م**"، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ص ١٥٦.

(٧) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**..، مرجع سابق، ج٢ ص ٢٦٦..

(٨) نفسه، ص ٢٦٧.

(٩) نفسه، ص ٢٦٨.

(١٠) نفسه، ص ص ٢٦٨ – ٢٦٩.

(١١) محمد الخطيب نقلاً عن: ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٦٩.

(١٢) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٧٠ – ٢٧١.

(13) Germain Ayache, "Implications internationales de la guerre de RIF", In HT, fas unique, 1974, pp 187 – 189.

(١٤) ابن عزوز حكيم محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة حياته ونضاله**، ج٣، مطبعة الساحل، الرباط، ١٩٨٨، ص ٣١.

(١٥) نفسه.

(16) Daniel Rivet, Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc. 1912 – 1925, T1, Harmatan, 1988, p 255.

(١٧) حول هذا الوفد انظر: مراد المعاشي، "**وفد مطالب الأمة بشمال المغرب سنة ١٩٣١م والصراع حول الزعامة عبد السلام بنونة ومحمد الطيب بوهلال أنموذجًا**"، دورية كان التاريخية، السنة ١٥، عدد ٥٥، مارس ٢٠٢٢م، ص ١٤٥-١٥٠.

(١٨) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٣، ص ص ٣٢ – ٣٣.

(١٩) محمد بوقران، **المغرب والجمهورية الثانية في إسبانيا ١٩٣١ – ١٩٣٦**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٣، ص ٥٣.

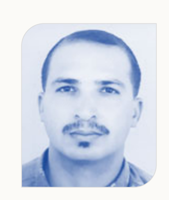
(20) Bulletin de l'Afrique Française, N7-1931 Juillet, P 476.

نقلاً عن: محمد بوقران، **المغرب والجمهورية الثانية في إسبانيا ١٩٣١ – ١٩٣٦**، ص ٧٨.

(٢١) ابن عزوز حكيم محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة حياته ونضاله**، ج١، الهلال العر بية للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٨٧، ص ٣٣٦.
(٢٢) نفسه، ص ٣٣٩.
(٢٣) نفسه، ص ٣٣٩ – ٣٤٠.
* بينيتو موسوليني Benito Mussolini (١٨٨٣ – ١٩٤٥م) انتمى إلى الحزب الاشتراكي واعتقل سنة ١٩٠٨م، استغل ظروف الأزمة بإيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى، فاستولى على الحكم وأقام نظاما دكتاتوريا.
(٢٤) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٢، ص ١٣٠.
(٢٥) نفسه.
(٢٦) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٢، ص ١٣٦.
(٢٧) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج١، ص ص ١٣٠ – ١٣٥.
(٢٨) بنونة المهدي، **المغرب.. السنوات الحرجة**، الشرق الأوسط، دت، ص ٢١.
(٢٩) ابن عزوز حكيم محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة حياته ونضاله**، ج٤، مطابع ميثاق المغرب-الرباط، ١٩٩٥، ص ١٤٠.
(٣٠) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٢، ص ١٢٧.
(٣١) بنونة الطيب، **نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة**، نشر وتوزيع عبد السلام جسوس طنجة، ط١، ١٩٨٠، ص ٤١٢.
(٣٢) بوبكر بوهادي، "**الحركة الماسونية بالمغرب**"، ضمن وقفات في تاريخ المغرب أعمال مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٧، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١، ص ٣٠٦.
(٣٣) محمد بوقران، **المغرب والجمهورية الثانية في إسبانيا ١٩٣١ – ١٩٣٦**، مرجع سابق، ص ٥٢.
(٣٤) نفسه.
(٣٥) بوهادي، **الحركة الماسونية بالمغرب**، مقال سابق، ص ٣١٢.
(٣٦) نفسه، ص ٣١٣.
(٣٧) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، ج٤، مرجع سابق، ص ٣٠٥.
(٣٨) بوهادي، مقال سابق، ص ص ٣١٣ – ٣١٤.
(٣٩) بوهادي، **الحركة الماسونية بالمغرب**، مقال سابق، ص ٣١٧.
(٤٠) حول هذا الموضوع انظر: محمد العربي المساري، **المغرب خارج سياج الحماية "العلاقات الخارجية للحركة الوطنية"**، منشورات عكاظ، الرباط-المغرب، ٢٠١٢.
(٤١) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج١، ص ٢٩٧ – ٢٩٨.
(٤٢) نفسه، ص ٢٩٨.
(٤٣) الطيب بنونة، **نضالنا القومي**...، مرجع سابق، ص ٢٢٤.
(٤٤) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج١، ص ٣٠٠.
(٤٥) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج١، ص ٣٠١.
(٤٦) الطيب بنونة، **نضالنا القومي**...، مرجع سابق، ص ١٧٠.
(٤٧) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج١، ص ٣٠٤.
(٤٨) الطيب بنونة، **نضالنا القومي**...، مرجع سابق، ص ١٧٠.
(٤٩) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٢، ص ١٧٤.
(٥٠) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٧.
(٥١) نفسه، ص ٢٦٥.
(٥٢) نفسه، ص ٢٦٧.
(٥٣) نفسه، ص ٢٩٧.
(٥٤) ابن عزوز حكيم، **أب الحركة**...، مرجع سابق، ج٣، ص ص ٣٠٢ – ٣٠٣.
(٥٥) نفسه ص ص ٣٠٦ – ٣٠٧.
(٥٦) وولف جون، **ملحمة عبد الخالق الطريس حقيقة الحماية الفرنسية والإسبانية بالمغرب**، ترجمة محمد الشريف، مراجعة جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة ترجمات ٣، ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٧٣.
(٥٧) المهدي بنونة، **المغرب**...، مرجع سابق، ص ٢١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مقاومة الزاوية الدرقاوية للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي



عبد الرزاق الصافي

أستاذ الثانوي التأهيلي

باحث الدكتوراه بكلية علوم التربية

جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

قامت الزوايا بأدوار تاريخية عديدة، فقد شكلت على مر التاريخ مؤسسات دينية وعلمية واجتماعية. فما إن استتب الأمن للاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، حتى اتجهت أطماع هذا الاستعمار نحو المغرب، خاصةً بعد الانهزام المدوي للمغرب في معركة ايسلي عام ١٨٤٤، مما ساهم في تحرش القوات الفرنسية بالحدود المغربية، فدخل في مواجهات مسلحة معهم قامت فيه الزوايا بدور محوري ومنه الزاوية الدرقاوية بالجنوب الشرقي المغربي. وقد توصل الباحث إلى أن مقاومة أهل الجنوب الشرقي شكلت حدثًا بارزًا وحاسمًا في التاريخ المغربي المعاصر، فهي حدث يبين شدة التلاحم بين الشعب والعرش. كما أن المقاومة التي أبانت عنها هذه الزاوية التي مزجت بين الأسلوب العسكري والأسلوب الديني الجهادي، رغم محدوديتها فهي تعتبر بحق نموذج للزاوية التي لعبت عدة أدوار دينية اجتماعية وأيضًا سياسية، لما اتسمت به حركاتها الجهادية من قوة متمسكين بالعروة الوثقى بالدين الإسلامي، معتبرين الموت في سبيل الوطن جهاد يدخل للجنة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٢	أكتوبر	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	١٨	نوفمبر	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الزاوية الدرقاوية؛ المقاومة؛ الاحتلال؛ الجنوب الشرقي المغربي؛ تاريخ المغرب؛ تاريخ المقاومة المسلحة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312294 doi

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرزاق الصافي. "مقاومة الزاوية الدرقاوية للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٦٧ – ١٧٤.

Corresponding author: rrazaksafi@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كَان التَّاريخية لأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

لعبت الزوايا مجموعة من الأدوار التاريخية فقد شكلت على مر التاريخ مؤسسات دينية وعلمية واجتماعية، مع العلم أن الزوايا مجال لا زال بكرا ولم يحظ بالعناية الكافية والبحث والتنقيب اللازم، "إذ لا يخفى على أحد الأدوار الحاسمة التي قامت بها هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية في تشكيل تاريخ المغرب، فقد كان رجالات التصوف دائما في قلب المجتمع والسياسة، فطبعوا تاريخ المغرب وكانوا فاعلين في تأسيس دوله وتوجيه سياسته وثقافته وتشكيل هويته. ورغم كثرة الأبحاث والدراسات التي أنجزت حول الزوايا، فإن هذه المؤسسات لا تزال تنطوي على إغراء جذاب يثير الباحث إلى ركوب غماره للتنقيب في مفاتن هذا التاريخ" (الحادك، ٢٠١٤، ص٠٧).

ما إن استتب الأمن للاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، حتى اتجهت أطماع هذا الاستعمار نحو المغرب، خاصة بعد الانهزام المدوي للمغرب في معركة ايسلي عام ١٨٤٤، إذ ما أن قامت فرنسا باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠، حتى تبينت أطماعها في المغرب عبر قيامها بعدة مناوشات، ولعل ذلك يتضح من قول ثريا برادة؛" وقد دخل المغرب وفرنسا منذ ١٨٣٠ في اختبار قوي، حرص فيه كل منهما على تأكيد سيادته وتفوقه، وعلى إضعاف الآخر، مع تحاشي المواجهة المباشرة والشاملة. وقد بدأ المولى عبد الرحمان هذه المرحلة، بإظهار عزمه على احترام العقد السياسي الديني، فقبل بيعة أهل تلمسان، وأرسل جيشا من العبيد والودايا لتأكيد السيادة المغربية على هذه المنطقة، وأرهف السمع للتحمس الشعبي للجهاد ضد العدو الكافر، وشرع في تفقد حاميات السواحل، وفي اقتناء الأسلحة. وقدم الإعانة المادية والمعنوية للمجاهد عبد القادر وسلك سياسة "لم آمر بها ولم تسؤني مع القبائل المغربية الشرقية التي كانت تتوغل في التراب الجزائري وتغير على الجيش الفرنسي" (برادة، ص ١٩٣-١٩٤ا).

لقد شكل الاحتلال الفرنسي لدولة الجزائر عام ١٨٣٠، تهديدًا مباشرًا للمغرب. فبعد أن قامت فرنسا بتوطيد نفوذها بإضعاف سلطة الأمير عبد القادر الجزائري، انصب اهتمامها على المغرب مستغلة مساندة المغاربة للأمير فقامت بالتحرش بمناطقه الشرقية، فقد" لجأت فرنسا إلى كل أنواع الضغوط ومظاهر القوة والمناورات التي ترمي إلى إضعاف المخزن وشعبيته، بإظهار عجزه أمام السكان، كإظهار السفن الحربية على السواحل المغربية، بل وبتنظيم توقفات منتظمة للسفن العابرة للبحر الأبيض المتوسط والمتوجهة للمحيط الأطلسي أمام طنجة لنشر الرعب والبلبلة. واختارت وقت الأزمات الداخلية، كثورة الودايا والغرب سنة ١٨٣١م لتوغل الجيش الفرنسي في الحدود الشرقية، وإرسال إنذارات صارمة والقيام بمناورات سياسية كمحاولة إقناع المخزن تارة بخطر شعبية عبد القادر، وأطماعه وتواطئه مع القبائل المغربية ضده، وتارة بعزمها على التحالف مع عبد القادر" (برادة، ص ١٩٤-١٩٥).

يمكن القول إن الاحتلال الذي تعرضت له الجزائر شكل تهديدًا مباشر للمغرب خاصة بعدما أبان المغرب عن رفضه منع عبد القادر الجزائري من اللجوء الى التراب المغربي، لتبدأ مرحلة العدوان الاستعماري الفرنسي على بلاد المغرب، فكانت نتيجة ذلك فرض معاهدة للامغنية عام ١٩٤٥ التي فتحت الأبواب أمام الاستعمار الفرنسي، ليظهر دور الزاوية الدرقاوية التي وقفت في وجه الاستعمار الفرنسي من خلال الدعوة الى تنظيم مقاومة القبائل.

- فما هو تاريخ تأسيس الزاوية الدرقاوية؟ أين يتجلى الانتشار الجغرافي لأفكارها ومبادئها؟
- ما موقفها من التواجد الاستعماري الفرنسي؟

أولاً: الإطار الطبيعي للجنوب الشرقي

يقع الجنوب الشرقي بين مجالي الأطلس الكبير من جهة والصحراء القاحلة من جهة أخرى، ذو أراضي منبسطة تتخللها عدة واحات، و" يتسم مناخها بالارتفاع الكبير في درجة الحرارة التي تصل الى حوالي ٥٠ درجة في فصل الصيف وشدة الفوارق الحرارية اليومية والفصلية في باقي الفصول مع قلة التساقطات المطرية. وقد شكلت هذه الظروف التضاريسية والمناخية القاسية وسيلة فعالة من الوسائل التي وظفتها قبائل المنطقة في مواجهاتها مع القوات الفرنسية لتعويض النقص الذي كانت تعانيه ماديا وعسكريا مقارنة مع الإمكانات الهائلة التي يتوفر عليها جيش الاحتلال" (الحادك، ٢٠١٤، ص ٥٩) رغم قساوة المناخ فقد تأقلمت الساكنة معه فتعاطت للزراعة على ضفاف الأودية والرعي، بالإضافة الى زراعة النخيل بالإضافة الى ما توفره لهم مواشيهم من حليب ولحوم.

ثانيًا: الإطار البشري للجنوب الشرقي

تنتشر بهذا المجال ساكنة من مختلف الانتماءات، قطاعهم الأساسي هو الفلاحة حيث يتعاطون لكسب مواشي الأغنام، والإبل، ويتميز هؤلاء السكان بنمطين في الحياة، حيث نجد منهم

من يميل الى الترحال بحثا عن الكلئ للمواشي، فخلال فصل الشتاء يتوجهون نحو الشمال، وخلال فصل الصيف يتوجهون نحو الجنوب، في ظل ندرة المياه ولعل اهم هاته القبائل سغروشن، ايت عطا، ايت إزدك، أولاد ناصر، بني مكيل (روس. إ. دان، ٢٠٠٦، ص٣٧-٣٨-٣٩)... ناهيك إن هذا المجال يتميز بوجود مجموعة من الفئات والتي تعيش داخل القصور مثل الشرفاء، المرابطون، العوام والحراطين (الحادك، ٢٠١٤، ص٦١)، وما يرافق ذلك من تراتبية اجتماعية قاسية.

ثالثًا: تأسيس الزاوية الدرقاوية وانتشارها المجالي

يُنسب الدرقاويون إلى الشريف الإدريسي سيدي محمد العربي بن احمد الدرقاوي الزروالي، وقد أسست الزاوية الدرقاوية من طرف مولاي العربي عام ١٧٨٦ والتي شكلت الزاوية الأم للزاوية الدرقاوية (Spillmann. p. 5)، وقد سعى الدرقاويون إلى إحياء التصوف الشاذلي من خلال الثورة على القيم في المجتمع المغربي، خاصة وان الزاوية الدرقاوية استفادت من التغلغل الصوفي للزوايا منذ القرن ١٦ وما توفر لديهم من رصيد اعتباري تجلى في النسب الشريف لمؤسس الزاوية وقد ساهمت في إحياء التصوف الشاذلي (Bellaire.1921. p156.)

تمكن الدرقاويون بفضل النسب الشريف لمؤسس طريقتهم أن ينتشروا بسرعة وان يستقطبوا العديد من الناس من البوادي والمدن، وهو ما يؤكده قول قاسم الحادك؛" لقد نجحت الطريقة الدرقاوية خلال فترة وجيزة في اكتساح جل مناطق المغرب واستقطاب قاعدة جماهيرية واسعة، وتمكنت بذلك من مراكمة رأسمال رمزي وشرعي كبير. كما استطاعت أن تتغلغل في أعماق مختلف شرائح المجتمع المغربي من أعيان وفئات شعبية، وان تفرض تأثيرها على الصعيدين الاجتماعي والسياسي"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٨) وربما ذلك يعودالى كون هؤلاء الدرقاويين لم ينعزلوا في الجبال ولم يعتكفوا في الزوايا بل كانت لهم أدوار عدة سياسية واجتماعية كما أنها كانت منفتحة ومتعددة المرجعية من كتاب وسنة وسيرة السلف الصالح (الحادك، ٢٠١٤، ص١٨).

لقد استطاع زعماء الطرق الصوفية أن يثبتوا مواقعهم وأدوارهم فصار شيخ الزاوية" مرشدا روحيا وزعيما مسلما به محبوبا ومحترما ومهابا في نفس الوقت"(الزاهي، ٢٠٠٣، ٩) هذا ما جعل الدرقاويون يبسطون الهيمنة على المشهد الصوفي المغربي خلال أواخر القرن ١٨، حيث تزايد عدد اتباعها ومريديها، وهكذا أصبحت تتشكل" البنية الثقافية للمغاربة من نخب وعامة كالتالي: ثقافة العلماء هي الفقه، ثقافة المخزن هي العلوم الأدبية وثقافة الشعب هي التصوف" (Laroui A. 1993. P. 228) ، وهكذا يمكن أن نقول إن التصوف شكل ثقافة جل المغاربة إن لم نقل كلهم، حيث أصبحت شبكة المقدس تغطي كل مناطق المغرب" (الشاذلي، ١٩٨٩، ٢٦٩).

رابعًا: مقاومة منطقة الجنوب الشرقي للوجود الاستعماري

بعد التدخل الفرنسي بمنطقة الجنوب الشرقي، اتجهت أنظار الزاوية الدرقاوية الى تعبئة السكان بخطر هذا الاستعمار الذي يهدف الى الاستحواذ على خيرات وثروات المغرب، فكان أول ما دعت إليه الزاوية الدرقاوية هو الدعوة الى مقاطعة المنتوجات الأجنبية ومقاطعة كل تبادل تجاري مع الفرنسيين على الحدود، خاصة وان الفرنسيين كانوا يهدفون الى ربط علاقات تجارية مع السكان لتوسيع نفوذهم القبلي (بوكبوط، ٢٠٠٥، ص.٤٢)، إلا أن مجموعة من التجار عارضوا ذلك بغية الاستفادة من الامتيازات التي تنتج عن هذا التعامل التجاري.

الزاوية الدرقاوية أبانت عن رغبتها في مقاومة الوجود الاستعماري من خلال إصدار عدة فتاوي مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية والتي تبين عواقب التواجد الأجنبي الاستعماري (عكاشة، ٢٠٠٣، ص. ٣٧)، وقد اكد الدرقاويون على ضرورة التصدي للمستعمر وعدم ربط علاقات معه، وفي هذا السياق أبان سيدي محمد العربي عن رغبته في المقاومة السلمية والتي تتجلى في مقاطعة المنتوجات الأجنبية ومقاطعة مختلف العلاقات التي يمكن أن تربط مع المستعمر من قريب أو بعيد فكان أن سعى أول الأمر إلى تعبئة القبائل وتقديم مختلف أشكال الرشد والنصح للقبائل لتحس بخطوة المستعمر وأهدافه الاستغلالية.

سعى الدرقاويون الى مقاومة العدوا وتجنب التعامل معه وهو ما يظهر من قول قاسم الحادك؛ "...ومقدمة البوار، الأمن من عدو الدين، وعدم المبالاة بما يفعله في أرض المسلمين، وترك التفطن إليه حتى يصير يأمر وينهي، ويمتثل أمره في سواحل أهل الإيمان والدين، ولا يتفطن وينتبه إليه حتى يتفاقم الواقع ويتسع الخرق على الراقع..." (الحادك، ٢٠١٤، ٦٩)، وفي سنة ١٨٨٥ خاطب المتعاملين تجاريا مع المستعمر وما قد يعترضهم من أخطار قائلاً؛ "إلى كل من يبلغه كتابنا هذا من جميع إخواننا المسلمين...فاعلموا أن الله تبارك وتعالى نهى جميع المسلمين وجميع المحسنين...من موالاة ومودة ومحاباة

أعدائه بأي وجه كانت الموالاة... وأعلموا أنه لم يزل يبلغنا عن المسلمين أنهم لا يزالون يطلقون لأعداء الله وأعدائهم ما أغناهم الله وقواهم به على الثبات على دينه من خيل وإبل وبارود وشياه وبهائم وثياب وصوف وغير ذلك، بعدما بلغنا أنهم قطعوا الكبريت عن المسلمين منذ زمان وكثرت علينا الأخبار والمراسلات بهذا الأمر ولم يبالوا ولم ينتبهوا ولا تفطنوا لما أصابهم. وأحزننا ذلك غاية وأكبرنا غاية" (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٦٩).

لذلك الشيخ الدرقاوي كان يدرك تمام الإدراك أن السلطات الاستعمارية كان هدفها إقامة إمبراطورية واسعة الأطراف، لذلك فما كان منه إلا أن يجمع القبائل عليه لتقوم بالجهاد متناسية الخلافات السابقة فيما بينها، وفي هذا السياق يقول "...ولا يخلصنا ويخرجنا من عهدة الوجوب، وما أتانا به الرسول الطاهر المحبوب، سماع أخبار اجتماع أجناس الكفرة ومظاهرتهم على قتالنا، بالوعد بأنهم يد واحدة على منازلتنا: أن لا نستعد لقتالهم ولا نظهر القوة والعدة والاستعداد لمحاربتهم، إذ المتوقع منهم هو الواقع، وتحصيل للحاصل، أليست الملتان متضادتان إسلاما وكفرا؟ فلو قوتلت شيعة منهم، وبفضل الله انهزمت وانكسرت شوكتها، وقلت حدتها، ما عادت شيعة أخرى لحربنا، لنصرنا ربنا..." (الحادك، ٢٠١٤، ص٦٩).

فكانت النتيجة تلبية الأوساط القبلية نداءات الشيخ الدرقاوي مستعدة لتلبية نداء الجهاد والاستشهاد في سبيل الوطن، غير مكترثة بنداءات المخزن الرامي الى التهدئة، وهكذا تأجج الوضع بعد أن بدأت الأوساط الاستعمارية في اكتساح منطقة الجنوب الشرقي، فأبانت قبائل الجنوب الشرقي، فظهر مولاي احمد السبعي الجهاد بعد توفي الشيخ الدرقاوي، حيث تم اختياره زعيما للجهاد بعدما سار على نفس خطى سلفه سيدي محمد العربي الدرقاوي.

والجدير بالإشارة أنه لم يبدي "...تطاول الى الرئاسة، بل غاية قصده معارضة النصارى"(روس. إ. دان ص. ٢٧٠). إلا أنه سارع الى توحيد القبائل وضمان مساعدتها، لتبدأ العملية الجهادية يوم ١٦ أبريل ١٩٠٨ حيث قصدوا منطقة تسمى بالمنكوب الذي شكل مركزا عسكريا ضم حوالي ٣٠٠ خيال، متقدما "جماعات (المقاومين) نحو المعسكر مهاجمين، وجل المجاهدين رجالة ورئيسهم مولاي أحمد السبعي على بغلة قصيرة... يصيح دونكم دونكم أبواب الجنة مفتوحة. فاذا سمع هدير المدفعية تقعقع ينادي: هذه زكاريم أبواب الجنة تفتح لكم. وهكذا تقدموا حتى احتلوا المركز، وتصدع شمل العدو في اليوم الأول"(الحادك، ٢٠١٤، ص. ٨٧)، محقق النصر حيث خلفت المعركة قتل حوالي ٢٢ جندي و٩٨ جريح، ليتم احتلال المنكوب. فقد شكلت الزاوية الدرقاوية إطارًا للمقاومة القبلية (روس. إ. دان' ص٢٩٤) والتي أبانت عن شراسة كبيرة في الجهاد، إلا أنه ورغم كل ذلك اكتفوا فقط باحتلال المركز ولم يحرصوا على التخلص النهائي من هذا المستعمر الذي منحت له فرصة التفكير في الثأر منهم وإعادة الضربة لهم،" حيث تمكن جيش الاحتلال الفرنسي من استعادة زمام المبادرة، فبعد وصول إمدادات مهمة قرر الجنرال (vigy) ملاحقة المقاومين واقتفاء اثر زعيمهم مولاي احمد السبعي...فشنها عليهم حملة شعواء وصوب عليهم نارا حامية من كل التلال والأودية ...إذ جعلت المدافع تحصدهم حصد الهشيم، فكانت مصيبة عظمى وبلية كبرى على المسلمين... فتراجعت جموع المسلمين أو من بقي منهم...ولم يقفوا إلا في مدينة بوذنيب" (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٨٨).

نتج عن المقاومة التي قادها الدرقاويون بقيادة مولاي احمد السبعي انهزام المقاومة رغم ما أبانت عنه من شراسة، وتتبعه المقاومين من طرف الجنرال الفرنسي الى أماكنهم في بوذنيب حيث هاجمهم بغثة مستغلا قوة الجيش الفرنسي عددا وعدة، فرغم الانعكاسات والخسائر التي موني بها مولاي أحمد السبعي فإن الجنرال فيكي (Vigy) اعد العدة فشكل حوالي اربع فرق عسكرية لتتبع المقاومين في مختلف المناطق، وبمجرد علم الجنرال ومن دار في فلكه بوجود المقاومين في بوذنيب باغثهم بشكل مفاجئ نجم عنه الدخول في معارك طاحنة فقد خلالها الفرنسيون حوالي خمسة عشرة شخصا فيهم اربع ضباط عسكريين، بالإضافة الى عدد كبير من الجرحى. ورغم المقاومة التي ابان عنها الدرقاويون في معركتهم الطاحنة ضد العدو الغاصب فإن المستعمر استطاع الدخول بعدما كانوا "يتساقطون تساقط الفراش على النار في أطراف المدينة وداخلها وعلى أسوارها. والمجاهدون تطير أشلاؤهم وتتفتت أمعائهم وتطوح القنابر برؤوسهم"(بن لحسن، ص٤٠٣).

بعد الذي فعله المستعمر تشتت المقاومة خاصةً أن العديد من الناس خضعوا للاستعمار وقبلوا به بعد الانهزام الذي حصل لمقاومتهم، وأمام ذلك أحس الفرنسيون المغتصبون للأرض والدماء بنشوة النصر وبالابتهاج العظيم، بل وتوجهت أطماعهم الى تافيلالت وزيز بل والى مناطق أخرى.

يمكن القول إن الشيخ مولاي احمد السبعي الدرقاوي تميز بمقاومة دينية حماسية جهادية ضد العدو الكافر بأسلحة بسيطة، وهو الذي يجعلنا نقول إن الحماس والخطط البسيطة،" والقيادة الروحية (المستمدة من الله)، وحدها لا

تستطيع تعويض غياب الأسلحة الحديثة والذخيرة، والتجهيزات الفعالة والانضباط العسكري، والتنظيم المحكم، والتي تتوفر كلها لدى الطرف الفرنسي" (روس. إ. دان، ص. ٢٣٥) فالحماس وحده لا يكفي لتحقيق النصر، بل لا بد من تخيط محكم وأسلحة فعالة وحماس لا متناهي.

أن المتفحص لأطوار هذه المقاومة الدرقاوية يدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن الشيخ الدرقاوي مولاي احمد السبعي، لم يتخذ رؤية واضحة للمواجهات العسكرية مع العدو وهو ما حال وتحقيق النصر، فالخطط الحربية لا تتماشى مع الطرق الحديثة للحرب، حيث كان مولاي احمد السبعي يرسل رسائل الى الفرنسيين يدعوهم فيها الى مغادرة البلاد أو الدخول في الإسلام، وهو ما يتضح من قول قاسم الحادك؛" ...اعلموا أنكم أسأتم الى ضعفاء المسلمين وتسببتم في معاناتهم منذ مجيئكم إلى الصحراء وواصلتم غزوكم لبلادهم، إن المقاتلين المسلمين الشجعان قادمون لتدميركم، اخرجوا من ثكناتكم واختاروا الزمان والمكان المناسبين لملاقاتهم إن كنتم أقوياء..." (الحادك، ٢٠١٤، الهامش، ص. ٩١)، مما يبين أن الدرقاويين كانوا يحاولون السير على نهج الصحابة في القتال زمن الفتوحات الإسلامية عندما كانوا يضعون القبائل بين اختيارين إما الإسلام أو الحرب، وفي هذا الأمر استهانة بقوة العدو العسكرية وتفكير تقليدي، في حين أن الذي كان عليهم فعله هو اللجوء إلى حرب المباغتة أو كما كان يفعل محمد بن عبد الكريم الخطابي حيث يعتبر احد روافد نهوض الحركة الوطنية المغربية الحديثة التي مهدت لظهور وعي جديد يكرس ضرورة النضال بكل الوسائل من اجل التحرر من السيطرة الاستعمارية (مولر، ١٩٩٦، ص. ٢). هذا الرجل الهادئ والبسيط الذي تلقى العلوم الفقهية ليهيئ نفسه للمساهمة في بناء حياة يكتنفها السلم والعدل. قاد أهل الريف الذين لا يعرفون الاستسلام فقد هجم الإسبانيون بـ ١٢٠٠٠ رجل بجبال مرموشة ومن اجل أن يحصل الخطابي على السلاح كان يتسلل الى المعسكرات التي يحاصرونها ولعل ذلك يتضح من قول الأمير. فحينما يقال له من أين تأتي بالسلاح لكي نخوض الحرب، يقول إن السلاح موجود عند العدو وما على المرء إلا أن يسعى لأخذه (العربي، ٢٠٠٢، ص. ٩). وفي هذا الإطار استطاع محمد بن عبد الكريم الخطابي أن ينتصر في" إدهار أوبران" وغنم العديد من الأسلحة قدرتها المصادر التاريخية بحوالي ٤٠٠ بندقية، و٦٠٠٠ خرطوشة، و٤ بنادق رشاشة وبطارية متنقلة وقذائف ومدفع، بالإضافة الى المواد الغذائية والأدوية، في حين أن العدو فقد مئات الجنود فانتشر خبر استرجاع ظهر أبران وجاءت القبائل الريفية المترددة عند محمد تطلب المحاربة بجانبه. هكذا استطاع الزعيم الريفي أن يجعل في خدمته ثلاثة آلاف رجل مستعدين لكل شيء وذلك خلال بضعة أسابيع (العلمي، بدون تاريخ، ص. ٢٢).

فالدرقاويون بزعامة الشيخ مولاي أحمد السبعي، أرادوا أن يضيفوا الطابع الديني الإسلامي على حركة الجهاد، في سبيل تحرير الوطن أو نيل جنات الخلد، باعتبارهم ينطلقون من مرجعية دينية أساسها القران الكريم والسنة النبوية، في حين الذي كان يجب فعله والقيام به هو التخطيط المحكم والجيد ومباغتة العدوا حتى لا يجد فرصة لينظم نفسه فيها، فيتحقق النصر، فإعلامه بالمعركة وإعطائه خيارات يجعل ينظم نفسه ويستعد جيدا خاصة وانه يملك أسلحة متطورة تفوق بكثير أسلحة سكان منطقة الجنوب الشرقي المتميزة بتقليديتها، فاذا اردنا إعطاء بعض الأمثلة، فيمكن أن نقول أن معركة بو ذنيب على سبيل المثل لا الحصر شارك فيها حوالي ٥٠٠٠ من المشاة وحوالي ٧٠٠ من الخيالة، في حين العدوا يملك كتيبة واحدة وبطارية من عيار ٧٥، كما أن معارك بوذنيب خلال شتنبر ١٩٠٨، شارك فيها حوالي ٢٠٠٠ أو ١٥٠٠ رجل وعدد قليل من الخيالة، في حين المستعمر الفرنسي كانت له إمكانيات مهمة تمثلت في ١٣ سرية، كتيبتان، فيلقان من القناصة الأفارقة، فرقة من الكوم، بطاريتان من عيار ٧٥، فيصل مدجج بالرشاشات (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٩٢).

مجمل القول، مقاومة شيوخ الزاوية الدرقاوية انطلقت من مرجعية دينية إسلامية بإمكانيات قليلة وضعيفة وبتخطيط تقليدي، في مقابل عدوا له من الإمكانيات المهمة العسكرية والبشرية ما جعله يحقق النصر، إلا أن الشيخ مولاي احمد السبعي أضاف أمرًا جميلاً وجيدًا وهو أنه دعى القبائل الى الاتحاد لان في الاتحاد قوة، والدليل على ذلك أنه استطاع أن يجمع عليه حوالي ٥٠٠٠ رجل، إلا أن "الانتكاسات المتتالة التي لحقت بعملياته الجهادية كانت لها تداعيات كبيرة، فقد أقنعت قبائل المنطقة باستحالة مواجهة القوات الفرنسية، وانتهت بتدعيم الوجود العسكري الفرنسي في المنطقة واجتياحه مناطق شاسعة من جهة، وألحقت أذى كبيرا بالمستقبل الجهادي للشيخ السبعي وأبانت للقبائل بأن بركة الشيخ الدرقاوي لا يمكنها رد الغزو العسكري الفرنسي من جهة أخرى. وهو ما أدخل المنطقة في مرحلة من السكون توقفت خلالها عن كل عمل جهادي طيلة ثمان سنوات قبل أن تستعيد نشاطها الجهادي سنة ١٩١٦" (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٩٣).

في السياق نفسه، برز المقاوم التوزونيني وهو المزداد عام ١٨٧٣ من قبيلة أقا السوسية، ينتمي الى أسرة فقيرة اضطرت إلى العمل في الفلاحة بمنطقة تافراوت، وبعد لقائه لبعض اتباع زاوية إليغ تأثر بهم وبمذهبهم التصوفي وبنمط عيشهم وبسهولة كسبهم لقوتهم من غير "كد إلا أذكارا بموالاة وحمل السبح الذي هو أخف من حمل القفاف في المساحي"(السوسي، ١٩٦١، ص٢٦٤).

تمكن التوزونيني من الانخراط ماديا ومعنويا لباسا ومظهرا في حياة التصوف، إلا أنه سرعان ما أصبحت لديه طموحات في السلطة وشارك الى جانب احمد الهيبة عام ١٩١٢ مما مكنه من التعرف على الوسط السلطوي، "فازدادت ثقته بنفسه وشحذت طموحاته السياسية، بعدما تبين له أن الهيبة الذي استطاع تزعم هذا الكم الكبير من الناس ليس إلا ذاك الرجل البسيط الوديع السالم للناس، وأن الوصول إلى السلطة لا يتطلب صفات شخصية وخصائص خارقة وهو الذي لا يتعدى تحصيله العلمي حفظ بعض سور القرآن الكريم، فترجع إليه أمانيه القديمة وآماله التي جعلها نصب عينه... وهو يعرف من نفسه من البسالة والإقدام، ورباطة الجأش والاستهانة بإراقة الدماء ما لم يكن له أثر من الهيبة" (الحادك، ٢٠١٤، ٩٦).

بعد رجوع التوزونيني الى سوس دخل في عالم التصوف يجول ويمشي حيث شاء بلباسه وسبحته وأذكاره وبعدما تبين بانه يتطلع الى التدخل في شؤون القبيلة استاء منه شيوخ الزاوية وقرروا طرده فتوجه الى بلاد دادس جنوب تافيلالت حيث أبان عن رغباته ومشاريعه السياسية بعدما تقرب من الدرقاويين متشبعا بمبادئهم وأفكارهم ملتزما الصمت "لا يتكلم حتى بالتحية ويبتعد من العلماء، وله سبحتان في عنقه غليظة ورقيقة"(السوسي، ١٩٦١، ص٢٧٢).

بعدما تبين للتوزونيني أن الظروف مواتية للإعلان عن أفكاره وتوجهاته، وفي إطار أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجدت أفكاره صدى وقبولا من طرف عدد لا يستهان به من الناس العطاويين المنتسبين الى قبائل آيت عطا، لأنهم "يصغون إلى مثل هذا الحديث، لأن باب تافيلالت التي يتخذونها مسرحا لأطماعهم وميدانا لأدوار ظلمهم قد انسد دونهم"(السوسي، ١٩٦١، ص٢٦٦).

مع بداية القرن العشرين وخاصة خلال العقد الثاني منه استطاع التوزونيني "تعبئة قبائل آيت عطا وتحقيق المصالحة بين مختلف فخداتها التي سارعت إلى تناسي أحقادها، وعقد العديد من الهدنات وانتخاب شيخ للحرب يوم ١٧ فبراير ١٩١٨م.

وقد اعتبر الفرنسيون تحالف آيت عطا وآيت مرغاد وتجاوزهم لصراعاتهم حدثا استثنائيا في تاريخ المنطقة بين لهم أنه من غير المفيد الاعتماد كثيرا على التناقضات القبلية للسيطرة على المنطقة في الوقت الذي يعمل فيه التهديد الخارجي أو الأجنبي على خلق الوحدة بين هذه المجموعات القبلية المتصارعة" (الحادك، ٢٠١٤، ص٩٨).

شرع التوزونيني في حركته الدعائية الجهادية، وكان أول ما فكر فيه هو اغتيال الضابط الترجمان (Oustry) الذي كان عنيفا في تعامله مع الناس، "لكن كيف يمكن للتوزونيني تدبير وتنفيذ عملية اغتيال الضابط الفرنسي المحصن في تافيلالت وسط قواته! لا شك أن زعيم الحركة أدرك صعوبة القيام بهذه العملية الخطيرة والحساسة، فأدنى خطأ سيعرض هذه العملية للفشل، وسيضع ادعاءاته موضع شك وريبة أمام أعين الناس التي طال انتظارها للنصر الموعود، وهو الذي يثير بأن الفتح قد قرب طلوعه وأن نصر الله على وشك الظهور. ووعيا منه بخطورة هذه العملية وأن كل هفوة في مسار تنفيذها سيجعل طموحاته وآماله في مهب الريح، أحاط التوزونيني مسلسل التخطيط بسرية تامة، فأسند مهمة تنفيذها لشخص من حراطين يدعى لحو أو عبد الدايم"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٠).

استطاع التوزونيني تهييئ المكلف بتنفيذ العملية على المستوى النفسي بشكل جيد، "ويورد محمد المختار السوسي في المعسول نقلا عن المهدي الناصري تفاصيل هذه العملية قائلا: توجه الحرطاني فاتصل بالحاكم في مكتبه فأعطاه رسالتين فقرأ الأولى وكانت تشتمل على الثناء عليه فاستبشر ثم اشتغل باستخراج الثانية من غلافها، فإذا بالحرطاني يغمد فيه خنجره، فقامت الهيعة من الأعوان ومن زوج الحاكم فتبعوا الحرطاني ثم لم يظفروا به إلا بعد جهد جاهد. وبعد أن قتل وجرح آخرين، رماه طبيب برصاصة قضت عليه بعد أن نطق بالشهادتين جهرا" (الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٠).

بعد هذا الاغتيال تمكن التوزونيني من نشر فكره وأهدافه في الأسواق والمتمثلة في الالتفاف حوله لطرد المستعمر الفرنسي من مجال تافيلالت، وأمام الروح المعنوية التي عادت لناس تافيلالت بعدما اغتيل الضابط الفرنسي، التفت حوله قبائل المنطقة وانضافت إليها قبائل أخرى من المناطق المجاورة، "وخصوصا الزعيم القبلي والديني الدرقاوي الشيخ سيدي علي الهواري الذي انضم إلى حركة المقاومة على رأس قبائل آيت مرغاد وآيت حديدو التي كانت ترى في البعثة لفرنسية المتمركزة في تافيلالت تهديدًا مباشرًا لمصالحها

الاقتصادية. ولمواجهة هذا الغليان الكبير الذي أصبحت تعيشه منطقة الجنوب الشرقي ككل، باشرت القوات الفرنسية بقيادة دوري جولة في تافيلالت بهدف التصدي لهذه الاضطرابات والحد من تداعياتها، وقد عبأ لهذه العملية تسع كتائب ومجموعتين للأجنحة وست رشاشات وفيلق من السباهي وبطارية من عيار ٦٥"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠١).

في الوقت الذي كانت فيه الوحدة المتنقلة تعد العدة لشن هجوم على المقاومين، قامت احدى الفرق العسكرية بالتوغل في غابات النخيل بهدف الالتفاف حول المقاومين والتمكن منهم لكن قدرة الله فالمقاومين الذين كان عددهم لا يتجاوز حوالي ٢٠٠٠ رجل، استطاعوا الانقضاض على العسكر الفرنسي وتكبيده خسائر فادحة مستغلين معرفتهم بالمجال ومستغلين عجز سلطات الاحتلال عن استعمال سلاح المدفعية في وسط غابات النخيل المتميزة أراضيها بالوعورة واستطاعوا بفضل قوتهم والقوة التي منحتهم طبيعة التضاريس والمناخ السائدة بمجالهم الانتصار على العدو الغاشم الذي عاد منكسرا مهزوما مهزوزا يجر ذيول الخيبة حيث قدر عدد القتلى بحوالي ٢٣٨ قتيل، و٦٨ جريح. لذلك فقد شكلت هذه المعركة هزيمة نكراء شنعاء لسلطات الاحتلال الفرنسي.

"وقد شكلت معركة البطحاء، التي انتهت بانتصار قوات التوزونيني ونجاحها في تكبيد القوات الفرنسية خسائر كبيرة بشرية ومادية، فرصة لإعادة الاعتبار للحركة الدرقاوية الجهادية التي أرسى دعائمها الشيخ سيدي محمد العربي ومولاي أحمد أو الحسن السبعي، والتي تراجعت حدتها بعد الانتكاسات التي مني بها هذا التيار الجهادي المرتكز على الخطاب الديني الصوفي خصوصا بعد سقوط بوذنيب، مما أفسح المجال لحركات المقاومة التي تزعمها قواد مخزنيون وقبليون خبروا الحروب المخزنية والقبلية وراكموا تجارب عسكرية أهلتهم لتحقيق العديد من الإنجازات العسكرية أمثال موحى أوحمو وموحى وسعيد والتوزونيني والنكادي..."(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٢).

انتصار التوزونيني يبين شدة ذكائه في استغلال السمعة التي كانت تحظى بها الزاوية الدرقاوية والنفوذ الروحي للرجال الدرقاويين تحقيق الانتصار مستغلا حماس القبائل واتجاهها صوب الحرية والاستقلال ولعل ذلك ما يفسر إقبال الناس عليه، بل وأصبح يلقب بمولاي محمد.

"استطاعت حركة المقاومة بعد انتصارها في معركة كاوز إرغام ما تبقى من الوحدة المتنقلة بقيادة دوري على التراجع والانسحاب من المنطقة والتحصن في منطقة البرج في انتظار قدوم الإمدادات العسكرية. وقد أدرك الجنرال ليوطي الخطوة التي تشكلها تلك الأحداث على مستقبل الفرنسيين في المنطقة، وعبر عن تخوفه من اتساع رقعتها وتحولها إلى ثورة شاملة في كل الجنوب الشرقي، فقرر تعبئة أقصى ما يمكن من القوات لوضع حد لهذه الحركة. وبغية تسهيل عمليات تموين المنطقة وضمان سرعتها وفعاليتها قرر إلحاق المنطقة بجهة مكناس وجعلها تحت قيادة الجنرال بويميرو الذي تكلف بالإشراف على العمليات العسكرية لتحرير مركز تيغمرت المحاصر"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٣).

خاتِمَةٌ

يستنتج مما سبق أن مقاومة أهل الجنوب الشرقي شكلت حدثًا بارزًا وحاسمًا في التاريخ المغربي المعاصر، فهي حدث يبين شدة التلاحم بين الشعب والعرش، جاءت نتيجة لمجموعة من العوامل المتمثلة في الاستغلال، والتي ساهمت من دون شك في الدفع بشيوخ الزاوية الدرقاوية سواء سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الزروالي أو مولاي الشيخ احمد السبعي أو التوزونيني إلى الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال، منتزعين شرعية وأحقية هذه المقاومة التي أبانت عنها هذه الزاوية التي مزجت بين الأسلوب العسكري والأسلوب الديني الجهادي، رغم محدوديتها فهي تعتبر بحق نموذج للزاوية التي لعبت عدة أدوار دينية اجتماعية وأيضًا سياسية، لما اتسمت به حركاتها الجهادية من قوة متمسكين بالعروة الوثقى بالدين الإسلامي، معتبرين الموت في سبيل الوطن جهاد يدخل للجنة وإنها لحقيقة عظمى أن العديد من هؤلاء المقاومين من مختلف ربوع المغرب من شماله وجنوبه من شرقه وغربه أبانوا عن مقاومات وليست مقاومة واحدة تبين أهمية التضحية في سبيل الوطن، الأرض التي تشكل الأم الثانية ومَنْ منا يستطيع العيش بدون أمه، لذلك تسارعت أصوات الجهاد بدعوة من الزاوية الدرقاوية ومن دار في فلكها من الاتباع الذين كانوا يوجهون الناس وينصحونهم بخطورة المستعمر وبضرورة بذل الجهود لتحرير الوطن والإنسان المغربي عامةً من جبروت الاستعمار.

المصادر والمراجع:

١-باللغة العربية:

- ثريا برادة. الجيش المغربي وتطوره في القرن ١٩، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة رسائل وطروحات رقم٣٧.
- نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب: الإسلام السياسي في المجتمع المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٣.
- عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا، سلا ١٩٨٩.
- قاسم الحادك، جوانب من مواقف الزوايا الدرقاوية من الاحتلال الفرنسي ١٨٨١-١٩٣٢، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى ٢٠١٤.
- روس. إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية ١٨٨١-١٩١٢، ترجمة احمد بو حسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، منشورات زاوية، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، الطبعة ٢٠٠٦.
- بوكبوط محمد، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار ١٨٣٠-١٩٣٨ صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت الى واد نون، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٥.
- برحاب عكاشة، فكيك باب المغرب، مراسلات مختارة مغربية وفرنسية، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠٠٣.
- ورولف ديتر كونو دستر مولر، الغازات السامة بالمغرب، عبد الكريم في مواجهة السلاح الكميائي، ترجمة عبد العالي الأمراني الطبعة الأولى، الرباط ١٩٩٦.
- المساري محمد العربي، محمد عبد الكريم الخطابي من القبيلة الى الوطن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، البيضاء ٢٠٠٢.
- محمد العلمي، زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، منشورات الأطلسي، الطبعة الثانية، البيضاء، بدون تاريخ.

٢-باللغة الفرنسية:

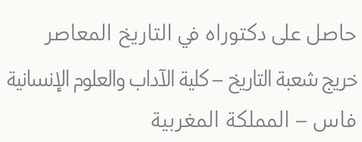
- Spillmann Lieutenant, Etude inédite sur Les Confréries religieuses au Maroc, C.H.E.A.M.
- Michaux Bellaire, Essai sur L'histoire des confréries Marocaines, in Hesperise, 1921. Hammoudi A, sainteté Pouvoir et société, Annales, Economies, Sociétés et Civilisation, n 34,
- Laroui A, Les origines sociales et culturelles du nationlisme marocain : 1830-1912, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 1993.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].



تعالق الدين والدنيا في التجربة السياسية المغربية
أحمد الهيبة ماء العينين نموذجًا





د. عبد السلام بوطافي
حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر
خريج شعبة التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

تمارس التجربة السياسية التي خاضها رجل الدين أحمد الهيبة ماء العينين إغواء فاتنا على كل دارس مفتون بحدود العلاقة بين الديني/ الروحي والعمل السياسي في بناء الدولة المغربية، وهي المعادلة التي تظل حاضرة في كل التجارب السياسية المغربية، منذ قيام دولة الأدارسة. وفي هذه التجربة موضوع الدراسة، حيث امتزجت هذه الثنائية البديعة، بانصهار الروحي الشفاف، والمادي الصلد، لحركة صوفية طمحت لتأسيس دولة، واتخذ قائدها الروحي جميع شارات السلطنة. ولكي نلم ببعض تفاصيل هذه التجربة، ارتأينا أن نضع عنها هذه الدراسة، للاقتراب من تجربة حاولت أن تتجاوز معضلة ارتباط وامتزاج الديني بالسياسي، وإيجاد حل لهذه المعادلة العويصة عبر فك الارتباط فيما بينهما. وهي تجربة كاد أن يكتب لها النجاح في الإتيان بسلالة جديدة لحكم المغرب، لولا حزم الجنرال ليوطي في التعامل معها حفاظًا على السلالة الشرعية، ليقينه أن التاريخ المغربي يتجدد بشكل دوري انطلاقا من الجنوب. والواقع أننا ما كنا لنفكر في وضع هذه الدراسة إلا بسبب انشغالنا بدور الماضي في صياغة وبلورة الحاضر، وفي تحوله أحيانا إلى إيديولوجيا معها يتحول التاريخ إلى صراع حول المعتقد "السنة والشيعة" أو الجغرافيا "هناك نماذج كثيرة: الصين وتايوان وتركستان الشرقية..."، لتبرير أي الخصمين أحق أن يصدق في دعواه. إذن فهذه التجربة التاريخية، تستمد راهنيتها، من زاوية رؤياي كباحث مغربي، من إمكانية المحاججة بسلوك قائدها السياسي في الدفاع على مغربية الصحراء الغربية المتنازع عليها الآن بين المغرب وجبهة البوليساريو الانفصالية المدعومة من طرف الجزائر، فهذه المنطقة لم يتحقق وجودها التاريخي إلا في إطار دولة المغرب من المرابطين إلى العلويين. والرجل بداهة كان يعتبر نفسه مغربيا حين انطلق من الصحراء المغربية/ الغربية إلى مراكش حيث واجه الجيش الفرنسي بقيادة مانجان في معركة سيدي بوعثمان "٠٦ شتنبر ١٩١٢"، ولم ينطلق شرقًا نحو الأرض التي انتزعها الاستعمار الفرنسي من الخلافة العثمانية منذ سنة ١٨٣٠. ثم ماذا لو دفعنا بفرضية نجاح هذه التجربة الدينية السياسية، ولم يتصد لها المستعمر، أكان المغرب سيعاني من تجربة مريرة منذرة بتقزيمه، وتمزيق أطرافه شر تمزيق؟ رغم أنه في التاريخ لا مجال للفرضيات. ويبقى السؤال الجوهري الذي تثيره هذه الدراسة وتسعى للإجابة عنه، بعيدًا عن دور المستعمر، يتمثل في البحث عن الأسباب والعوامل الكامنة في طبيعة التجربة، والمرتبطة ببنيتها، والتي قادتها على طريق الفشل والنكوص.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٢ أغسطس ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ٣٠ سبتمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

السلطة؛ الزاوية؛ المؤسسة الدينية؛ الدولة؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312296



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام بوطافي، "تعالق الدين والدنيا في التجربة السياسية المغربية: أحمد الهيبة ماء العينين نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٧٥ – ١٨١.

Corresponding author: abdesselamb5@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

تقدم تجربة الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين "السلطان الأزرق"[١] نموذجًا لامتزاج الديني بالدنيوي، فقد انتقل الشيخ بالزاوية الصوفية التي وجد نفسه على رأسها من العمل الديني الدعوي، أي من طور الدعاية والتأثير، إلى طور التنظيم والعمل السياسي المباشر، باستغلاله الشائعات والأخبار الرائجة عن أحداث فاس ١٩١١، لإعادة الهيبة لحركة والده المنطفئة، فأشاع خبر وفاة السلطان المولى عبد الحفيظ، ومنع إقامة صلاة الجمعة باسمه بالمسجد الأعظم بتزنيت، وأعلن نفسه إمام الزمان، أي المهدي المنتظر، وقائد الجهاد. وبعد أسبوع من هذا دخل مسجد تزنيت متخذًا جميع شارات السلطنة الشريفة "المظل الإمبراطوري والعرش المرصع بالذهب"[٢]، ضافيًا على نفسه في نفس الوقت نفحة دينية/ غيبية بادعائه المهدوية.

انطلقت حركة الهيبة في تحولها من الديني إلى الدنيوي/ من زاوية إلى دولة، بعد أن استوفت الطور الأول، المميز بالدعاية والتبشير وحشد الأنصار والحلفاء، لتدخل طور العمل المباشر. تنامت الحركة بشكل تصاعدي، وتضخمت بالأعداد الهائلة المنظمة إليها. وكانت في كل أطوارها مدينة لتكوينه الشخصي وتركيبته النفسية، فوسمها بميسمه الخاص، حيث نلامس تجاور الديني والدنيوي، واكتنافهما ببعضهما.

والملاحظ أن هذا المعطى الأخير، أي وجود شخصية دينية على رأسها، كان سببًا في فشل الحركة في الانتقال من الديني إلى الدنيوي، ففي جميع الحركات التي اعتمدت الدين في إقامة دولتها إلا ونجد السياسي يستغل ويستتبع الديني له، دليلنا في ذلك صعود السعديين أو أشراف تكمدارت على أكتاف الطريقة الجزولية، والحركة التي لم تجد طريقة صوفية تعتليها لتحقيق أغراضها، نجدها تلجأ إلى تبني إيديولوجيا الشرف "العلويون"، بزعم الانتماء لآل البيت، وتلك التي لم تستطع مخاتلة أصلها البربري الصريح، فقد كانت تنهج سياسة التقرب من الشرفاء بمنحهم عددا من الامتيازات، وإحاطتهم بالتوقير والتشريف، كما فعل المرينيون. فلماذا نجح هؤلاء وفشل أولئك في بناء دولتهم؟ أيكمن داء عطبها في جمعها بين الديني والدنيوي في وحدة صلبة عصية على الانفصال؟ وكون ذلك راجع لطبيعتها التكوينية[٣]، وليس لأمر طارئ فرضته شروط تاريخية محددة؟ لهذا وجدت صعوبة في التخلص من الديني حين أصبح يشكل عبئًا على السياسي؟ هذه هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في هذه الدراسة.

أولاً: مدارج التحول من الديني إلى الدنيوي

من نافل القول إن رغبة الهيبة في السلطة، والبحث عن مخرج لتحقيقها، يعتبر أحد أبرز العوامل، التي يمكن أن نستدل بها على التخطيط لتحقيق طموحه السياسي بالانتقال بالزاوية من الاشتغال الديني المحض إلى الاشتغال السياسي المحض. فما هي أهم سمات التخطيط في ذلك؟ بالرجوع إلى الاستقراء الكرونولوجي لتحول الزاوية المؤسسة الدينية إلى مؤسسة الدولة استنادًا على الصحافة الفرنسية، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل مع تبيان معالم التخطيط والتصميم خلال كل مرحلة:

١/١-المرحلة الأولى (ماي /يونيو ١٩١٢):

تمكن خلالها من فرض نفوذه على سوس[٤] والسفح الجنوبي للأطلس الغربي، باستثناء تازروالت وماسة[٥] وحاحة[٦] المناطق الخاضعة للقايد أنفلوس، ونفس الشئ يمكن أن نقوله عن القبائل الخاضعة لنفوذ المتوكي، التي ظلت بمنآى عن حمى الزاوية المتطلعة للعب دور سياسي مركزي. وخلال هذه المرحلة بدأت الزاوية تنحو منحى جديدًا بإضفاء طابع الدولة عليها، وإن كان الأمر لا يزال في مرحلته الجنينية، فقد بويع سلطانا على تارودانت من طرف قايدها يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١٩١٢[٧].

٢/١-المرحلة الثانية (منتصف يوليوز/ منتصف غشت ١٩١٢):

اندفعت الزاوية في دفق التحافها بالسياسي نحو الشمال حتى مراكش، التي دخلها الهيبة دون حرب تذكر، ويرجح دانييل ريفي ذلك إلى المساومات البارعة[٨]، التي أجراها مع كبار القياد، في حين أرجعت الجرائد الفرنسية عجز القياد على وقف تنامي الثورة وزحفها نحو الشمال على ضغط الجماهير الشعبية، التي أرغمت كل من الكندافي وعيسى بن عمر وأنفلوس على الوقوف مكتوفي الأيدي أمام موجة الحركة الجهادية الصاعدة، أما كبار الشخصيات الأرستقراطية والمخزنية والعسكرية فقد أجبرت على الانضمام للثورة[٩] الآخذة في التحول الكبير بدخول قائدها مراكش، وخلال هذه المرحلة فقدت الزاوية أهم خصائصها بتحولها إلى دولة.

٣/١-المرحلة الثالثة (١٥ غشت/ ٥ شتنبر ١٩١٢):

بلغت الزاوية ذروة نشاطها السياسي خلال هذه المرحلة، ففي أجواء الليالي الرمضانية المضمخة بالنفحات الروحية، وصل صداها إلى أبعد مدى، مبشرة بدولة دينية آخذة في التشكل على

هيئة مؤسسية مع استقرار الهيبة بمراكش. فرض الهيبة، خلال هذه المرحلة، نفسه كسلطان محرر في كل المناطق الساحلية إلى حدود مازاكان باستثناء المناطق الساحلية الخاضعة للقايد عيسى بن عمر[١٠]، وبتادلة تعبأت القبائل لتمهيد الطريق له نحو فاس، أما بنو مطير فقد اتفقوا مع موحى أوحمو الزياني لشن هجوم على مكناس، وبالشاوية الخاضعة للمخزن حمل أهلها السلاح[١١]، يملأهم يقين راسخ بأن الوقت قد حان لمواجهة المحتل.

إن هذه المراحل الثلاث تبرز أن حركة الجهاد بقيادة أحمد الهيبة كانت تخضع منذ البداية لمنطق التصميم والتخطيط والتدرج، فأهدافها في الانتقال بالزاوية من مؤسسة دينية إلى مؤسسة سياسية "دولة"، كانت واضحة[١٢]، مستغلة في ذلك النسق الاجتماعي والسياسي الأشبه بالنظام الفيودالي الذي ساد الجنوب المغربي[١٣].

ثانيًا: الرصيد البشري آفاقه ومعيقاته في تحقيق التحول

باستنطاق مكونات العناصر الفاعلة في تحول الزاوية من الديني للدنيوي، يتضح أنها مزيج من عدة مكونات، من حرفيين وطوائف دينية وروابط مهنية "أصحاب الدكاكين والحرفيين التقليديين"[١٤]، فالمكون الشعبي يظل حاضرا بقوة، فأخلص الناس إيمانا بأهداف العمل السياسي للزاوية في تحولها لدولة بالجنوب من الفاعلين فيها، نجد المريدين، الذين تسميهم المصادر الفرنسية بالطلبة[١٥]، وبعض القياد كالكلولي[١٦] والتريعي[١٧]، أما التجار فقد اكتفوا في أحسن الأحوال بموقف المنتظر المتردد.

فقد اتخذ كبار تجار فاس موقف المترقب، أما بمراكش حيث قام الهيبة بمصادرة منازلهم لإيواء جنده، فقد كتموا مشاعرهم في صدورهم إزاء الزاوية، والوحيدون الذين أبدوا موقفًا عدائيًا واضحًا، كانوا كبار تجار الدار البيضاء باقتراحهم قطع الطريق على محلة مربيه ربه، المعسكرة بالرحامنة، بواسطة غارة خاطفة لخيالة عبدة انطلاقًا من آسفي، تحت قيادة عيسى بن عمر، ويرجع دانييل ريفي موقفهم هذا إلى تخوفهم من وقوع مراكش تحت طائلة السلب والنهب تمامًا مثل ما حدث للدار البيضاء سنة١٩٠٧[١٨].

إن خذلان الزاوية المتطلعة للعب دور سياسي من طرف فاعليها المرفهين سوف يتعمق بشكل جلي بعد هزيمة سيدي بوعثمان، فقد تخلى عنها تقريبا جميع كبار قادتها "أعضاء المخزن الذي أسسه الهيبة"، الذين فروا مع زمرة من الصحراويين ليستقروا بسوس إلى الأبد. عبر الناجون من الموت، من أهل الصحراء وسوس، جبال الأطلس، بعد أن حظر عليهم الإقامة بمراكش[١٩]. والملاحظ أن التعامل اللين للقايد عمر السكتاني، الذي لم يهتبل هزيمة سيدي بوعثمان لمطاردة فلول الزاوية تدعم وجهة النظر في كون النخبة المغربية لم يتجاوز دعمها للزاوية الراغبة في التحول لمؤسسة سياسية نطاق العواطف والمشاعر، فالقايد السكتاني لم يجهز على جندها في محنتهم مخليا سبيلهم.

هناك فاعل آخر غالبًا ما يتم التغاضي عنه، ويتمثل في هذا العنصر المتحمس درجة العصاب والهذيان، من الأطفال والنساء والشيوخ لاعتقادهم المنقطع النظير بقداسة الزاوية. وهو الفاعل الذي احترق بلهيب تحولها السياسي، لقد ذهبت معركة سيدي بوعثمان، التي وضعت حدا لتطلعات الزاوية، معلنة موتها وتحولها لمجرد حركة للجهاد حتى وفاته سنة ١٩١٩ بألفي شهيد. كانت مذبحة عظيمة، تمت تحت شمس الزوال اللاهبة، للحفاة العراة، الذين لا يملكون من الوطن إلا حبه الذي يجري في عروقهم. ففي صبيحة ٥ شتنبر ١٩١٢، اشتبكت القوات الفرنسية المكونة من أربع مئة جندي بقيادة مانجان بقوات الهيبة بسيدي بوعثمان.

في هذه المعركة، كانت قوات الهيبة رغم توفرها على طابور وعدد قليل من المدافع واثني عشر ألف من المشاة والفرسان، إلا أنها لم تكن توحي بأنها قوات منظمة، لقد كانت عبارة عن موسم[٢٠] نصفه من الأطفال والشيوخ[٢١]، أغلبهم من العزل غير المسلحين إلا بحبال لتقييد الرومي، ولم يكن سلاح الفرسان سوى استعراض فخم لألعاب الفروسية، تلاشت مع أولى طلقات المدفعية والرشاشات الفرنسية الثمانية، أما باقي قوات الهيبة فقد اندحرت وتراجعت تحت حماس واندفاع الخيالة من السنغاليين والكوم[٢٢]. وبذلك يكون الرصيد البشري لهذه التجربة السياسية ذات الأسس الدينية في بناء دولتها، قد وقف عائقا أمام تحقيق الانتقال والتحول من الديني إلى الدنيوي.

ثالثًا: التمزق بين الديني والدنيوي/ العلماني ودوره في فشل التحول

من الملاحظات المسجلة حول الزاوية الدولة تمزقها بين العلماني والغيبي، وظل هذا الأخير شديد السطوة عليها، أسيرة له، معها لم تنفع محاولات الهيبة في الأخذ بالعلماني على المستوى السياسي، الذي لم يخل من ثورية، إذ سعى إلى تغيير الهيكل السياسي، بتخليه عن كل رموز العهد السابق، أحرق

النزالات، وألغى الضرائب غير الشرعية، ولم يعترف بالظهائر الموقعة على عهدي المولى عبد العزيز و المولى عبد الحفيظ، في حين كان أقل علمانية على مستوى التخطيط العسكري، فقد تشكلت غالبية قواته العسكرية من الفلاحين والمعدمين والمساكين، وحتى عسكريوه فإن تكوينهم العسكري كان عتيقًا لم يخرج عن التكوين الذي تلقاه الجيش المغربي على عهد المولى الحسن الأول.

فالتعلق غير الواعي والمتذبذب بالعلماني للزاوية جعلها شديدة الهشاشة والعطب، تعمقت جراحها بتعلقها بالغيبي المطلق، وفي استنادها على كاريزما القادة المهددة بالعطب، المعرضين لفقدان هيبتهم ما أن يتم تحول الزاوية إلى دولة، ومن أسباب الضعف الكامنة في أعماق تحولها من زاوية إلى دولة قيامها على البركة، فقد كانت مطالبة باستمرار باجترار المعجزات، مما جعلها موضع سخرية واستهزاء المستعمر[٢٣]، فالتعلق بالغيبي والمطلق لعب فعلاً دورًا كبيرًا في منح التحول زخما وتألقا في بداياته، لقد حرر أعماق الشعب المغربي المصدوم بالاجتياح الفرنسي، تعلقت الأحلام بأسطورة السلطان المخلص، أسطورة تشبث بها الشعب المغربي كتعويض نفسي عن القهر والبؤس وسوء الحال المتعذر تجاوزه باتخاذ الأسباب المادية للتأخر التاريخي القاهر إزاء الخصم، لكن هذا التعلق الغيبي سرعان ما تحول إلى عبء ثقيل على الزاوية حينما همت بالتحول إلى دولة، وقد كان الهيبة على وعي بهذه الخطورة لذلك ظل ملتبسا في تعامله مع الأتباع، وتعاظم هذا العبء عند الهزائم والانكسارات، فتعرضت بركة الهيبة لهزات عميقة دفعت به إلى تجنب الناس، والانعزال بعيدا عن الأعين، تاركًا لأتباعه الحرية في تأول الأحداث ووضع التفسيرات[٢٤].

إن انغراس الزاوية الدولة في الغيبي، وضعها على حافة الفشل، رغم أخذها بالأسباب المادية لإقناع الجاحدين والمتشككين، وأحيانًا بشكل واع، وارتباطها بالدنيوي في أكثر تجلياته وواقعيته المفرطة. فتحول الزاوية على عهد الهيبة من زاوية إلى دولة بيروقراطية بمراكش جعلها مهددة بالاندثار، وكان الرجل على وعي بخطورة هذه المرحلة الانتقالية. لقد كان حريصا على الحفاظ على شهر العسل الوهمي للثنائي المستحيل: "الواقعي والمثالي"[٢٥]، يتبين ذلك في تردده في اتخاذ شارات المخزن/السلطان بشكل واضح لا لبس فيه، فقد توجه إلى العالم الخارجي كسلطان، وفي نفس الوقت حرص على التخلص تماما من مصطلحات ومفردات القاموس المخزني في تعامله مع شيوخ القبائل[٢٦]. حرص على استخدام مصطلحات ومفاهيم منحوتة من قاموس الإخاء والحب، وهي مصطلحات غريبة عن القاموس المخزني، قريبة من الأدبيات الصوفية، كما عامل دائرته الضيقة كأمير وليس كسلطان.

عانت الزاوية في زمنها العلماني وهي تتحول إلى دولة من عدم التحاق النخبة العسكرية والمثقفة "العالمة" بها بمراكش، ولا يمكن تفسير تلكئها إلا بلعبها على الحبلين، فقد كانت تكتفي بالمحاباة والتعاطف، تحت ضغط الجماهير، وفي نفس الوقت لم تكن مستعدة للمجازفة بالورقة الفرنسية. هنا يطرح علينا سؤال لماذا لم يمارس مخزن الهيبة جاذبيته على النخبة الحضرية، واكتفى بالمنخرطين في سلك الجندية من ذوي الرتب الصغيرة، ومن أتباع الطرقية، وأبدى كبار التجار، إزاء الزاوية المتطلعة للتحول إلى دولة، نفورهم أو كراهيتهم أو على الأقل انطووا على مشاعرهم المكبوتة[٢٧]. في رأينا أن عجز الزاوية عن التحول إلى دولة، واجتياز المرحلة الانتقالية بين الزاوية والدولة بنجاح وتحقيق أهدافها في الحرية والتحرر يرجع إلى عجزها عن التوفيق بين العلماني/ الإنساني والميتافيزيقي/ الغيبي، فالهيبة مثلا كان في تعاملاته لا يحتكم إلا إلى السيف/ السلاح الذي لم يتقن أبجدياته الحديثة، فخانه في معركة سيدي بوعثمان، ولم يعترف بأهمية التفاوض مع الخصم لأنه لم يكن سلطانا، ولأن التفاوض مع الجيوش الغازية يعد خيانة في أعين المريدين[٢٨] المتعلقين بمثاليات الدين وقداسته.

كانت المشاعر الدينية واضحة كل الوضوح عند الأتباع الحركيين المعول عليهم تحقيق التحول والانتقال من الديني المحض إلى السياسي المحض، لوجود شخصية دينية على رأسها، تحيط بها هالة من الوقار لانتمائه الشريف، وخضوع زاوية كبيرة لنفوذه الروحي[٢٩]، ولادعائه المهدوية. تنامت هذه المشاعر في تسام مطلق مع طبيعة الذهنية الخرافية السائدة يومئذ، ثم تعززت مع دخول المخزن في مفاوضات مع الجيش الغازي، الأمر الذي يعد خيانة من الناحية النفسية[٣٠]، فانعكس ذلك على طبيعة أنصاره، الذين لم يكونوا إلا من المساكين والمعدمين والفقراء، في الوقت الذي اتخذت النخبة العسكرية والمخزنية وكبار التجار موقف الممتعض والمرتقب، باستثناء جزء من النخبة العالمة[٣١]، وكانت هذه الذهنية الخرافية سببًا في الانهيار السريع لحركته عند أول صدام مع قوات الاحتلال الفرنسي، في معركة سيدي بوعثمان، التي على إثرها تلاشت الجموع وتبخرت، وكان أول المتخلين عنه "مخزنه". الأمر الذي جعل التمزق بين العلماني والديني يضع حدا لتجربة الهيبة السياسية، ويبقى السؤال: هل كان انهيار هذه التجربة نتيجة

لتحول مؤسسة دينية إلى مؤسسة سياسية؟ كما يذهب إلى ذلك دانييل ريفي[٣٢]، والحقيقة أنه يتحدث عن فشل المقاومة وليس بناء الدولة، التي هي موضوع بحثنا، أم السبب هو سيادة الذهنية الخرافية بين صفوف أنصاره، البعيدة كل البعد عن جوهر الإسلام في نقائه وتجرده؟

رابعًا: من فشل التحول إلى النكوص

رزح المغاربة تحت وطأة مشاعر الإحساس بالقهر والعنت، فخلال صيف ١٩١٢، عانت أغلبية الشعب المغربي من انهيار نفسي عميق، وانتابته حالة من حالات فقدان الهوية، وانهيار منظومة القيم، فأصبح الجميع أمام أزمة أخلاقية ووجودية بالدرجة الأولى. غمرت موجة اليأس حتى كبار الشخصيات، من النخبة المثقفة/ العالمة والتجارية، فرسالة أحد كبار الملاك[٣٣]، التي اعترضت مصلحة الاستعلامات الاستعمارية طريقها، قبل أن تصل مجلة الحق، تنضح بالمرارة، كانت صرخة موجعة عاجزة. ونفس الرؤى القيامية نجدها عند المختار السوسي[٣٤]، وفي أسفل المجتمع سيطرت حالة من القلق الجماعي، غذتها الثقافة الشعبية السائدة عن دنو ساعة الفناء، وتعمقت هذه المشاعر بالاختلالات التي كان يمور بها المجتمع المغربي.

حاول الهيبة استغلال هذا اليأس الذي سيطر على المغاربة بمنحهم أملا في قدرته على صناعة التحول، بضخ دماء جديدة في شرايين المجتمع عبر تجاوز مأزق سيطرة الغيبي على الدولة الخارجة من رحم مؤسسة دينية/ الزاوية بإحداث انقلاب مجتمعي باستغلاله توقف دوران النخبة لكسب الساخطين إلى جانبها، كما أي حركة سياسية ثورية طامحة إلى تحقيق التغيير[٣٥]، فكان أولى الأعمال التي باشرها قيامه بعزل قياد المخزن وتعويضهم بآخرين من اختيار الجماعات، التي كان يؤسسها في كل منطقة أخضعها لنفوذه[٣٦]، إلا أن هذا لم يكن كافيا لتحقيق الانتقال المنشود، وكان عطبه وعجزه عن الارتقاء بالمؤسسة الدينية/ الزاوية إلى الدولة، نتيجة لعدم قدرته على استمالة كبار العسكريين، مكتفيا بأصحاب الرتب الدنيا، وبمن هم تحت السلم الاجتماعي من الأطفال والشيوخ والنساء، ممن تعوزهم التجربة والخبرة، والشيخ نفسه كانت المرحلة تتجاوز قدراته الإنسانية، فلم يمتلك القدرات الذهنية للتجار أو الخبرة الدبلوماسية للسلطان في التفاوض، وهي مرتكزات لا غنى عنها لتحقيق الانتقال والتحول السياسي، أي الثورة بمفهوم برينتن كرين[٣٧]، وفوق هذا فقد كان رجل دين ولم يكن رجل سلاح[٣٨]، وجد نفسه مجبرًا على حمل الإرث الثقيل لعائلته بحكم الدم والانتساب البيولوجي، وقد ساعدته ثقافته الدينية على أن يكتسب إحدى صفات القائد السياسي في قدرته على الحشد واستمالة الأتباع والأنصار في البداية، لكن مع دخول طور العمل المباشر والمواجهات الدموية، وجد صعوبة، تمامًا كرجال الكلمات، في التأقلم مع العمل الشاق، بل ومثلهم لا يصلح له[٣٩]، ومع فشل الشيخ ، في فك الارتباط بين الديني والدنيوي أو على الأقل التوفيق بينهما، ومخاتلة الشروط التاريخية الضاغطة، فشل في تحقيق طموحه السياسي، فانكفأ عائدا نحو الجنوب، وظل منزويا بأكردوس إلى أن توفاه الأجل المحتوم بتاريخ: ٢٧ يونيو ١٨٧٧، معلنا في نفس الوقت موت التجربة السياسية المعتمدة على الإيديولوجيا الدينية في بناء الدولة المغربية، على شاكلة تجارب القرون الوسطى، مع بروز وطغيان شروط وسياقات دولية جديدة/قوى خارجية، وتحكمها في المحلي.

خاتمةٌ

رغم المحاولات المتسمة بالفرادة والجدة لهذه التجربة في التوفيق بين المبادئ الدينية والمنافع الدنيوية، ومعانقتها للعلماني في آخر محصلاته[٤٠]، إلا أنها فشلت في تحقيق التحول من الديني إلى الدنيوي، وبالتالي بناء دولتها الخاصة بها، وإعادة تجربة المرابطين من جديد، واستعادة إرثهم العظيم[٤١]، الأمر الذي لم تكن الشروط الخارجية، المتمثلة في المد الاستعماري الكاسح، لتسمح به، المعطى الذي لم نبسط له هذه الدراسة، بل ما يهمنا نحن هنا هو تحليل وتفكيك التحول في حد ذاته، سواء أكتب لها الاستمرارية أو الاضمحلال، ونرى أن العائق في تحقيق التحول عند تفكيكها، يكمن في كونها ظلت صناعة كلاسيكية، وإن اعترتها بعض الفرادة والجدة، لأنها ببساطة كانت ذات حمولة إيديولوجية جهادية مستندة على رؤية تقسم العالم إلى جزأين متضادين: دار الإسلام ودار الكفر. فهي لم تكن حركة مضادة للمخزن، سيبة يتولد من رحمها محاولة لبروز سلالة جديدة، والملاحظ أنها على هذا المستوى لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذا الجانب كل الوضوح، فقد اعتراها التردد والتقية، اعتمدت خطابين مختلفين، فقد خاطب الشيخ العالم الخارجي وتعامل معه كسلطان، وخاطب وتعامل مع أتباعه وأنصاره كشيخ، وظل حتى وهو يتبنى جميع شارات السلطنة، يروج، في نفس الوقت، بين أصحابه أنه مجرد خليفة لأحد أبناء تافيلالت المنحدر من صلب نفس السلالة العلوية الحاكمة[٤٢]، وبتبنيه لهذه الضبابية، وابتعاده عن الوضوح، جعل من نفسه عائقًا لتحقيق التحول، ثم تعمق الفشل والعطب بادعائه

للمهدوية، واعدًا الأتباع بمنحهم القدرة على امتلاك أجساد فوق بشرية لا تتأثر بالرصاص وقذائف الكفار، جاعلاً منه عائقًا، في تحقيق التحول، بتوجيههم للتطلع نحو السماء، عوض الاعتماد على قدراتهم الخاصة.

خلاصة القول فإن تعالق الديني بالدنيوي، والتباسهما، واكتناف الواحد بالآخر، والعجز عن اتخاذ الديني مجرد وسيلة لتبرير انزلاقات السياسي لتحقيق أغراضه الدنيوية، كان وراء الفشل في تحقيق التحول، المتجلي في بناء السلطة الزمنية.

الملاحق



صورة رقم (١)

مبايعة المجاهد أحمد الهيبة سلطانًا على المغرب



صورة رقم (٢)

الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين

قائد حركة الجهاد بالجنوب المغربي



صورة رقم (٣)

أحمد الهيبة وهو يعلن الجهاد ضد الاستعمار،

رسم في الصحيفة الفرنسية

لوبوتي جورنال في عددها ١١٣٧ بتاريخ ١ سبتمبر ١٩١٢



صورة رقم (٤)

زاوية الشيخ ماء العينين، والد أحمد الهيبة،

بسمارة، بنيت سنة ١٨٩٨.

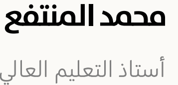
الاحالات المرجعية:

(١) هكذا كانت تسميه الصحافة الفرنسية، التي كانت تكتب في الخط الموازي للأحداث.
(2) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc 1912-1925**, Tome 1, Editions L' Harmattan, Paris, 1988, p, 136.
(٣) هناك بعض التماثل بين تجربة الزاوية الدلائية وتجربة أحمد الهيبة، وإن كانت الأولى بلغت مبلغًا كبيرًا من النضج، مقارنة مع الثانية، وسيطرة على مناطق واسعة، وربطت علاقات مع الخارج، ولكن في النهاية كان مصيرها الاندثار، بسبب عجزها على توحيد كامل التراب المغربي، وعدم قدرتها على الوقوف في وجه حركة انطلقت من المغرب الشرقي، ولم تكن تمتلك الرصيد الروحي والمادي للزاوية، ورغم ذلك وضعت حدا للمغامرة السياسية للزاوية. لمزيد من التوسع في موضوع الزاوية الدلائية، يمكن الرجوع إلى: حجي، محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٨.
(4) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sous, 8(ème) année – N°2300, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p ,1.
(5) **La Dépêche Marocaine**, Les Faits et gestes d Ahmad El Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger mercredi 24 juillet 1912, p, 1
(6) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 136.
(7) **La Dépêche Marocaine**, La Semaine Marocaine, 8(ème) année – N°2302, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p ,1.
(8) Rivet, Daniel, **Lyautey et l institution**…op, cit, p137.
(9) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sud, Les émissaires d Ahmad El Hiba sont repoussés, 8(ème) année – N°2318, Tanger, mercredi 7 aout 1912, p ,1.
(10) **La Dépêche Marocaine**, La situation dans le sud, 8(ème) année – N°2322, Tanger, mercredi 11 aout 1912, p ,1.
(11) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 137.
(12) **La Dépêche Marocaine**, Aux prises avec le sultan bleu, 8(ème) année – N°2337, Tanger, lundi 26 aout 1912, p, 1.
(13) Montagne, Robert, **Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc**, Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires « groupe chleuh » Librairie Félix alcan, Paris ,1930.
(14) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 131.
(15) **La Dépêche Marocaine**, La situation de Moulay Hiba, 8(ème) année – N°2320, Tanger, vendredi 9 aout 1912, p,1.
(16) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sud, « par radio télégramme » de notre correspondant particulier, Mogador 14 juillet, 8(ème) année – N°2297, Tanger, mercredi 17 juillet 1912, p ,1.
(17) **La Dépêche Marocaine**, Le caïd Trai, Protégé espagnole, 8(ème) année – N°2322, Tanger, dimanche 11 aout 1912, p, 2.
(18) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 142.
(19) Ibidem.
(٢٠) تشبيها لها بالمواسم السنوية التي تقام بمختلف مناطق المغرب بالقرب من أضرحة من يعتقد بصلاحهم وولايتهم.
(21) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 143.
(22) Ibidem.
(23) **La Dépêche Marocaine**, Les Faits et gestes d Ahmad El Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger, mercredi 24 juillet 1912, p ,1.
(٢٤) للاطلاع على بعض التفسيرات التي أشاعها أنصار الهيبة لتبرير الهزائم، وقوبلت من طرف الشيخ بالصمت، يمكن الرجوع إلى دانييل ريفي:
Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 140.
(٢٥) برينتن، كرين، **تشريح الثورة** ، ترجمة سمير الجلبي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، دار الفارابي، ص، ١١٦.
(٢٦) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**…op, cit, p, 141
(27) Ibid, p, 142.
(٢٨) ما دمنا هنا نعتبر المريد ثوريًا، مادام يطمح إلى تغيير الواقع الاجتماعي المتردي، فإنه هنا يتماثل مع الثوري المعتقد في قداسة الثورة ومثاليتها، انظر في هذا: برينتن، كرين، تشريح الثورة ...، مرجع سابق، ص، ١٠٨.
(29) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sous, 8(ème) année – N° 2300, Tanger, samedi 20 juillet 1912, p ,1.
(٣٠) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**... مرجع سابق، ص، ١٠٨.
(٣١) نموذج المختار السوسي
(32) Rivet, Daniel…op, cit, p, 141.
(٣٣) Ibid, p, 138.
(34) Ibidem.
(٣٥) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**...، مرجع سابق، ص، ٩٩.
(36) Rivet, Daniel…op, cit, p, 139.
(٣٧) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**..، مرجع سابق، ص، ١٢٧.
(38) **La Dépêche Marocaine**, Faut – il négocier avec El Hiba, 8(ème) année – N°2342, Tanger, samedi 31 aout 1912, p,2.
(٣٩) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**..، مرجع سابق، ص، ١٦١.
(٤٠) كانت أكثر وضوحًا في أخذها بالعلماني على المستوى السياسي، إذ سعت إلى تغيير الهيكل السياسي، فقد تخلى الهيبة عن كل رموز العهد السابق، أحرق النزالات، وألغى الضرائب غير الشرعية، ولم يعترف بالظهائر الموقعة على عهدي المولى عبد العزيز و المولى عبد الحفيظ، انظر:
La Dépêche Marocaine, La situation de Mouley Hiba, 8(ème) année – N°2320, Tanger, vendredi 9 aout 1912, p ,1.
(41) Laroui, Abdallah, **Esquisses historique,** Centre Culturel Arabe, 1993, p, 99.
(42) **La Dépêche Marocaine**, Gerlier, H, La Marche sur Marrakech, 8(ème) année – N°2339, Tanger, mercredi 28 aout 1912, p ,1.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الاستعمار والإعاقة في المغرب
حالة معطوبي ومشوهي الحرب
(١٩١٤ - ١٩٥٦)



محمد المنتفع

أستاذ التعليم العالي مساعد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سايس

فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم رؤية تجلو الغموض عن وضعية فئة المعاقين المغاربة من صنف المشوهين والمعطوبين في الحرب ما بين ١٩١٤ و١٩٥٦، وإبراز دور نظام رعاية الإدارة الفرنسية لهذه الفئة، وتتبع مختلف خدماتها الاقتصادية والاجتماعية من قبيل التكفل بالعلاج من تشوهات الحرب في المستشفيات، ومنحهم تعويضات مالية عن خدماتهم في الجيش الفرنسي، ودعم جمعيات معطوبي الحرب وقدماء المحاربين، وإنشاء صندوق مجاريح الحرب، وغيرها من الخدمات النفعية الأخرى. إلا أن هذه الإجراءات أثارت إشكالية جوهرية تتعلق بمدى فاعليتها واستفادة هذه الفئة من مزاياها إسوة بمعطوبي ومشوهي الحرب الفرنسيين. فكانت العمليات الإغاثية والتضامنية ناقصة ومتقطعة إذ لم تسر بنفس الوثيرة والقيمة المادية، إذ كانت خاضعة للتأثيرات السلبية للأزمات الاقتصادية والمالية والاجتماعية، والعلاقة المتوترة بين المخزن الشريف وإدارة الحماية خاصة بعد ظهور الحركة الوطنية التي كشفت عبر جرائدها وصحفها مأساوية واقع المجتمع المغربي آنذاك، وطالبت الحكومة الفرنسية بإصلاحه وتحسين مستوى التنمية به اقتصاديًا واجتماعيًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ سبتمبر ٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ أكتوبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الإعاقة؛ المعطوبين؛ المشوهين؛ الاستعمار؛ المغرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312392 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد المنتفع. "الاستعمار والإعاقة في المغرب: حالة معطوبي ومشوهي الحرب (١٩١٤ - ١٩٥٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٨٢ – ١٩٤.

Corresponding author: elmountafiamed@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةُ

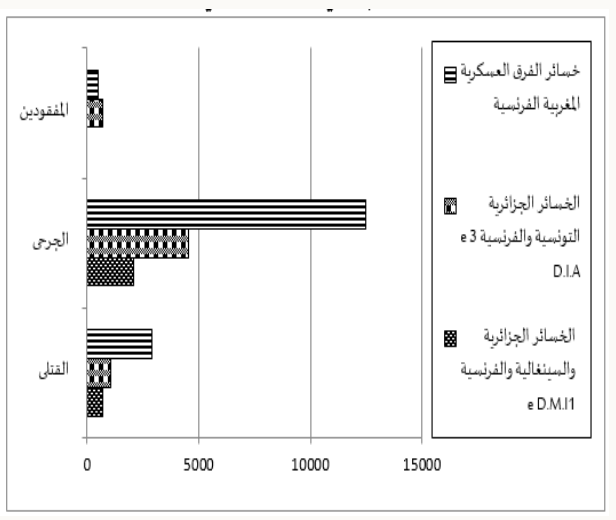
ظلت دراسة تاريخ الإعاقة في المغرب من المواضيع المهملة في حقل التاريخ، نظرا لتعقد إشكالاتها المرتبطة، بشكل وثيق، بندرة المصادر التاريخية مقارنة مع باقي بلدان شمال إفريقيا التي أنشئت بها جرائد وصحف تتبعت مختلف حالات الأشخاص ذوي الإعاقة خاصة مجاريح الحرب والعملة المنكوبين بنوازل طارئة أثناء خدمتهم. وقلة المادة المرجعية حول الإعاقة في المغرب، خلال الحقبة الاستعمارية وما بعدها، جعل دراستها، رغم أهميتها، منزوية في الهامش، إذ لم يوليها المؤرخون اهتماما ولم تشغل لهم بالا. باستثناء دراسات قليلة جدا تناول فيها علماء الاجتماع الغربيون التجربة الحياتية للأشخاص ذوي الإعاقة في البلدان المستعمرة، وتزايد اهتمامهم بالحالات الاستعمارية وما بعد الاستعمارية أمثال شون غريتش Shaun Grech في مقاله حول "دراسات الإعاقة وتصفية الاستعمار: لماذا الاستعمار مهم في الإعاقة والجدل العالمي الجنوبي"(1) الذي حاول تحليل الروابط بين الاستعمار والإعاقة انطلاقا من معطيات تاريخية عن إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وهو بذلك يوحد التجارب الاستعمارية ويرسم صورة موحدة للعواقب السلبية للاستعمار على الأشخاص المعاقين، ويشير المؤلف إلى تجاهل المؤرخين الغربيين المختصين في تاريخ الإعاقة السياق الاستعماري في دراساتهم، وأنه من الضروري للغاية فهم نظرة وتصور المستعمر للإعاقة وكيفية التعامل مع المعاقين.(2) ويرى "باتريك دوفليج" Patrick Devlieger في مقالته حول "تمثيل الإعاقة الجسدية في مستعمرة زيمبابوي: مهمة كراين CYRENE و"بيتانيكو" Pitaniko،(3) أن مساعدة الأشخاص ذوي الإعاقة جاءت في إطار المهمة الحضارية التي أقرها رجال الدين الأنجليكان إلى جانب عملية تحويل أطفال المستعمرة إلى المسيحية بمساعدة البعثة الأنجليكانية.(4) وفي مقال عن الإعاقة في الكونغو البلجيكية،(5) يشدد كل من "فيرسترايت" Verstraete و"فيرهايجن" VERHAEGEN و"ديبايب" Depaepe على التشوهات التي أصيب بها العمال الذين أصبحوا غير قادرين على جمع ما يكفي من المطاط، وعدم وجود سياسة تعليمية للمعاقين قبل الاستقلال، وانتقدوا خطابات المستعمرين التي تصف السكان السود بالمتخلفين عقليا.(6)

رغم أهمية هذه الأعمال ونوعيتها، فإن تاريخ الإعاقة في إفريقيا والمغرب خاصة، خلال الفترة الاستعمارية، لا يزال مجالا غير مستكشف بما يكفي، لذا فإن هدفنا من هذه الدراسة هو تقديم رؤية تجلو الغموض عن وضعية فئة المعاقين المغاربة معطوبي ومشوهي الحرب العالمية الأولى والثانية، وإبراز دور نظام رعاية الإدارة الفرنسية لهذه الفئة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٥٦م. وتتبع مختلف الإجراءات السياسية والإدارية التي أقرتها دولة الحماية في المغرب تحت إشراف الإقامة العامة، ومدى استفادة هذه الفئة من مزايا الخدمات الإغاثية والتضامنية إسوة بمجاريح ومعطوبي الحرب الفرنسيين، ثم دور المؤسسات والجمعيات في تقديم المساعدة والدعم المادي والنفسي لها في إطار الحقوق المشروعة لهذه المكون المجتمعي، خاصة بعد المناداة بتسوية ظروف حياتها المعيشية.

أولاً: الجنود المغاربة ضحايا الحرب ما بين (١٩١٤- ١٩٤٥)

قامت الحماية الفرنسية بتجنيد ما بين ٣٥٠ و٤٠٠ ألف مغربي كجنود أو عمال خلال الفترة الممتدة ما بين ١٩١٤ و١٩٥٦. وقدرت المصادر مشاركة المغاربة خلال الحرب الأولى ١٩١٤-١٩١٨ رقما بلغ ٨٥٠٠٠ جندي وعامل مغربي مكثوا في فرنسا قبل إعادة توطينهم في المغرب.(7) وكان للمعارك الأولى لهذه الحرب في "سوم" Somme و"لامارن" La Marne أرواح عديدة حيث لم يتبق من الجنود المغاربة المشاركين فيها صالحا للجندية سوى ٤٠٠ جندي من أصل ٤٠٠٠، وفقد المغرب في سنة ١٩١٧- ١٩١٨ حوالي ١٢٠٠٠ من أبنائه ماتت كلها في ميادين المعارك.(8) وخسرت الفرقة المغربية وفرق الشمال الإفريقي خلال حملات ١٩٤٠ حوالي ٥٤٠٠ جندي، وصاحب هزيمة ١٩٤٠ عدد كبير من المعطوبين والمشوهين.(9) وبلغ عدد الضحايا من المغاربة في احتواء الألمان خلال أيام ١٤ و١٥ ماي ١٩٤٠ حوالي ٢٠٠ قتيل و٥٠٠ جريح، ولم يعد إلى مدينة مكناس بعد تحرير بلجيكا من الغزو النازي من أصل ٢٣٠٠ سوى ٥٠ جنديا.(10) ووصل عدد ضحايا البلدان المغاربية من القتلى والمفقودين والجرحى ٧١٢٢ جندي من بينهم ٢٩٩٦ جندي مغربي ما بين ١٩٤٢ و١٩٤٥. هذا بالإضافة إلى الخسائر التي لحقت الجيش الفرنسي خلال عامي ١٩٣٩ و١٩٤٠، والتي تقدر بـ ٨٥٣١٠ قتيلا، من بينهم ٥٤٠٠ جندي من شمال إفريقيا و١٢٠٠٠ جريحا.(11)

مبيان رقم ١:
ضحايا الفرق المغربية في الجيش الفرنسي
خلال الحرب العالمية الثانية



المصدر (بتصرف): المريني، ١٩٩٧. ص ٣٢٢.

رغم أن المصادر لا تذكر، بشكل دقيق، عدد معطوبي ومشوهي الحرب المغاربة، لكنها تتفق جميعها على كونها كانت خسائر ثقيلة وشاملة بين قتيل وجريح ومفقود. وما زال عدد من الجنود المغاربة الذين شاركوا في الحرب الأولى والثانية، والحرب الإسبانية يعانون آثارا نفسية وجسدية، يعيشون في المناطق الشمالية ويصل عددهم ١٣٥٠ محارب، و٦٠٠ محارب في المناطق الجنوبية، حسب تقرير الجمعية المغربية لقدماء المحاربين.[١٢] وكانت العلل التي أصيبت بها أجساد العساكر المغاربة مختلفة ومتنوعة، إذ شملت فقدان غالبية المحاربين لمفصل اليد أو الساعد أو الذراع أو فقدان استعمالهما معا، وتضرر الفخذان والساقان مما كان له الأثر في فقدان استخدام عضو من الأعضاء السفلى مما أدى إلى بتره أحيانا، أو فقدان كلا العضويين أو بترهما. ومن العلل الأخرى الناشئة عن الحرب بتر الرجلين وفقدان استخدامهما، أو إحداث الجروح الخفيفة التي تمكن من المشي واستعمال الدراجة وصعود الدرج، وفي أحسن الأحوال كان يعود هؤلاء إلى موطنهم برجل واحدة سالمة والأخرى تمكن من المشي.[١٣]

الصورة رقم ١:
جرحى مغاربة في معركة على ضفاف نهر لامارن



Le Miroir. *Publication hebdomadaire, Quatrième année – N 43, paris, Dimanche 20 septembre 1914, p 1.*

من العوارض البدنية الأخرى التي لحقت الجنود المغاربة الإصابات البليغة في الجمجمة مما نتج عنه ضعف العقل أو اختلالات في المخ وداء النقطة، أو فقدان مادة من المواد التي تتألف منها عظام الجمجمة إذا كان ناشئا من ثقبها. وتعرض بعضهم لجروح بليغة في الوجه تسببت بتر الفقم الذي عوض بآلة غير طبيعية يتحملها المصاب دون إحداث ألم، مما كان يفقد المعني القدرة على حركة الفقم والصدغ. ومن العلل الأخرى التي أصيب بها الجنود المغاربة انخلاع الأضلع والقفص أو نتوءها، وفقدان نظر العينين الغير ممكن شفاؤه أو ضياع البصر من عين واحدة مع بقاء العين الأخرى، كما أصيبت أذنا العديد منهم بالطرش.[١٤] وقطعت الأصابع وأقساط اليد مع الإبهام، وعدم إمكان الحركة في المفاصل أو تحريكهما بنوع غير منتظم بين عظمين عقب كسر لم يجبر، وعطل الأعضاء المسبب عن أمراض عصبية باعتبار الضنك والانزعاج الحاصل من عدم قيام الأعضاء الجسدية بوظائفهما كما يجب. وفقدان أحد الرجلين تماما، وتضرر قصبة الرجل والركبة والورك، وفقدان أحد الساقين فقدانا تاما أو فقدان الفخذ أو الفخذين معا، وتعرض الظهر لكسر مصحوب بعطل تام في الأعضاء السفلى.[١٥] وما أشبه ذلك من العلل الأخرى التي أفقدت المحاربين القدرة على الحركة.

جدول رقم ١:

بعض العلل التي أصابت العساكر المغاربة ما بين ١٩١٤-١٩٤٥

العلل	وصفها	آثارها
الجمجمة	فقدان مادة من المواد التي تتألف منها عظام الجمجمة	ضعف العقل أو اختلالات في المخ
الوجه	جروح بليغة في الفقم تسببت عدم القدرة على حركة الفقم والصدغ	تشويه الوجه
الظهر	انخلاع الفقرات غير التام، وتشويه في سلسلة الفقار بانخلاع العضلات أو انصداعها أو بانخلاع أطراف العضلات أو انصداعها	جروح في النخاع والداء المعروف ببوط
الذراعان	تشويه في مفصلي اليدين والساعدين والذراعين والكتف أو فقدان مفصل اليد أو الساعد أو الذراع أو فقدان استعمالهم.	ضعف استعمالها أو فقدانها
اليدان	فقدان استخدام أحدهما أو كليهما	عدم القدرة على المسك
الفخذان والساقان	فقدان استخدام عضو من الأعضاء السفلى أو بتره، أو فقدان عضويين من الأعضاء السفلى.	عدم القدرة على الحركة
الرجلان	جروح خفيفة بحيث يمكن المشي واستعمال الدراجة وصعود الدرج، أو رجل واحدة سالمة والأخرى تمكن من المشي، أو بتر الرجلين.	عدم القدرة على المشي إلا باستعمال أجهزة غير طبيعية

المصدر (بتصرف)(١٦)

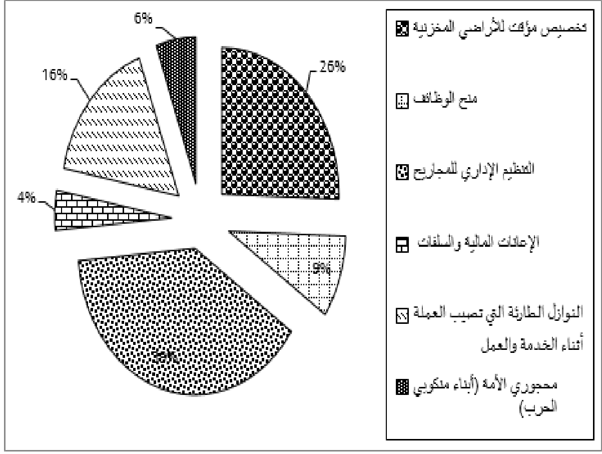
اعترافًا بخدمات الفرق العسكرية المغربية لفرنسا جعلها تنوه ببسالتها وشجاعتها في الحرب، فحسب تلغراف من وزير الحربية الفرنسي إلى المقيم العام في ٦ دجنبر ١٩١٤ يعترف أن **"العربي بن الحبيب العسكري المتطوع في الفرقة الثالثة من حزب الترايور قد أعلن بين الجيوش الفرنسية بما أتاه من البسالة والثبات فإنه جرح في معركة اليوم السادس من نوفمبر ثم في الثاني عشر منه ومع ذلك بقي بخط القتال يوما كاملا مظهرا لشجاعة عجيبة وثباتا غريبا".**(١٧) وامتاز أحمد بن الحافظ جندي من رماة المغاربة بالشجاعة **"جرح في ثاني ديسمبر وبعد أن شفي عاد إلى ساحة القتال وكان مثالا يقتدى به في اقتحام المخاطر وجرح في تاسع ديسمبر بشظية قنبلة قطعت عروق وهرست العظم فاضطر الأطباء لقطع يده".**(١٨) وهكذا، فرض الجنود المغاربة ضحايا الحرب على الحكومة الفرنسية الاعتراف بمجهودهم في جبهات القتال، مما جعلها تصدر تشريعات قانونية عدة لإعادة توطين وإدماج المرحلين في الحياة المدنية بالمغرب بعد أداء خدمتهم في الجندية.

ثانيًا: معطوبي ومشوهي الحرب المغاربة في التشريعات القانونية

سارعت إدارة الحماية الفرنسية، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، إلى إصدار تشريعات قانونية إغاثية لدعم الجنود المغاربة المصابين بعلل وأمراض ناشئة من الحرب. فارتكزت على إقرار منح الوظائف بإحدى الإدارات العمومية، وتعيينهم في وظائف تلائم وضعيتهم الجسدية.(١٩) وإعفاءهم من امتحانات مباريات التوظيف، وتقديم قروض وسلفات لأجل طويل لشراء المساكن، وتنفيذ إعانات للمصابين وعائلاتهم، وإصدار قرارات تخصيص الأراضي المخزنية على وجه الانتفاع، والتي كانت تشكل حصة كبرى من القرارات التي أصدرتها فرنسا بعد الحرب العظمى، إذ بلغت ٣٩ قرارا، إلى جانب ١٠ قرارات في شأن الوظائف، و٤٨ قرار حول التنظيم الإداري والمالي لمجاريح الحرب، اشتملت على ٥ قرارات حول الإعانات المالية والسلفات، و١٨ قرارا حول النوازل الطارئة التي تصيب العملة أثناء الخدمة والعمل، والتي يدخل ضمنها الجنود الذين اشتغلوا في المعامل بعد الحرب، و٦ قرارات تخص محجوري الأمة، وكان من ضمنهم أبناء المعطوبين في الحرب.(٢٠)

مبيان رقم ٢:

القرارات الصادرة في شأن قدماء المحاربين ومعطوبي الحرب المغاربة ما بين ١٩٢٠ – ١٩٣٩ بـ %



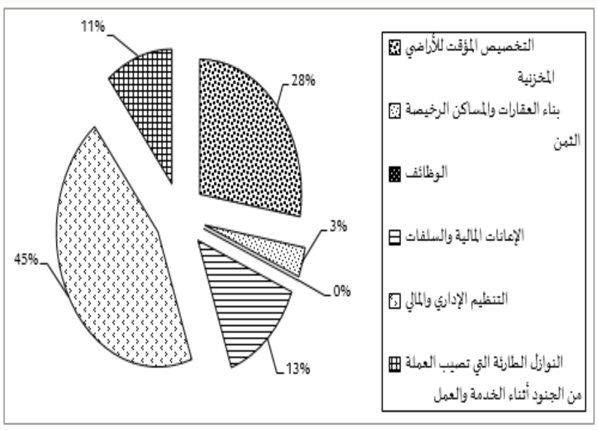
المصدر (بتصرف)(٢١)

ارتكزت الإجراءات، التي جاءت بها هذه الظهائر والقرارات، على دعم معطوبي الحرب بالأراضي المخزنية، وذلك نظرا لطبيعة الممارسة المهنية لهؤلاء في مناطق أصولهم قبل التحاقهم بالخدمة العسكرية. ورغم أهمية هذا الإجراء إلا أن نتائجه كانت محدودة جدا، بحيث ألغيت هذه القرارات بعد مضي مدة الانتفاع المحددة في عشر سنوات أو بعد وفاة أصحابها قبل أن يصلوا إلى انقضاء المدة المعينة للتخصيص أو تركها أصحابها لعدم جدوى منفعتها. وقد بلغ عدد قرارات الأراضي الملغاة من أصحابها ٣٤ قرارا تم بموجبها استرجاع الأراضي المخزنية. ولم يحتفظ بهذه الأراضي على وجه التمليك التام سوى ٥ أفراد بموجب القرارات التي أصدرت في شأنها ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٩. ورغم عدد القرارات التي تناولت التنظيمات الإدارية والمالية الخاصة بسقطاء الحرب والتي بلغت ٤٨ قرارا، فإنها لم تتضمن سوى ٥ قرارات حول الإعانات المالية والسلفات. وهكذا، فقد تميز صدور القوانين والقرارات، في شأن العساكر المغاربة ضحايا الحرب، بتعددها من سنة ١٩٢٩ إلى ١٩٣٩، وبتوقفها بعد سنة ١٩٤٥ إلى أن استأنفت في سنة ١٩٤٨، حيث بدأ تفعيل نظام الرعاية الفرنسي لهذه الفئة، فأصدر بذلك ٣١ قرارا في شأن تخصيص أراضي مخزنية، لكنها ألغيت منها ٥ قرارات بعد مضي عشر سنوات على انتفاع أصحاب الامتياز منها أو بعد موتهم أو تخليهم عنها أو استرجعت من أجل المصلحة، ولم يقع التمليك التام سوى ١٢ قرارا، و٤ قرارات تخص الدعم العقاري وبناء المساكن الرخيصة الثمن.[٢٢] ووصل عدد القرارات التي أصدرتها إدارة الحماية، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، إلى ٦٥ قرارا يخص التنظيم الإداري والمالي للفاقدين بعض أعضائهم في الحرب، احتوت على ١٥ قرارا حول منح القروض والسلفات والإعانات، و١٢ قرارا حول النوازل الطارئة التي تصيب العملة أثناء الخدمة والعمل، و٤ قرارات حول بناء العقارات والمساكن الرخيصة الثمن، ولم تكلف الحكومة الفرنسية نفسها خلق مناصب للشغل لفائدة معطوبي ومشوهي الحرب المغاربة، ولعل ذلك راجع إلى تضرر الميزانية العامة للدولة الفرنسية جراء مخلفات الحرب.

مبيان رقم ٣:

القرارات الصادرة في شأن معطوبي الحرب المغاربة

من سنة ١٩٤٥ إلى ١٩٥٦ بـ %

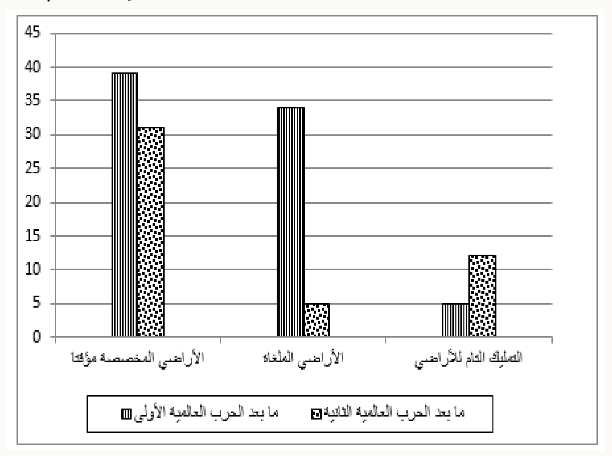


المصدر (بتصرف)[٢٣]

رغم أهمية هذه التشريعات القانونية إلا أن عملية تنفذها اعترضتها نقائص عديدة جعلتها محل انتقاد من قبل الجمعيات والاتحادات منذ عام ١٩٣٠ خاصة "اتحاد المشوهين وقدماء المحاربين وضحايا الحرب" La Fédération des Mutilés, Anciens Combattants et Victimes de la Guerre برئاسة "ماير" Meyre. و"جمعية معطوبي الدار البيضاء" Association des Mutilés de Casablanca برئاسة "دي لاماز" De Lamaze، وجمعية "الإخوان المقطوعة بعض أعضائهم في الحرب وقدماء المحاربين"، و"جمعية قدماء المحاربين بالدار البيضاء" Association des Anciens combattants de Casablanca برئاسة "برغر" Burger، و"جمعية أيتام الحرب" Association des Orphelins de Guerre، إلى جانب باقي الجمعيات الأخرى المتعاطفة مع معطوبي الحرب.[٢٤] وقد تدارست هذه الجمعيات في لقاءاتها وضعية هذه الفئة المتضررة جراء الحروب،[٢٥] وركزت على مسألة انقطاع الرعاية الفرنسية لها بعد الحرب العالمية الثانية مقارنة مع فترة الحرب العالمية الأولى، التي كانت لها نتائج إيجابية. ويكمن السبب في ذلك عدم قدرة الحكومة الفرنسية على استيعاب الأعداد المتزايدة من ضحايا الحرب، إذ أن قرارات منح الأراضي لمعطوبي الحرب بدء من سنة ١٩٤٨ ظلت ضعيفة تراوحت بين ٥ و١٢ قرارا للتمليك التام، في حين وصل عدد القرارات الملغاة ٥ قرارات بعد استفادة دامت عشرة أعوام فقط على وجه الانتفاع.

مبيان رقم ٤:

عدد الظهائر والقرارات الصادرة في شأن الأراضي المخصصة لفائدة المعطوبين والمشوهين المغاربة من سنة ١٩١٨ إلى ١٩٤٥م



المصدر (بتصرف)[٣٦]

طرحت تدابير هذه الظهائر والمراسيم المصادق عليها عديد التساؤلات حول مدى نجاعتها في ضمان حقوق هذه الفئات، ونظرا للانتقادات التي وجهت إلى هذه التدابير ومحدوديتها وما رافق تطبيقها على أرض الواقع من خلل فإن الإقامة العامة حاولت، بناء على الظرفية التي كانت تعيشها بعد سنة ١٩٤٥، نهج سياسة المساعدات والإعانات الإغاثية والتضامنية لإعادة توطين وإدماج هذه الفئة وتحسين مستوى معيشتها.

ثالثًا: المساعدات الإغاثية والتضامنية لإعادة التوطين والإدماج

قدمت إدارة الحماية الفرنسية خدمات اقتصادية واجتماعية لفائدة مجاريح الحرب المغاربة الفاقدين لبعض أعضائهم، وقد شملت التكفل بعلاجهم في المستشفيات، ومنحهم تعويضات مالية عن خدماتهم، وسلفات لأجل طويل، ومساكن منخفضة التكلفة. وأنشأت بالموازاة مع ذلك مؤسسات مكلفة بتنظيم عملية التوطين والإدماج مثل **"صندوق الإغاثة والتضامن"** و**"صندوق مجاريح الحرب"** و**"المكتب المغربي المكلف بأمور قدماء المحاربين والفاقدين لبعض أعضائهم في الحرب"**. ورأت من الواجب دعم الجمعيات ماليا، مثل جمعية **"الإخوان المقطوعة بعض أعضائهم في الحرب وقدماء المحاربين"**، وكانت أولى الخطوات التي سارعت إلى إنجازها الاعتراف أولا بجهودهم في الحرب بأوروبا والهند الصينية، لذلك أشرفت بنفسها على حفلات إحياء ذكرى المحاربين المغاربة في الجيش الفرنسي- بعد إقصاء دورهم واستبعاده من الروايات الوطنية.[٣٧]

١/٣-إنشاء مؤسسات مكلفة بإعادة التوطين والإدماج

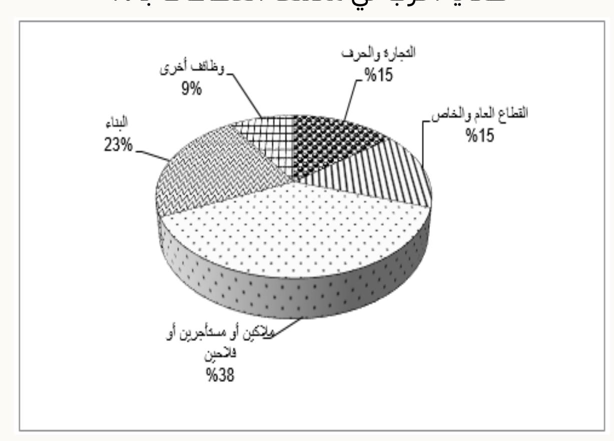
أنشأت الحكومة الفرنسية **"صندوق الإغاثة والتضامن"** "Fonds de Secours et Solidarité" بموجب المرسوم الوزاري الصادر في ٢٥ سبتمبر ١٩٣٩ تحت إشراف مديرية الشؤون السياسية. وكان أول إجراء قام به تخصيص ثلاثة فرنك يوميا لقدماء المحاربين وضحايا الحرب، وتقديم مزايا إضافية لأسرهم عبر تزويدها بالماشية والبذور والآلات، وتوزيع الأراضي، ثم إنشاء المراكز المهنية لتأهيل الجنود، وقد ساعد هذا الصندوق على عودة هذه الفئة إلى الحياة المدنية، إذ سهل عملية إعادة توطينها وإدماجها في المجتمع.[٢٨] وكانت المحاولة الأولى لإعادة التوطين الجماعي بشمال مراكش في منطقة السراحنة خلال سنة ١٩٤٢، وذلك بالتعاون مع "صندوق الإغاثة والتضامن" وقد كلفت هذه العملية مبلغ ٧,٦٠٠,٠٠٠ فرنك. وفي عام ١٩٤٥ أعادت مديرية الشؤون السياسية إدماج هذه المجموعة في قطاع الفلاحة، لتدمجهم لاحقا في قطاعات أخرى مع إمكانية الحصول على تكوين متخصص، في مقابل إدماج العديد من الأشخاص الآخرين في وحدات العمال الاحتياطية ومراكز وأوراش التأهيل المهني.[٢٩] وفي عام ١٩٤٦ وضع مجلس إدارة "صندوق الإغاثة والتضامن" برنامجا سنويا يخص إعادة التوطين والإدماج تتولى الإدارة المالية الإشراف عليه بدء من ١ يناير ١٩٤٧. وقد خصصت الحكومة الفرنسية في ٣١ دجنبر ١٩٤٦ ما يقرب من ٣٨٧ مليون فرنك لعملية التوطين والإدماج، لكنها ستتوقف عن دعم الصندوق جراء آثار الحرب إلى أن استأنف وظيفته منذ فاتح يناير ١٩٥٢، ليتمكن من الحصول على خمسين مليون فرنك من الحكومة.[٣٠]

وأنشأت إدارة الحماية الفرنسية **"خدمة إعادة التوطين"** «Le Service du Recasement»، وهي خدمة تدير مهامها مديرية الشؤون السياسية، وذلك بمشاركة **"المكتب المغربي لقدماء المحاربين وضحايا الحرب"**، و**"دار العسكري"** « Dar El Askri »، لمساعدة المرحلين وتسهيل إعادة إدماجهم في المجتمع. وبفضل هذه الخدمة تمكن العشرات من الجنود ضحايا الحرب من لهم القدرة على الحركة الولوج إلى فرق خاصة تسمى "وحدات العمال" Unités De Travailleurs، و"الفرقة الاحتياطية المغربية" Compagnies Auxiliaires Marocaines. وحصل ثمانية آلاف منهم على وظيفة في الإدارة العمومية والقطاع الخاص. وتم أخيرا إعادة توطين عشرين ألفا في القبائل، أدمجت ثلاثة أرباعهم بفضل التبرعات والقروض التي منحها "صندوق الإغاثة والتضامن" من ضمنها أربعة عشر.

مليون فرنك، إلى جانب توزيعه للإعانات من الغذاء والأعطيات على عدة آلاف من الجنود ضحايا الحرب.[٣١] وتم تسريح خلال هذه الفترة ٤٠٠ فرد، وزعت عليهم الحكومة أراضي مؤقتة، وأنشئت مراكز مهنية تلقت ٣٠٠ جندي مسرح. ومن جهة أخرى وفرت "دار العسكري" العمل في ورشها الحرفية لعدد كبير من الأرامل وزوجات منكوبي الحرب.[٣٢] وأحدثت إدارة الحماية في كل ناحية إدارية بالمغرب "**لجنة إعادة الاستخدام**" مكلفة بإدماج سواقط الحرب في المهن التي كانوا يشغلونها سابقا قبل ذهابهم إلى الجيش، وذلك بموجب عقد مع أرباب العمل أو إيجاد مهن مماثلة لأسقامهم. وكانت أيضا مكلفة بالحكم في النوازل المعروضة عليها فيما يتعلق بهؤلاء الأشخاص لبيان قدرتهم من عدمها على ممارسة العمل.[٣٣] ومنحت ترخيص إنشاء "**المكتب المغربي المكلف بأمور قدماء المحاربين والفاقدين لبعض أعضائهم في الحرب**"، الذي لعب دورا كبيرا في دعم هذه الفئات، فقد عقد المكتب المذكور منذ سنة ١٩٣١ مع مختلف البلديات عقود تم بموجبها حيازة الأراضي والعقارات إما عبر الشراء أو تخلي البلديات مجانا عنها، وقد بلغ عدد القطع التي حازها المكتب ٤٧ قطعة مخزنية تصل مساحتها الإجمالية ٣٠٥٦٣ متر مربع بثمن إجمالي يصل إلى ٨٢٩٦٨٠٤.[٣٤]

وعمومًا، حققت مؤسسات إعادة توطين وإدماج العساكر المغاربة معطوبي ومشوهي الحرب منذ عام ١٩٤٥ نتائج تتلاءم مع الظرفية العصيبة آنذاك، إذ رغم المعوقات التي اعترضتها فقد تمكنت من تقديم المساعدة الإدارية والمادية بما في ذلك منح القروض المالية والعينية لإعادة توطين سواقط الحرب في الأوساط الريفية، وتخصيص القروض لإعادة التوطين الحرفي، والتوظيف في الإدارات العمومية والخصوصية، ومنح العقارات السكنية، وإرسال قدماء العساكر المؤهلين والمتطوعين إلى المراكز الزراعية أو ورش العمل لإعادة تدريبهم، وبفضل الإمكانيات المادية التي وفرتها هذه المؤسسات تمت إعادة توطين وإدماج عدد لا بأس به من العساكر ضحايا الحرب.

مبيان رقم ٥:
إعادة إدماج قدماء العساكر المغاربة
ضحايا الحرب في مختلف القطاعات بـ %



المصدر (بتصرف): Pirot, p. 61- 62.

تمكنت الحكومة الفرنسية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية من إعادة إدماج وتأهيل ٧٥% من ضمن ١٢٦٠٠٠ من قدماء العساكر، شملت العملية المجالات الآتية: ميدان التجارة والحرف بنسبة ١٦%، والفلاحة ٤٢%، والتشغيل بالإدارة العمومية أو في القطاع الخاص بنسبة ١٧%. ونظرًا، لأن هناك جهدا لتوفير العمل للفئة المتبقية التي تقدر بنسبة ٢٥% فإنه سيتم إدماجها إما عن طريق العمل في إقامة مشاريع إدارية أو استثمارية أو عن طريق العمل في بناء المساكن، وتوجد ضمن هذه الفئة نسبة ضئيلة تقدر بـ ١٠% تمارس التسول، عجزت الإدارة عن إيجاد حل لها.[٣٥] وعموما، اتبعت السلطات الاستعمارية الفرنسية سياسة المساعدات الإغاثية والتضامنية منذ ١٩٢٠ بالتوازي مع تنفيذها لإجراءات ترحيل قدماء العساكر الفاقدين لبعض أعضائهم، والتي تعد حسب التقارير من الشرائح المعدمة، وتتمثل هذه الخدمات النفعية، التي تشرف على بعضها هذه المؤسسات، في تخصيص الأراضي، وحق التمتع بالأفضلية لنيل الوظائف، ومنح القروض والسلفات وغيرها من الإجراءات الهادفة إلى رد الاعتبار لهذه الفئة وإنقاذها من واقع التشرد.

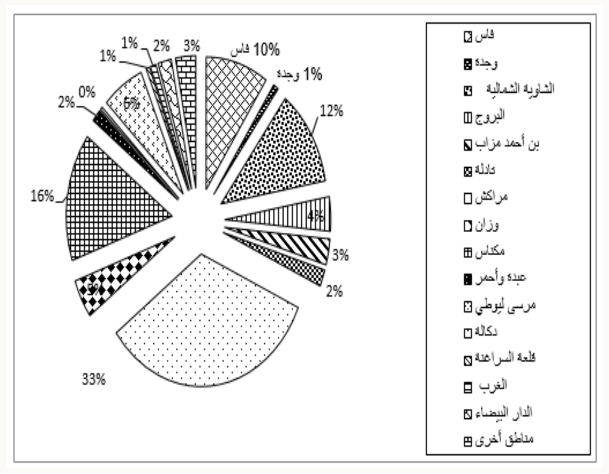
٣/٢-تخصيص الأراضي المخزنية

قامت سلطات الحماية من أجل إعادة توطين وإدماج المغاربة ضحايا الحرب تخصيص قطعة واحدة من الأراضي المخزنية أو قطع عديدة دون أن تتجاوز مساحتها زوجين من الحرث لكل فرد، وتمنح هذه الأراضي مؤقتا على سبيل الانتفاع لمدة عشر سنين، يراعى في ذلك تنظيم مطالب الجنود وترتيبها

بحسب الخدمات التي أدوها كعدد السنين التي قضوها بالخدمة العسكرية وبالحرب والتشويه الذي نالوه بشجاعتهم والجروح التي أصيبوا بها.[٣٦]

مبيان رقم ٦:

الأراضي المخزنية الموزعة على ضحايا الحرب حسب النواحي والمراكز ما بين ١٩٢٠- ١٩٣٩ بـ %



المصدر (بتصرف)[٣٧]

بدأ الانتفاع بهذه الأراضي ابتداء من فاتح أكتوبر ١٩٢٠، وكان هذا التخصيص مشروطا بإحياء هذه الأراضي في أجل منتهاه عامان ابتداء من هذا التاريخ تحت مراقبة اللجنة المكلفة بأمور قدماء المحاربين وضحايا الحرب. ويحق لكل من خصصت له أرض مخزنية كراؤها في مدة ثلاثة أعوام الأولى بعقد قابل للتجديد حتى السنة الثالثة.[٣٨] وبلغت استفادة معطوبي ومشوهي الحرب من هذا الإجراء ٤٠٩ فردا ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٩، ووصل عدد الأراضي التي وزعتها الحماية الفرنسية طيلة هذه المدة ٧٧٢٩ هكتارا و٠٥ آر، و٦٥ سنتيار.[٣٩] لكن الملاحظ أن توزيع الأراضي على مناطق ضحايا الحرب من الجنود المغاربة كان توزيعا غير متكافئ، بحيث تستحوذ مدينة مراكش على نسبة مهمة من الأراضي الموزعة، تليها مكناس ثم الشاوية الشمالية، ثم فاس ودكالة، وأقلها في قبيلة كدميوة، وحد كورت، وبني ملال، والرباط وتارودانت، وأسفي، والصويرة. ويظهر هذا التوزيع غير المتكافئ في اشتراك فردين في أرض ذات مساحة قليلة،[٤٠] ولعل ذلك مرتبط بدرجة تضحية الجنود في المعارك، وبسنوات الخدمة.[٤١]

وعلى أية حال، كانت نتائج تخصيص الأراضي لمعطوبي ومشوهي الحرب محدودة، إذ كان استغلالها يصادفه سنوات الجفاف، زد على ذلك أن سومة كرائها كانت زهيدة ومحدودة لمدة ثلاث سنوات من منحها، بالإضافة إلى أن هذه القطع الأرضية لا تفوت ولا تحجز ولا يصح أن يعقد بشأنها التزام أو تحمل ما وخصوصا رهنها أو رهن منفعتها، كما لا يمكن تفويت منفعتها، وإذا انقضى الأجل الذي يمكن أن لا يقل عن عشر سنين يصدر حينئذ ظهير شريف في إقطاعها،[٤٢] دون تعويض المستفيد لانقضاء أجل التخصيص. وقد بلغ عدد المساحة الإجمالية للأراضي الملغاة ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٩ بعد نهاية مدة التخصيص أو بسبب وفاة المستفيد أو تخليه قيد حياته عنها أو استرجاعها من أجل المصلحة، حوالي ١٠١٦ هكتار و٢٩ آر و٢٠ سنتيار، ووصل عدد الأفراد الذين ألغي لهم هذا التخصيص المؤقت لأحد الأسباب المذكورة ٧٢ فردا،[٤٣] أضف إلى ذلك ٩١ فردا ألغيت لهم الأراضي غير المحددة المساحة بدء من فاتح ١٩٣٠ موزعة على النواحي والمراكز التابعة للنفوذ الفرنسي.[٤٤]

لم يقع تمليك الأراضي المخزنية تمليكا تاما لضحايا الحرب الفاقدين لبعض أعضائهم إلا بدء من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٣٩، لكن بقي هذا التمليك النهائي للقطع الأرضية محدودا لا يتجاوز عدد المستفيدين منه سوى ٦٨ فردا موزعة على مختلف النواحي.[٤٥] ولم يستفد من هذا التمليك خلال عام ١٩٤٢ سوى ١٠٢ فرد وزعت الحكومة عليهم أراض بلغت ١١٦١ هكتار و٢٩ آر و١٨ سنتيار.[٤٦] ومن الملاحظ أن إدارة الحماية بدأت تتخلى عن تخصيص القطع الأرضية بدء من نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان التعويض عن ذلك منح المعطوبين والمشوهين القروض والسلفات. وعلى أية حال، تعكس قرارات إعادة توطين وإدماج منكوبي الحرب المغاربة، والمتعلقة بتوزيع لأراضي، والسكن والإعانات والهبات، ومنح الوظائف، حجم معاناة هؤلاء، وهو ما جعل الحماية تصدر مراسيم دعم المجهود الإغاثي والتضامني لهذه الفئات، وإحاطة إشكالية إعادة توطين وتأهيل المرحلين، إلى قراهم ومناطقهم الأصلية، بإطار قانوني وتشريعي منظم.

٣/٣-إنشاء المراكز المهنية

أسست إدارة الحماية خمسة مراكز مهنية أسهمت كثيرا في تشغيل عدد كبير من أسر الفاقدين لبعض أعضائهم وأرامل ويتامى الحرب. وقد كلف إنشاؤها "صندوق الإغاثة والتضامن" ٢٧ مليون فرنك.[٤٧] ومن أهمها "**المؤسسة الزراعية لأيتام الحرب**" في أهرمومو بفاس، التي افتتحت في أبريل ١٩٤٦، منحها "صندوق الإغاثة والتضامن" منحة قدرت بـ ٨ ملايين. وتدير شؤون هذه المؤسسة إدارة التعليم العام، وتضم ٩٠ تلميذا، يتم فيها تربيتهم وتعليمهم مهنة يمكن الاستفادة منها لتحسين حالتهم الاجتماعية.[٤٨] ومن المراكز المهنية لتأهيل العساكر ضحايا الحرب مركز بولمان عام ١٩٤٥، استفاد من

خدماته ١٤٠ من المتدربين في مجال التجارة، والبناء، والنجارة، والحياكة والنسيج. وتم الحصول على نتائج مرضية، إذ تم إعادة توطين وإدماج العديد من ضحايا الحرب في دواويرهم مع تخصص يؤهلهم لممارسة حرفة معينة.[٤٩]

وساهمت "**دار العسكري**" بفعالية كبيرة في تكوين وإعادة تأهيل العساكر المصابين بعلل ناتجة عن الحرب في جميع المراكز الحضرية والريفية، وعلى الرغم من أنها استوعبت نسبة ١٧% منهم في المدينة كما هو الحال في القرى، فقد واجهت صعوبات في مجال الخدمات العامة حيث يتقدم المرشحون بالإجماع تقريبا للحصول على وظيفة "شاوش" وتفضيلها على باقي الوظائف الأخرى، وتواجه دار العسكري إكراها كبيرا مع الخواص الذين يرفضون توظيف العساكر معطوبي ومشوهي الحرب بسبب العلل التي أصيبوا بها والتي تبطئ من حركتهم مما يتم استبعادهم، أما أولئك الذين يقتربون من الخمسين سنة فيعتبرون خارج سوق العمل.[٥٠]

٤/٣-الأفضلية في نيل الوظائف

منحت إدارة الحماية طبقا لمقتضيات الظهير الشريف المؤرخ في ٦ مارس ١٩١٨ بعض الوظائف للأهليين الذين خرجوا من العسكرية لجراح أصابتهم بتعينهم في وظائف تلائم وضعيتهم الجسدية، وهي كالآتي: عون البوليس وشاوش وحارس المساجين ومخزني وحارس أماكن الخدمة أو مراقبها وممرض، وحامل آلة الهندسة ومستخدم بالبلدية ومكاتب المراقبة المدنية ومكاتب الأمور الأهلية.[٥١] وبمقتضى القانون الفرنسي المؤرخ في ٣١ مارس ١٩١٩ منحت فرنسا أفضلية نيل الوظائف لفائدة الفاقدين لبعض أعضائهم في الحرب كيفما كان عمرهم ورتبتهم ومدة خدمتهم فإنهم يفضلون على من سواهم بالمنطقة الفرنسية من الإيالة الشريفة للحصول على الوظائف، هذا مع مراعاة ما هو محدود ومعين منها، مع الأخذ بعين الاعتبار فيما إذا كانت حالة أسقامهم تمكنهم من القيام بهذه الوظائف.[٥٢] كما أصدرت الحماية قرارا يسمح بإعفاء الجنود المجاريح والمصابين بعاهات الحرب من امتحان نيل الوظائف بإحدى الإدارات العمومية.[٥٣]

جدول رقم ٢:
الوظائف الملائمة لأسقام العساكر المغاربة ضحايا الحرب سنة ١٩٣٩م

طبقات الجروح والعلل	الوظائف الملائمة للأسقام
- الجمجمة - الوجه - العينان - الأذنان - العنق - الحنجرة - الذراعان - الرجلان - الفخذ والساق - البطن - جوش الصدر - أعضاء - التناسل	الإدارات المركزية أو إدارات النواحي أو الإدارات المحلية - حراس النزالات- حراس المراكز من أعوان البوليس- حراس الأسواق- حراس الليل- حراس الفنادق البلدية- فوريار- حراس الفنادق – حراس الآلات المحركة بالهواء - حراس المقابر- المكلفون بتنظيف المكاتب- العملة المكلفون بصيانة الطرقات وترميمها- الكناسون- سائقي العربات - الأعوان البوابة- الحراس والعساسون- رجال المطافئ – أعوان مصلحة الأداءات البلدية- إدارة الأمن العمومي- البوليس العام والتعريف العام- سائق عربات الأطموبيل بإدارة السجون- محاكم الباشوات والقواد- أعوان البوليس والأهليون- أعوان البوليس المعاونون- الحراس الاعتياديون الرسميون- الحراس المعاونون- المخازنية الراجلون- المخازنية الراكبون- الخيالة- الحراس- البحرية- الحمالة- إدارة الأشغال العمومية- حراس الفنارات الرسميون- حراس الفنارات المعاونون- سائقي الشاحنات- الإدارة المكلفة بوصف الأماكن- حراس المكاتب- إدارة المياه والغابات- إدارة البريد والتلغراف والتيليفون- الممرضون البياطرة- موزعو الرسائل الرسميون والمعاونون من الأهليين- استقبال المرضى في المستشفيات ومعالجتهم – قسم الصحة –المحكمة الاستئنافية- البستانيون.

المصدر (بتصرف): "ظهير شريف في حفظ بعض الوظائف بإدارات الحماية ولقدماء العساكر المغاربة وليتامى الحرب الأهليين المغاربة ولقدماء الرديف من التشكيلات العسكرية المعاونة المنفق عليها من الميزانية المالية لوزارة الحربية"، **الجريدة الرسمية**، عدد ١٣٩٥، السنة الثامنة والعشرون، الرباط، ٢١ يوليوز ١٩٣٩، ص. ١٣٢٨- ١٣٣٢.

حفظت إدارة الحماية لقدماء العساكر المغاربة ويتامى الحرب من الأهليين ولقدماء الرديف من التشكيلات العسكرية المعاونة وظائف في الإدارات العمومية والخصوصية كل حسب قدرته على ممارسة الوظيفة المعينة له، وأنفقت الدولة الفرنسية عليهم نسبة ٨٠% من الميزانية المالية خلال كل سنة.[٥٤] ويلاحظ مع ذلك تواضع الوظائف الممنوحة لهؤلاء، إذ اقتصرت على الحراسة والمعاونة في مختلف مديريات الحماية الفرنسية، إذا أخذنا بعين الاعتبار قدرة بعض المعطوبين منهم على ممارسة وظائف ذات دخل مهم إسوة بالفرنسيين. والحاصل أن الحكومة الفرنسية واجهت، رغم هذه الجهود، إشكالية إدماج هذه الفئات بالمدن والأرياف، فرغم الجاذبية التي مارستها المدينة بشدة، فإن العدد الإجمالي لقدماء العساكر تم تعيين الخمس منهم فقط في المراكز الحضرية الكبيرة نظرا لتزايد عدد العاطلين عن العمل بالمدن، ولسيادة النشاط الزراعي في البلاد وجه أغلب الجنود المعطوبين نحو العمل في الأرض وإعادة توطينهم وإدماجهم في بلدهم الأصلي. هكذا، فإن ٤٣% من العساكر ضحايا الحرب الذين تم تعدادهم في نهاية عام ١٩٥٣، مع عائلاتهم، استقروا فعلا في الريف كملاكين ومستأجرين وعمال زراعيين إما بشكل جماعي أو فردي.[٥٥]

٥/٣- الرواتب والإعانات

لجأت الحكومة الفرنسية، إبان الحرب العالمية الأولى، إلى تقديم إعانات مالية لمعطوبي ومشوهي ولعائلاتهم، وفي حالة وفاتهم في الحرب فإن زوجاتهم يحوزون نصف الراتب المنفذ لهم بدون تعويض إلى نهاية الحرب، وإذا لم يكن لهم زوجات ولهم أولاد فأولادهم يحوزون ما ذكر.[٥٦] وأصدرت الحكومة الفرنسية سنة ١٩٣٠ ظهير شريف يتعلق بمنح رواتب تقاعد العساكر الحرس المغاربة الذين شاركوا في الحرب، فبالإضافة إلى راتبهم يزاد لهم شيء في حساب راتب التقاعد بمناسبة الحرب.[٥٧] وعرض العسكريين على اختلاف درجاتهم المصابين بعلل ثقيلة غير قابلة للشفاء، لنيل راتب تقاعد استثنائي لعجزهم عن الخدمة بموافقة مستشار الدولة الشريفة ومصادقة المجلس الصحي. وحددت الحكومة أسقام الجسم المصاب بعلل والنسبة المقدرة لنيل مرتب التقاعد الاستثنائي.[٥٨]

جدول رقم ٣: العلل الطارئة بأجسام العساكر المغاربة أثناء الخدمة والعمل سنة ١٩٣٠ والنسبة المقدرة لنيل مرتب التقاعد الاستثنائي بـ %

الأعضاء	أسقام الجسم المصاب بعلل طارئة أثناء الخدمة	التقدير بـ%
الجمجمة	الشق في العظم شقا ممتدا، داء	٢٠ إلى ١٠٠
الوجه	النقطة، واختلال الشعور	من ٢٠ إلى ٦٠
	قطع أو بتر بعض أجزاء منه	من ٢٥ إلى ١٠٠
العينان	كبرى مع فقدان مادة عظيمة	من ٢٠ إلى ٦٠
الأذنان	ضياع البصر غير الممكن شفاؤه،	من ٢٠ إلى ١٠٠
الظهر	ضياع البصر من عين واحدة مع	من ٥٥ إلى ١٠٠
اليد	بقاء العين	من ٦٥ إلى ٧٥
الذراع	الطرش تمامًا من الأذنين معا،	١٠٠
الأصابع	الطرش تمامًا من أذن واحدة	من ٢٠ إلى ٥٠%
الرجل	الكسر المصحوب بعطل تام	من ٥٥ إلى ٨٠
الساق	وغير تام في الأعضاء السفلى	من ٧٠ إلى ١٠٠
الفخذ	خسران اليد تماما، خسران اليد	
	بتمامهما	
	خسران الذراع تماما، خسران	
	الذراعين معا	
	قطع الأصابع وأقساط اليد مع	
	الإبهام	
	فقدان أحد الرجلين تماما، فقدان	
	الرجلين تماما	
	فقدان أحد الساقين فقدانا تاما،	
	فقدان الساقين معا	
	فقدان الفخذ، أو الفخذين معا	

المصدر (بتصرف): "ظهير شريف يتعلق بمنح رواتب تقاعد عساكر الحرس الشريف"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٠٧، (١٤ مارس ١٩٣٠)، ص ٦٢٨- ٦٢٩.

ونص المرسوم المؤرخ في ١٨ دجنبر ١٩٣٧ على زيادة الرواتب التقاعدية المنصوص عليها في المادة ٢ من القانون الفرنسي المؤرخ في ٣١ مارس ١٩١٩، والمعدل بموجب المادة ٧٨ من القانون المؤرخ في ٣٠ دجنبر ١٩٢٨، اعتبارا من ١ أكتوبر ١٩٣٧، بنسبة تقدر بـ ٦%. وحسب المادة الثالثة من هذا المرسوم تنص على منح إعانات مؤقتة لذوي الاحتياجات الخاصة، وإعانات لمعطوبي الحرب، وإعانات المتقاعدين المصابين بداء السل.[٥٩]

هذا فضلا عن تدخلات بعض المنظمات المهتمة بشؤون قدماء المحاربين مثل رابطة المعطوبين ضحايا الحرب المقيمين في المغرب، التي كانت تشمل برعايتها التضامنية الجنود المغاربة الفاقدين لبعض أعضائهم مثل توزيع الأموال عليهم في المناسبات الدينية خاصة في عيد الأضحى، كما كانت تقدم خدماتها لحل المشاكل الإدارية للجنود ضحايا الحرب بالبلديات.(٦٠) وسهرت الرابطة في سنة ١٩٣٨ على مساعدة أبناء المغاربة الفاقدين لبعض أعضائهم في الحرب، الذين تقل أعمارهم عن ١٥ عاما، عبر تعليمهم ومنحهم منح سنوية خاصة الأطفال ذوي العائلة المتواضعة، وذلك بعد إجراء تحقيق في كل أسرة، ومن تم إحالتهم على مكتب التلاميذ.(٦١)

رغم أهمية المساعدات الإغاثية والتضامنية، لإعادة توطين وإدماج معطوبي ومشوهي الحرب المغاربة، إلا أنها لم تحدث إلا تغيرا بسيطا على وضعيتهم الاجتماعية، بحيث غالبا ما كان هؤلاء يطالبون الحكومة الفرنسية بالمساواة في معاشات التقاعد مع الجنود الفرنسيين، فعلى سبيل المثال في ثلاثينات القرن الماضي كان يتلقى رقيب فرنسي متزوج بدون أطفال ولديه ٨ سنوات في الأقدمية مبلغا قدره ١٢٨٢ فرنك، في حين يتلقى صديقه الأهلي في نفس الوضع ٦٦٦,٤٥ فرنك فقط، على الرغم من وجود تيار داخل المؤسسة العسكرية يسمى "الأنديجانوفيل" Indigénnophile، طالب بإزالة جميع أوجه اللاتكافؤ بين العسكريين الأهالي والفرنسيين.(٦٢) ومن مظاهر هذا الميز والدونية هو مرتب المعاش التقاعدي الذي يتلقاه الجندي الفرنسي المعاق والذي يصل إلى نسبة 100% ويبلغ ٦٩٠ يورو شهريا، في حين يتلقى رفيقه في الجيش السنغالي ٢٣٠ يورو و١٠٤ للجندي الكاميروني، أما المغربي والتونسي فيتلقى ٦١ يورو. أما بالنسبة لمعاش جندي سابق خدم ما لا يقل عن ٩٠ يوما في وحدة قتالية فيبلغ حوالي ٤٣٠ يورو للفرنسي و١٧٥ يورو لجندي من أصول إفريقيا الوسطى و٨٥ يورو للمالي و٥٧ يورو للجزائري و١٦ يورو للكمبودي.(٦٣) وهكذا، فقد كان التمييز حاضرا بقوة بين الجنود الأصليين والجنود الفرنسيين وهو القاعدة في فرق الرماة والسبايس منذ إنشائها.(٦٤) ولم يتم خلق تكافؤ في رواتب التقاعد بين الجنود المغاربة والفرنسيين إلا في غشت سنة ١٩٤٣، وظهر ذلك واضحا عندما شعرت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني (CFLN) برئاسة الجنرال "ديغول" برياح التمرد داخل الفرق المحلية، فسارعت إلى خلق رواتب متكافئة بين الجنود، كما جاء تحقيق هذا التكافؤ بفعل تنديد جمعيات قدماء المحاربين، وجمعية العمال المغاربة في فرنسا، ومجموعة العمال المصابين بنوازل الخدمة، والمعاقين والمتقاعدين،(٦٥) التي طالبت بتحسين الظروف المعيشية للجنود المغاربة المشاركين في جبهات القتال دفاعا عن فرنسا والحلفاء، الأمر الذي يثبت محدودية نتائج عمليات توطين وإعادة إدماج الجنود المغاربة ضحايا الحرب، حسبما أشارت إليه الأرقام وطبيعة الظهائر والقرارات الوزارية الصادرة في شأن تحسين وضعيتها، وحسبما أكدته الصحف الأجنبية التي أفادت بفشل سياسة توطين وتأهيل سقطاء الحرب وضحاياها بالبوادي، بحيث غالبا ما كانت تصادف إجراءات تخصيص الأراضي ومنح السلفات والقروض هشاشة اجتماعية كبيرة بالأرياف بسبب تحمل الجندي الساقط والمشوه المسؤولية على عائلة كثيرة الأفراد، أضف إلى ذلك توالي سنوات الجفاف، ودورية المجاعات والأمراض.

خاتمة

ازدادت حدة الإعاقة، في تاريخ المغرب منذ أوائل القرن العشرين، نظرًا للظروف والمتغيرات التي شهدها العالم آنذاك، وهي فترة تميزت باندلاع الحرب العالمية الأولى والثانية، ومشاركة الجنود المغاربة إلى جانب فرنسا والحلفاء في جبهات القتال. ومع استمرار الحروب والأزمات الدولية واقتحام المغرب فيها تزايد عدد ضحاياها من المعطوبين والمشوهين. وبسبب تدهور الوضعية الصحية والاجتماعية لهذه الفئة، التي أصبحت أمام النوازل التي أصابتها في الحرب معفية من الخدمة العسكرية، جعل إدارة الحماية تولي عناية كبيرة بها، فكانت ضمن سياساتها الإدارية والقانونية، حيث شرعت قوانين وأصدرت ظهائر وقرارات وزارية لإعادة توطينها وإدماجها في مواطنها الأصلية داخل الأوساط الريفية والحضرية. وتضمنت هذه التشريعات إجراءات اجتماعية واقتصادية سهرت على تفعيلها مؤسسات إغاثية وتضامنية.

إلا أن جهود الحكومة الفرنسية في إعادة توطين وإدماج الجنود المغاربة ضحايا الحرب شابهها إكراهات تنظيمية عديدة جعلها دون فاعلية تذكر أمام تزايد عدد كبير من المعطوبين والمشوهين، خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الهند الصينية. فكانت العمليات الإغاثية والتضامنية ناقصة ومتقطعة إذ لم تسر بنفس الوثيرة والقيمة المادية، إذ كانت خاضعة للتأثيرات السلبية للأزمات الاقتصادية والمالية والاجتماعية، والعلاقة المتوترة بين المخزن الشريف وإدارة الحماية خاصة بعد ظهور الحركة الوطنية التي كشفت عبر جرائدها وصحفها مأساوية واقع المجتمع المغربي آنذاك، وطالبت الحكومة الفرنسية بإصلاحه وتحسين مستوى التنمية به اقتصاديًا واجتماعيًا.

الاحالات المرجعية:

(1) Shaun Grech, «Decolonising Eurocentric disability studies: why colonialism matters in the disability and global south debate ». Social Identities: Journal for the Study of Race, Nation and Culture, 21 (1), (2015), p 6- 21.

(2) Bregain Gildas, « Colonialism and Disability: The Situation of Blind people in Colonised Algeria», Alter: European Journal of Disability Research, Elsevier Masson, (2016), p 3.

(3) Devlieger P, «Representations of Physical Disability in Colonial Zimbabwe : the Cyrene Mission and Pitaniko», Disability and Society, 13 (5), (1998), pp. 709 - 724.

(4) Ibid, p. 721.

(5) Verstraete P, Verhaegen, E Depaepe, One difference is enough: Towards a history of disability in Belgian Congo, 1908-1960. In R. Hanes (ed.), International perspectives on disability history. Toronto: University of Toronto Press, (2016).

(6) Bregain, p. 3.

(7) Elkbir Atouf, « Les Marocains en France de 1910 à 1965: histoire d'une migration programmée », In : un siècle de migrations marocaines, migrance 24, (deuxième trimestre 2005), p 6٣.

(٨) المريني، عبد الحق، **الجيش المغربي عبر التاريخ**، الطبعة الخامسة، الرباط، ١٩٩٧، ص. ٢٧٢.

(9) Recham Belkacem, Les combattants marocains de l'armée française 1939-1956, Les combattants marocains de l'armée française 1939-1956, Éd RAHMI – réseau aquitain sur L'histoire et La Mémoire de L'immigration, ALIFS – Association du Lien Interculturel Familial et Social, p. ٩.

(١٠) نفسه، ص. ٣٣٨- ٣٣٩.

(11) Ibid, p. ١٢.

(12) «Guerre civile d'Espagne Réparation des préjudices des soldats marocains », 28 janvier 2010. lematin.ma/express/2010/ 127041.html.

(١٣) "ظهير شريف في حفظ بعض وظائف بإدارات الحماية لقدماء العساكر المغاربة وليتامى الحرب الأهليين المغاربة ولقدماء الرديف من التشكيلات العسكرية المعاونة المنفق عليها من الميزانية المالية لوزارة الحرب"، **الجريدة الرسمية**، عدد ١٣٩٥، السنة ٢٨، ٢١ يوليوز ١٩٣٩، ص. ١٣٢٧.

(١٤) "ظهير شريف في حفظ بعض وظائف بإدارات الحماية لقدماء العساكر المغاربة وليتامى الحرب..''، مصدر سابق، ص ١٣٢٧.

(١٥) "ظهير شريف يتعلق بمنح رواتب تقاعد عساكر الحرس الشريف"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٠٧، (١٤ مارس ١٩٣٠)، ص ٦٢٨.

(١٦) "ظهير شريف في حفظ بعض الوظائف بإدارات الحماية لقدماء العساكر المغاربة وليتامى الحرب.."، مصدر سابق، ص ١٣٢٧. "كتاب من وزير الحرب إلى المقيم العام فيه بيان سلوك الجنود المغربية في الحرب"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٤- ٩٥، ٢٢ فبراير ١٩١٥، ص. ٤٤.

(١٧) «تلغراف رسمي من وزير الحربية إلى سعادة المقيم العام"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٨٦، ٢١ ديسمبر ١٩١٤، ص. ٥٠٢.

(١٨) "كتاب من وزير الحرب إلى المقيم العام فيه بيان سلوك الجنود"، مصدر سابق، ص. ٤٤.

(١٩) قرار وزيري يتعلق بترشيح المعفيين من الجندية لجراح أو أمراض أصابتهم في الحرب بوظيف نساخ بالإدارات المدنية"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٢٨٦، ٢١ أكتوبر ١٩١٨، ص. ١٠٠٦-١٠٠٧. "قرار وزيري في إعفاء من المباراة المعفيين من الجندية لجراحات أو أمراض أصابتهم في الحرب وتعينهم رأسا منشئين متطوعي"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٢٩٧، ٦ يناير ١٩١٩، ص. ٣.

(٢٠) "ظهير شريف في الإذن بأجرأة العمل في الإيالة الشريفة بالقانون الفرنسوي المتعلق بمحجوري الأمة وفي إحداث مكتب مختص بهم"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٣٩٤، ١٢ نونبر ١٩٢٠، ص. ١٠٩٤.

(٢١) اعتمدنا في إنجاز الشكل على عدة ظهائر وقرارات وزارية نشرت في أعداد **الجريدة الرسمية** من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٩، نذكر على سبيل التمثيل: ع ٢٨٦، ٢١ أكتوبر ١٩١٨، ص ١٠٠٦- ١٠٠٧. ع ٣٠٠، ٢٧ يناير ١٩١٩، ص ٥٩- ٦٠. ع ٣٩٤، ١٢ نونبر ١٩٢٠، ص ١١٠٦-١١٠٧-١١٠٨-١١٠٩- ١١١٢. ع ٣٩٤، (١٢ نونبر ١٩٢٠)، ص ١١٠٦- ١١٠٧. ع ٥٠٧، ١٦ يناير ١٩٢٣، ص. ٤٧- ٤٨. ع ٧٥٩، ١٠ ماي ١٩٢٧، ص ص. ١٠٩٤- ١٠٩٧. ع ٨١٣، ٢٢ مايو ١٩٢٨)، ص ص. ١٥٦٩- ١٥٧١. ع ٨٥٥، ١٢ مارس ١٩٢٩، ص ٧٠٢. ع ٩٢١، ١٩ يونيو ١٩٣٠، ص ١٤٣٨. ع ٩٧٢، ١٢ يونيو ١٩٣١، ص. ١١٦٥. ع ١٣٧١، ٣ فبراير ١٩٣٩، ص. ٢٠٥.

(٢٢) اعتمدنا في إنجاز الشكل على عدة ظهائر وقرارات وزارية نشرت في أعداد **الجريدة الرسمية** من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٥٦، نذكر على سبيل التمثيل: عدد ١٩٢٠، ٢ غشت ١٩٤٩. ع ١٩٣٠، ٢١ أكتوبر ١٩٤٩، ص. ١٩٤٤. عدد ١٩٤٠، ٣٠ دجنبر ١٩٤٩، ص. ٢٣٤٠. ع ١٩٤٧، ١٧ فبراير ١٩٥٠. ع ٢٠١٣، ٢٥ مايو ١٩٥١، ص. ١٢١٣. ع ٢٠٢٤، ١٠ غشت ١٩٥١، ص. ٢٠٠٠. ع ٢١١، ٣ أبريل ١٩٥٣، ١٢٦٣- ١٢٦٤. ع ٢١٦٤، ١٦ أبريل ١٩٥٤، ص. ١١٥٤- ١١٥٥- ١١٥٦. ع ٢٢٠٢، ٧ يناير ١٩٥٥، ص. ٢٧- ٢٨. ع ٢٢٠٨، ١٨ أبريل ١٩٥٥، ص. ٤٧٨- ٤٧٩.

(٢٣) اعتمدنا في إنجاز الشكل على عدة ظهائر وقرارات وزارية نشرت في أعداد **الجريدة الرسمية** من سنة ١٩٤٥ إلى ١٩٥٦، نذكر على سبيل التمثيل: عدد ١٩٢٠، ٢ غشت ١٩٤٩. ع ١٩٣٠، ٢١ أكتوبر ١٩٤٩، ص. ١٩٤٤. عدد ١٩٤٠، ٣٠ دجنبر ١٩٤٩، ص. ٢٣٤٠. ع ١٩٥٧، ٢٨ أبريل ١٩٥٠، ص. ٨٨٢. ع ١٩٥٩، ١٢ مايو ١٩٥٠، ص. ١٠١٥- ١٠١٦. ع ٢٠٠٩، ٢٧ أبريل ١٩٥١. ع ٢٠٢٨، ٧ شتنبر ١٩٥١، ١١٨١. ع ٢٠٣٤، ١٩ أكتوبر ١٩٥١، ص. ٢٣٤٥. ع ٢١٢٧، (٣١ يوليوز ١٩٥٣، ص. ٢٦٨٧- ٢٦٨٨. ع ٢١٣١، ٢٨ غشت ١٩٥٣. ع ٢١٦٨، ١٤ ماي ١٩٥٤، ص. ١٤٢٣. ع ٢٢٠٢، ٧ يناير ١٩٥٥، ص. ٢٧- ٢٨. ع ٢٢٠٨، ١٨ أبريل ١٩٥٥، ص. ٤٧٨- ٤٧٩.

(24) Goyet. J. A, « La Fédération Nationale des Mutilés, Combattants et Victimes de la Guerre, résidant au Mar oc est créée », Journal des mutilés et combattants et le Maroc du Nord. Organe mensuel de l'Amicale des mutilés, combattants et victimes de la guerre résidant au Maroc. 5(me) année- Nouvelle série : N 9, (1938), p. 1- 2.

(25) Ibid, p. 2.

(٢٦) **الجريدة الرسمية** من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٥٦، على سبيل التمثيل: عدد ٤٠٥، ١٣ دجنبر ١٩٢١، ص. ١١٢٧- ١١٢٨. عدد ٧٥٨، ٣ ماي ١٩٢٧، ص. ١٣٢٤-١٣٠. ع ٨١٠، فاتح ماي ١٩٢٨، ص. ١٣٢٣- ١٣٢٤. ع ٨٥٥، ١٢ مارس ١٩٢٩، ص. ٧٠٢. ع ٩٢١، ١٩ يونيو ١٩٣٠، ص. ١٤٣٨. ع ٩٧٢، ١٢ يونيو ١٩٣١، ص. ١١٦٥. ع ١٣٧١، ٣ فبراير ١٩٣٩، ص. ٢٠٥. عدد ١٩٤٠، ٣٠ دجنبر ١٩٤٩، ص. ٢٣٤٠. ع ٢٠١٣، ٢٥ مايو ١٩٥١، ص. ١٢١٣. ع ٢٢٠٢، ٧ يناير ١٩٥٥، ص. ٢٧- ٢٨.

(27) Giudice Christophe, « Les anciens combattants marocains et tunisiens de l'armée française : Enjeux d'histoire et de mémoire », In: Autour des morts de guerre : Maghreb - Moyen-Orient, Paris, Éditions de la Sorbonne, 2013, p. 2.

(28) Pirot Renée, « L'action sociale en faveur des anciens militaires marocains », Bulletin Économique et Social du Maroc, Volume XVIII - N° 61 – 1(er) trimestre 1954, p. 60.

(29) Ibid, p. 6٢.

(30) Ibid, p. 60.

(31) Ibidem.

(32) Ibidem.

(٣٣) "ظهير شريف يتعلق بإرجاع المسرحين من الجندية والأسارى والمنفيين ومن يماثلهم إلى شغلهم وبإعادة استخدامهم وتهذيبهم على القيام بشؤون خدمتهم"، **الجريدة الرسمية**، عدد ١٧٣٦، فاتح فبراير ١٩٤٦، ص. ٧٨.

(٣٤) **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٧٥، ٣ يوليوز ١٩٣١، ص. ١٣٠٩- ١٣١٠. ع ٩٨٤، شتنبر ١٩٣١، ص. ١٧٢٢- ١٧٢٣. ع ١٠٠٥، ٢٩ يناير ١٩٣٢، ص. ١٨٣. ع ١٠١٥، ٨ أبريل ١٩٣٢. ع ١٠٢٠، ٢٣ مايو ١٩٣٢، ص. ٢٩٥. ع ١٠٢٤، ١٠ يونيو ١٩٣٢، ص. ١٠٩٢. ع ١٠٢٩، ١٥ يوليوز ١٩٣٢، ص. ١٣٣٥. ع ١١٨٥، ١٢ يوليوز ١٩٣٥، ص. ١١١٩.

(٣٥) Pirot, p. 61- 6٢.

(٣٦) "ظهير شريف يتعلق بتخصيص أراضي مخزنية بقدماء المحاربين"، **الجريدة الرسمية**، ع ٣٥١، ١٩ يناير ١٩٢٠، ص. ٥٠.

(٣٧) نفسه، نفس الصفحة.

(٣٨) "قرار وزيري يتعلق بتخصيص أراضي مخزنية لبعض قدماء المحاربين المغاربة وذلك تخصيصا وقتا"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٣٩٤، ١٢ نونبر ١٩٢٠، ص. ١١٠٦-١١٠٧.

(٣٩) **الجريدة الرسمية**: عدد ٤٠٥، ١٣ دجنبر ١٩٢١، ص. ١١٢٧- ١١٢٨. عدد ٧٥٨، ٣ ماي ١٩٢٧، ص. ١٠٣٥- ١٣٢٤. ع ٨١٠، فاتح ماي ١٩٢٨، ص. ١٣٢٣- ١٣٢٤. ع ٨٥٥، ١٢ مارس ١٩٢٩، ص. ٧٠٢. ع ٩٠٠، ٢٤ يناير ١٩٣٠، ص. ١٧١. ع ٩٧٢، ١٢ يونيو ١٩٣١، ص. ١١٦٥. ع ١٠٦٠، ١٧ فبراير ١٩٣٣، ص. ٢٦٥. ع ١٠٧٩، ١٩ مايو ١٩٣٣، ص. ٨٣٤- ٨٣٥. ع ١٢٦٤، ١٥ يناير ١٩٣٧، ص. ٧٤- ٧٥. ع ١٣٤٩، ٢ شتنبر ١٩٣٨، ص. ١٤٢٩- ١٤٣٠.

(٤٠) "قرار وزيري يتعلق بتخصيص أراضي مخزنية..."، **الجريدة الرسمية**، عدد ٣٩٤، مصدر سابق، ص. ١١٠٩.

(٤١) نفسه، ص. ١١٠٦ – ١١١٢.

(٤٢) "ظهير شريف يتعلق بتخصيص أراضي مخزنية بقدماء المحاربين المغاربة"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٣٥١، السنة السابعة، ١٩ يناير ١٩٢٠، ص. ٥٠.

(٤٣) **الجريدة الرسمية**: عدد ٧٥٨، ١٦ يوليوز ١٩١٧، ص. ١٠٣٧. ع ٤٤٩، ٦ دجنبر ١٩٢١، ص. ١١٠٤- ١١٠٥. ع ٧٥٩، ١٠ ماي ١٩٢٧، ص. ١١٢١. ع ٨١٠، فاتح ماي ١٩٢٨، ص. ١٣٢٤. ع ٨٥٥، ١٢ مارس ١٩٢٩، ص. ٧٠٢- ٧٠٣. ع ٨٩٠، ١٥ نونبر ١٩٢٩. ع ٩٠٤، ٢١ فبراير ١٩٣٠، ص. ٤٥٤. ع ١٠٧٣، ١٩ مايو ١٩٣٣، ص. ٨٣٤- ٨٣٥. ع ١٣١٠، ٣ دجنبر ١٩٣٧، ص. ١٩٢٦. ع ١٣٥٣، ٣٠ شتنبر ١٩٣٨، ص. ١٦٠٤.

(٤٤) **الجريدة الرسمية**: عدد ٩٣٩، ٢٤ أكتوبر ١٩٣٠، ص. ٢٢٧٠. ٢٢٧٣. ع ٤٤٩، ٦ دجنبر ١٩٢١، ص. ١١٠٤- ١١٠٥. ع ٩٧٧، ١٧ يوليوز ١٩٣١، ص. ١٤١٠- ١٤١١. ع ١١٨٨، ٢ غشت ١٩٣٥، ص. ١٢١٢. ع ١٢٩٣، ٦ غشت ١٩٣٧، ص. ١٣٣٧. ع ١٣١٢، ١٧ دجنبر ١٩٣٧، ص. ١٩٩٥- ١٩٩٨- ١٩٩٩. ع ١٣٧٣، ١٧ فبراير ١٩٣٩، ص. ٢٨٨.

(٤٥) **الجريدة الرسمية**: عدد ٩٤٤، ٢٨ نونبر ١٩٣٠، ص ٢٤٧٠- ٢٤٧١. ع ٩٩١، ٢٣ أكتوبر ١٩٣١، ٢٠٧٤. ع ١٢٠٣، ١٥ نونبر ١٩٣٥، ص. ١٧٩٨- ١٧٩٩. ع ١٣١٤، ٣١ دجنبر ١٩٣٧، ص. ٢٠٦٦. ع ١٣٨٣، ٢٨ أبريل ١٩٣٩، ص. ٧٤٩.

(٤٦) **الجريدة الرسمية**: ع ١٩٤٠، ٣٠ دجنبر ١٩٤٩. ع ٢١١٠، ٣ أبريل ١٩٥٣، ص. ١٢٦٣- ١٢٦٤. ع ٢١٦٤، ١٦ أبريل ١٩٥٤، ص. ١١٥٥- ١١٥٦. ع ٢٢٠٢، ٧ يناير ١٩٥٥، ص. ٢٧- ٢٨. عدد ٢٢٠٨، ١٨ فبراير ١٩٥٥، ص. ٤٧٩.

(47) Pirot, p. 6٢.

(48) Ibidem.

(49) Ibidem.

(50) Goyet. J. A, «L'association Générale Des Officiers De Réserve des armées de terre, de mer et de L'air, de Casablanca et de sa région », Journal des mutilés et combattants et le Maroc du Nord, 5(eme) année- Nouvelle série : N 12, (Avril 1938), p. 2. Pirot, p 6٢.

(٥١) "قرار وزيري في تخصيص بعض الوظائف بالأهلين الذين خرجوا من العسكرية"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٣٠٠، السنة السابعة، ٢٧ يناير ١٩١٩، ص. ٥٩.

(٥٢) "ظهير شريف تمنح بمقتضاه على سبيل الأفضلية بعض الوظائف للضباط والعسكريين من الجندية البرية والبحرية المعين لهم مرتب من الدولة بمقتضى القانون الفرنسوي المؤرخ بحادي وثلاثين مارس سنة ١٩١٩ وإن لم يوجدوا فلقدماء المحاربين وللأرامل اللواتي فقدن أزواجهن بالحرب ولم يتزوجن بعدهم وليتيمات الحرب"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٤٤٩، (٦ دجنبر ١٩٢١)، ص ١٠٩٣.

(٥٣) "قرار وزيري يتعلق بترشيح المعفيين من الجندية لجراح أو أمراض أصابتهم في الحرب بوظيف كاتب نساخ بالإدارات المدنية"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٢٨٦، (٢١ أكتوبر ١٩١٨)، ص. ١٠٠٦.

(٥٤) **الجريدة الرسمية**، عدد ١٣٩٥، السنة ٢٨، ٢١ يوليوز ١٩٣٩، مصدر سابق، ص. ١٣٢٧.

(٥٥) Pirot, p 6٢.

(٥٦) "قرار وزيري في شأن إعانة تنفذ لعائلة من توفي من الموظفين الحاضرين في الحرب"، **الجريدة الرسمية**، ع ٨٥- ٨٦، مصدر سابق، ص. ٥.

(٥٧) "ظهير شريف يتعلق بمنح رواتب تقاعد عساكر الحرس الشريف"، **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٠٧، (١٤ مارس ١٩٣٠)، ص ٦٢٦.

(٥٨) نفسه، نفس الصفحة.

(59) J. A. Goyet, «La Fédération Nationale des Mutilés… », op.cit, p 2.

(60) J. A. Goyet, «Amicale des Mutilés, Combattants et Victimes de la Guerre, Résidant au Maroc Assemblée Mensuelle», Journal des mutilés et combattants et le Maroc du Nord, 5(me) année- Nouvelle série : N 11, (mars 1938), p 1.

(61) Ibidem.

(62) Belkacem, p 38.

(63) Ibidem.

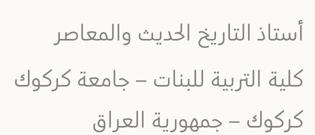
(64) Ibidem.

(65) Ibid, p 38- 39.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

العلاقات السعودية – الإيطالية
دراسة تاريخية (١٩٣٢ – ١٩٥٣)

أ.د. فهد عباس سليمان السبعاوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية التربية للبنات – جامعة كركوك

كركوك – جمهورية العراق

مُلَخّص

يتناول البحث التطور التاريخي للعلاقات السعودية – الإيطالية أثناء حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، والجهود التي بذلتها الحكومات الإيطالية المتعاقبة من أجل تعزيز التقارب مع المملكة العربية السعودية، في ظل التنافس الإيطالي – البريطاني والتنافس بين الملك عبد العزيز وحاكم اليمن الإمام يحيى حميد الدين المتوكل، الأمر الذي جعل تلك العلاقات تسير بشكل متضارب بين التقارب الحذر وبين التنافس طيلة المدة الواقعة بين عامي (١٩٣٢-١٩٥٣). اعتمد البحث على مجموعة مهمة من المصادر يأتي في مقدمتها وثائق وزارة الخارجية وسجلات حكومة الهند البريطانيتين غير المنشورة، نتيجة لتعذر الحصول على وثائق الأرشيف الإيطالي، وقد أفاد البحث من هذه الوثائق لا سيما التقارير المرسلة من السفارة البريطانية في روما والمفوضية البريطانية في جدة الى وزارة الخارجية التي تضمنت جوانب مهمة عن العلاقات السعودية – الإيطالية حتى قيام الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن إفادة البحث من الجرائد الرسمية لا سيما جريدة أم القرى التي رصدت بشكل دقيق أهم الزيارات الدبلوماسية المتبادلة بين البلدين طيلة مدة البحث. خلُصَ البحث إلى أن التطور الذي شهدته العلاقات السعودية – الإيطالية لم يصل الى مستوى علاقات المملكة العربية السعودية مع بريطانيا، التي كانت تحكمها علاقات استراتيجية قوية منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ سبتمبر ٢٠٢٢

تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

السعودية؛ اليمن؛ الحبشة؛ العلاقات السياسية؛ إيطاليا؛ المعاهدات الثنائية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312405

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فهد عباس سليمان السبعاوي، "العلاقات السعودية – الايطالية: دراسة تاريخية (١٩٣٢ – ١٩٥٣)".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٩٥ – ٢٠٧.

Corresponding author: fahd7137@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

تأتي دراسة العلاقات السعودية – الإيطالية أثناء مدة حكم الملك عبد العزيز آل سعود ضمن إطار دراسة العلاقات العربية – الأوربية المعاصرة، وعلى أنها خرجت من الإطار التقليدي الذي حكم على علاقات الدول العربية مع القوى الكبرى آنذاك (بريطانيا وفرنسا)، لذا فأن توجه الملك عبد العزيز نحو توثيق العلاقات مع إيطاليا جاء ضمن توجهات المملكة في تطوير علاقاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية مع جميع الدول وبضمنها إيطاليا.

تحتل العلاقات مع بريطانيا مكانةً مهمة في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة العربية السعودية منذ تأسيس الدولة السعودية الثالثة عام ١٩٠٢، غير أنّ تلك العلاقات تراجعت بشكل واضح أثناء الحرب العالمية الثانية نتيجة جملة من المتغيرات الدولية منها قيام الحرب العالمية الثانية ودخول إيطاليا طرفًا رئيسيًا فيها، فيما أعلنت المملكة العربية السعودية سياسة الحياد. يناقش البحث توجهات السياسة الإيطالية نحو توثيق العلاقات مع المملكة العربية السعودية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، من خلال وثائق وزارة الخارجية البريطانية، إذ رصدت السفارة البريطانية في جدة كل ما يتعلق بسياسة إيطاليا من أجل تعزيز التقارب مع السعودية.

يتناول البحث تطور العلاقات بين البلدين أثناء المدة ١٩٣٢-١٩٥٣، ويعالج عددًا من الملفات المهمة أهمها: معاهدات التعاون السياسي والاقتصادي والصداقة والزيارات الدبلوماسية بين الجانبين، فضلاً عن معرفة موقع إيطاليا ضمن الاستراتيجية السعودية حيال عدد من المسائل التي أُختبِرت فيها إيطاليا، منها موقفها من الحرب السعودية – اليمنية عام ١٩٣٤ والنظرة الإيطالية حيال الموقف السعودي من الاحتلال الإيطالي للحبشة عام ١٩٣٥ ودخول إيطاليا الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥).

١-المملكة العربية السعودية وإيطاليا حتى سنة ١٩٣٢

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، كان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (١٩٠٢-١٩٥٣)، الملقب بابن سعود، منشغلاً في بناء دولته الجديدة بعد انهيار الدولة العثمانية، الذي استطاع أن يعمل على توحيد الكثير من أجزاء شبه الجزيرة العربية تحت زعامته منذ سيطرته على الرياض عام ١٩٠٢[١]. وبعد طرد الهاشميين من الحجاز في نهاية عام ١٩٢٥، أعلن ولادة مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها في ٨ كانون الثاني ١٩٢٦ وأصبح ملكًا عليها[٢].

بعد توطيد دعائم مملكته الجديدة، اتجه الملك ابن سعود صوب تدعيم علاقات الصداقة وحسن الجوار وزيادة التعاون والتنسيق مع مختلف دول العالم وبناء علاقات متكافئة معها في سبيل الحصول على اعترافها به ملكًا على الدولة الجديدة، ورغم أن بريطانيا- صاحبة النفوذ القوي في منطقة الخليج والجزيرة العربية- كان لها اتصالات ودية مع ابن سعود الذي سعى لضمان الحصول على تأييدها ودعمها له في مواجهة القوى المحلية المناوئة له، لكن هذا لم يمنع ابن سعود أن يتوجه الى باقي الدول الأوربية الأخرى ومنها إيطاليا في تعزيز العلاقات معها في إطار إتباع سياسة الموازنة في العلاقات مع الدول الكبرى[٣].

أما بالنسبة لإيطاليا، وبعد تولي بينتو موسولويني[٤] (B. Mussolini) مقاليد رئاسة الحكومة عام ١٩٢٢، فقد ثابر في أن تجد إيطاليا لنفسها منطقة نفوذ في البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية وجعل من أريتريا مركزًا للنشاط الإيطالي في شرق إفريقيا والبحر الأحمر لمنافسة بريطانيا والعمل على استغلال الصراعات المحلية في المنطقة لتحقيق أهدافها [٥].

بدأ الإيطاليون التقرب من دولة الأدارسة[٦] التي كان مقرها في منطقة عسير، الواقعة جنوب غرب المملكة العربية السعودية، ومن الإمام يحيى حميد الدين المتوكل[٧] حاكم اليمن (١٩٠٤-١٩٤٨)، واستطاعت إيطاليا أن يكون لها نفوذ مهم في اليمن، إذ بدأ التواصل بين إيطاليا والإمام يحيى يأخذ مداه منذ عام ١٩٢٣ وعمدت الحكومة الإيطالية الى إرسال الأسلحة لليمن في خضم الصراع الدائر بين الأدارسة والإمام يحيى وتوّجت الجهود الإيطالية في عقد معاهدة مع الإمام يحيى في ٢ أيلول عام ١٩٢٦، والتي اعترفت إيطاليا بموجبها باستقلال حكم الإمام يحيى لليمن مقابل حصول إيطاليا على امتيازات اقتصادية مهمة في اليمن[٨].

أثار عقد المعاهدة قلقًا إقليميًا ودوليًا وبالتحديد من جانب الأدارسة وابن سعود وبريطانيا، فقد رأى زعيم الأدارسة حسن الإدريسي أن المعاهدة تشكل تهديدًا على منطقة عسير التي ربما ستكون تحت سيادة اليمن عن طريق الدعم الإيطالي، والذي أسرع في اللجوء الى ابن سعود في نهاية المطاف وقَبِل أن تكون عسير تحت سيادة ابن سعود وحمايته بموجب معاهدة مكة المعقودة بين الطرفين في ٢١ تشرين الأول

١٩٢٦[٩]. بينما عدّها ابن سعود وبريطانيا بأنها تشكل تهديدًا واضحًا لأمن المنطقة في ظل إرسال الإيطاليين للأسلحة لحاكم اليمن[١٠]، وفي المقابل عندما عقد ابن سعود معاهدة مكة عام ١٩٢٦، فقد عبرت الحكومة الإيطالية عن قلقها الواضح إزاء تلك المعاهدة وعدّتها بأنها كارثة حقيقية تهدد مصالح إيطاليا، اعتقادًا منها أن توسع ابن سعود جنوبًا إنما يخدم المصالح البريطانية وسيهدد الوجود الإيطالي في أريتريا القريب من سواحل البحر الأحمر[١١].

٢-العلاقات السعودية – الإيطالية بين التقارب والتنافر (١٩٣٢-١٩٣٩)

بعد أن شعرت الحكومة الإيطالية أن قوة الدعم البريطاني الذي كان يحظى به ابن سعود بدأ يتعاظم بشكل تدريجي، فقد وجدت أنه من المفيد التقرب من ابن سعود والعمل معه على الدخول في مفاوضات لعقد اتفاقية للصداقة والتعاون من أجل أن يكون لها موطأ قدم في منطقة البحر الأحمر الاستراتيجية[١٢]، وبادرت أولاً الى الاعتراف بابن سعود ملكًا على الحجاز ونجد منذ شباط عام ١٩٢٦ عن طريق قنصلها في جدة فاريز(Vareez) [١٣].

في مطلع عقد الثلاثينات من القرن العشرين حثت الحكومة الإيطالية قنصلها الجديد في جدة جويدو سولازو (G. Sollazzo) البدء في المفاوضات مع ابن سعود في سبيل عقد اتفاقية لتنظيم العلاقات الثنائية بين الجانبين، وبعث القنصل سولازو برسالة الى وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بن عبدالعزيز في ١٠ شباط ١٩٣٢ أكد فيها رغبة ملك إيطاليا فكتور ايمانوئيل (V. Emmanuel) نحو توثيق العلاقات السياسية والاقتصادية مع ابن سعود[١٤]، وتوّجت تلك الجهود في توقيع الجانبين اتفاقية للصداقة والتعاون التجاري بتاريخ ١٠ شباط ١٩٣٢، وقعها عن الجانب الإيطالي القنصل سولازو في حين مثل الجانب السعودي وزير الخارجية الأمير فيصل، واتفق الطرفان بموجبها على ما يلي[١٥]:

١- اعتراف الحكومة الإيطالية بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملكًا على الحجاز ونجد وملحقاتها وتوثيق عرى الصداقة بين الجانبين وأن يسود السلام بين البلدين ورعاياهم.
٢- اتفق الطرفان على إنشاء علاقات سياسية وقنصلية بينهما ولأجل ذلك سيتمتع الممثلين السياسيين لكلا البلدين بالمعاملة الحسنة وفق مبادئ القانون الدولي ويتمتعون بالمعاملة الممنوحة لأولى الأمم بالتفضيل بشرط المقابلة بالمثل.
٣- يتعهد الطرفان بأن يبذلان جهدهما للمحافظة على حسن العلاقات بينهما وأن يسعيا لمنع اتخاذ بلديهما من قبل أي دولة للأعمال غير المشروعة ضد الطرف الآخر.
٤- يتمتع الرعايا التابعين لكلا البلدين أشخاصًا وممتلكاتهم بالمعاملة بالمثل وبمعاملة أولى الأمم بالتفضيل ومنح المعاملة لشركات البلدين المتعاقدين بالمثل[١٦].
٥- يعترف ملك إيطاليا بالجنسية الحجازية - النجدية لجميع رعايا ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عندما يكونون في إيطاليا، وكذلك الحال ينطبق بالنسبة للرعايا الإيطاليين الذين يجب أن يعترف بهم ملك الحجاز ونجد عندما يكونون في البلاد الحجازية.
٦- يتعهد ملك الحجاز ونجد بتقديم التسهيلات والحماية اللازمة للرعايا الإيطاليين الذين يدينون بدين الإسلام ويقصدون الحجاز بقصد أداء فريضة الحج.

بموازاة ذلك توجه وزير الخارجية الأمير فيصل الى نابولي في ١٨ نيسان ١٩٣٢ برفقة القنصل سولازو ثم زار روما في اليوم التالي، لتبادل إبرام اتفاقية الصداقة والتجارة التي وقعت في شباط الماضي[١٧]، واستقبل بحفاوة كبيرة من جانب المسؤولين الإيطاليين وعلى رأسهم الملك ايمانوئيل، ثم اجتمع مع نظيره الإيطالي دينو كراندي (D. Grandi) وناقش معه تعزيز العلاقات السياسية بين الجانبين، ونتج عن تلك الزيارة أن وقّع الجانبان على اتفاقية تجارية أخرى في ٢٢ نيسان حملت نفس بنود الاتفاقية السابقة، وأكد القنصل الإيطالي سولازو أن بلاده تطمح من خلال هذه الاتفاقية أن تعمل على تحسين العلاقات الاقتصادية مع مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها نظرًا للمكانة التي تتمتع بها في المنطقة[١٨]، فضلاً عن ذلك أقدمت الحكومة الإيطالية على رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي من قنصل الى وزير مفوض في جدة، وعينت أوتافيو دي بيبو (Ottavio De Peppo) لهذا المنصب[١٩]، وفي ١٧ آب ١٩٣٢ أرسل ابن سعود مبعوثه الشخصي محمد رأفت الاهدل الى إيطاليا في مهمة خاصة، ووصل الاهدل مدينة تورينو، وهي من أشهر المدن التجارية التي تقع شمال غرب إيطاليا في ١٨ آب، وذكر تقرير المفوضية البريطانية في جدة أن هدف الزيارة هو للاطلاع على الحركة التجارية في هذه المدينة والبحث في إمكانية التنسيق بين الجانبين لتنشيط التجارة بين ميناء جدة والموانئ الإيطالية، فضلا عن ذلك أنه من بين أهداف الزيارة هي لتطبيق الاتفاقيات السابقة والبدء بمرحلة تعزيز النشاط

التجاري بين الجانبين[٢٠]. وفي ١٥ نيسان ١٩٣٣ وأثناء لقائه بالوزير الإيطالي المفوض في جدة، عبر ابن سعود عن شكره للحفاوة التي استقبل فيها الأمير فيصل أثناء زياراته المتكررة لإيطاليا مؤكدًا رغبة بلاده في تطوير العلاقات السياسية والاقتصادية مع روما بما يخدم مصالح البلدين[٢١].

يتضح مما سبق أنه رغم التطور الذي شهدته العلاقات بين الجانبين على المستوى الاقتصادي إلا أن العلاقات السياسية لم تصل الى مستوى متقدم بسبب عدد من المشاكل أهمها علاقة إيطاليا بحاكم اليمن الإمام يحيى والموقف من عسير، فضلاً التخوف السعودي من النشاط الإيطالي في منطقة البحر الأحمر.

٣-الحرب السعودية - اليمنية ١٩٣٤ والموقف الإيطالي منها

تعود جذور الخلاف السعودي – اليمني بشكل واضح منذ إعلان ابن سعود تبعية منطقة تهامة عسير لسيادته بموجب معاهدة مكة الموقعة مع الأدارسة عام ١٩٢٦، والتي قوبلت برفض واضح من جانب الإمام يحيى الذي كان يسعى الى ضم تلك المنطقة تحت سيادته، وبقي الإمام يحيى يتحين الفرص لإثارة الأدارسة ضد ابن سعود[٢٢]، وجاءت الفرصة المناسبة في عام ١٩٣٢ عندما ثار الأدارسة ضد حكم ابن سعود في عسير، الأمر الذي استغله الإمام يحيى منذ فترة طويلة ونتج عن تلك الحركة أن التجأ حسن الإدريسي إلى الإمام يحيى وحاول ابن سعود الدخول في مفاوضات مع الإمام يحيى من أجل وقف التمرد وتسليم حسن الإدريسي للسعودية والعمل على تثبيت الحدود بينهما، إلا أنهما لم يتوصلا الى حل، لا سيما بعد فشل المفاوضات التي بدأت في ١٠ حزيران ١٩٣٣ وانتهت في ٢١ آذار ١٩٣٤ في مدينة أبها[٢٣]، ليعلن ابن سعود أن المفاوضات فشلت ووصلت الى طريق مسدود وبعدها أعلن الحرب على اليمن في ٢٢ آذار ١٩٣٤، وتمكنت القوات السعودية، التي كان قسم منها بإمرة الأمير فيصل، من التوجه صوب تهامة وبعدها باتجاه الأراضي اليمنية واحتلال ميناء الحديدة، في حين احتلت القوات اليمنية مدينة نجران جنوب السعودية[٢٤]. وفي هذه الأثناء طلب ابن سعود من الإمام يحيى سحب قواته من نجران وتسليمه حسن الإدريسي كشرط لوقف القتال، ويشير أحد المصادر الى أن استمرار زحف القوات السعودية صوب الأراضي اليمنية لا سيما بعد أن كان الطريق مفتوحًا باتجاه مدينة صعدة، هو الذي أجبر الإمام يحيى أن يطلب من ابن سعود في ١٢ نيسان لعقد معاهدة تنهي القتال، مما يعني أن الحرب حسمت لصالح ابن سعود في نهاية المطاف[٢٥]. وفي ١٨ أيار ١٩٣٤ عقدت معاهدة الطائف بين الجانبين والتي كان من نتائجها انتهاء الحرب الدائرة بينهما والتعهد بحل مسألة الحدود بروح الأخوة والصداقة بينهما[٢٦].

الموقف الإيطالي

لاشك أن الصراع السعودي – اليمني الطويل كان يحمل في طياته تقاطعًا واضحًا في مصالح الدول الأجنبية وبالتحديد إيطاليا وبريطانيا، صاحبتي النفوذ القوي في المنطقة آنذاك، وبدا واضحًا من خلال مجريات الحرب أن ابن سعود كان يحظى بالدعم البريطاني في حين أن الإمام يحيى كان يحظى بالدعم الإيطالي، فضلاً عن أن الإمام يحيى كان يعد ابن سعود وبريطانيا بأنهما محتلين لأراضٍ يمنية وأنه يعتمد على إيطاليا في حال وقوع الحرب[٢٧].

ومن هنا لا يمكن فهم مدى اعتماد الإمام يحيى على الإيطاليين في مواجهة خصمه ابن سعود إلا من خلال معرفة الموقف الإيطالي من تمرد الأدارسة على سلطة ابن سعود ومن ثم الحرب اليمنية - السعودية.

بالنسبة للموقف الإيطالي من تمرد الأدارسة، فقد كانت الحكومة الإيطالية تهتم اهتمامًا كبيرًا بذلك التمرد وعدّته وسيلة مناسبة لإضعاف سلطة ابن سعود في هذه المنطقة وأن حسن الإدريسي طلب من الحكومة الإيطالية إمداده بالسلاح والذخيرة لهذا الغرض، التي أرسلت إليه مندوبها ليؤكد له دعم إيطاليا الكامل ونتج عنه ذلك إرسال شحنة من الأسلحة الى حسن الإدريسي[٢٨]. ومن جانب أخر، استغلت الحكومة الإيطالية هذا الحدث من أجل إيجاد نفوذ لها على ساحل البحر الأحمر وتسيطر على الطريق المؤدي الى الهند في حال نجاح تمرد الإدريسي في عسير[٢٩]، في وقت كانت العلاقات بين الإمام يحيى والحكومة الإيطالية في أفضل حالها[٣٠].

وعلى مستوى آخر، حاولت الحكومة الإيطالية اعتماد سياسة تبدل المواقف لكسب ود ابن سعود بوصفها وسيلة للحصول على مكاسب اقتصادية مهمة لإيطاليا في المنطقة، واتضح ذلك أثناء المحادثات التي جرت بين وكيل وزارة الخارجية السعودي فؤاد حمزة والوزير الإيطالي بيبو في جدة في ٣ كانون الأول ١٩٣٣، إذ أكد الأخير أن حكومته تعتمد سياسة السلام في جميع أنحاء العالم ومن ضمنها شبه الجزيرة العربية، إلا أنها لن تتخذ أية خطوات لفرض السلام لكنها ستستخدم نفوذها لدى الإمام يحيى لمنع وقوع أعمال عدائية ضد المملكة، وأنها على يقين أن الإمام يريد تسوية ودية مع المملكة[٣١]، وذكر تقرير

السفارة البريطانية في روما في ٣٠ كانون الأول ١٩٣٣ أن الحكومة الإيطالية جددت تأكيدها بأنها تدعم إجراء مفاوضات مباشرة بين اليمن والسعودية لتسوية النزاع، انطلاقًا من مبدأ الحفاظ على الوضع الراهن وعدم تعريض المصالح الإيطالية والبريطانية للخطر[٣٢]. لكن بسبب انتصارات السعوديين ضد اليمن جعل إيطاليا أكثر قلقًا على مصالحها الاقتصادية في اليمن، إلا أنها أعلنت عن حيادها التام في هذه الحرب وأكدت أنها لن تتدخل عسكريًا، لكنها في المقابل أوضحت عدم موافقتها على إسقاط حكم الإمام يحيى[٣٣].

وبحكم الصداقة الإيطالية مع الإمام يحيى، فقد طلبت الحكومة السعودية من روما أن تتوسط لديه لوقف فتيل الحرب القائمة بين السعودية واليمن، فما كان من إيطاليا إلاّ أن أعلنت مساندتها للإمام يحيى في مطالبته بمنطقة عسير في حين وقفت الحكومة البريطانية الى جانب السعودية، التي عدّت فيها منطقة عسير تحت السيادة السعودية بموجب معاهدة مكة الموقعة عام ١٩٢٦[٣٤]. وبادرت الحكومة الإيطالية، تحت ذريعة حماية رعاياها، الى إرسال سفنها الحربية الى سواحل اليمن بعدما شعرت بخطورة وجود القوات السعودية في ميناء الحديدة، إذ كانت توجد مستودعات للبُن فضلاً عن وجود الكثير من الإيطاليين وعدد من المستشفيات الإيطالية فيها[٣٥]، وقامت وزارة الخارجية السعودية بإرسال مذكرة بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٣٤ الى ممثلي الدول الأجنبية في جدة بضمنها إيطاليا، أكدت فيها أن القوات السعودية سيطرت على المناطق التي انسحبت منها قوات الإمام يحيى ومنها الحديدة وأن الحكومة السعودية ستتولى إدارة تلك المناطق وتعمل على حماية رعايا الدول الأجنبية وحفظ مصالحها[٣٦]، ثم بادر الأمير فيصل، الذي كان على رأس تلك القوات الموجودة في الحديدة، في الدخول في مفاوضات مع الوزير الإيطالي المفوض في جدة وأكد له أن وجود هذه القوات سوف لن يعرض المصالح الإيطالية للتهديد وأن بلاده كفيلة بالمحافظة على أرواح الرعايا الإيطاليين، وتمكن بذلك من إقناع الحكومة الإيطالية في سحب سفنها من سواحل الحديدة[٣٧].

وفي نفس الإطار توجه وفدٌ سعوديٌ برئاسة وكيل وزارة الخارجية السعودية فؤاد حمزة الى روما في زيارة رسمية بتاريخ ٥ حزيران ١٩٣٤، وأكد حمزة للمسؤولين الإيطاليين رغبة بلاده في تعاون أكبر في الشؤون الاقتصادية والعسكرية بين الجانبين وأكد للإيطاليين استقرار الأمور بين اليمن والسعودية بعد الأحداث الأخيرة وان حكومته حريصة على حماية رعايا الحكومة الإيطالية وصيانة مصالحها في سواحل البحر الأحمر، وبعد ذلك تلتها زيارة أخرى في ١٠ أيلول ١٩٣٤، إذ ناقش حمزة مع وزير الخارجية الإيطالي فولفيو سوفيج (F. Suvich) تعزيز التعاون الثنائي بين الجانبين وأهمها الاقتصادي والعسكري فضلاً عن التمثيل الدبلوماسي، ونتج عن تلك المناقشات تعهد الحكومة الإيطالية بإرسال بعثة عسكرية الى الرياض بمهمة تدريب القوات الجوية السعودية الناشئة[٣٨].

٤-الموقف السعودي من الاحتلال الإيطالي للحبشة (١٩٣٥-١٩٣٦)

في الوقت الذي كان يسعى فيه الإيطاليون نحو تعزيز العلاقات مع ابن سعود، فقد عملوا من جانب آخر على توسيع نفوذهم في منطقة البحر الأحمر، وتوّج ذلك في احتلالهم للحبشة[٣٩] (إثيوبيا الحالية) بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٩٣٥ ونتج عنها ضمها الى مناطق النفوذ الإيطالي، في إطار سياسة التنافس الاستعماري بين الدول الأوربية في المنطقة العربية وشرق إفريقيا[٤٠].

ورغم ما أكده الزعيم الإيطالي بينتو موسوليني حول صداقته للعرب والمسلمين ودعم حركات التحرر ضد الاستعمارين البريطاني والفرنسي في إفريقيا، إلا أن احتلال الحبشة اقلق ابن سعود من أن يتوسع الإيطاليون الى منطقة شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر[٤١]. لذلك كانت تراود ابن سعود الشكوك حول السياسة الإيطالية في البحر الأحمر وما ستؤول إليه الأمور حيال وضع المملكة في إطار العلاقات السعودية – البريطانية القوية وفي ظل الصراع البريطاني – الإيطالي في شرق إفريقيا[٤٢]، وجاءت تلك الشكوك أثناء الزيارة التي قام بها وفدٌ من الحكومة الحبشية الى جدة في ٢٨ تشرين الأول ١٩٣٥ ولقائهم بابن سعود، الذين طلبوا منه اتخاذ كل الوسائل في سبيل مفاتحة الحكومة الإيطالية لإنهاء احتلال بلادهم[٤٣]. وعلى أثر ذلك توجه ولي العهد السعودي الأمير سعود بن عبدالعزيز الى روما في زيارة رسمية في ١٢ كانون الأول ١٩٣٥ للقاء القادة الإيطاليين، وعقد اجتماعًا مع موسوليني تناولا العلاقات الثنائية فضلاً عن القلق السعودي حيال الوجود الإيطالي في الحبشة وتأثيره على أمن المملكة، وجدد موسوليني تأكيده حول عدم وجود أي تهديد للمملكة واستقرارها وهي تسعى نحو تعزيز الروابط معها[٤٤]، وبحث الأمير سعود مع المسؤولين الإيطاليين إمكانية تزويد المملكة بالأسلحة الضرورية والمساعدة التقنية، واتفق الطرفان على

قيام الحكومة الإيطاليين إرسال مدربين لغرض تدريب القوات الجوية السعودية في أقرب وقت[٤٥].

إن الموقف السعودي من احتلال إيطاليا للحبشة ينحدر من قلق المملكة من السياسة الإيطالية في منطقة القرن الإفريقي، ومراقبة الموقف البريطاني من الاحتلال، في وقت كان ابن سعود يحاول تدعيم مركزه في شبه الجزيرة العربية وسعيه الى الحصول على مساعدة الدول الأوربية في عملية بناء المملكة الفتية، ومن هنا استقبل ابن سعود وفدٌ إيطالي برئاسة نائب وزير الخارجية أوديلو (Odello) في ١٥ كانون الأول ١٩٣٥ وناقش معه العلاقات الثنائية بين الجانبين، وتقدم الوفد الإيطالي بعرض الى الحكومة السعودية لشراء (١٢،٠٠٠) جمل مقابل أن تدفع مبلغ (١٠٠) جنيه ذهب عن كل جمل وعرض أن يكون الدفع في صورة أسلحة تقدمها الحكومة الإيطالية للمملكة[٤٦]، ورغم الضغوط البريطانية برفض هذه الصفقة، إلا أن المملكة عدتها صفقة تجارية ومن حقها السير قدمًا في إتمامها لأنها بحاجة لتدعيم اقتصاد المملكة المتنامي[٤٧].

ورد وكيل وزارة الخارجية فؤاد حمزة على الضغوط البريطانية أثناء لقائه بالوزير البريطاني المفوض في جدة اندرو رايان (A. Ryan) في ٢٤ كانون الأول ١٩٣٥، الذي أوضح أن بلاده لا تسعى الى خسارة صداقة بريطانيا بسبب هذه الصفقة وهي تعمل على موازنة مصالحها مع القوى الأوربية لأن المملكة في حاجة ماسة للأموال لبناء وتطوير المملكة اقتصاديًا وليس لديها نية لرفض العرض الإيطالي[٤٨]، وأكد فؤاد حمزة أن المملكة العربية السعودية ترتبط بمعاهدة صداقة وتجارة مع إيطاليا الموقعة في شباط ١٩٣٢ وبيّن أن الدفع سيكون نقدًا وليس سلاحًا، وأنه ليس هناك ما يمنع من إتمام الصفقة التجارية مع إيطاليا ومن ثم عن طريق المال بإمكان المملكة أن تقوم بشراء الأسلحة سواءً من إيطاليا أو من غيرها[٤٩]. ولدى لقاء الوزير البريطاني المفوض رايان بمستشار ابن سعود الشيخ يوسف ياسين في جدة، أوضح الأخير أن حكومته تسعى نحو توثيق العلاقات مع إيطاليا وطلبت من الحكومة الإيطالية ضرورة الدخول في مفاوضات مع الحكومة الحبشية والعمل على إنهاء الاحتلال وعدم تعريض المنطقة لأخطار كبيرة مستقبلاً[٥٠].

لقد حاولت الحكومة البريطانية ثني المملكة عن إتمام تلك الصفقة ووجوب انضمامها الى مقاطعة إيطاليا اقتصاديًا والعمل على تغيير موقفها من الاحتلال الإيطالي للحبشة، وجاء ذلك أثناء اللقاء الذي جمع الوزير البريطاني رايان بالشيخ يوسف ياسين في جدة بتاريخ ٢٨ كانون الأول ١٩٣٥، وأشار رايان الى أن المملكة العربية السعودية لا يمكنها الانضمام الى عصبة الأمم في حال لم تقف الى جانب الدول المقاطعة اقتصاديًا لإيطاليا[٥١]، في حين أكد يوسف ياسين أن ابن سعود ينظر الى أن مسألة احتلال الحبشة هي ليست مجرد حرب بين إيطاليا ودولة أفريقية بقدر ما هي صراع بريطاني – إيطالي للسيطرة على المنطقة، وليس للمملكة أي مصلحة للدخول في محور هذا الطرف أو ذاك، لذلك بادر وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بإرسال مذكرة الى عصبة الأمم بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٦ أوضح فيها موقف بلاده من قضية الحبشة والمقاطعة الاقتصادية لإيطاليا جاء فيها: "أن حكومة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية تفكر بعناية في موقفها من الأمر بهدف تقرير أي مساعدة تستطيع تقديمها بدون الخروج عن الموقف الذي التزمت به بالحفاظ عليه كحكومة مسالمة على صلات مودة بالطرفين المتحاربين وكحكومة مسؤولة عن شؤون أماكن الإسلام المقدسة، فأن المملكة قلقة فوق كل شيء من أجل الحفاظ على أقصى علاقات المودة الراسخة مع البلاد المجاورة... ومع ذلك ولكون المملكة ليست عضوًا في عصبة الأمم ترى أن مشاركتها في العقوبات الاقتصادية سوف تسبب مسؤوليات ثقيلة دون التمتع بالمزايا والفوائد الممنوحة لأعضاء العصبة، وأخيرًا فأن المملكة تراعي الحياد التام في الصراع الإيطالي-الحبشي الحالي ما لم تتخذ بأية حال إجراءات خاصة تمنح الدول غير الأعضاء في العصبة الحقوق والمزايا الممنوحة للدول الأعضاء"[٥٢].

إن أي موقف حول المقاطعة الاقتصادية والسياسية لإيطاليا إنما هو قرار غير سليم، حسب وجهة نظر المملكة العربية السعودية، لذلك فهي ترى وجوب عدم إثارة إيطاليا، ونظرًا لوجود الأماكن المقدسة فيها، فأن المملكة حريصة على السلام والأمن الدوليين فضلاً عن أهمية الوجود الإسلامي في المناطق الخاضعة للاحتلال الإيطالي والمصالح المشتركة التي تربط المملكة بتلك المناطق لا سيما حركة الحجيج وأهمية البحر الأحمر كمنفذ إسلامي[٥٣].

يبدو واضحًا أن المملكة العربية السعودية اتخذت موقف الحياد وعدّته الخيار الأسلم في التعامل مع الصراع الإيطالي-الحبشي، وحاولت ما يمكن فعله في سبيل إنهاء ذلك الصراع وإبعاد المملكة عنه، في وقت لم تنسى معاناة مسلمي الحبشة، إذ عبرت الحكومة السعودية عن رغبتها لاستقبال أي قنصل تعينه الحكومة الحبشية وستمنح الرعايا الأحباش معاملة حسنة

مثل باقي رعايا الدول الأخرى وستقدم كل مساعدة ممكنة لهم[٥٤]، ومن ناحية أخرى جدد الوزير الإيطالي المفوض الجديد في جدة جوفيني بيرسكو (G. Persico) أن النفوذ الإيطالي في الحبشة لا يهدد أمن المملكة العربية السعودية، وأن بلاده ليس لديها نوايا عدوانية في شبه الجزيرة العربية وان حكومته تسعى نحو تعزيز العلاقات الثنائية مع المملكة في شتى المجالات[٥٥].

ربما كانت الحكومة السعودية تراعي الحفاظ على استمرار العلاقات الرسمية مع إيطاليا كإجراء حد أدنى لضمان استمرارية أقل قدر من الصداقة بينهما، وبالتالي كان يمكن تقييم مثل هذه الصداقة الدنيا على أنه قد يمنع أي شكل من أشكال العداء الإيطالي ضد المملكة في ذلك الوقت، وبالتالي يمكن تفسيره بأنه موقف ينطوي على تجنب اتخاذ موقف متشدد من الاحتلال الإيطالي للحبشة حتى لا تثير إيطاليا وتسلك سلوكًا عدائيًا يقوض أمن واستقرار المملكة العربية السعودية.

في هذا الإطار دخلت كل من المملكة العربية السعودية وإيطاليا في مفاوضات تتعلق بحصول المملكة على طائرات من إيطاليا في ٣٠ نيسان ١٩٣٦، إذ كان هناك ميل نحو شراء الأسلحة والاستعانة بمدربين من إيطاليا لتدريب القوات الجوية السعودية، وفي نفس الوقت تحاول المملكة تخفيف اعتمادها على بريطانيا، لان الإيطاليين تقدموا بشروط ميسرة تحقيقًا لرغبتهم في توسيع نفوذهم السياسي والاقتصادي، ونتج عن ذلك أن أقدمت الحكومة الإيطالية على إرسال (٦) طائرات الى السعودية في إطار صفقة لتعزيز التعاون العسكري بين الجانبين، وأكد الوزير الإيطالي المفوض في جدة بيرسكو لمستشار ابن سعود الشيخ يوسف ياسين، أن حكومته ليس لديها باعث خفي من وراء هذه الصفقة، وإنما تعمل على تعزيز علاقاتها الإستراتيجية مع المملكة العربية السعودية وتسعى الى تقديم المساعدة الممكنة في مجال تطوير الطيران عن طريق تدريب الطيارين السعوديين[٥٦].

وحول جهود السياسة البريطانية إزاء احتواء الخطر الإيطالي الذي بات يهدد مصالحها في شبه الجزيرة العربية لا سيما في السعودية، فقد أبرمت كل من بريطانيا وإيطاليا اتفاقًا بينهما بتاريخ ١٦ نيسان ١٩٣٨ يتعلق بقضية الحبشة[٥٧]، وعندها فقد راود الشك الجانب السعودي من ذلك الاتفاق، وبادر وزير الخارجية الأمير فيصل بإرسال مذكرة الى كل من الحكومتين البريطانية والإيطالية في ٥ كانون الثاني عام ١٩٣٩، بيّن فيها الموقف السعودي الرسمي تجاه تلك الاتفاقية[٥٨] جاء فيها:" أن حكومة جلالة الملك لا تعد نفسها مرتبطة بأي معاهدة لم تشارك فيها، وهي لا تعترف بأي قيود أو شروط يمكن أن تحد من حريتها، وهي تبدي جميع تحفظاتها تجاه ذلك[٥٩]، وردت الخارجية الإيطالية على المذكرة السعودية عن طريق مفوضيتها في جدة بتاريخ ١١ آذار ١٩٣٩ وتضمنت:" أن المعاهدة الإيطالية الإنجليزية بوصفها معاهدة أبرمت بين إيطاليا وبريطانيا العظمى، فإنها تلزم هاتين الدولتين فقط ولا تفرض على السعودية أي إلزام، وبأن الحكومة متفقة على أن علاقاتها مع الحكومة السعودية تنظمها الاتفاقيات والمعاهدات القائمة بين إيطاليا والسعودية"[٦٠]. وأوضح الوزير الإيطالي الجديد في جدة لويجي سيليتي(L. Sillitti) للحكومة السعودية في ١٢ آذار ١٩٣٩ عن رغبة بلاده في أن تكون المملكة العربية السعودية وشبه الجزيرة العربية قوية ومستقلة بعيدة عن التوترات في منطقة البحر الأحمر[٦١].

ورغم عدم اقتناع ابن سعود بالنوايا الإيطالية إلا أن المملكة وقعت اتفاقية عسكرية مع إيطاليا في شهر آب عام ١٩٣٩، لتوريد الأسلحة الى المملكة، فضلاً عن ذلك كانت البعثة العسكرية الإيطالية في جدة تمارس نشاطها في تدريب القوات الجوية السعودية بموجب الاتفاق الذي حصل بين الجانبين إبان زيارة الأمير سعود لروما عام ١٩٣٥[٦٢]، والتي عدّها الإيطاليون أكبر دليل على تطبيق الاتفاقيات المبرمة بين البلدين فضلاً عن تقدير الحكومة الإيطالية لصلات الصداقة مع المملكة العربية السعودية[٦٣].

يتضح أن الوجود الإيطالي في الحبشة والاتفاق الإيطالي – البريطاني الأخير هو الذي عمق المخاوف الأمنية بالنسبة للمملكة العربية السعودية، لذا حاولت المملكة مسايرة الإيطاليين عن طريق الدخول في اتفاقات تجارية وعسكرية معهم تجنبًا لعدم إثارتهم وينعكس بالتالي بشكل سلبي على أمن المملكة.

٥-العلاقات السعودية – الإيطالية أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)

في ظل التطورات السابقة أدرك ابن سعود ضرورة أن يتبنى سياسة منسجمة مع واقع يناسب القوى العالمية المؤثرة ومتلائمة مع الجو السياسي العام المشحون بالاحتمالات والمتغيرات السريعة والمستمرة، آخذًا بنظر الاعتبار، مواقف الدول الكبرى تجاه دول المنطقة، وتحديدًا بريطانيا، وعليه فقد حاول أن ينتهج سياسة واضحة إزاء الصراع الذي بدأت بوادره ظاهرة في مطلع شهر أيلول عام

١٩٣٩ بين دول الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، والاتحاد السوفيتي) ودول المحور (ألمانيا، إيطاليا، واليابان) [٦٤]. وعمل ابن سعود على إتباع سياسة المناورة على حساب القوى الدولية، لأنه لم يكن مطمئنًا للسياسة الإيطالية، لذا فقد كان يرى أن مصالحه تمنعه من اتخاذ أية خطوة قد تقحمه في مشكلات أو صعوبات مع بريطانيا[٦٥].

ورغم التطور الذي وصلت إليه العلاقات السعودية - الإيطالية، إلا أن اندلاع الحرب العالمية الثانية في ٣ أيلول ١٩٣٩ بين المعسكرين المتحاربين قد حال دون استمراريتها، فقد أعلنت الحكومة السعودية الحياد حيال الحرب الدائرة رغم محاولات طرفي الحرب اجتذاب المملكة لهذا الطرف أو ذاك[٦٦]، ومارست الحكومة البريطانية ضغوط عدة بالطلب من السعوديين أن يبادروا الى إغلاق البعثة الدبلوماسية الإيطالية في جدة وإيقاف كل أشكال التعاون بين السعودية وإيطاليا أثناء تلك المدة[٦٧]. وفي المقابل حاول الوزير الإيطالي سيليتي، أثناء لقائه بابن سعود في حزيران ١٩٤٠، إقناعه بالانضمام الى إيطاليا وألمانيا في حربهما ضد دول الحلفاء، وأوضح له أن ألمانيا وإيطاليا تعدانه بتاج الدول العربية، إلا أن الملك رفض هذه الفكرة وتمسك بسياسة الحياد التي أعلنها سابقًا[٦٨].

رغم الضغوط السابقة لكن هذا لم يمنع من التواصل الثنائي بين الجانبين ففي خضم الحرب الدائرة التجأت الى سواحل المملكة العربية السعودية بعض السفن الحربية الإيطالية وعلى متنها عدد من الجنود المصابين نتيجة المعارك البحرية في شرق إفريقيا، وبادرت الحكومة السعودية بإجلاء هؤلاء الجنود وإسعافهم وذكر البيان الصادر عن الحكومة السعودية المؤرخ في الخامس من شهر نيسان ١٩٤١ أن الحكومة السعودية، ومن واجب حرصها على علاقات الصداقة مع الحكومة الإيطالية، فأنها قامت بما يلزم لإسعاف الجنود الإيطاليين فضلاً عن ذلك سمحت الحكومة السعودية لثلاث طائرات مدنية عائدة لشركة الملاحة الجوية الإيطالية بالهبوط في مطار جدة بسبب عطل فني حدث لها وهي في طريقها الى إيطاليا[٦٩]، وفي ١٥ شباط ١٩٤٢ التقى الوزير الإيطالي المفوض سيليتي بابن سعود في الرياض، وعبر سيليتي عن شكر بلاده لموافقة المملكة على قيام المفوضية التركية في جدة برعاية المصالح الإيطالية في المملكة العربية السعودية رغم الضغوط البريطانية، وأكد سيليتي أن العلاقات الدبلوماسية بين إيطاليا والسعودية تمر بمرحلة حرجة ولكنها لا تسير نحو الانقطاع[٧٠]. وفي المقابل بادرت الحكومة السعودية الى إصدار أوامرها بنقل أعضاء البعثة الدبلوماسية الإيطالية الى الأماكن المخصصة للحجر الصحي، خوفًا من حدوث صدامات بينهم وبين أعضاء الهيئات الدبلوماسية التابعة لدول الحلفاء في جدة[٧١].

وبسبب الهزائم المتوالية التي منيت بها القوات الإيطالية في شرق إفريقيا هرب عدد آخر من العسكريين الإيطاليين من الحبشة واريتريا يقدر عددهم (٨٠٠) ما بين ضابط وجندي باتجاه مدينة جدة ولجئوا الى المملكة العربية السعودية، بقي قسم منهم يعمل في المملكة بينما سهلت الحكومة السعودية عودة القسم الآخر الى بلادهم[٧٢]. وبعد ذلك أغلقت المفوضية الإيطالية في جدة بتاريخ ٢٤ شباط عام ١٩٤٢ كإجراء احترازي، ولم تُقدم المملكة على قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا نظرًا لتطورات الحرب، وبالتالي سيمكن المملكة، في حالة انتصار دول المحور في الحرب، من فتح المفوضية الإيطالية مرة أخرى، وهو إجراء اتبعه ابن سعود تبعًا للظروف التي كانت تمر بها المنطقة[٧٣].

وهذا يعني أنه رغم ظروف الحرب فأن المملكة لم تطلب من إيطاليا تغيير وضع التمثيل الدبلوماسي في جدة خلال العامين الأولين من الحرب، وربما يكون ذلك نابعًا من خشية المملكة العربية السعودية من أن يؤدي قطع العلاقات مع إيطاليا الى قيام الإيطاليين بأي عمل عدواني يؤدي الى تهديد المملكة.

ويتبين من خلال معطيات الحرب ومجرياتها أن ابن سعود رغم انتهاجه لسياسة الحياد أثناء الحرب، إلا أنه أبدى تعاطفه في الخفاء مع دول الحلفاء معبرًا عن استعداده للوقوف ضد أي اتجاه قد يعيق تعاون العرب مع بريطانيا ودول الحلفاء، وقد عزز ابن سعود ميوله – بحسب إحدى الوثائق البريطانية – الى جانب بريطانيا بقوله أن: " السعودية تقف الى جانب الحلفاء ضد دول المحور"[٧٤].

٦- عودة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية وإيطاليا (١٩٤٧-١٩٥٣)

بعد استسلام إيطاليا في أيلول ١٩٤٣، هدف النظام الجديد في إيطاليا الى تعديل سلوكه السياسي بما يتوافق مع البيئة الدولية الجديدة، وقررت الحكومة الإيطالية العمل على توثيق العلاقات الخارجية مع جميع الدول وفق منطق الصداقة والشراكة السياسية والاقتصادية فضلاً عن اشتراكها في المنظمة العالمية الجديدة[٧٥].

ومن هنا بدأت صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الدولية تمثلت في قيام هيئة دولية جديدة وهي هيئة الأمم المتحدة التي تأسست عام ١٩٤٥، وقد انضمت إليها المملكة العربية السعودية بعد إعلانها الحرب على دول المحور في الأول من آذار عام ١٩٤٥ كشرط مسبق لقبول أية دولة للانضمام إليها، وبذلك دخلت المملكة رسميا الى المنظمة الدولية الجديدة بعد التوقيع على ميثاقها في ٢٦ حزيران ١٩٤٥ في مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية[٧٦].

وحول العلاقات السعودية – الإيطالية، فقد كانت المصالح الإيطالية في المملكة تستند في الغالب على الاتفاقيات المبرمة بين الجانبين في عقد الثلاثينات من القرن العشرين، لكن بعد انتهاء الحرب لم يكن لدى إيطاليا القوة السياسية ولا القوة الاقتصادية اللازمة لتحدي أو منافسة الولايات المتحدة الأمريكية في تنشيط العلاقات الاقتصادية مع المملكة، إلا إنه استأنفت المملكة العربية السعودية وإيطاليا العلاقات الدبلوماسية بينهما بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩٤٧ بعد انقطاع دام خمس سنوات، وجرت الاتصالات الأولية من خلال المفوضتين الإيطالية والسعودية في تركيا، وكان أول وزير إيطالي مفوض هو فيليبو زابي (F. Zappi)، الذي وصل إلى جدة في ١٠ تشرين الأول ١٩٤٧ وقدم أوراق اعتماده أمام ولي العهد الأمير سعود[٧٧].

قدم الوزير الإيطالي تقريرًا الى وزارة الخارجية الإيطالية في ٥ كانون الثاني ١٩٤٨ أوضح فيه العقبات التي تحول دون تطوير العلاقات الاقتصادية مع المملكة العربية السعودية بسبب هيمنة الشركات النفطية الأمريكية العاملة في مجال التنقيب عن النفط داخل المملكة، وأن هناك تعاظمًا في نفوذ الولايات المتحدة في المجال الاقتصادي وهذا بطبيعة الحال يصطدم بالجهود الإيطالية في سبيل الحصول على عقود من الحكومة السعودية من أجل فسح المجال أمام الشركات الإيطالية للعمل في دعم التنمية الحديثة في المملكة، ويمضي التقرير بالحديث عن ضرورة اتخاذ الحكومة الإيطالية الوسائل المناسبة حول تعزيز التقارب مع المملكة[٧٨]. وتعزيزًا لهذه الرغبة فقد التقى الوزير الإيطالي زابي بابن سعود في الرياض بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٤٨، وعبر الملك عن رغبة المملكة نحو توثيق علاقات الصداقة والتعاون مع الحكومة الإيطالية[٧٩]، فيما أوضح الوزير زابي أنه يشعر بالسرور للحفاوة والتكريم الذي لقاه من جانب ابن سعود، وأنه جاء لينقل سعي حكومته في تطوير العلاقات الثنائية مع المملكة، وجدد تأكيده لتعزيز وجود الشركات الإيطالية في عملية التنمية والتحديث في المملكة بما يخدم مصالح البلدين[٨٠].

عززت الحكومة الإيطالية علاقاتها الدبلوماسية مع السعودية، فقد حل أوغو توركاتو (U. Turcato) محل الوزير المفوض زابي في رئاسة المفوضية الإيطالية بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٩٤٩، الذي قدم أوراق اعتماده لابن سعود في مراسيم رسمية جرت في القصر، وجدد ابن سعود التأكيد على علاقات الصداقة القديمة مع إيطاليا وعبر عن أمانيه في التعاون بين الشعبين السعودي والإيطالي بما في ذلك مساهمة إيطاليا في تحديث المملكة العربية السعودية والتأكيد على التعاون الاقتصادي الأكبر بين البلدين، وهو ما كانت الحكومة الإيطالية تعمل من أجله لتعزيز الحضور الإيطالي السياسي والاقتصادي في المملكة[٨١]، وبنفس اليوم أقام وزير الخارجية الأمير فيصل مأدبة عشاء في مقر وزارة الخارجية على شرف الوزير الإيطالي الجديد وقد حيا الأمير فيصل الوزير توركاتو داعيًا الى بذل كل الجهود من أجل تعزيز العلاقات الثنائية بين البلدين[٨٢]. وبادرت الحكومة السعودية من جهتها بتعيين وزير مفوض جديد لها في روما واختير موفق الالوسي لهذا المنصب، الذي قدم أوراق اعتماده بصفته وزيرًا مفوضًا لبلاده للرئيس الإيطالي لويجي إينودي (L. Einaudi) في ٢٥ كانون الأول ١٩٥٠[٨٣].

ناقش الوزير الإيطالي توركاتو مع وزير الخارجية الأمير فيصل العلاقات الثنائية وعبر عن رغبة بلاده نحو توثيق العلاقات الاقتصادية مع المملكة، وأبدى الأمير فيصل رغبته في تعزيز التعاون التجاري مع إيطاليا، فقد بلغت قيمة الصادرات الإيطالية الى المملكة حوالي (٦٠٠) ألف ريال سعودي، بينما بلغت قيمة الصادرات السعودية إلى إيطاليا باستثناء النفط (٢٠٠) ألف ريال سعودي خلال عام ١٩٥٠[٨٤].

لقد عملت الحكومة الإيطالية على إنشاء علاقات اقتصادية متطورة مع جميع دول العالم، وذلك من خلال بيانها الصادر في ١٨ نيسان ١٩٥١، الذي دعت فيه الى إتباع كل الوسائل الممكنة في سبيل تعزيز علاقات إيطاليا الاقتصادية والسياسية مع الدول الغنية[٨٥]، وفي هذا الإطار توجه وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل الى روما في زيارة رسمية بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٥٢، وكان في استقباله عددًا من المسؤولين الإيطاليين في مدينة نابولي، وبعدها التقى برئيس الجمهورية اينودي في روما ومن ثم عقد اجتماعًا مع رئيس الوزراء الإيطالي السيدي دي جاسبري (A. Gasperi) وناقش معه تطور العلاقات الثنائية بين البلدين فضلاً عن ملفات أخرى تتعلق بالمنطقة العربية والدور

الإيطـالي الـدبلوماسي الـذي يمكـن أن تعـول عليـه المملكـة العربية السعودية في سبيل دفع عملية السلام والاستقرار في المنطقـة العربيـة(٨٦). وبعـد ذلـك زار الأمـير فيصـل معـرض للصناعات التقنية الكبيرة في مدينة ميلانو وعبر عن رغبة بلاده في تعزيز التعاون الاقتصادي بين البلدين(٨٧). وبموازاة ذلك قدّم جوزيـب كابيسي غاليوتـا (G.C. Galeota) أوراق اعتمـاده لابـن سعود بصفته وزيرًا مفوضًا جديدًا لبلاده خلفًا لتوركاتو في ٣ شباط ١٩٥٣، وعبر عن أمله في أن تتطور العلاقات السعودية – الإيطاليـة في المجـالات السياسـية والاقتصـادية بمـا يعـزز مصـلحة الجانبين(٨٨)، وكتـب غاليوتـا تقريـرًا الى حكومتـه في ٢٢ تشرين الأول ١٩٥٣، ذكـر فيـه أن الوقـت أصبح مؤاتيًا لتطـوير العلاقـات الاقتصـادية مـع المملكـة، ويجـب دفـع الشركـات الإيطالية العملاقة للدخول في ميدان التنافس الاقتصادي مع الشركات العالمية، والـتي عـدّها الوسـيلة المناسـبة لاخـتراق الاقتصاد السعودي، وذلك عن طريق إرسال الوفود الاقتصادية والمدراء الصناعيين والتجار الكبار الى المملكة لتقديم العروض المناسبة والحصول على التسهيلات اللازمة للمشاركة في دعم النهضة العمرانية في المملكة(٨٩).

تعـززت العلاقـات الدبلوماسـية بـين المملكـة العربيـة السـعودية وإيطاليـا مـن خـلال الـزيارات الدبلوماسـية بـين الجـانبين، ففـي ٢٣ تشرـين الأول ١٩٥٣ قـام وزيـر الداخليـة السعودي الأمير عبدالله الفيصل بزيارة شملت عددًا من الدول الأوربية، وكانت روما واحدة من محطات زيارته، والتقى الفيصل بعدد من المسؤولين الإيطاليين، وعبر رئيس الحكومة الإيطالية جاسبري أثناء اللقاء عن ترحيبه بوفد المملكة وأكد على حرص بلاده نحو توثيق العلاقات السياسية بين البلدين ويأمل أن تبادر الحكومـة السـعودية بتوسـيع آفـاق التعـاون الاقتصـادي والعسكري مع روما والاستفادة من خبرة الشركات الإيطالية في مجال البناء والأعمار والبنى التحتية(٩٠).

أن الحدث الأبرز الذي شهدته المملكة العربية السعودية تمثل في وفاة ابن سعود في ٩ تشرين الثاني ١٩٥٣، وتنصيب نجله الأمير سعود ولي العهد ملكًا خلفًا له، وقد قدّم الوزير الإيطالي غاليوتا تعازي الحكومة الإيطالية بوفاة فقيد المملكة، وذكر أن الملك الراحل أسهم بشكل فاعل في إرساء بناء المملكة العربية السعودية وتدعيم مركزها إقليميًا ودوليًا بفعل دهائه وحنكته السياسية، كما قدّم غاليولتا التبريكات والتهاني بتسنم الملك سعود عرش المملكة(٩١).

خَاتِمَةٌ

خلُصَ البحث الى جملة معطيات وهي:

إن التطور الذي شهدته العلاقات السعودية – الإيطالية لم يصـل الى مسـتوى علاقـات المملكـة العربيـة السـعودية مـع بريطانيـا، الـتي كانـت تحكمهـا علاقـات اسـتراتيجية قويـة منـذ انتهاء الحرب العالمية الأولى.

حرصت إيطاليا على أن يكون لها موطأ قدم لها في ساحل البحر الأحمر، مما حتّم عليها أن تبادر في إقامة علاقات سياسية واقتصادية مع المملكة العربية السعودية، لا سيما بعد تولي موسوليني مقاليد الحكم في البلاد عام ١٩٢٢.

اعتمد الملك ابن سعود أسلوب تبادل الزيارات الرسمية مع الدول الأجنبية ومن بينها إيطاليا التي اعترفت بدولته الجديدة، مـن أجـل تثبيـت العلاقـات وتـدعيم روابـط التعـاون والتنسـيق السياسي والاقتصادي مع تلك الدول.

تميزت العلاقات السعودية – الإيطالية بطابع الود أحيانًا والشـك أحيانًـا أخـرى، إذ اتبـع الملـك ابـن سـعود سـبيل الدبلوماسـية وعـدم إثـارة إيطاليـا في كثـير مـن الأحـداث الـتي شهدتها المنطقة ومنها الصراع مع اليمن، كون إيطاليا لديها مصالح اقتصادية مهمة في اليمن وساحل البحر الأحمر.

اتبعـت كـلٌ مـن المملكـة العربيـة السـعودية والحكومـة الإيطالية سياسة التوفيق بين مصالحها الاستراتيجية من جهة وعـدم الصـدام مـع الطـرف الآخـر، وهـو مـا حصـل أثنـاء الحـرب السعودية – اليمنية عام ١٩٣٤، ودخول إيطاليا الحرب العالمية الثانية، عندما رحبت إيطاليا بالموقف الذي تبنته المملكة في الحفاظ على المصالح الإيطالية في اليمن من جهة واتخاذ سياسة الحياد إزاء الأطراف المتحاربة إبان الحرب العالمية الثانية.

الاحالات المرجعية:

(١) صلاح الدين المختار، **تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها**، ط١، بيروت، ١٩٥٧، ج٢، ص٣٥٩؛ عبدالعزيز رفاعي وسيد احمد يونس، بناء المملكة العربية السعودية في التاريخ الحديث والمعاصر ١٩٠٢-١٩٥٣، القاهرة، ١٩٧٨، ج١، ص ص٤٤-٤٦.

(٢) **جريدة أم القرى** (السعودية)، ع(٥٥)، ١٥ كانون الثاني ١٩٢٦؛ فؤاد حمزة، **البلاد العربية السعودية**، ط١، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٢٩.

(3) Mohammad Zaid Al-Kahtani , The Foreign policy of King Abdul-Aziz, (1927- 1953), thesis submitted in Modern History, University of Leeds, 2004 ,pp.32-35.

(٤) رئيس الدولة الإيطالية أثناء المدة ١٩٢٢-١٩٤٣، ولد في ٢٩ تموز عام ١٨٨٣ في قرية دوفيا دي بريدابيو الواقعة في إقليم إميليا شمال إيطاليا، وهو مؤسس الحركة الفاشية في إيطاليا، واتبع سياسة استعمارية أدت الى احتلال الحبشة عام ١٩٣٥ وتحالف مع هتلر واليابان وأدخل إيطاليا الى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وبقي في السلطة حتى سقوط إيطاليا عام ١٩٤٣، وبعدها قُدم الي المحاكمة وصدر بحقه حكم الإعدام في ٢٩ نيسان عام ١٩٤٥. أحمد عطية الله، **القاموس السياسي**، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٦٨، ص ١٢٦٥.

(5) Nir Arielli, Fascist Italy and the Middle East 1933-1940, Palgrave Macmillan, London,2019,p.29.

(٦) تأسست الإمارة بزعامة محمد بن علي الإدريسي عن طريق التمرد الذي جرى ضد الدولة العثمانية بدعم من بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وازدهرت حتى وفاة الإدريسي في عام ١٩٢٠، وفي عام ١٩٢٤ زحف الجيش اليمني لحرب الأدارسة حيث هُزم الأدارسة واستولى اليمنيون على ميناء الحديدة وعين الإمام يحيى ولاته عليها وتقدم الجيش صوب الشمال، وحاصر مدينتي صبيا وجازان، وعندما فشلت المفاوضات مع الإمام مما حمل الإدريسي على توقيع معاهدة حماية مع الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٦، ولكن في عام ١٩٣٣ التحق الإدريسيون بإمام اليمن خوفًا من سيطرة آل سعود على منطقتهم وأدت الأحداث تدريجيًا إلى قيام الحرب السعودية اليمنية عام ١٩٣٤ وكانت حربا بين الأدارسة في جازان والحديدة التابعة للإمارة الإدريسية وبدعم من الإمام يحيى وبين قوات ابن سعود، واستعادت القوات السعودية نجران وأنسحب من صبيا بعد أن سقطت بيد الأدارسة وتم توقيع معاهدة الطائف عام ١٩٣٤، وجاء في المعاهدة أن تُضم منطقة جازان وتهامة عسير إلى السعودية و الحديدة وحرض إلى اليمن عقب وفاة الأمير حسن الإدريسي. يُنظر: حنان سليمان ملكاوي، **"عبد العزيز آل سعود والأدارسة في تهامة عسير ١٩٢٠-١٩٣٤"**، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج(٣٨)، ع(١)، عمان، ٢٠١١، ص١٤٥-١٥٠.

(٧) ملك اليمن والملقب بالمتوكل على الله ١٩٠٤-١٩٤٨، ولد عام ١٨٦٩ في صنعاء، وبويع بالإمامة خلفًا لوالده الإمام المنصور عام ١٩٠٤، وبقي يحكم البلاد حتى عام ١٩٤٨، إذ اغتيل على يد حركة المعارضة التي نشبت في البلاد. يُنظر: عطية الله، المصدر السابق، ص١٤٢١.

(٨) دولة صالح علي الورد، **العلاقات الخارجية للمملكة المتوكلية اليمنية ١٩١٨-١٩٦٢**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة صنعاء، كلية الآداب، ٢٠٠٧، ص ص٥٨-٦١.

(٩) مجموعة من المؤلفين السوفييت، **تاريخ اليمن المعاصر ١٩١٧-١٩٨٢**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠، ص٣٧.

(١٠) الورد، المصدر السابق، ص٦٦.

(١١) محمد هاشم خويطر، **"معاهدة مكة عام ١٩٢٦ وأثرها في السياسة الخارجية السعودية تجاه عسير"**، مجلة كلية التربية الأساسية، ع(٦٦)، الجامعة المستنصرية، ٢٠١٠، ص٤٥٨.

(12) India Office Records (I.O.R)/ L/PS/12/2062, Telegram from British Embassy in Rome, 24 June 1931;

خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز**، ط٢، بيروت، ١٩٧٧، ج٢، ص٥٣٥.

(١٣) فهد عبد الله السماري وآخرون، **موسوعة تاريخ الملك عبد العزيز الدبلوماسي**، الرياض، ١٩٩٩، ص١٢٤.

(14) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from British Embassy in Rome, 10 Feb 1932.

(15) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from British Embassy in Rome, 8 March 1932;

أمين سعيد، **تاريخ الدولة السعودية، عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل**، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٥، ج٢، ص ٢١٠-٢١١.

(١٦) **جريدة أم القرى**، ع(٣٧٤)، ١٤ شباط ١٩٣٢.

(١٧) السماري وآخرون، المصدر السابق، ص١٢٥.

(١٨) **جريدة أم القرى**، ع(٣٨٤)، ٢٢ نيسان ١٩٣٢؛

I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from British Ambassador in Rome (Graham) to F.O, 19 April, 1932.

(19) Matteo Pizzigall, "History of an 80-Year-Long friendship: Italy - Saudi Arabia relations", Institute Affairs International, NO.(XXI), 2013, p.18.

(20) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from British Legation in Jeddah to F.O, 18 Aug., 1932.

(٢١) **جريدة أم القرى**، ع(٤٣٦)، ٢١ نيسان ١٩٣٣.

(٢٢) سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى ١٩٠٤-١٩٤٨، ط٤، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٦٤.

(٢٣) سيد مصطفى سالم، **مراحل العلاقات اليمنية – السعودية١٧٥٤-١٩٣٤**، خلفية وحوارات تاريخية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص٤٤٤-٤٤٧. ولتفاصيل أكثر عن المفاوضات التي جرت بين السعودية واليمن يُنظر: **جريدة أم القرى**، ع(٤٨٩)، ٢٧ نيسان ١٩٣٤. وعدد (٤٩٠)، ٤ أيار ١٩٣٤.

(٢٤) **جريدة أم القرى**، ع(٤٨٨)، ٢٠ نيسان ١٩٣٤.

(٢٥) سالم، المصدر السابق، ص٣٩٧.

(٢٦) لتفاصيل أكثر عن بنود معاهدة الطائف بموادها الثلاث والعشرين يُنظر: الورد، المصدر السابق، ص ص٥٤-٥٥.

(٢٧) سالم، **تكوين اليمن الحديث**، ص ٤١٧-٤٢١.

(28) I.O.R/ L/PS/12/2065, Telegram from British Legation in Jeddah to F.O, 18 Dec., 1932;

عماد عبد السلام رؤوف، **المملكة العربية السعودية بين الحربين العالميتين والمتغيرات السياسية والاقتصادية في ضوء تقارير المفوضية العراقية في جدة**، ط١، بغداد، ٢٠٠٦، ص٧٨-٨٥.

(29) Arielli, op., cit. ,p.35.

(٣٠) تجدر الإشارة الى علاقات الصداقة بين إيطاليا واليمن تعود بجذورها الى عام ١٩٢٦ عندما وقّع الجانبان معاهدة صداقة وتعاون. للمزيد من التفاصيل عن العلاقات اليمنية الإيطالية يُنظر: مجموعة من المؤلفين السوفييت، المصدر السابق، ص٣٥ وما بعدها.

(31) I.O.R/ L/PS/12/2065, Telegram from British Legation in Jeddah to F.O, 30 Dec., 1932.

(32) I.O.R/ L/PS/12/2065, Telegram from British Embassy in Rome to F.O, 4 Dec., 1933.

(33) George Lenczoswki, The Middle East in world Affairs,(London, 1967), p.575.

(٣٤) الورد، المصدر السابق، ص٧٨.

(35) I.O.R/ L/PS/12/2065, Telegram from British Embassy in Rome to F.O, 4 April, 1934

(٣٦) سعيد، المصدر السابق، ج٢، ص٣٧٧-٣٧٨..

(٣٧) الشتيوي والأمارة، المصدر السابق، ص٥٥.

(38) Arielli, op., cit.,p.37.

(٣٩) لمزيد من التفاصيل عن الاحتلال الإيطالي للحبشة ١٩٣٥-١٩٣٦ يُنظر:

Federico Caprotti, "The invisible war on nature: the Abyssinian war (1935–1936) in newsreels and documentaries in Fascist Italy", Modern Italy, Vol. 19, No.3, 2014, pp. 305–321;

سمية رزقي ونوة بلغيث، **الاحتلال الإيطالي للحبشة وأثره في العلاقات الأوربية – الأوربية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة العربي التبسي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ٢٠١٥-٢٠١٦.

(40) James Burgwyn, Italian foreign policy in the interwar period 1918–1940, Praeger Publishers, London,1997 ,p.125.

(41) Arielli, op. , cit. ,p.66.

(٤٢) سيد أحمد محمد يونس، **المملكة العربية السعودية وسياستها الخارجية ١٩٢٤-١٩٥٣**، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٥، ص١٠٥.

(٤٣) **جريدة أم القرى**، ع(٥٦٩)، ١ تشرين الثاني ١٩٣٥.

(44) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from (Calvert) in Jeddah to F.O, 15 Dec., 1935.

(45) Faysal Bin Abdul Rahman Bin Muammar," Saudi-Italian Relations", Institute Affairs International, NO.(XXI), 2013, p.120.

(46) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from (Calvert) in Jeddah to F.O, 15 Dec., 1935.

(٤٧) محمد علي حلّه، **"الحرب الإيطالية – الحبشية ١٩٣٥-١٩٣٦ وموقف المملكة العربية السعودية"**، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، ع(٣)، السنة(٢٢)، الرياض، ١٤١٧هـ، ص٢٧.

(48) Public Records Office (P.R.O), Foreign Office(F.O) 371/3007, NO.(363), Telegram from Minster Ryan to F.O, 24 Dec.1935.

(49) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from (Calvert) in Jeddah to F.O, 27 Dec.1935.

(50) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from Minster Ryan in Jeddah to F.O, 19 Dec.1935.

(51) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from Minster Ryan in Jeddah to F.O, 29 Dec.1935.

(٥٢) **جريدة أم القرى**، ع(٥٨٢)، ٣١ كانون الثاني ١٩٣٦.

(٥٣) **جريدة صوت الحجاز**، ع(١٩٥)، ٢٥ شباط ١٩٣٦.

(54) F.O 371/20056, NO.140, Telegram from Andrew Ryan in Jeddah to F.O, 27 Jan. 1936.

(٥٥) وداد خضر الشتيوي وإبراهيم فنجان الأمارة، **"التنافس البريطاني – الإيطالي على اليمن حتى الحرب العالمية الثانية"**، مجلة الخليج العربي، ع(٣-٤)، مج(٣٥)، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة، ٢٠٠٧، ص٥٨-٥٩

(56) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from Minster Ryan in Jeddah to F.O, 30 April 1936.

(57) I.O.R/ L/PS/12/2062, Telegram from British Embassy in Rome to F.O, 18 April 1938.

(٥٨) نورة بنت هليل بن عوض الله الذويبي، **موقف الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠١٠-٢٠١١، ص١٠٠.

(٥٩) **جريدة أم القرى**، ع(٧٥٠)، ٢٨ نيسان ١٩٣٩؛ سعيد، المصدر السابق، ج٢، ص٣٩٥.

(٦٠) فاطمة عبد الله الحميضي، **المملكة العربية السعودية وتطورات الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٦، ص٥٢.

(٦١) السماري وآخرون، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٦٢) كانت البعثة الجوية الإيطالية في السعودية تتألف من: مدرب طيار برتبة ضابط وستة موظفين صنف ميكانيك فضلاً عن أنواع مختلفة من المعدات وقطع الغيار الخاصة بالطائرات، أضف الى ذلك وجود ثلاث طائرات تستخدم لأغراض الطيران المدني. يُنظر:

F.O 371/24588, Telegram from British Legation in Jeddah to F.O, 22 Aug. 1939.

(63) I bid, 23 Aug. 1939.

(٦٤) لويس. ل. شنايدر، **العالم في القرن العشرين**، ترجمة: سعيد عبود السامرائي، (بغداد، ١٩٦٥)، ص١٢٧.

(65) F.O., 371/23195 , Telegram from British legation in Jeddah to F.O, 12 Sep., 1939.

(٦٦) فهد عباس سليمان السبعاوي، **"العلاقات السعودية – البريطانية في ضوء مشروع سوريا الكبرى ١٩٤٦-١٩٤٨**، دراسة وثائقية"، مجلة آداب الرافدين، ع(٧٩)، جامعة الموصل، ٢٠١٩، ص٣٢٦.

(٦٧) هدى بنت محمد عبدة عثمان، **التنافس الاستعماري بين بريطانيا وإيطاليا في منطقتي العالم العربي وشرق إفريقيا ١٩٣٥-١٩٤٥**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٥، ص٣٤٢.

(٦٨) المصدر نفسه، ص٣٤٧.

(٦٩) **جريدة أم القرى**، ع(٨٥٢)، ١٨ نيسان ١٩٤١.

(70) Pizzigall, op., cit., p.20.

(71) George Kirk, The Middle East in the War, (London, 1953), p.352.

(٧٢) الذويبي، المصدر السابق، ١٣٩.

(73) Pizzigall, op., cit., p.26.

(74) F.O. 371/23271, Telegram from Minster (Bullard) in Jeddah to F.O, 24 Oct., 1939.

(75) Emidio Diodato and Federico Niglia, Italy in International Relations, London ,2017 ,pp.50-51.

(٧٦) طلال محمد نور عطار، **المملكة العربية السعودية وهيئة الأمم المتحدة**، ط١، جدة، ١٩٨٩، ص٢٥.

(٧٧) **جريدة أم القرى**، ع(١١٨٣)، ٧ تشرين الثاني ١٩٤٧.

(78) Pizzigall, op., cit., p.22.

(79) Muammar, op., cit., p.122.

(80) Vincenzo Strika, " Saudi-Italian Relations Since the Second World War",

مقال متاح على موقع دارة الملك عبد العزيز:
www.darah.org.sa

(٨١) **جريدة أم القرى**، ع(١٢٨٦)، ١٨ تشرين الثاني ١٩٤٩.

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) **جريدة أم القرى**، ع(١٣٤٤)، ٥ كانون الثاني ١٩٥١.

(84) Strika, op., cit., www.darah.org.sa

(85) Diodato and Niglia, op., cit., p.60.

(٨٦) **جريدة أم القرى**، ع(١٤٠٨)، ١٦ نيسان ١٩٥٢؛
Pizzigall, op., cit., p.22.

(87) Strika, op., cit., www.darah.org.sa

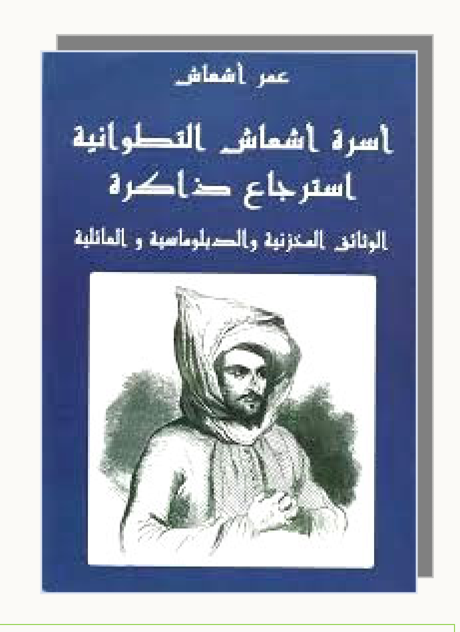
(٨٨) **جريدة أم القرى**، ع(١٤٥٠)، ٦ شباط ١٩٥٣.

(89) Pizzigall, op., cit., p.23.

(90) Strika, op., cit., www.darah.org.sa

(٩١) **جريدة أم القرى**، ع(١٨٨٩)، ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٣.

أسرة أشعاش التطوانية
استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية




د. عبد الرحيم الربيعي
أستاذ التعليم الثانوي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
الدار البيضاء - المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: عمر أشعاش
عدد الصفحات: ٤٢١ صفحة
المطبعة: مطبعة الخليج العربي، تطوان.

الطبعة: الأولى.
سنة النشر: ٢٠١٦
مكان النشر: المغرب.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312416 

كلمات مفتاحية:
أسرة أشعاش؛ عمر أشعاش؛ استرجاع ذاكرة؛ المخزن؛ تطوان

مقدمة

يعتبر كتاب "أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية" للدكتور عمر أشعاش، من أهم الكتابات المعاصرة، التي تعيد أحداثا ووقائع تاريخية لشخصيات سياسية من أسرة أشعاش التطوانية التي حكمت مدينة تطوان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقدمت خدمات جليلة للمخزن والمجتمع لسنوات طوال، تم توثيقها وترسيخها عبر مجموعة من الوثائق الدبلوماسية والعائلية التي تم تجمعها مند قرابة سنوات من البحث والتقصي، بين المكتبات ومديرية الوثائق والأرشيف الوطني والأجنبي الخاص بأسرة أشعاش، التي بسطت نفوذها السياسي والاقتصادي كقياد للسلطان أو كتجار كبار في تطوان وجبالة المجاورة، وعمرت هاتين الوظيفتين مند أواخر القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر[1]، وبالتالي يقدم هذا الكتاب مادة معرفية تاريخية وسياسية دسمة أعفت مجموعة من الباحثين من هدر الوقت وعناء وأتعاب التنقل بين المدن والخزانات والمكتبات الوطنية والأجنبية، نظرا لغزارة الوثائق التي يضمها الكتاب حول عائلة أشعاش في علاقتها بالسلطة والمجتمع، والتي سدت مجموعة من الثغرات في تاريخ المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومن هنا تكمن أهمية هذا الكتاب في استرجاع ذاكرة ليس لأسرة أشعاش فقط، وإنما هو عمل استرجع من خلاله المؤلف ذاكرة المغاربة اجتماعيًا وسياسيًا وحتى

ثقافيًا من خلال الإشارة إلى بعض العلماء والمآثر الثقافية في فترة ما قبل الحماية.

١-قراءة في شكل الكتاب

يندرج كتاب "أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية" لصاحبه عمر أشعاش، ضمن سلسلة من الكتب التي أصدرتها مطبعة الخليج العربي للنشر سنة ٢٠١٦، في سياق الرفع من المنتوج المعرفي والعلمي، والمساهمة في معرفة تاريخ المغرب نظرًا لما يحمله الكتاب من حمولة معرفية وعلمية ذات باع طويل، وخدمة جليلة لكتابة التاريخ عبر توفير حزمة من الوثائق حول أسرة أشعاش في علاقتها بالمخزن والمجتمع من نهاية القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر.

وفي نظرة خاطفة على غلاف الكتاب نلاحظ أن صاحبه اختار لونا أزرقا داكنا، يعلوه اسم الكاتب الذي هو "عمر أشعاش"، وعنوان الكتاب "أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية" باللون الأبيض، والذي يختصر للقارئ الهدف الرئيسي للتأليف والمتمثل في استرجاع ذاكرة عائلته حفاظا عليها من النسيان والعبث[٢]، وتحت عنوان الكتاب صورة للحاج عبد القادر أشعاش الذي شغل عدة مناصب مخزنية خلال القرن ١٩، وفي الجانب الأيمن من الكتاب اسم الكاتب وعنوان الكتاب، وتاريخ الطبعة وعددها. أما ظهر الكتاب، فقد تضمن بطاقة تعريفية لصاحب الكتاب؛ عمر أشعاش الذي تربطه بالمؤلف صلة دموية باعتباره أحد أبناء أسرة أشعاش التطوانية، ازداد بتطوان وخريج كلية العلوم الاقتصادية والتجارية بجامعة نابولي (إيطاليا)، كما تبوأ منصب مدير سابق بالشركة العالمية "لافارج"، وخبير محلف سابق في المحاسبات لدى المحاكم المغربية.

والكتاب يقع في ٤٢١ صفحة من الحجم المتوسط، في غياب فهرس عام للاسترجاع أو تحديد محاور وعناوين المواد لتكون في متناول القارئ بأيسر الطرق في أقل وقت ممكن، مع عدم احترام وضع المادة موضوعيا وكرونولوجيا، وهذا ربما يعود إلى تكوين المؤلف الذي لم يتلق تكوينا تاريخيا أكاديميا، كما أكده في مقدمة كتابه، لكن على الرغم من ذلك فالكتاب يشكل مادة دسمة للباحث والمؤرخ موفرا له حزمة من الوثائق التاريخية المخزنية والدبلوماسية والعائلية الخاصة بعائلة أشعاش التطوانية من نهاية القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي.

ومن الملاحظ أيضًا أن المؤلف قد اعتمد على أسلوب سجالي ممزوج بين النقد والتبرير الانطباعي حول بعض القضايا والوقائع التاريخية التي تناولتها بعض المصادر والمراجع التاريخية التي قدمت معلومات جانبت الصواب والحقيقة التاريخية[٣] على حد تعبيره، كما اعتمد على خطاب تمجيدي تتخلله نبرة نمطية في استحضار تألق بعض أبناء العائلة في علاقاتها بالمخزن والمجتمع، فهو يذكر في كتابه: "أنه بعد غياب القياد من آل أشعاش عن ولاية تطوان فإن من حكموها بعدهم، وهم من خيرة الناس، لم تكن لهم المكانة الخاصة والمتميزة التي كانت لآل أشعاش لدى السلاطين العلويين، وغاب عنهم الدور المحوري في السياسة المخزنية في المناطق التي كانوا يحكمونها".

كما استعمل لغة تتخللها نبرة من عدم الرضى والحزن على ذاكرة العائلة، التي أسدل عليها ستارا من الصمت والتهميش من طرف المخزن والمؤرخين، قياسا بما قدم من دراسات حول بعض الشخصيات التاريخية. وفي هذا الإطار يقول في خاتمة كتابه: "وبعد ما سبق ذكره عن الدور الطلائعي لعائلة أشعاش بتطوان، فإنني أقول بكل أسف، إنه في الوقت الذي نجد الأجانب وخاصة الغربيين منهم، يفتخرون ويعتزون برجالاتهم الذين كانت لهم أدوار ومسؤوليات مهمة في تاريخهم، يقيمون لهم التماثيل ويطلقون أسماءهم على شوارع المدن التي مارسوا فيها الوظائف المخزنية العليا، فإننا لا نجد شارعا واحدا في تطوان أو في غيرها، يحمل اسم أحد من قواد آل أشعاش الذين كانت لهم الريادة ومسؤولية الحكم في مدة سبعين سنة تقريبًا متواصلة، في تطوان وشفشاون والمناطق المجاورة وطنجة والصويرة والرباط وسلا"[٤].

٢-قراءة في مضمون الكتاب

فإذا عدنا للكتاب الذي بين أيدينا فإننا نلاحظ أن المؤلف عمر أشعاش لم يستند في عرض كتابه على كرونولوجيا واضحة المعالم في غياب تصميم للكتاب، مما تطلب بذل مجهود لوضع الموضوع في سياقه العام كرونولوجيا مع تبويبها موضوعاتيا وذلك كما يلي:

أ- أصل العائلة؛

ب- كتابات عن عائلة أشعاش في مراجع تاريخية؛

ج- انجازات العائلة في علاقتها بالسلطة والمجتمع؛

د- نكبة العائلة.

١/٢-أصل العائلة وبداية اتصالها بالمخزن الشريف

تطرق المؤلف، في بداية كتابه، إلى أصل العائلة التي تعود جذورها إلى عائلات من أصل أندلسي ممن يتطابق اسمها باللغة العربية مع أسماء العائلات المسلمة التي ظلت بالأندلس بعد الهجرة الأولى، وأرغمت على كتابة أسمائها بالحروف اللاتينية: /Achaz/ Achech/ Achaach Axex/ Axes"[٥]، وهذا ما أكده صاحب كتاب معلمة تيطاون بقوله: "أشعاش أسرة أصلها من الأندلس، حيث ظل بعض أفرادها هناك بعد سقوط غرناطة، وأرغموا على كتابة اسم عائلتهم بالحروف اللاتينية هكذا Achech- Acheche- Axex- Axes"[٦]، فجاؤوا واستقروا في تطوان وامتهنوا التجارة، فراكموا ثروات مهمة كان لها دور في تبوؤ مناصب مخزنية. وهذا ما ذكره أشعاش بقوله: "إن الحاج عبد الرحمن أشعاش كانت له ثروة مهمة عندما انضم إلى مولاي اليزيد، وكان يزود الأمير ببعض ما كان يحتاج إليه. وعندما وصل الخبر بذلك إلى علم السلطان سيدي محمد بن عبد الله أمر بإحضار الحاج عبد الرحمن أشعاش".

وعند امتثاله لديه قال له ما معناه: كيف تجرؤ على أن تقدم المساعدات للمولى اليزيد وأنت تعرف أنني غاضب عليه؟ فرد عليه الحاج عبد الرحمن بالقول: "يا مولاي! إن المولى اليزيد شريف ولد السلطان، هو ولدك يا مولاي، وأنت والده، اليوم تغضب عليه وغدا ترضى عليه، أما أنا فلست إلا خديما مطيعا لأسيادي ولا يمكن أن أرفض له طلبا"[٧]. ومن هنا كان أول شيء قام به المولى اليزيد بعد ما بويع ودخل تطوان عزله لقائدها آنذاك "القندراس"، وتعيينه الحاج عبد الرحمن أشعاش بدله قائدا على المدينة عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، لتكون بذلك بدايات اتصال العائلة بالسلطة، التي تقلدت مناصب مخزنية في القرن التاسع عشر مثل الولاية، والأمانة، والسفارة[٨]، وغيرها.

٢/٢-كتابات عن عائلة أشعاش في مراجع تاريخية

لم يقتصر المؤلف على عرض الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية، وإنما توجه للتعليق على ما كتب عن العائلة بنقد علمي رزين، مبني على وثائق وحجج، كما هو الحال مع الكاتبة» سوزان ميلار عن رحلة الصفار إلى فرنسا»، التي قدمت معلومات لم تنصف من خلالها السفير الحاج عبد القادر أشعاش حيث كثيرا ما جانبت الصواب والحقيقة التاريخية[٩]. لذا فقد قدم المؤلف عمر أشعاش مجموعة من الوثائق التاريخية التي تفند كل ما ذكرته الكاتبة من معلومات وحقائق تخالف الواقع. ففي بعض الأحيان حولت الحاج عبد القادر أشعاش من سفير إلى رئيس بعثة، وأنه لم يكن على حظ كبير من الثقافة والتعليم، وبالتالي أنتجت معرفة تاريخية تشوبها مجموعة من الأخطاء والغموض على حد تعبير المؤلف.

ولم يكتفي المؤلف في نقد الكاتبة "سوزان ميلار" عن "رحلة الصفار إلى فرنسا"، وإنما انتقل بالحديث عن كتابات المؤرخ محمد داود حول قواد من عائلة أشعاش الذي كان له الفضل بالتعريف بأعمالهم وأمجادهم، لكنه على حد تعبير المؤلف "لم يكن دائما منصفا في كتابته الشخصية عنهم"[١٠]، مرجحا ذلك لأسباب شخصية عكرت صفوة العلاقة بين المؤرخ محمد داود و محمد أشعاش الذي كان باشا تطوان أيام الحماية، أو أن محمد أشعاش "لم يخص الأستاذ بالعناية والتقدير الذي كان أهلا و مستحقا لهما، مما جعل الأستاذ محمد داود يجافي العائلة كلها في كتاباته"[١١].

كما ناقش بعض النصوص التاريخية التي تناولتها بعض المصادر والمراجع التاريخية في ارتباطها بأسرة أشعاش، مستشهدا بما يتوفر عليه من وثائق تأكد على صحة الحدث في زمانه ومكانه، مع غياب ذكر بعض المعلومات عن أفراد العائلة في علاقاتها بالسلطة. ومن الأمثلة على ذلك تعليقه على كتاب «تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)» للمؤرخ محمد الضعيف الرباطي، حينما ذكر أن المؤرخ الرباطي في كتابه أشار بقوله: "لما بعث الانجليز للمركان على أن يرد سفينة السلطان قال: لا أردها إلا إذا جاء السلطان بنفسه لطنجة وأعقد معه الصلح، وأطلق له سفينته"[١٢]، وبذلك خرج السلطان بنفسه لطنجة، فحدث الصلح مع المركان، وهذا ما أثار حفيظة المؤلف عمر أشعاش. إلا أن المؤرخ الضعيف

الرباطي قد ذكر أن الصلح مع المركان تم بعد أن خرج السلطان بنفسه لطنجة، ولم يذكر أن من بين شروط الصلح إقالة أشعاش. وهذا ما حاول تأكيده عبر استشهاده بوثائق ومراسلات ملكية، تزكي ما لم يتم الإشارة إليه في كتاب الضعيف الرباطي.

ومن أجل إعطاء صورة واضحة قدر الإمكان عن أسرة أشعاش ومنجزاتها في علاقاتها بالسلطة والمجتمع، عمل المؤلف عمر أشعاش على عرض مجموعة من الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية، إضافة إلى بعض النصوص التاريخية، لسد بعض الثغرات التي ظلت سطحية وغير دقيقة عن تاريخ العائلة في عدة مراجع ومصادر تاريخية، مثل كتاب "تاريخ تطوان" لمحمد داود، وتعليقات الكاتبة "سوزان ميلار" عن "رحلة الصفار إلى فرنسا"، وما أرفقته من معلومات عن السفير عبد القادر أشعاش والمخالفة للواقع والصواب، وبالتالي ألف هذا المؤلف لحفظ ذاكرة العائلة من الضياع والعبث بتاريخ حافل بالآلام والآمال من منتصف القرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر.

٣/٢-إنجازات العائلة في علاقتها بالسلطة والمجتمع

من خلال تفحصنا للكتاب لاحظنا، وكما تم الإشارة فيما سبق، أن عمر أشعاش استخدم أسلوبًا تمجيديا بين من خلاله أعمال وإنجازات الرواد الأوائل من العائلة في خدمة السلطة والمجتمع، وأنه كان من المنصف تسجيلها وتدوينها من باب الإنصاف والاعتراف بالجميل في حق البلاد والعباد.

ومن هذا المنطلق يلاحظ أن عمر أشعاش بدأ مجملته لأفراد عائلته، بالاستدلال بمجموعة من الوثائق الملكية التي تشيد بالمستوى الجيد لأسلوب المراسلات التي كانت في عهد القائدين محمد أشعاش والحاج عبد القادر أشعاش والتي تفند على حد تعبيره ما نقرؤه، عن بعض المؤرخين عن عدم رضى السلطان عن أسلوب المراسلات التي كان يتوصل بها من دار حكام قائده وخدام أعتابه.

أما على المستوى الاجتماعي، فقد استشهد المؤلف بمجموعة من الأعمال الخيرية لأفراد العائلة في إكرام الفقراء والمحتاجين. ومن الأمثلة على ذلك "أن السفير أشعاش أرسل إلى عمدة باريس مبلغ ٥٠٠٠,٠٠ فرنك صدقة منه على فقراء المدينة، مراعاة لخصاصهم، وكلهم نصارى ويهود"[١٣]. ولم يقتصر الإكرام وتقديم العون للفقراء والمحتاجين، وإنما امتد ليشمل الأمراء ورجال السلطة؛ حينما قدم الحاج عبد الرحمن أشعاش مساعدات مادية للأمير مولاي اليزيد، مما أثار غضب السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي أمر بإحضار الحاج عبد الرحمان أشعاش لاستفساره عن سبب دعم ومساعدة الأمير مولاي اليزيد، فكان جواب الحاج عبد الرحمن أشعاش "يا مولاي! إن المولى اليزيد شريف ولد السلطان، هو ولدك يا مولاي، وأنت والده، اليوم تغضب عليه وغدا ترضى عليه، أما أنا فلست إلا خديما مطيعا لأسيادي، ولا يمكن أن أرفض له طلبا".

ويظهر أن هذا الجواب الذكي الذي تركه القائد عبد الرحمن أشعاش في نفس السلطان كان إيجابيا، إذ بمجرد تولية مولاي اليزيد السلطة، عين الحاج عبد الرحمان أشعاش قائدا على مدينة تطوان سنة ١٧٩٠ خلفا للمدعو عبد الرحمان قرنداش[١٤]. وهذا راجع ربما إلى الغنى الفاحش الذي كان يتمتع به الحاج عبد الرحمن أشعاش، إضافة إلى تواضعه وكرمه، والعمل بفعالية في كل ما يقوم به. فقد ذكر جان دي بوتوكي (Potocki) وهو رحالة بولوني كتب عن رحلته للمغرب ولقائه وتعامله مع عبد الرحمن أشعاش، حيث وصفه بالرجل المتواضع والبسيط في ملبسه وحديثه وأفعاله، عدلا في أحكامه، يقضي بين الناس أنى شاؤوا، ويسهر على تنفيذ أوامر سلطانه الذي يدين له بالولاء التام[١٥].

من هنا يتضح أن الرحالة "بوتوكي" كان معجبا بشخصية القائد عبد الرحمن أشعاش في علاقاته بالسلطة والرعايا، فقد أشار في رحلته إلى أنه كان يمارس سلطاته الإدارية مباشرة وبدون وساطة بينه وبين رعيته؛ فهو يقضي بين الناس في كل وقت وحين، ويشرف بنفسه على بناء برج للدفاع عن المدينة[١٦].

كما قام بتشييد مجموعة من المساجد والأحياء "المعروفة بالملاح" لليهود بتطوان بأمر من السلطان مولاي سليمان/ وهذا ما تأكيده الوثائق والرسائل الملكية التي أثث بها عمر أشعاش مؤلفه. وهي إنجازات ومشاريع لم تقتصر على عبد الرحمن أشعاش في فترات حكمه، وإنما امتدت لتشمل كل من تقلد منصبا مخزنيا من أسرة أشعاش، ومنهم محمد بن عبد الرحمان أشعاش الذي ولي عاملا على تطوان حوالي عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٧م، فسهر على أمن الطرق، وسعى إلى بث هيبة المخزن

في النفوس، فكان الخادم الأمين للسلطة المركزية، والمدافع المخلص عن وجهة نظرها، مستعملا في ذلك وسائل الزجر والإكراه[١٧]. وفي هذا الإطار ذكر أحمد الرهوني في مخطوطه "خلاصة عمدة الراوين في تاريخ تطاوين" أن أيامه كانت زاهرة، وأحكامه صارمة حتى عم الأمن جميع العمالة.

ولم يقتصر المؤلف عمر أشعاش في ذكر محاسن عبد الرحمان أشعاش ومحمد بن عبد الرحمان أشعاش، وإنما امتدت مجاملته لعبد القادر أشعاش ومحمد بن محمد بن عبد القادر أشعاش الذي عرف بكفاءته وحزمه، ليعين محتسبا بتطوان في ٢٢ شتنبر ١٩٣٤. فنظم الأسواق، وحارب الغش والتطفيف والتدليس، وراقب السلع والأسعار، وقام بأعمال تذكر وتشكر[١٨]، ليعين بعد ذلك باشا على مدينة تطوان، حيث عمل على تثبت الأمن، والتصدي للمفسدين، واللصوص والفساد. وكان نزيها في أحكامه، وصارما في معاملاته في عهد الحماية والذي لازال الناس يحمدون سيرته إلى الآن على حد تعبير عمر أشعاش. وهذه كلها صفات أهلت أسرة أشعاش لتقلد مناصب مخزنية من نهاية القرن الثامن عشر إلى عهد الحماية.

٤/٢-نكبة العائلة

احتلت أسرة أشعاش مكانة متميزة في مغرب ما قبل الحماية، حيث قدم المخزن لأفراد أسرة أشعاش نفوذا كبيرا، بعدما وثق بهم، وفوضهم في إدارة البلاد عبر تقليديهم لمناصب مخزنية، مثل الولاية، والأمانة، والسفارة، نظرا لكرمهم وكفاءتهم وحسن معاملتهم.

وكما تمت الإشارة فيما سبق عن بداية اتصال عائلة أشعاش بالمخزن الشريف، والذي كان مع بداية عهد مولاي اليزيد، حينما نصب الحاج عبد الرحمن أشعاش على حكم تطوان عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، وبعد مقتل مولاي اليزيد، وتم الأمر للمولى سليمان الذي بسط نفوذه على جل بلاد المغرب، ومن جملتها تطوان ونواحيها، وعلى إثر ذلك عزل المولى سليمان الحاج عبد الرحمن أشعاش من عمالة تطوان، وألزمه بدفع عشرة آلاف مثقال[١٩]، وولى مكانه الفقيه الكاتب محمد ابن عثمان، عام ١٢٠٦هـ[٢٠]، لسد الطريق أمام القوى السياسية السابقة للعودة للسلطة. ومع مرور الزمن وتوالي الأحداث، تم إعادته للمرة الثانية قائدا على مدينة تطوان عام ١٢١٠هـ والتي دامت اثني عشر عاما، ليعزل للمرة الثانية، ثم ولي للمرة الثالثة عام ١٢٣١هـ، وانطلاقا من الوثائق التي يضمها المؤلف حول بعض الثورات التي قام بها أهل الرباط، وقيام مجموعة من القبائل ضد الحاج عبد الرحمن أشعاش أدت إلى عزله سنة ١٢٣٦هـ.

ولقد تولت مؤسسة المخزن مسلسل العزل مع مصادرة الممتلكات نتيجة الفساد والخيانة، وغيرها من التهم الملفقة للمغضوب عليهم من رجال السلطة. ففي منتصف القرن التاسع عشر قام مولاي عبد الرحمان بعزل عامل مدينة تطوان محمد أشعاش ومصادرة أملاكه. وهذا ربما هو راجع إلى الترف الشديد الذي كان يمتاز به محمد أشعاش والذي أثار انتباه جواسيس السلطان الذين كانوا يخبرونه بأنه سلطان في خفاء، وبأن الجيوش والخيول التي عنده ليست عند السلطان[٢١]، وتذكر المصادر والمراجع التاريخية أنه أسس هيئة سلطانية من كثرة المخازنية والطبجية والبحرية، وألبس الكل بلباس بهي باهر يخصه ويتميز به، وعين لكل حومة مقدما من خاصة أهلها يكون واسطة بينه وبينهم، وهاته كلها أسباب ربما كانت وراء عزله ومصادرة أمواله وممتلكاته.

وبعد سنوات طوال من العز والجاه، أتت ساعة الصفر لتعصف بأسرة أشعاش عن دفة الحكم وذلك في فترات حكم عبد القادر بن محمد أشعاش، الذي ولي على مدينة تطوان عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م إلى منتصف القرن التاسع عشر، حيث عزله السلطان مولاي عبد الرحمان، ثم ألقى القبض عليه بفاس سنة ١٨٥٠، وعلى أخيه الحاج عبد الله بتطوان[٢٢]، وترتب عن ذلك زوال ما كانت تتمتع به عائلته من الحظوة، ثم ما لبث أفرادها أن جردوا من جميع ممتلكاتهم[٢٣]. ولم يبق منها سوى جزء قليل، ومنه بيت العائلة الكبير الذي هو بساحة الفدان والمجاور لبناية القيادة القديمة قديمًا (المشور الملكي الحالي). وبعض الأراضي التي شاء القدر أن تبقى حتى أعيدت إلى العائلة؛ بعد أن أفرج عن القائد الحاج عبد القادر، وأعيد له اعتباره[٢٤].

ومن الأسباب التي أدت إلى خراب أسرة الحاج عبد القادر أشعاش أنه: "قد عامل الناس في إيالته بقسوة مبالغ فيها، وحرص على الظهور بمظهر الرجل الغني، المنفرد بالنفوذ في منطقة بأسرها. ولذلك لم يتردد المخزن، كدأبه في مثل هذه الحالات، في مصادرة أملاك

هذا الموظف المنكوب الذي كان خطره يعظم باستمرار، ولم يراع التقييد في سلوكه بالحد المرسوم لأمثاله"[٢٥].

خاتمة

نستنتج مما سبق ذكره، أن الأستاذ عمر أشعاش، بمؤلفه "أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية"، لم يستحضر من خلاله ذاكرة أسرة أشعاش في علاقتها بالسلطة والمجتمع فقط، وإنما استرجع ذاكرة المغاربة سياسيا واقتصاديا وحتى اجتماعيا، عبر عرض مجموعة من الوثائق الدبلوماسية والمخزنية، خلال فترة ما قبل الحماية.

كما ساهم في تقديم خدمة جليلة لكل باحث يطرق باب تاريخ المغرب من نهاية القرن الثامن عشر الميلادي إلى أواسط القرن التاسع عشر، موفرًا له حزمة من الوثائق يعفيه من هدر الوقت والتنقل بين المدن والمكتبات الوطنية والأجنبية. وبالتالي يمكننا القول إن عمر أشعاش من خلال كتابه هذا قد نفض غبار النسيان عن ذاكرة أسرة وأمة خلال فترة من تاريخها، ليبين لجيلنا المعاصر وللأجيال القادمة ما كان للمغرب من تاريخ مجيد ومتميز يضاهي في تميزه ومنجزاته أكثر البلدان تقدمًا وتحضرًا.

الاحالات المرجعية:

(١) أشعاش (عمر)، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية**، ط ١، مطبعة الخليج العربي، ٢٠١٦، تطوان، ص ٧.

(٢) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م. س، ص ١٢.

(٣) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص ١٨.

(٤) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص ٤١٨.

(٥) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص ١٥.

(٦) ابن عزوز (محمد)، **معلمة تطاون**، المجلد١، م.ب.ع. حكيم للنشر، تطوان، ٢٠٠١، ص ١٨٤.

(٧) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص ١٦.

(٨) **معلمة المغرب**، المجلد ٢، مطابع سلا، سلا، ١٩٨٩، ص ٤٦١.

(٩) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص ١٨.

(١٠)أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص٥٥.

(١١) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص٥٥.

(١٢) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، دار المأثورات، الرباط، ١٩٨٦، ص ٣٢٨.

(١٣) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية ...**، م. س. ذ، ص ٢٨.

(١٤) الحراق (فاطمة)، **تطوان في نهاية القرن الثامن عشر قراءة في رحلة بوتركي**، ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر ١٧٢٧-١٨٢٢ أيام ٢١-٢٢-٢٣ أكتوبر ١٩٩٣م، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، مطبعة الهداية، تطوان، ص ٢٤.

(15) Jean Potocki, **Voyages en Turquie, en Egypte en Hollande et au Maroc, Introduction et Daniel Beauvois**, Fayard, Paris,1980, p. 179.

(16) Jean Potocki, **Voyages en Turquie, en Egypte en Hollande et au Maroc ...**, p. 179.

(١٧) **معلمة المغرب**، ج. ٢، م. س. ذ، ص ٤٦١.

(١٨) **معلمة المغرب**، نفسه.

(١٩) السعود (عبد العزيز)، **تطوان في القرن الثامن عشر (السلطة - المجتمع -الدين)**، مطبعة الخليج العربي، منشورات جمعية تطوان أسمير، تطوان،٢٠٠٧، ص ٧٣.

(٢٠) الرهوني (أحمد بن محمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، المجلد ٢، تحقيق: جعفر ابن الحاج السليمي، جمعية تطاون أسمير لنشر، تطوان، ١٩٩٨، ص ٦٦.

(٢١) **معلمة المغرب**، ج. ٢، م. س. ذ، ص ٤٦١.

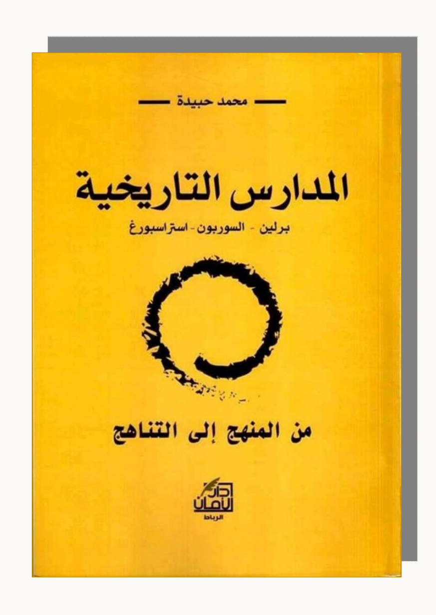
(٢٢) سعود (عبد العزيز)، **تطوان خلال القرن التاسع عشر: مساهمة في دراسة المجتمع المغربي**، جمعية تطاون أسمير لنشر، تطوان، ١٩٩٦، ص ١٢.

(٢٣) الشابي (مصطفى)، **النخبة المخزنية في المغرب القرن ١٩**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٥، ص ١٣١.

(٢٤) أشعاش، **أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ...**، م.س.ذ، ص٤٥.

(٢٥) الشابي (مصطفى)، **النخبة المخزنية ...**، م. س. ذ، ص ١٣١.

المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ
من المنهج إلى التناهج





د. السهلي محمد
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ الحديث
مكناس – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: محمد حبيدة
عدد الصفحات: ٢١٦ صفحة
الناشر: دار الأمان – الرباط
الطبعة: الأولى.
سنة النشر: ٢٠١٨
مكان النشر: المغرب.

كلمات مفتاحية:
المنهج؛ التناهج؛ التاريخ؛ العلوم الاجتماعية؛ الكتابة التاريخية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.312420

مقدمة

شهدت الكتابة التاريخية تطورًا كبيرًا خلال القرن العشرين من حيث المنهج والأسلوب، مما أفضى إلى خروج التاريخ ومعه المؤرخ من انغلاقه التخصصي والمنهجي وفتحه على تساؤلات وقضايا جديدة تشمل الموضوع والمنهج والمفهوم والأدوات والنظريات الابستمولوجية، وذلك بتوسيع دائرة النظر في المصادر التي لم تقتصر على الوثائق بل شملت جل المصادر المادية والشفهية، والاحتكاك مع بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والاستفادة من تجاربها ومناهجها، ما نلمسه في كتابات المؤرخين الفرنسيين والألمان، انطلاقا من رانكه ووصولاً لفرناند بروديل ومارك بلوك إلا دليل واضح على التجدد الحاصل في الكتابة التاريخية ومناهجها.

إن الخاصية التجدد المستمر التي ميزت الكتابة التاريخية شكلت موضوع كتاب محمد حبيدة[1] "المدارس التاريخية من المنهج إلى التناهج" الصادر عن دار الأمان بالرباط – المغرب سنة ٢٠١٨ والبالغ عدد صفحاته ٢١٦ صفحة، حيث راهن المؤلف من خلاله تتبع تحولات المناهج التاريخية رصد مظاهر الاستمرارية والانقطاع المرافقة للخطاب التاريخي ولمهمة المؤرخ وصنعته عبر عرض حصيلة أعمال المؤرخين وتصوراتهم وأدوات عملهم ومناهج اشتغالهم، وأيضا عبر التراكم المعرفي والمنهجي الذي خلفوه في تعاملهم مع الماضي، انطلاقا من المدرسة الوضعانية مرورًا بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي ثم التاريخ الأنثروبولوجي والمنعطف النقدي وعودة التاريخ السياسي.

قدم المؤلف كتابه بوعاء ثقافي يقرب القارئ أكثر إلى فهم الظاهرة التاريخية في مختلف مستوياتها وتجلياتها ومناهجها وتفاعلاتها عبر سلسلة من الاختيارات والصياغات والعبارات والمفردات ذات الحمولة المعرفية والتاريخية والاجتماعية، والتي أفرزت أبعادا تركيبية وتحليلية قلما جادت بها أقلام الباحثين من المؤرخين.

ينتظم الكتاب في قسمين متدرجين يتداخلان على مستوى الموضوعاتي. إذ اهتم القسم الأول بنشأة المنهج التاريخي في القرن التاسع عشر الميلادي مع مدرسة برلين وامتدادها مع السوربون، بينما انكب القسم الثاني على تتبع التحول الذي حصل في المعرفة التاريخية مع مدرسة استراسبورغ خلال القرن العشرين الميلادي، التي جددت الكتابة التاريخية من خلال أجيال متعاقبة من المؤرخين، مرورًا بالانحباس المنهجي للكتابة التاريخية دون إغفال الكاتب للمنعطف النقدي والابستمولوجي الذي فتحه مجموعة من المؤرخين المنادين بالعودة للحدث السياسي.

لقد استعمل محمد حبيدة في تتبع مسارات تطور الكتابة التاريخية منهجًا يقوم على الرجوع إلى المؤلفات الأصلية للمؤرخين المجددين وأيضا لمساهمات علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر ورؤية الأنجلوساكسونيين للاسطوغرافيا الفرنسية والألمانية وعن المدارس التاريخية كبرلين والسوربون واستراسبورغ، وعلى الدراسات المكتوبة باللغة العربية التي ألفها عدد من المؤرخين العرب الذي أولوا الكتابة التاريخية مساحة ضمن كتاباتهم، ليختتم المؤلف كتابه بشبكة من النصوص ذات الارتباط بالمناهج التاريخية ومختلف المدارس الأوربية والنظريات والمفاهيم التي أنجبتها.

نقدم هذا الكتاب الذي تأتي أهميته في كونه تكملة للأعمال البحثية التي خص بها محمد حبيدة الكتابة التاريخية ضمن توجه عام سار فيه الكاتب في عدد من مؤلفاته، ضمن محورين: الأول تتبع فيه مراحل نشأة المنهج التاريخي وامتداداته، والثاني تحولات الكتابة التاريخية: التجدد والانحباس.

أولاً: نشأة المنهج التاريخي وامتداداته

شكل انفصال المعارف والعلوم خلال القرن التاسع عشر مرحلة فاصلة أفرزت التاريخ كعلم، ذلك أن الموجة الوضعانية التي ظهرت في القرن المذكور كان لها أثر في تصنيف العلوم الطبيعية والإنسانية وفق قواعد مبنية على الملاحظة والتجريب. ولعل الدينامية التي ميزت القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي والمتسمة بظهور الفكر التنويري قد أعطت إمكانيات كبيرة لفكرة تقدم العلوم وتحررها من مساحة التفكير الديني والفلسفي غبر سلسلة من المحطات المعرفية أبرزها الصالونات الأدبية والأكاديميات، يقول محمد حبيدة عنها: "برزت الصالونات الفلسفية والأدبية بصورة خاصة في باريس وهي ملتقيات فكرية كانت تقام في البيوتات الكبرى أو في الفنادق وحتى في المقاهي ويحضرها فلاسفة وأدباء وشعراء وفنانون لمناقشة القضايا الفكرية والسياسية بمنطق نقدي لاذع حيال تسلط الكنيسة واستبداد السلطة [...] أما الأكاديميات فقد لعبت دورًا كبيرًا من الناحية المعرفية بفضل مساهمتها الكبيرة في الخلق والإبداع".[٢]

لقد مكنت الحيوية الأدبية والفكرية من انتقال العلم ومعه الفكر والعقل من التجريد إلى التجريب ومن الملاحظة الكيفية إلى الملاحظة الكمية، وهذا الانتقال هو ما قامت عليه قواعد البحث العلمي ويسرت التوصل إلى نتائج مرضية مهدت لفرضيات ومناهج مقبولة عقليا على المستوى الطبيعي والإنساني ومنه حصل التفكك والفراق بين الفلسفة وأفكارها وبين باقي العلوم الطبيعية، وهو فراق أسهم في بناء تطوري منتظم لقواعد مضبوطة للعلم عبر مباحث تخصصية تهتم بالتفاصيل الدقيقة مع مراجعة للنظريات السائدة والاشتغال على التراكمات الحاصلة مما كان له أثر في بروز نخبة علمية كان لها سلطة علمية ومعرفية أسهمت في تحول المنهج العلمي من تحصيل المعرفة إلى إنتاجها بالبحث التجريبي والابتكار بواسطة المؤسسات العلمية كالجامعات والمؤسسات العلمية المتخصصة.

كان من نتائج هذه الدينامية تحرر التاريخ من التصور الديني اللاهوتي الموروث عن القرون الوسطى فصار يفهم فهما واقعيا ضمن رؤية قائمة على الأخذ بعين الاعتبار إرادة البشر في حركة التاريخ والتخلي عن تاريخ الرسل والقديسين وكتابته بروح ومنطق العقل المادي البشري مع الابتعاد عن المطارحات النظرية والانفلات من قالب الفلسفة إلى تاريخ منهجي يهتم بتحليل تقدم

البشرية انطلاقا من الوثائق واعتمادا على الفحص والنقد والتحليل.

ترتب عن هذا الحس النقدي نشأة البحث التاريخي القائم على قواعد المنهج العلمي متجاوزا بذلك المفاهيم الكلاسيكية "كالتاريخ الأخلاقي" و"العصر الذهبي" و"التاريخ الديني"، وبرز في خضم ذلك عدد من المؤرخين الذين رسموا معالم المنهج التاريخي التي سار عليها باقي المؤرخين منهم "ليوبولد رانكه" الذي ضبط قواعد المنهج التاريخي وفق تصور وضعاني قائم على خمس قواعد عرضها المؤلف على الآتي:

- التحقق من الوثائق وتحليلها ونقدها.
- التحقق من الأحداث وعرضها بطريقة كرونولوجية.
- اجتناب الحكم على الماضي والاقتصار على وصف الواقعة التاريخية كما هي.
- نفي العلاقة بين الذات العارفة أي المؤرخ من جهة وموضوع المعرفة أي الواقعة التاريخية من جهة ثانية.
- التاريخ موجود لذاته موضوعيا وفهمه ميسر بصفة موضوعية وحيادية انطلاقا من وثائق كافية لبناء سرد بعيد عن كل تأويل ومن دون إصدار أحكام أو استخلاص عبر.[٣]

لقد أسهم باقي المؤرخون الذين أتوا بعد رانكه في حصول تراكم منهجي خاصة في فرنسا التي عمل مؤرخوها بعد ثورة ١٧٨٩م الانكباب على جمع الوثائق وتأميمها وترتيبها وتأسيس أرشيفات ومدارس تعنى بها "كالوثائق الوطنية الفرنسية" و"المدرسة الوطنية للوثائق"، ورافق هذا الحس الوثائقي انفتاح كبير على المنهج الذي وضعه رانكه مما كان له كبير الأثر على المدرسة الوضعانية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، التي استطاعت أن تصل إلى أوجها من خلال "المجلة التاريخية" التي أنشاها "غبريال مونو" وكتاب "مدخل للدراسات التاريخية "لمؤلفيه "فيكتور لونغلوا" و"شارل سينيوبوس"، حيث جسّد هاذين العملين في الواقع الأمر التأثير القوي للمدرسة الألمانية على المؤرخين الفرنسيين من خلال التركيز على الوثائق والاستناد إلى المصادر الأصلية المعاصرة للواقعة وإخضاعها للنقد والتأكد من مصداقيتها، فكان لهذا التوجه الفضل في تحصين التاريخ من المقالات والأعمال الأدبية الخارجة عن قواعد النقد والمنهج الصارم وفي مهنة التاريخ.

ولم تكن هذه الحركية المعرفية والصرامة المنهجية التي أبانت عنها المدرسة الوضعانية بمنأى عن المناقشات مع باقي العلوم الإنسانية الأخرى وخاصة علم الاجتماع الدوركايمي؛ حيث وجه رواد هذا العلم سهام النقد للطريقة التي حاول بها المؤرخون تشييد نظام معرفي يرقى إلى مستوى العلم، يقول المؤلف حول هذا النقاش بين المؤرخين وعلماء الاجتماع:" لقد عمل سيمياند على نقد الطريقة التي يحاول بها المؤرخون تشييد نظام معرفي يرقى إلى مستوى العلم وبين كيف أن الفرق بين التاريخ وعلم الاجتماع يكمن في عملية بلورة المعطيات ضمن نسق كلي وأسلوب معالجتها لتتشكل علما قائم الذات. انتقد ما أسماه بمعبودات قبيلة المؤرخين الثلاثة: المعبود السياسي الذي يحصر التاريخ في الأحداث السياسية والعسكرية والمعبود الفردي الذي يتصور التاريخ تاريخا للأفراد والمعبود الكرونولوجي الذي يتيه في البحث عن الأصول وتسلسل الأحداث، واقترح مقابل ذلك تاريخا إشكاليا تفسيريا اجتماعيا يبحث في الجماعات والظواهر الاجتماعية والمؤسسات وهذه المهمة لا يستطيع تحملها كما تنبأ بذلك في ختام مقالته إلا جيل جديد من المؤرخين".[٤]

إن التدافع الذي حصل بين التاريخ وعلم الاجتماع أسهم في إعادة صياغة تصور جديد لدى المؤرخين حول القضايا والاشكالات والمصادر وتوليد المفاهيم وصياغة نماذج تفسيرية تقوم على تجاوز المعطى والتوصيف وبلوغ مستوى التأويل والتفسير وفق جدلية الماضي والحاضر، ولعل المقالة التي قدمها "مارك بلوك" في مجلة التركيب التاريخي تحت عنوان "من أجل تاريخ مقارن للمجتمعات الأوربية" من الأعمال التي شيدت مقارنة ومقاربة جديدة في المنهج التاريخي وفي تناول الحدث التاريخي استجابة للتصور الذي طرحه علم الاجتماع لتجديد الكتابة التاريخية.

ورغم أن الأفكار التي طرحها "جول ميشلي" و"هنري بير" همت تجديد الكتابة التاريخية ومنهجها فإنها بقيت محدودة الاستجابة من لدن عموم المؤرخين، الذين مالت تصوراتهم نحو علم الاجتماع، والجغرافيا والواقع

الاجتماعي والاقتصادي. ذلك لأن "جول ميشلي" ركز في كتاباته على "الحس الأدبي الرومانسي الذي كتب به الماضي، كان يكتب التاريخ كأنه يجيب عن كلام لا يخلو من استفزاز [...] جل كتاباته تحفل بالصياغات الأدبية الرقيقة والصيغ البلاغية الجميلة والاستعارات البديعة".[٥] أما "هنري بير" فرغم مساهمته في تخصيب المقاربة التاريخية بالاهتمام "بالتركيب في فهم التاريخ وتجاوز التفاصيل والاجتهاد في توليد الأفكار لتفسير الماضي" إلا أن أفكاره بقيت حبيسة المطارحات النظرية والفلسفية وهي المسألة التي لم ترق المؤرخين الجدد "كلوسيان فيفر" و"مارك بلوك" اللذان عملا على تشييد صرح منهجي جديد يقوم على مقاربات اجتماعية واقتصادية كمية بنيوية في تفسير الحدث الماضي.

ثانيًا: تحولات الكتابة التاريخية: التجدد والانحباس

في خضم التناهج الذي ميّز الكتابة التاريخية ظهر التاريخ الاجتماعي الذي حمل لواءه المؤرخان "لوسيان فيفر" و"ومارك بلوك" اللذان نهلا من علم الاجتماع ومن معين الجغرافيا في كتابة التاريخ، إذ زاوجت مؤلفاتهما بين "الزمان والمكان والإنسان" قصد نقل التاريخ من "البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات" والانفتاح على أجناس مصدرية أخرى كالرواية الشفوية والطبونيميا والفولكلور، وقد ظهرت هذه الأفكار جلية في المجلة التي أنشأها تحت عنوان "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، والتي تعتبر منبرا معرفيا للمؤرخين المذكورين ومن سار في دربهما للصدح بالمنهج الذي عملا على تشييده والذي يقوم على التناهج المعرفي والمنهجي بين التاريخ وباقي العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

إن التلاقح الذي دعا إليه فيفر وبلوك أعطى انطلاقة قوية للمعرفة التاريخية التي اغتنت بمجموعة من المفاهيم والإشكاليات والقضايا ذات الصلة بالاقتصاد والمجتمع وبنياتهما، فانعكس ذلك على تصوراتهما للوثيقة ودورها في كتابة التاريخ. إذ حاول رواد هذا الاتجاه الجمع بين مرحلة التحليل والتركيب والاشتغال على المونوغرافية كبحث تفصيلي لاكتساب أدوات العمل والتنقيب والتحليل، مع الأخذ بالمنهج المقارن على مستوى الفهم والتفسير، وهو نقيض المنهج الذي سار عليه الوضعانيون.

في هذه المقاربة ظهرت الصرامة في تناول المواضيع ذات الصلة بالتنظيم الاجتماعي والتحول الاقتصادي، كما ظهر تأثير "كارل ماركس" في تحليل المستويات البنيوية والمعرفية وتأثير الانتروبولوجيا في تفسير القضايا الناشئة عنها.

لقد شكل السؤال وصياغة الفرضيات في مدرسة الحوليات بناءً عقليًا مساعدًا على فهم الوقائع والظواهر وتفسيرهما، ووعاء يجعل من التاريخ "عريقا وعميقا ويمكن من الجمع بين خيوط الفعل البشري ذات الصلة بالمجال والمجتمع والاقتصاد والفكر".[٦] وقد تجلى هذا المنهج في العمل الذي قام به فيفر عندما درس الأنساق الثقافية والتمثلات لمشكلة الإلحاد في القرن السادس عشر.[٧]

استطاع "فيرناند بروديل" توسيع مساحة تناهج التاريخ مع العلوم الاجتماعية المجاورة كالجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد، وابتكر تصورا جديدا يقوم على تعدد الأزمنة في فهم حركية التاريخ، وهو تصور يقوم على التدرج الزمني "من البنيات أو الزمن الطويل إلى الظرفيات أو الزمن الدوري إلى الأحداث أو الزمن القصير"،[٨] وقد ظهر هذا التصور جليا في أطروحته "الحوض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني"، يقول محمد حبيدة عن هذا البناء المنهجي الذي ابتكره بروديل: "لقد اعطى أهمية خاصة للزمن الطويل باعتباره مفهوما مركبا من شأنه أن يفتح أمام المؤرخ أفق فهم الواقع الاجتماعي والاقتصادي في شموليته ويمكنه من بناء تاريخ كلي. ومعلوم أن حيوية التناهج هذه التي أبان عنها بروديل بقوة قد تزامنت مع الموجة الفكرية لما بعد الحرب العالمية الثانية والتي تميزت بغلبة التحليل البنيوي".[٩]

شكل لهذا التصور الجديد للزمن مفهوما جديدا ومركزيا في الكتابة التاريخية، وهيمن على معظم كتابات الباحثين في حقل التاريخ وعلى نظام التفكير للواقع الاجتماعي، فانصب اهتمامهم على "التاريخ شبه الثابت الذي يتحرك ببطء التاريخ المتكرر".[١٠] ولم يقارب بروديل الزمن الطويل كمفهوم منفصل بل ربطه بمفهوم آخر هو "البنية" الذي تعد في نظره "تركيب وهندسة بل الأكثر من ذلك هي واقع ينهكه الزمن ويقوده على نحو بطيء جدا، إذ إن بعض البينات تصير بفعل صمودها زمنا

طويلا عناصر ثابتة على مدى أجيال فتثقل كاهل التاريخ وتعرقله وتتحكم بالتالي في مساره وترسم حدودا يعجز البشر بتجاربهم عن تجاوزها".[١١]

إلى جانب الزمن الطويل الذي بلوره بروديل، وضع مستوى ثان من الزمن والذي سماه "الزمن الدوري"، وهو زمن يهتم بالبنيات الاجتماعية وحركيتها، أي بين "الثابت والمتحول والبنية والظرفية والبطء والسرعة"، وفي هذه العميلة التي تجمع بين هذه المستويات الزمنية تظهر مسألة تكرر الدورات والأزمات ومدى إسهامهما في حدوث تحولات نوعية. يقول المؤلف حول هذه المسألة: "وفي عملية المزاوجة هذه بين البنيات والظرفيات أي بين الزمن الطويل والزمن الدوري بين الثابت والمتحول لابد من الإشارة إلى قضية رئيسية كون أن الدورات والأزمات إذا تكررت باستمرار ولم تسفر عن تحول نوعي تندرج في البنية وتصير مكونا أساسيا من مكوناتها".[١٢]

ويرتبط بالزمن الطويل والبنية الزمن القصير، إذ يرى بروديل أن هذا الزمن هو أكثر الأزمنة تقلبا لما يوليه للأحداث والشخصيات من أهمية قصوى، على أن هذا الزمن يفرق بين التاريخ الحدثي والتاريخ السياسي ويعتبر هذا الأخير ليس بالضرورة حدثيا، اعتبارا أن التاريخ السياسي يمكن أن يسهم في فهم التاريخ إذا ارتبط "بالآليات الاجتماعية للسلطة والعلاقة بين الدولة والمجتمع وتناول السياسة كشكل اجتماعي وثقافي وقارب المؤسسات السياسية مقاربة سوسيولوجية أو أنتروبولوجية وفطن بدور الأيديولوجيا في تكوين الحقل السياسي".[١٣]

لقد حاول جيل جديد من المؤرخي الحوليات تجديد الكتابة التاريخية بالانتقال من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والديمغرافي إلى التاريخ الرمزي والكيفي، مستخدمين في ذلك مفاهيم العلوم الاجتماعية وخاصة الأنتروبولوجيا، وقد كان من رواد هذا الاتجاه المؤرخ "جاك لوكوف". يقوم هذا الاتجاه الجديد على المزج بين "الفكر الاثنولوجي المتنبه لمستويات المجتمع الباردة من من عادات وسلوكيات وتمثلات والفكر الفلسفي المهتم بتاريخ الأنساق الفكرية وعلم النفس الاجتماعي"،[١٤] مستندًا في كل هذه المواضيع على أنواع مختلفة من المصادر والنصوص الكلاسيكية والأدبية والفنية.

أسهم هذا التفكير التاريخي الجديد في تعدد زوايا النظر والاهتمام لدى المؤرخ من تتبع البنيات المادية إلى مستوى العقليات والسلوكيات والمعتقدات والمخيال الجماعي والتصورات والطقوس، وفي بناء جسر فكري بين المكتوب والشفهي والطقوس والإشارات، كما منح هذا المفهوم الأنثروبولوجي نفسا قويا للزمن الطويل، بهيمنة الاستمرارية على أغلب أعمال المؤرخين واختفت التحولات والقطائع، بل إن هذا الانفتاح والتناهج الكبير الذي حدث لدى رواد هذا الاتجاه ولّد قلقا منهجيا عند باقي المؤرخين الذين رأوا فيه تنازلاً كبيرًا وخطرًا على الكتابة التاريخية ومناهجها في ظل انصهار التاريخ في العلوم الاجتماعية، ونادوا بالعودة للتاريخ السياسي الحداثي وعودة البيوغرافيا.

إن المنعطف النقدي الذي تعرضت له مدرسة الحوليات التاريخية بسبب الإفراط في التداخل مع العلوم الاجتماعية أدى إلى بروز استجابة قوية لفكرة إعادة الاعتبار للتاريخ كتخصص، والحد من التناهج، ظهر ذلك جليا في العدد الخاص الذي صدر سنة ١٩٨٩ من مجلة الحوليات تحت عنوان "التاريخ والعلوم الاجتماعية: منعطف نقدي"، إذ حرص المساهمون في "إعادة تحديد مشروع الحوليات ببلورة باراديغم جديد يقنن من جهة التداخل بين علوم الإنسان ويعيد تحديد طبيعة التحالف مع الاقتصاد والجغرافيا والاجتماع، ويتيح من جهة أخرى إمكانية الاشتغال حول الزمن القصير ويرجع إلى ساحة البحث التاريخي الفرد والسياسة اللذين قتلتهما بنيوية الخمسينات والستينات".[١٥]

لقد أحيا هذا المنعطف النقدي مسألة رد الاعتبار للمجتمع والسياسة والزمن القصير والفرد، مع توسيع الرؤية للواقع التاريخي بتعدد مستويات التحليل ومساهمة الفاعل الاجتماعي والسياسي في صنع الحدث والتحول في المجتمع، وهي الرغبة التي أثمرت مناخ جديد للبحث التاريخي الذي يأخذ بعين الاعتبار "المقاربة الفكرية ولا يغيب عنه العمل التجريبي المرتبط بالأرشيف".[١٦] وتعتبر المقالات التي نشرت في مجلة الحوليات عن هذا الاتجاه، خاصة مع "جاك روفيل" و"بيرنار لوبوتي" اللذان عملا على مراجعة مركبة للبحث التاريخي والمعرفة التاريخية، بل ومراجعة اسم مجلة الحوليات التي

عرض كتـــاب

أصبحت تحمل اسم "الحوليات: اقتصاديات، مجتمعات، حضارات".

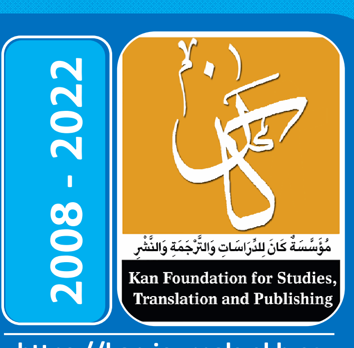
أتاحت ظرفية الانحباس المفاهيمي والابيستمولوجي عن عودة قوية للتاريخ السياسي، إذ عمل المؤرخون في فرنسا على وجه خاص الاشتغال على التاريخ السياسي والميل أكثر إلى العلوم السياسية أكثر من ميلهم إلى العلوم الاجتماعية، وقد نتج عن ذلك تحرر المؤرخون المختصون في التاريخ المعاصر من الحصار المنهجي الذي كان مضروبا على التاريخ السياسي، وجددوا أسلوب عملهم بقيادة "روني ريموند" الذي وضع خارطة البحث في هذا المستوى تقوم على "الاحتكاك بالعلوم الاجتماعية وتناول الظواهر السياسية في عمقها الزمني والرجوع في استيعاب التجارب الراهنة إلى الثورة الفرنسية وما لحقها من تطورات والتركيز على دور الجماهير في سير المجريات السياسية".[١٧]

أعاد هؤلاء المؤرخون التاريخ السياسي لواجهة البحث التاريخي لكن بمقاربات وتصورات جديدة، إذ حاولوا تناول إشكاليات تمزج بين السياسة والثقافة والانتخابات ووسائل الإعلام وصناعة الرأي العام وانهيار جدار برلين والحركات الثورية، وهي قضايا تجاوزت التصور الوصفي والكرونولوجي التقليدي الذي وضعه رانكه إلى التاريخ المهتم بالجماهير الناخبة وسلوكياتها وخلفياتها العرقية والدينية. لقد أسهم التطور الحاصل في مناهج البحث التاريخي انطلاقاً من رانكه وصولاً إلى عودة الحدث السياسي في تجديد وتخصيب الكتابة التاريخية وفي تعدد الرؤى والتصورات النظرية والتأويلية للمقاربات التاريخية. على أن كتابة التاريخ لاتزال مستمرة على النحو الذي نلمسه في مجموع الكتابات التي يعبر فيها أصحابها عن رغبة أكيدة في تحديث العلوم الاجتماعية، بابتكار أشكال جديدة من ممارسة المناهج فيما يعرف بـ "ما بعد الحداثة".

ختم المؤلف كتابه بمجموعة من النصوص بلغت أربعين نصًا تهم معطيات مختلف عن المدارس الأوربية ومناهجها ونظرياتها منها على سبيل المثال "المنهج السوسيولوجي" لدوركايم و"سؤال الوثيقة" لمارك بلوك و"التاريخ الوثائقي: نشأة الوثيقة" لباتريك غارسيا و"التاريخ والعلوم الاجتماعية: التاريخ والسوسيولوجيا" لدوركايم و"ميدان التاريخ: تاريخ المجال" لفرناند بروديل.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية برلين السوربون استراسبورغ من المنهج إلى التناهج**، دار الأمان، الرباط -المغرب، ٢٠١٨.
(٢) حبيدة، **المدارس التاريخية**، م.س، ص ٢١-٢٢.
(٣) نفس المرجع، ص٣٥.
(٤) نفسه، ص ٥٥-٥٦.
(٥) نفسه، ص ٦٨.
(٦) نفسه، ص ٨٥.
(٧) نفسه، ص ٨٦.
(٨) نفسه، ص ٨٩.
(٩) نفسه، ص ٩٠.
(١٠) نفسه، ص ٩٢.
(١١) نفسه، ص ٩٣.
(١٢) نفسه، ص ٩٦.
(١٣) نفسه، ص ٩٧.
(١٤) نفسه، ص ١٠٤.
(١٥) نفسه، ص ١١٥.
(١٦) نفسه، ص ١١٩.
(١٧) نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan